ندوة

تاريخ الطباعة العربية
حتى انتهاء القرن التاسع عشر

٢٨ ـ ٢٩ جمادى الأولى ١٤١٦هـ
٢٢ ـ ٢٣ اكتوبر / تشرين الأول ١٩٩٥م

مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث ـ دبي
المجمع الثقافي ـ أبوظبي

[الوقائع والبحوث التي ألقيت فيها]

ندوة تاريخ الطباعة العربية حتى القرن التاسع عشر
ندوة

مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث - دبي
إهداء
GIFT
Juma Al Majid Centre for Culture and Heritage - Dubai

ندوة

تاريخ الطباعة العربية
حتى انتهاء القرن التاسع عشر

٢٨ ـ ٢٩ جمادى الأولى ١٤١٦هـ
٢٢ ـ ٢٣ اكتوبر / تشرين الأول ١٩٩٥م

[الوقائع والبحوث التي ألقيت فيها]

الطبعة الأولى

1996

منشورات المجمع الثقافي
Cultural Foundation Publications

ص. ب ٢٣٨٠ ـ ابوظبي ـ الإمارات العربية المتحدة ـ هاتف : ٢١٥٣٠٠
P.O. BOX : 2380 - ABU DHABI - U . A . E . - TEL. 215300 - CULTURAL FOUNDATION

بسم الله الرحمن الرحيم

١. المقدمـــة

للكتاب العربي قصة طويلة، وتاريخ حافل.. قصة شغلت الناس.. وتاريخ ملأ الدنيا.

بدأ ذلك التاريخ بنزوله من السماء يحمل الهدى.. ثم بانتشاره في آفاق الأرض بين شعوب كثيرة، أخذ أفرادها يتعلمون منه مالم يكونوا يعلمون.

ولما اتصلت الحضارة العربية الإسلامية بالحضارات التي كانت توشك على الأفول استفادت من علومها، ونقلت كتبها إلى لغتها.. ثم درستها وزادت عليها جديداً مبتكراً... وألّفت في هذا الجديد أسفاراً عزت على الحصر، تلقفتها الأيدي في الشرق والغرب.ومع ازدهار العلم قامت أسواق الكتب في الحواضر الإسلامية، وغصت بالوراقين والدلالين وباعة الورق وأدوات الكتابة.. ولم تكن هذه الأمكنة للتجارة فقط، بل عقدت فيها ندوات جمعت الأدباء والعلماء والطلاب ومحبي الكتب... فكان للكتاب شأن أي شأن. ومن أراد أن يعرف عن هذه الأسواق شيئاً فليطالع مصنفات الأدب وموسوعات الأخبار، فإن بين سطورها طرائف ونتفاً، تحتاج إلى من يجمعها ليتألف منها كتاب كبير يصور جوها العام ويصفها ويخرج بنتائج عظيمة.

وتفنن العرب المسلمون بنسخ الكتب، وأبدعوا في الخط، وابتكروا أنواعاً رائعة منه حتى كانت المخطوطات آيات فنية لا مزيد عليها في الإتقان.

إلا أن الكتاب المخطوط بقي عزيز المنال لا يحصل عليه طالب العلم الفقير إلا في

النادر فظل كثيرون من أهل العلم محرومين من الكتب الضرورية لهم... حتى جاء عصر الطباعة فأحدث ثورة في عالم الثقافة.

ابتكر الصينيون الطباعة بقوالب الخشب في القرن السادس الميلادي، ولكنها لم تنتشر عنهم قبل القرن العاشر حين قلدهم فيها شعوب كثيرة. أما أوربا فقد ابتكرت الحروف المعدنية المتحركة في القرن الخامس عشر. وقيل : إن مخترعها جوهان غوتنبرغ على الأغلب، وهو الذي طبع كتاب المزامير سنة ١٤٥٧م.

وقد تمهل العرب المسلمون قليلاً في الأخذ بهذا الاكتشاف لأسباب أشار إليها الباحثون وشققوا فيها الحديث... لكن المدهش أن الكتب العربية طبعت ابتداء في أوربا، وظهر أول كتاب عربي في مدينة فانو بإيطاليا طبع فيها سنة ١٥١٤م، ثم أخذت المدن الأوربية تتنافس في طبع نفائس الكتب العربية لغايات شتى من أهمها تلبيه حاجات المستشرقين والمنصرين وخدمة أغراض الاستعمار وأول كتاب عربي ظهر في البلاد الإسلامية هو التوراة ؛ طبعت في الآستانة سنة ١٥٥١ بترجمة رجل يدعى سعيد الفيومي.

على أن أقدم مطابع البلاد العربية المطبعة التي أنشئت في دير مارقزحيا بلبنان سنة ١٥٨٥م. ولم تكن هذه بالمطبعة النشطة. وقد قامت لأغراض دينية تماماً، هي وكثير من المطابع التي تلتها في لبنان. ويمكن أن نعدّ مثلها مطبعة حلب التي أنشئت سنة ١٧٠٦م.

وأول مطبعة ذات شأن هي التي أدخلها معه نابليون في حملته على مصر سنة ١٧٩٨م فقد أحدثت تغييراً جوهرياً وأثرت في الوضع الثقافي آنذاك، فأخذت الطباعة منذ ذلك الوقت تنتشر في مختلف البلاد العربية، وإن ظهرت مطابع تركيا قبلها منذ سنة ١٧٢٣م.

إن للطباعة بالحرف العربي في كل بلد ملابسات تقتضي المعالجة وظروفاً تتطلب البيان.. ومن أجل ذلك عقد مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بالتعاون مع المجمع الثقافي بأبوظبي «ندوة تاريخ الطباعة العربية حتى انتهاء القرن التاسع عشر

الميلادي» التي أقيمت يومي ٢٨ و٢٩ جمادى الأولى ١٤١٦هـ الموافق ٢٢ و٢٣ أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٩٥م في مبنى بلدية دبي تحت رعاية سمو الشيخ مكتوم ابن راشد آل مكتوم نائب رئيس الدولة رئيس مجلس الوزراء حاكم دبي. شارك فيها باحثون يشتغلون بالكتاب العربي في أمريكا وهولندا ومصر وتونس وسورية والسعودية والهند وإيران وروسيا. كما حضرها مشاركون من عدد من البلدان العربية والصديقة مثلوا مؤسسات ثقافية مهتمة بالموضوع. غطت بحوث الندوة تاريخ الطباعة العربية في الزمن المشار إليه ضمن بلدان العالم التي عرفت هذه الصناعة الثقافية النبيلة. وقدم بعضهم قوائم ببليوغرافية بالمطبوعات العربية في البلدان التي تناولوها ضمن التاريخ المذكور. ولأهمية الأبحاث المطروحة التي لقيت صدى طيباً أقرت لجنة التوصيات المنبثقة عن الندوة ضرورة نشرها في كتاب جامع فكان هذا الكتاب.

سبق الندوة معرض أوائل المطبوعات العربية المتوافرة في المركز افتتحه سمو الشيخ حشر المكتوم مساء يوم الأربعاء الواقع في ٢٤ جمادى الأولى ١٤١٦هـ الموافق ١٨ أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٩٥م واستمر حتى نهاية الندوة.

لقد كانت هذه الندوة والمعرض المصاحب لها من الأنشطة الثقافية الناجحة التي استقطبت اهتمام المثقفين واهتمام أجهزة الإعلام وأسفرت عن نتائج إيجابية.

ولا يمكن هنا أن نغفل أثر التعاون البناء المثمر بين المركز والمجمع الثقافي في إنجاح الندوة والمعرض وقد تجلى ذلك منذ الخطوات الأولى التحضيرية حتى المحطات الأخيرة.. إن ذلك يعد تجربة ناجحة في مجال التعاون الثقافي. ولذا فيجب الوقوف عندها والثناء على من خطط لها أو قدم اقتراحاً نافعاً أو رأياً مفيداً.

حفـــل
الافتتــاح

كلمة الأستاذ عبد العزيز إسماعيل

سمو الشيخ حشر آل مكتوم مدير وزارة الإعلام بدبي

نائباً عن صاحب السمو الشيخ مكتوم بن راشد آل مكتوم

نائب رئيس الدولة - رئيس مجلس الوزراء، حاكم دبي

وراعي هذا الحفل . . .

أصحاب المعالي الوزراء

أصحاب السعادة سفراء وقناصل الدول الشقيقة والصديقة

ضيوفنا الأكارم. أيها السيدات والسادة

باسم مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بدبي، وباسم المجمع الثقافي بأبوظبي، أحييكم، وأرحب بكم، وأشكركم على استجابتكم الكريمة لحضور هذه الندوة، ندوة تاريخ الطباعة العربية حتى انتهاء القرن التاسع عشر ...

كما، وباسمكم جميعاً، أتقدم بالشكر الجزيل للسادة علماء الأمة ومفكريها الذين استجابوا مشكورين لدعوتنا هذه، وتجشموا عناء السفر لإثراء هذه الندوة وإغنائها بعلمهم وتجاربهم وآرائهم القيمة.

إن اجتماعنا اليوم، بكل المقاييس، ليس اجتماعاً عادياً، ولا نريده كذلك... وليس رقما جديداً يضاف إلى هذا الكم الهائل من المؤتمرات والندوات التي اتخمت بها رفوف مكتباتنا وأرشيفات مكاتبنا، وإننا - وبكل أصرار - نرفض له أن يكون كذلك.

من حيث الموضوع، فان موضوع هذه الندوة يعدّ سابقة في تاريخ الندوات والمؤتمرات، بما فيه من جدّة الطرح والمعالجة والاهتمام الكبير الذي أولاه القائمون

عليه، ومن حيث المشاركون في محاور هذه الندوة فإنهم صفوة مفكري هذه الأمة وعلمائها ... الأمر الذي يجعل انعقاد هذه الندوة، وبهذه الصورة، تحدياً كبيراً للقائمين بها والمشاركين فيها والمستفيدين منها.

إنها رحلة مع العربي منذ عرف طريقه إلى المطابع حتى نهاية القرن التاسع عشر... ولكننا لا نريدها رحلة محايدة استعراضية، بل نريدها رحلة اقتحامية استكشافية، من شأنها أن تنفض الغبار عن كتبنا وتراثنا، لا بأسلوب المسح والتلميع، بل بأسلوب الفحص والدراسة والتدقيق.

إن أولى مهمات هذه الندوة أن تعيد النبض والحياة إلى هذا الكم الهائل من تراثنا الفكري، وأن تنزل هذه الكتب من رفوف المكاتب إلى صدور الناس وعقولهم وفكرهم ووجداناتهم... وأن تحولها من مجرد كونها مراجع يتعاطاها الباحثون والمتخصصون في مناسبات معينة إلى غذاء فكري يومي يعيشه الناس ويتواصلون من خلاله في عملية تجسير تاريخية حضارية ، تصل الماضي بالحاضر ، وتمتد بهما إلى المستقبل الذي أوشكت ملامحه أن تضيع منا.

أمهات الكتب هذه ... مهم جداً لنا، مفيد جداً لنا، أن نعرف عنها وعن مراحل نمائها الشيء الكثير... ولكن الأهم من هذا كله أن تجعلنا ندوتكم هذه نتعلم كيف نتعاطاها ، ونتعامل معها ، نحترف قراءتها .

المطلوب من محاور ندوتكم هذه أن تتجاوز مجرد السرد التاريخي والاستعراض الثقافي إلى التحقيق التاريخي والتأسيس الثقافي ...

ومطلوب منها أن تُنزل الكتاب العربي من برجه العاجي، وأن تتقدم بدراسات ومقترحات بناءة من شأنها تبسيط الكتاب العربي من حيث الطباعة والحجم والتكلفة.. وأهم من هذا كله من حيث المضمون. وإذ أقول المضمون فإنني لاأعني أن نتلاعب به، بل أعني إزالة التلاعب عنه، وذلك لا يتم إلا باحتضانه من قبل علماء أكاديميين مثلكم، قادرين بما أوتوا من علم وسعة إطلاع وحصافة أن يميزوا الخبيث من الطيب، ومؤهلين بحكم تجاربهم وخبرتهم للقيام بعملية فرز تاريخية،

من شأنها أن تنبش عن الحقائق الأساسية وأن تكتشف العلاقات المضيئة في تاريخنا، وأن تضعها في متناول الناس بشكل علمي عصري مبسط لعل الناس بعد ذلك يستطيعون أن يتفقوا على شيء ما بشأن هذا التاريخ.. فنحن أناس قد فاتنا أن نتفق على أي شيء منذ السقيفة حتى أوسلو.

تاريخنا هذا الذي نقرؤه هو تاريخ كتبته الأنظمة الحاكمة عبر تسلطها، وكتبته الأحزاب السياسة عبر صراعها ، بعضها مع بعض، وكتبته الفرق والطوائف عبر تخبطها وتيهها، وكتبته الأطماع الداخلية والخارجية عبر جشعها واستغلالها.. ومن أجل هذا ضاعت منا ملامح هذا التاريخ الأصيلة، وغابت عنا حقائقه الكبيرة الجامعة، وأصبحنا فرقاً، كل فرقة تقرأ ما كتب لها، وتقتات منه.

أيها السيدات والسادة،

أتراني أكون خارجا عن موضوع هذه الندوة لو أنني طالبتها بأن تتصدى لهذا العمل الحضاري الكبير، وأعني به إعادة كتابة التاريخ العربي والإسلامي بصورته الحقيقية وبحقائقه الأساسية الكبيرة التي لا تحتمل الاختلاف حولها حتى يتسنى لجيلنا هذا ولأجيالنا القادمة أن تجتمع على صعيد واحد بعد أن تفرقت بنا السبل ... لا لست أظنني أخرج عن موضوع الندوة لو طالبتكم بهذا، بل أعدّ نفسي أتكلم في صلب الموضوع تماماً، لأن مَن أهداف مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث الاهتمام بالتراث العربي والإسلامي وتيسير السبل لدراسته وتحقيقه، وكذلك إبراز الفكر الأصيل المبدع، ولن يتسنى لنا تحقيق ذلك إلا إذا أخذنا على عاتقنا مسؤولية هذا العمل الصعب، وجعلنا من هذه الندوة بداية وخطوة أولى في رحلة ألف الميل.

يقولون لنا وهم يظنون أنهم قد أوتوا جوامع الكلم والحكمة : ولكن ما هو البديل عن مهرجانات العرس في أوسلو وعن مواكب الفرح في المكتب البيضاوي. ونقول لهم، وبصوت يكاد يضيع في ضجيج الزفة : هذا هو البديل، ونشير إليكم وإلى الكثيرين من أمثالكم الذين يزخر بهم وجدان هذه الأمة والذين يشكلون الوعد المشرق للغد الآتي

سيداتي سادتي

وتبقى للتاريخ كلمة.. رجل يسكنه حب الوطن، ويتلبسه هم الناس. آتاه الله مالاً فما ضن وما بخل، بل وضعه في خدمة الناس والعلم. عيناه ليستا معلقتين بشاشات الكمبيوتر، تترصد الأسهم والنقاط إن ارتفعت أو هبطت. لكن قلبه معلق وإلى درجة الغرام بكتاب من التراث يسمع عنه في مكتبة ما، أو بمخطوطه أثرية نادرة في جهة ما، فتراه لا يرتاح ولا يهدأ حتى يحصل على الكتاب، أو يقتني المخطوطة. رجل مؤسس من النوع الحضاري، افتتح الكليات والمراكز الثقافية، وبعث البعوث العلمية. دافعه حب الوطن والناس والخدمة العامة.

ذات غد، عندما يكتب تاريخ الرواد في وطننا العربي وفي الإمارات العربية المتحدة سيكون اسم جمعة الماجد على رأس القائمة. تحية له.

والسلام عليكم.

كلمة السيد جمعة الماجد رئيس المركز

أصحاب المعالي

أصحاب السعادة

ضيوفنا الأعزاء

أيها الحفل الكريم

يسعدني في مفتتح هذه الندوة الطيبة أن أتقدم بالشكر الجزيل لصاحب السمو الشيخ مكتوم بن راشد آل مكتوم نائب رئيس الدولة رئيس مجلس الوزراء حاكم دبي على تكرمه بالرعاية الحميدة التي شمل بها ندوة «تاريخ الطباعة العربية» والمعرض المصاحب لها .. وهي لفتة كريمة تشير إلى حبّه للعلم وتشجيعه للثقافة ورعايته لكل نشاط يفيد في خدمة هذا الوطن الطّيب.

وليست رعايته هذه أول رعاية للمركز ، بل سبقها مأثرة ذات معنى أعظم ونفع أكبر، حين تفضل فأهدى لهذا المركز قطعة أرض واسعة في منطقة حيوية من دبي، ليشيد عليها بناء مقره الدائم الذي يليق بمكانة العلم والثقافة، في دولة تؤمن بربها وبقيم دينها ، وتفخر بحضارة أمتها.

ولا يسعني في هذا المقام أيضاً إلا أن أرفع كبير تقديري للقائمين على دولة الإمارات العربية المتحدة وعلى رأسهم صاحب السمو الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان رئيس الدولة، الذي منح العلم والثقافة اهتمامه الكبير وعايته السامية لإيمانه بأن ذلك من أسباب التقدم والنهضة.. وفقه الله وسدّد خطاه وأدام نفعه.

يسرني أيها الحضور الكريم أن أرى وجوهاً نضرة هي وجوه أهل العلم، جاءت من بلدان متعددة، تحمل معها خلاصة أفكارها، وتقدم ثمرة التعب التي قطفتها من

طول مصاحبتها للكتب والأوراق.

إنني أرحب بأهل العلم هؤلاء من محاضرين ومشاركين ومستمعين، وأشكر لهم على كل ما يقدمونه لهذه الندوة التي جمعتهم جمعاً حميداً على مائدة هي خير الموائد. جاؤوا ليعالجوا موضوعاً مهماً، رأى المركز أن يطرحه لمناقشة أصحاب الخبرة، ألا وهو : «تاريخ الطباعة بالحرف العربي».. ذلك التاريخ بدأ في أوربا بظهور المطبعة التي ما لبثت أن دخلت مختلف البلدان مؤذنة بنشر أسفار العلم بين أيدي الناس وبذله للصغير والكبير، بعد أن كان الكتاب المخطوط لا يتيسر إلا لجماعة معينة.

والمركز إذ يدعو إلى هذه الندوة – وهو أحد الجهات المهتمة بنشر الكتب النافعة – فإنه يشير بالمناسبة إلى قضية يجب ألا تغيب عن البال، وهي أنّ في الأسواق اليوم كتباً لا تحمل ثقافة راقية، ولا يرضى عنها العلماء. ، أو هي كتب أُخرجت إخراجاً سيئاً من غير تحقيق منهجي أو تدقيق علمي. في حين كانت كتب كثيرة في بدايات الطباعة تخرج على نحو متقن مع ضعف الآلات وقصور الصنعة.

ولئن أثار المركز اليوم موضوع هذه الندوة، فإن لديه كثيراً من الموضوعات الأخرى التي تستحق المناقشة والعرض والدراسة ، منها على سبيل المثال مسألة : «الرحالة الأجانب إلى الخليج العربي» التي دعا لعقد ندوة حولها في أبريل القادم. تليها سلسلة من الأنشطة الثقافية المتنوعة إن شاء الله ، سيأتي إليها أهلها من داخل الإمارات وخارجها.

لا يقوم المركز بهذه الأنشطة وحده، وإنما يريد دوماً أن يتعاون فيها التعاون المخلص مع أرباب الثقافة أفراداً كانوا أم مؤسسات. ومن أجل ذلك التقت تطلعاتنا مع جهود المثقفين في الإمارات لدفع حركة الثقافة فيها وتوسيع التنمية الاجتماعية، ومن أجل ذلك أيضاً التقينا مع الجهات الثقافية في هذا الوطن ورحبنا بأية أفكار بناءة، فاجتمعت طموحاتنا مع طموحات المجمع الثقافي في أبوظبي، فاشتد أزر بعضنا ببعض.. وقدم المجمع إمكاناته وجهده من أجل إنجاح هذه الندوة

والمعرض المصاحب لها، فبارك الله به من مؤسسة ثقافية عريقة وبارك بالقائمين عليه.

وإنه من الضروري هنا أن نشير إلى جهود بلدية دبي، وأن نشكر لها الشكر العميم لما قدمته من مساعدات متنوعة منذ بداية التخطيط للندوة ، ثم توجت تلك المساعدات باحتضانها لفعالياتها في هذا البناء الفخم.

ولا يفوتني أخيراً أن أشكر رؤساء الجلسات الذين بادروا يدفعهم الحب يريدون إنجاح محاور الندوة وإبرازها...

أشكر لهم ولكم أيها الحضور، ولكل من ساعد بعمل، أو شارك باقتراح.

﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾ .

كلمة الشيخة الدكتورة سعاد الصباح

أيها الأحباء ... يا أصدقاء الكلمة ... ويا أصدقاء الفكر ...

يُسعدني أن أقف بينكم اليوم في هذا الجمع الثقافي الذي تُوحّده الرغبة الصادقة في إحراز المزيد من العلم والمزيد من المعرفة بجانبٍ مؤثرٍ من جوانب تقدم الحياة العربية. لقد كانت حياتنا الثقافية وسُبل التخاطب وأدوات حفظ الأعمال شأناً آخر غير الذي عرفناه بعد أن حمل نابليون بونابرت تلك المطبعة الحديدية معه إلى مصر. لقد تعرّف العرب إلى الآلة العجيبة التي تُعيد طباعة الأوراق بما حملت من نتاج الفكر، بعد ما كانوا يعانون من عملية النسخ اليدوي الشاقة التي كانت تحدُّ من انتشار المعارف وتجعل الثقافة حكراً على من استطاع إليها سبيلاً. إن طباعة الحرف قد عجّلت بحركة التقدم الفكري والأدبي والعلمي في الغرب. وكان حسناً انتقال هذه التقنية إلينا، لأننا كنا ولا نزال في أمس الحاجة إلى أدوات نشر الثقافة عموماً وفي مختلف ميادينها.

وهذا المعرض المؤتمر شاهدٌ على مدى ما تعنيه حركة الطباعة من أهميّةٍ بالنسبة لتاريخنا المعاصر. يجيء هذا المعرض، وبمبادرةٍ نبيلةٍ من مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، ليلقي الضوء على تطور حركة الطباعة والنشر في عالمنا العربي خلال مائتي العام المنصرمتين، ولتشهد على ما حقّقه العمل الطباعي من عظيم الأثر في حفاظه على التراث وتسهيل الاطلاع والحصول عليه. وما هذه النماذج الرائعة لقديم العمل المطبوع سوى الإشارة لما يُمكن للجهد الإنساني أن يحققه بفعل حماسة هذا المركز وحيوية صاحبه الأديب البحاثة الشيخ جمعة الماجد. كذلك فإن هذا الملتقى يشهد لفعالية المال العربي حين ينفق في السبيل القويم، ويكون

الاختيار لخدمة الأغراض الكبرى للإنسان العربي. وإنني أستذكرُ في هذه اللحظات ملوحة الأرض الثقافية العربية عندما بدأنا ، زوجي الراحل الشيخ عبد الله المبارك الصباح وأنا – قبل ثماني سنوات – برنامجنا الثقافي لفتح آفاق العطاء للمبدعين من أبناء أمتنا العربية عبرَ جوائز الإبداع العربي في العلوم والفنون والآداب للشباب. ولهذا فإن سعادتي وأنا أقترب من مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث كبيرةٌ كبيرةٌ، لأنها تؤشِّر إلى ضرورة التواصل والتعاون بين المؤسسات الثقافية العربية الخاصة التي تنأى بمشاريعها عن الصراعات والخلافات المحطمة لكلّ عملٍ وجهدٍ. إن ضرورات الحياة تفرض على مؤسساتنا العمل المشترك وبأكبر قدر من التنسيق لضمان استمرار فعلِها ودورِها الإيجابي في خدمة الإنسان والثقافة في الوطن العربي.

لقد أدى استخدام الآلة الطباعية إلى تعريف العالم بعطاء الفكر العربي على مدى العصور وأسهم ذلك في إثراء مجرى العلوم والآداب العالمية وإنني أتطلع إلى دورٍ ريادي مدروسٍ، وأدعو إلى عقد ملتقىً ثقافي تتم من خلاله دراسة سُبل التعاون لتنسيق خُطط مؤسسات العمل الثقافي الخاص وطموحاتها وأدوارها ، تلك المؤسسات التي نَذَرَ أصحابُها أنفسهم للواجب القومي الكبير الذي يحملون، وفي طليعتهم صاحب دعوتنا وملتقانا العم الفاضل الشيخ جمعة الماجد.

ذلك أن الثقافة هي الجسر القومي الوحيد الذي نستطيع أن نَنْأى به عن التبعية وعن الصراعات الضيقة وعن البشاعة. إن الثقافة هي الدِرعُ الذي يُمكننا بناؤُه لحماية العقل العربي من التشنج ولحماية الطاقات العربية من الهدر، حتى تتمكن أمتنا من اللحاق بموكب العصر والاستقرار في مكانها تحت الشمس؛ لأنه من غير الثقافة المنزّهة عن كل غرضٍ آخر سوى خدمة الإنسان والوطن سوف نبقى مهرولين وراء المطالب الدنيا، عاجزين عن تغيير وجه التاريخ. هذا التاريخ الذي يصنعه الأحرار بالعقل الحر وبالإرادة الحرة.

باسمي وباسم ضيوف هذا الملتقى الثقافي أحيي البادرة العلمية هذه، وأدعو إلى اعتبارها بذرة في أرض طيبة، تنشد العلم، وتسعى إلى توسيع آفاقه وتعميق التزام

الفرد بالعمل من أجل حركة ثقافية عربية ذات حيوية عالية. لصاحب هذا الملتقى ولجميع الإخوة والأخوات الذين عملوا لإنجاز ما نرى من جليل الجهد ولكم جميعاً عظيم التقدير والاحترام والإكبار والشكر الكريم.

ولأهلنا في دولة الإمارات العربية مزيد من التقدم والازدهار تحت راية شيخنا الجليل الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان.

ذاكرة العالم صون التراث الوثائقي

الأستاذ عبد العزيز عبيد

عبد العزيز عبيد
(تونس)
قسم البرنامج العام للمعلومات - اليونسكو

- ماجستير في علم المكتبات والمعلومات من جامعة مونتريال

الوظائف

- أمين عام للمكتبة الوطنية بتونس.
- خبير ومنسق مشاريع في مدرسة علوم المكتبات والمعلومات بالرباط (تابعة لليونسكو).
- خبير في المركز الرئيسي باليونسكو على برنامج «ذاكرة العالم» وعلى المشاريع المتعلقة بالمكتبات.

من نتاجه

- بحوث ودراسات في عدد من المؤتمرات.
- مقالات عن تطوير المكتبات والعلوم المتعلقة بها.
- مقالات عن أنظمة إدخال المعلومات.

تتسم الذاكرة الجماعية لشعوب العالم بأهمية حيوية في صون الذاتيات الثقافية وفي إقامة جسور بين الماضي والحاضر وفي صوغ المستقبل . ويشكل التراث من الوثائق الكامنة في دور المكتبات والمحفوظات جزءاً أساسيًا من هذه الذاكرة ، ويعكس اختلافات الشعوب ولغاتها وثقافاتها ، ولكن هذه الذاكرة هشة يتهددها الطمس .

فثمة جزء ضخم من التراث الوثائقي في العالم يندثر لأسباب طبيعية كحموضة الأوراق التي تحيلها إلى فتات ، وتأثر الجلود والرق والأفلام والشرائط الممغنطة التي تتعرض لوطأة الحرارة أو الضوء أو الرطوبة أو الغبار . فالسينما مثلاً يتهددها خطر فقدان أعمالها التي جعلت منها فن هذا القرن ، بينما نستعد على وجه التحديد للاحتفال بعيدها المئوي . وآلاف الكيلومترات من أشرطة الأفلام يمكن أن تمحي ، ما لم نهب بأسرع ما يمكن إلى ترميمها وصونها ؛ فقد أسفرت الحرائق بسبب النترات في فرنسا والمكسيك مثلاً عن خسائر كبيرة . كذلك تلحق الكوارث الطبيعية خسائر كبيرة بالمكتبات والمحفوظات ، فهناك الفيضانات والحرائق والأعاصير والعواصف والزلازل . . . وغيرها كثير على قائمة الكوارث التي يصعب تجنب آثارها إلا باتخاذ تدابير وقائية . ولعل كارثة اليابان التي وقعت مؤخراً تتبادر مباشرة إلى الأذهان .

وإن الأمر ليستغرق الوقت الكثير لتجميع قائمة بجميع المكتبات والمحفوظات التي دمرتها الأعمال الحربية والقنابل والنيران أو ألحقت بها خسائر فادحة سواء كانت متعمدة أم غير متعمدة . ولعل مكتبة الإسكندرية هي المثال التاريخي الأكثر شهرة ، وكم من كنوز أخرى معروفة وغير معروفة اختفت في القسطنطينية ووارسو وفلورنسا ، أو في عهد أقرب في بوخارست وسان بطرسبرغ وسراييفو . وهناك ما هو أكثر من ذلك بكثير . ولا يمكن للأسف إقفال القائمة . ناهيك المقتنيات التي شتتت إثر نقل المكتبات والمحفوظات إلى أماكن أخرى قصداً أو تحت ضغط الحوادث .

إن اتساع نطاق الجهود المطلوبة لصون ما هو جزء من «ذاكرة العالم» هذه التي لا تعوض ، يتطلب الاضطلاع ببرنامج متماسك للحماية ، يحشد الجهود ، ويستعين بآخر ما وصلت إليه التكنولوجيا .

صون التراث وتيسير الانتفاع به

إن من مهام اليونسكو الأساسية أن تساعد في الحفاظ على المعرفة وتنميتها ونشرها بتأمين حماية تراث العالم الوثائقي وجعله في متناول أكبر عدد ممكن من الناس . وإحساسًا بمسؤوليتها عن تنمية الثقافة وحماية التراث الثقافي العالمي اعترفت اليونسكو بأن الأمر يقتضي عملاً عاجلاً لصون ذاكرة العالم الوثائقية عن المزيد من التدهور ، وأعلنت في عام ١٩٩٢ عن برنامج ذاكرة العالم لحماية التراث الوثائقي العالمي والنهوض به .

إن التزام اليونسكو – الذي يرجع إلى أمد بعيد ، والذي زاد عزمًا – بحماية التراث الوثائقي العالمي نبع أصلاً من إدراك متنام لخطورة حالة هذا التراث في أجزاء مختلفة من العالم وسوء ظروف صونه والوصول إليه . على أن الحروب والاضطراب الاجتماعي والنقص الحاد في الموارد اللازمة للاضطلاع بأنشطة الصون والنشر زادت من تفاقم المشكلات القائمة منذ قرون .

وقد صمم برنامج ذاكرة العالم كنهج جديد لحماية التراث الوثائقي العالمي ولتيسير الوصول إليه على أساس ديمقراطي ورفع الوعي بأهميته والحاجة إلى صونه .

ويتوخى البرنامج الأهداف الأربعة التالية التي تعد متكاملة ومتساوية في الأهمية :

(أ) تيسير صون التراث الوثائقي العالمي باستخدام أنسب التقنيات ؛

(ب) إتاحة الوصول إليه دون أي تمييز بين المنتفعين به ؛

(جـ) زيادة الوعي على الصعيد العالمي بوجوده وأهميته ؛

(د) الترويج للبرنامج ولنواتجه لدى أوسع جمهور ممكن .

فالهدف الرئيسي للبرنامج هو اتخاذ أنسب الوسائل لضمان صون التراث الوثائقي الذي يتسم بأهمية عالمية ، وتشجيع صون التراث ذي الأهمية الوطنية والإقليمية .

ويتمثل هدف توأم لذلك ، هو جعل التراث في متناول الناس على أوسع نطاق ممكن باستخدام أنسب التكنولوجيات ، سواء داخل البلدان التي يكون فيها ماديًا أم خارجها .

فصون التراث الوثائقي وزيادة الانتفاع به هدفان يكمل كل منهما الآخر ؛ فالانتفاع ييسر الحماية . والصون يؤمن الانتفاع . فالمواد المعدة بشكل رقمي يمكن لجمهور أوسع الانتفاع بها وزيادة الطلب على الانتفاع بها يمكن أن يحفز أنشطة الصون .

ويتمثل هدف آخر للبرنامج في زيادة الوعي لدى الدول الأعضاء في اليونسكو بتراثها من الوثائق ، وخاصة بجوانب هذا التراث ذات الأهمية من حيث اتصالها بالذاكرة المشتركة للعالم .

ويسعى البرنامج أخيراً إلى استحداث نواتج من هذا التراث وتوفيرها للتوزيع على نطاق واسع مع ضمان بقاء أصولها محفوظة في أحسن ظروف ممكنة للصون والأمان . فيمكن إعداد مجموعات عالية الجودة من النصوص والمواد بالصوت والصورة وتوفيرها في الشبكات المحلية والعالمية ، ويمكن إعداد مستنسخات منها بجميع الأشكال مثل الأقراص و(الألبومات) والكتب والبطاقات البريدية والميكروفيلم ، وغير ذلك . . . وأرباح بيع هذه النواتج ستستثمر ثانية في البرنامج .

نطاق البرنامج وبنيته

ولذلك فان نطاق البرنامج واسع جداً وسوف يشرك مجموعة منوعة من الأطراف

تتراوح بين الطلاب والباحثين والجمهور العام وبين مالكي المعلومات ومنتجيها ومورديها وصانعي النواتج النهائية . وقد عين المدير العام لليونسكو لجنة استشارية دولية لبرنامج ذاكرة العالم لتخطيط البرنامج وتنفيذه في مجموعة ، ولإعداد توصيات بشأن جمع الأموال وتخصيصها ، ومنح شعار «ذاكرة العالم» للمشروعات المختارة ، بما فيها المشروعات التي لا تتلقى دعمًا ماليًا من البرنامج . وعقدت اللجنة اجتماعين (بولتوسك ، بولندا ، سبتمر/ أيلول ١٩٩٣ ، وباريس ، فرنسا ، مايو/ أيار ١٩٩٥) . وأوصت في اجتماعها الأول بتوسيع مفهوم التراث الوثائقي ليشمل إلى جانب المخطوطات وغيرها من الوثائق القيمة والنادرة في المكتبات والمحفوظات الوثائق المعدة على أية وسائط أخرى ؛ وخاصة الوثائق السمعية البصرية والتسجيلات المحوسبة والتراث المنقول ، التي تتفاوت أهميتها بين منطقة وأخرى . فهناك ، في كل هذه المجالات حاجة إلى الحماية بصفة عاجلة أحيانًا ، إذا كان لنا أن نحول دون حدوث طمس في ذاكرة العالم وأن ننهض بالتبادل الثقافي العالمي .

ومن شأن البرنامج أن يوقظ وعي الحكومات بأن عليها أن تحمي تراثها الوثائقي ، وأن تطلق الطاقات للعمل ، وتدعم أنشطة المنظمات المهنية الوطنية والإقليمية والدولية وتحفز المبادرات .

فعلى المستوى الوطني يوصى بتعيين لجنة لتقوم أولاً باختيار المشروعات وفقًا للمعايير المتفق عليها ويعرضها على اللجنة الاستشارية الدولية ومتابعتها بعد ذلك . وينبغي أن تضم عضوية اللجنة خبراء قادرين على تقديم إسهام إيجابي للمشروعات وممثلين للمنتفعين . ويجب على الأشخاص الذين يتقدمون بمشروعات أن يضمنوا حقوق مالكي المقتنيات أو المجموعات . وإضافة إلى ذلك ينشيء كل مشروع لجنته العلمية الخاصة من بين المختصين لتحديد التوجه العام للمشروع والإشراف على

تنظيمه . وهناك لجان وطنية لـ «ذاكرة العالم» منشأة الآن في عشرة بلدان (بيلاروس ، كاب فيردي ، الصين ، كولومبيا ، كرواتيا ، كوبا ، فنلندا ، المجر ، ملاوي ، موريتانيا) . كما تنظر خمسة بلدان أخرى (كندا ، الدنمارك ، ألمانيا ، إسبانيا ، زائير) في إنشاء لجان مماثلة . وأوضحت الأردن وسورية أن مؤسسات وطنية لديهما تضطلع فعلياً بدور اللجنة الوطنية .

وأخيراً فإن الأمر سيقتضي إنشاء لجنة إقليمية كلما ظهرت حاجة إلى ذلك لاختيار المشروعات ذات الطابع الإقليمي ، مع وضع الخصائص المحلية في الاعتبار ، وذلك لعرضها على اللجنة الاستشارية الدولية .

ومن أمثلة المتابعة الفعالة لإنشاء البرنامج اجتماع الخبراء الذي عقد في ديسمبر/ كانون الأول ١٩٩٤ في كوالالمبور لتحديد مكون آسيوي لبرنامج «ذاكرة العالم» ؛ فقد ناقش مشتركون من ٢٠ بلداً المشكلات التي تواجه الأمناء المسؤولين عن مواد التراث الوثائقي الوطني المعرضة في عمومها للخطر بسبب الإهمال والظروف المادية والمناخية المعاكسة وانعدام الاستقرار السياسي . . على أن الوضع في أقل البلدان نمواً وضعٌ سيىء جداً بسبب تعرض وثائق ثمينة ونادرة للخطر الآن . وسوف تفقد هذه إلى الأبد إذا لم تتخذ تدابير خلال بضع سنوات ، أما الوثائق الأخرى التي لا تزال في حالة مستقرة نسبيًا فيهددها الخطر في غضون سنوات قليلة إذا لم ينفذ برنامج لصونها وحفظها . واتفق الاجتماع على اتخاذ خطوات فيما يتعلق بضمان إنشاء الدول الأعضاء آليات على المستويين الوطني والإقليمي لتحديد مشروعات مقبولة في إطار برنامج ذاكرة العالم ، وكذلك لإجراء حصر على مستوى كل بلد لمواد التراث الوثائقي وإعداد برنامج لصون هذه المواد وحفظها ، واستراتيجيات للترويج والتسويق لاستحداث موارد لتمويل البرنامج .

وقد عقد في بودابست يومي ٩ و ١٠ مارس / آذار ١٩٩٥ اجتماع بشأن «ذاكرة

العالم» توصل إلى نتائج مماثلة . وحضر هذا الاجتماع مشتركون من النمسا وكرواتيا والجمهورية التشيكية والمجر ورومانيا وسلوفاكيا . وشدد فيه المشتركون على أن إعداد الوثائق في شكل رقمي ، - مع أنه يمثل أداة قوية لتيسير الوصول إليها ويساعد بذلك على صون أصولها - له حدود . ويمكن ألا يكون بديلا عن أعمال الصون التقليدية . وجرى في أثناء الاجتماع تصميم مشروع تعاوني دون إقليمي . وسوف تتشارك البلدان المذكورة في استخدام معدات متنقلة لإعداد الوثائق بشكل رقمي ، وستعد صيغة رقمية لمجموعة مختارة من الوثائق التاريخية ذات الأهمية لبلدان عدة ، لتكون في متناولها . ومن المتوقع أن يمكِّن المشروع المؤسسات المشتركة من تجربة تقنيات التحويل الرقمي ومعداته وتقدير الجوانب المالية والقانونية وجوانب النشر المتصلة به .

سجل «ذاكرة العالم»

اتفق المشتركون في الاجتماع الثاني للجنة الاستشارية الدولية ، الذي عقد في باريس في مايو/ أيار ١٩٩٥ على أن يعد سجل «ذاكرة العالم» . تدرج فيه جميع وثائق التراث التي تقرر اللجنة الاستشارية الدولية أنها تفي بمعايير الاختيار من حيث أهميتها العالمية ، وذلك على غرار قائمة اليونسكو للتراث العالمي .

وسيكون سجل«ذاكرة العالم» وثيقة هامة في ذاتها وباعثاً للأمم والمناطق على تحديد تراثها الوثائقي وتسجيله وصونه ، وسيستخدم التسجيل بوصفه أداة مهمة لزيادة وعي الحكومات والمنظمات غير الحكومية والمؤسسات والجمهور عامة بأهمية تراثها ، وهذا ما يحفز على تدبير الأموال لصونه . وفي ذلك تشجيع للبلدان المختلفة على إعداد سجلات خاصة لتراثها الوثائقي في موازاة لسجل ذاكرة العالم . وتحدد السجلات الوطنية تراث الأمة الوثائقي . وسوف تزيد الوعي بأهمية التراث الوطني من الوثائق وبالحاجة إلى سياسة منسقة ومتكاملة لضمان صون التراث

المهدد بالضياع .

ويمكن أن تعد مجموعات من الأمم سجلات إقليمية لتسجيل التراث الوثائقي الذي يشكل جزءاً من ذاكرتها الجماعية .

معايير الاختيار

يجب أن يرتكز كل سجل – عالميًا كان أم إقليميًا أم وطنيًا – على معايير محددة بوضوح لتقدير القيمة الثقافية للتراث الوثائقي . وتتعلق هذه المعايير بالتأثير والزمان والمكان والناس والموضوع والشكل والأسلوب والقيمة الاجتماعية . وقد يحتاج التراث الوثائقي إلى أن يفي بمعيار واحد فقط لكي يدرج في السجل العالمي ، ولكن الأرجح أن يقيَّم على أساس عدة معايير ، نذكرها فيما يلي :

(١) التأثير : يعد التراث الوثائقي ذا أهمية عالمية إذا كان قد أثر تأثيراً كبيراً في تاريخ العالم متجاوزاً حدود ثقافة وطنية .

(٢) الزمان : يعد التراث الوثائقي ذا أهمية عالمية إذا كان يعكس بصورة فترة تغيير حاسم في شؤون العالم أو يسهم إسهامًا بارزًا في فهمنا للعالم في فترة ذات أهمية خاصة في تاريخه .

(٣) المكان : يعد التراث ذا أهمية عالمية إذا كان يحتوي على معلومات هامة عن منطقة أو مكان كان له إسهام حاسم في تطورات كبرى في تاريخ العالم أو ثقافته .

(٤) الناس : يعد التراث الوثائقي ذا أهمية عالمية إذا كان يرتبط ارتباطًا خاصًا بحياة أو أعمال شخص أو أناس أسهموا إسهامًا بارزًا في تاريخ العالم أو ثقافته .

(٥) الموضوع : يعد التراث ذا أهمية عالمية إذا كان يوثق بشكل بارز موضوعًا رئيسيًا من تاريخ العالم أو ثقافته .

(٦) الشكل والأسلوب : يعد التراث ذا أهمية عالمية إذا كان مثالاً مهماً لشكل أو أسلوب رائع .

(٧) القيمة الاجتماعية والثقافية : يعد التراث الوثائقي ذا أهمية عالمية إذا كانت له قيمة ثقافية أو اجتماعية أو روحية بارزة تتجاوز مستوى ثقافة وطنية .

معايير ثانوية

إضافة إلى هذه المعايير الرئيسية السبعة ، هناك معياران آخران ينبغي وضعهما في الاعتبار . فقد يعززان الأهمية العالمية للتراث الوثائقي وإن لم يكونا كافيين بذاتهما لإكسابه هذه الأهمية .

(١) مدى الكمال : قد تتعزز أهمية التراث الوثائقي إذا كان على درجة عالية من الكمال والتمام .

(٢) الندرة : قد تتعزز أهمية التراث الوثائقي إذا كان فريدًا أو نادراً .

وستبحث اللجنة الاستشارية الدولية هذه المعايير . وستحدد عوامل ترجيح لتعكس الأهمية النسبية للمعايير .

أما معايير إدراج التراث الوثائقي بالسجلات الوطنية أو الإقليمية فتحددها اللجان الوطنية أو الإقليمية المعنية . على أنه يوصى باتخاذ معايير السجل العالمي نموذجًا يحتذى .

ويمكن تقديم المقترحات للحصول على طريق برنامج ذاكرة العالم على موارد لصون التراث الوثائقي من اللجان الوطنية أو الإقليمية أو الحكومات أو المنظمات غير الحكومية أو اللجنة الاستشارية الدولية أو الهيئات المهنية الأخرى العاملة في البلد أو المنطقة . ويكون التراث الوثائقي المقترح للحصول على دعم مما يرقى إلى مستوى السجل العالمي . ويشترط لتقديم الدعم أن يفي التراث الوثائقي بالمعايير التي

وضعتها اللجنة الاستشارية الدولية . على أن القيود المفروضة على الانتفاع بالتراث لن تحول بصفة منهجية دون إدراجه بالسجل ، ولكنها قد تقلل من إمكانية حصوله على دعم من برنامج «ذاكرة العالم» .

وقد أوصى اجتماع بولتوسك فضلاً على ذلك بإعطاء درجة من الأولوية للمشروعات التي تمس عدة بلدان وللمشروعات الوطنية ذات البعد الإقليمي أو الدولي والمشروعات التي تنفذ بالتعاون أو بالمشاركة ، على ألا تغفل الأقليات وثقافاتها . وهناك اهتمام خاص لإعادة بناء ذاكرة الشعوب في حالة نقل المجموعات أو المقتنيات من أماكنها أو تشتتها .

بعض المشروعات الجارية

(١) براغ

شرعت المكتبة الوطنية في براغ ، بالتعاون مع شركة خاصة هي البيرتينا المحدودة في تنفيذ برنامج للتحويل الرقمي ؛ فنشر أولاً في سنة ١٩٩٤ قرص للقراءة بالليزر لأغراض الإيضاح ، يعرض بعضاً من أثمن المخطوطات والوثائق الأخرى في المجموعات التاريخية للمكتبة الوطنية مع شروح باللغات التشيكية والإنجليزية والفرنسية .

وإضافة إلى ذلك بدأ إعداد مجموعة من أقراص القراءة بالليزر ، وصدر القرصان الأولان منها في أوائل مايو/ أيار سنة ١٩٩٥ .

وسوف ييسر التحويل الرقمي لأروع المخطوطات والمطبوعات القديمة التي تضمها المكتبة الوطنية الانتفاع بهذه الكنوز دون تعريض الأصول لاستخدام كثيف ، ويسهم بذلك في صونها . وعلاوة على ذلك فإنه بينما تتأثر الألوان والأحبار بتفاعلها مع الورق والرق والحرير وغيرها من الوسائط التقليدية لا تتعرض المعلومات الرقمية للاضمحلال بمرور الزمن ، ويمكن نقلها بسهولة من قرص للقراءة بالليزر إلى وسيط

أكثر دوامًا يظهر في المستقبل .

(٢) وقائع رادزيفيل

إن هذا العمل الضخم المكتوب باللغة الروسية القديمة ، ينبئ عن تاريخ روسيا وجيرانها من القرن الخامس إلى أوائل القرن الثالث عشر في شكل مصور ، يمثل بأكثر من ستمائة صورة بالألوان الأحداث الموصوفة في المخطوط . ووقائع رادزيفيل أو كينسبيرغ ، المعروفة لمجتمع العلماء والباحثين باسم مالكيها في القرنين السابع عشر والثامن عشر هي أقدم مثال باق من الوقائع المصورة للفن الروسي . وهي نسخة تعود إلى القرن الخامس عشر من أصل يرجع إلى القرن الثالث عشر محفوظ في مكتبة الأكاديمية الروسية للعلوم في سان بطرسبرغ . وإن أسلوب وقائع رادزيفيل في الجمع بين النص والصور الإيضاحية يضع هذا المخطوط في مصاف الروائع المعترف بها مثل نسخة مدريد من وقائع الإغريق المزخرفة لإيوان سيليبا ، ونسخة الفاتيكان من الوقائع البلغارية المترجمة لكونستانتين ماناسيا ، ونسخة بودابست من الوقائع المجرية المزخرفة ، ونسخ الوقائع الفرنسية العظيمة . وتتميز وقائع رادزيفيل بين كل ذلك بثراء نمنماتها وزخارفها ونوعيتها .

وقد نشر نص المخطوط مراراً . غير أن الإيضاحات المصورة لم تنشر إلا مرة واحدة في منعطف القرن بوصفها جزءاً من نسخة غير ملونة لكامل الوقائع . وقد تعرض المخطوط على مر القرون منذ إعداده لتلف كبير فاستبدل تجليده عدة مرات وقطعت حواف أوراقه ، وبليت منمنماته الزيتية بفعل الزمن والاستخدام . وقد رممت وقائع رادزيفيل في مناسبتين في هذا القرن .

وكان لتزايد هشاشة المخطوط الأصلي إلى جانب مكانته الفذة في الأدب الروسي أن جعل مكتبة أكاديمية العلوم شريكة في مواجهة المعضلة التي تواجه المكتبات الأخرى في مختلف أنحاء العالم المنوط بها رعاية الكنوز الثقافية واستخدامها

استخدامًا حكيمًا . فتناول وقائع رادزيڤيل ذاتها يجب أن تفيد للحفاظ على سلامتها المادية . بينما المهمة البحثية والعلمية التي كرست لها المكتبة تقتضي في الوقت نفسه تيسير الانتفاع بهذه الوثيقة لخدمة البحوث الجادة . .

ولذلك اتجهت المكتبة إلى استخدام وسيط رقمي لكي تعرض المخطوط بكامل ألوانه مع المحافظة على الأصل . ويجري إعداد قرص لنموذج أولي بدعم من اليونسكو ومكتبة الكونغرس ، يعدّ مشروعاً رائداً إيضاحياً لاستخدام الوسائط الرقمية في خدمة أغراض الصون .

(٣) سانت صوفيا

يمثل مشروع «سانت صوفيا» ، الذي أعدته مجموعة من الكتاب البلغاريين والفرنسيين محاولة لإخراج طبعة متعددة الوسائط من المخطوطات البلغارية على قرص تحاوري ، يصور تصويراً حيًا لشخصية سانت صوفيا الرمزية على اعتقاد كونها القديسة الراعية لصوفيا عاصمة بلغاريا في التاريخ والأدب والحضارة البلغارية من القرن الحادي عشر إلى القرن السابع عشر .

وتشمل الوثائق المختارة في المقام الأول نسخًا طبق الأصل ، في شكل صور رقمية من المخطوطات البلغارية ، بما فيها أقدم مخطوط معروف : كتاب القرن الحادي عشر للرسائل الرسولية لأثينا ، وتكملها نسخ من الزخارف الوضاءة والصور والرسوم الزخرفية المتكررة ، وصور فوتوغرافية لمواقع تاريخية وأثرية مختلفة . وفيها أيضًا تدوينات طباعية باللغة البلغارية القديمة لبعض المخطوطات وترجماتها بالبلغارية الحديثة ، وبالإنجليزية حيث توجد ، وبالفرنسية .

(٤) مخطوطات صنعاء

في سنة ١٩٧٢ ، في أعقاب أمطار غزيرة انهار جدار مسجد صنعاء الكبير . وقد كشفت الأعمال في سقف المسجد عن مخطوطات أخفيت في السقف قديماً . وهي

قطع من الرق والورق ، تبلغ نحو ألف من المجلدات المختلفة التي يعود أقدمها إلى القرن الأول الهجري . ومعظمها قطع قرآنية ذات أهمية كبيرة للدراسة اللغوية والدينية والببليوغرافية لآداب القرون الأولى من الهجرة واللغة العربية .

وهذا الاكتشاف العرضي النادر لهذه الوثائق وكذلك طابعها الفريد يجعلان العثور على هذا الكنز حدثًا مهماً ، من شأنه تعبئة الجهود والخبرات على نطاق دولي . وبفضل المساهمة الألمانية النشطة بدأ إعداد خطة عمل بشأن هذه القطع ، أدت إلى إنشاء دار للمخطوطات وترميم نحو ١٢٠٠٠ قطعة من الرق (من بين ١٥٠٠٠) ، وتخزينها وتحديدها وتصنيفها وتدريب مختصي الترميم والتصوير الفوتوغرافي من اليمنيين .

ونفذت أعمال البحث في القطع ذات الزخارف الوضاءة وأعمال التجليد بفضل منحة من معهد غوته . وهذا العمل إلى جانب البحوث التي قدمت في الندوات والمقالات التي كتبت في المجلات الأكاديمية ، يدل على مدى روعة هذه المجموعة . وتتفق السلطات اليمنية مع الرأي القائل بأن المجموعة تعادل صرحًا تاريخيًا من تراث نادر . وقد زارت بعثة من اليونسكو صنعاء بناء على طلب من السلطات اليمنية لبحث إدراج مشروع رائد بشأن المجموعات اليمنية في برنامج «ذاكرة العالم» .

وتبين أن مجموعات المخطوطات التي تسنى فحصها تتسم بثراء بالغ ، يبرر وضعها مشروعاً «لذاكرة العالم» . فهي ذات نوعية تاريخية وأثرية وعلمية ووثائقية تتوافر لها جميع سمات المجموعات الجديرة بمنحها صفة التراث .

وقد أنشئت لجنة وطنية للمشروع لتحديد الوثائق الأكثر ملاءمة . ومن المقرر أن يصدر قريبًا قرص إيضاحي يرتكز على مجموعة مختارة من المخطوطات تشمل بعض المقتطفات القرآنية ، بالتعاون مع المركز الإقليمي لهندسة تكنولوجيا

المعلومات والبرامجيات في القاهرة .

(٥) ذاكرة أمريكا الإيبيرية

في نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٩٢ قدمت رابطة المكتبات الوطنية لأمريكا الإيبيرية مشروعًا باسم «ذاكرة أمريكا الإيبيرية» لإدراجه في برنامج «ذاكرة العالم» .

وتُعنى مرحلة رائدة من المشروع بحماية صحف القرن التاسع عشر المنشورة في أمريكا اللاتينية وتيسير الوصول إليها للمؤرخين ومن يعنيهم الأمر من الجمهور .

وكانت الرابطة قد نظمت سلسلة أنشطة بمناسبة الذكرى المئوية الخامسة للقاء عالمين ، استجابة للرغبة في تشجيع تقدير التراث الوثائقي للعالم الإيبيري .

وكان من بين هذه الأنشطة تجميع قاعدة بيانات لفهرسة ٩٠٠٠٠ كتاب تعود إلى القرون من السادس عشر إلى الثامن عشر ، وتنظيم معرض متنقل وإعادة إصدار أهم الأعمال التاريخية في سياق الذكرى المئوية الخامسة . وتشارك المكتبات الوطنية لسبعة بلدان (البرازيل ، كولومبيا ، كوستاريكا ، كوبا ، نيكاراغوا ، بويرتوريكو ، فنزويلا) في مشروع صحافة القرن التاسع عشر ، أدى إلى إعداد حصر محوسب لنحو ٢٠٠٠ من عناوين الصحف والمجلات .

وستتناول المرحلة الثانية من المشروع إجراء الترتيبات لحفظ المجموعات المدرجة بالقوائم ونقلها على الميكروفيلم بهدف تعزيز التبادل بين المكتبات الوطنية وتنظيم معارض وإعداد مطبوعات خاصة .

(٦) مخطوطات مرصد قنديلي

هدف هذا المشروع صون مجموعة من نحو ٩٥٠ عملاً في علم الفلك بثلاث لغات (التركية والفارسية والعربية) محفوظة في مكتبة مرصد قنديلي ومعهد بحوث الزلازل بجامعة بوغازيسي في اسطنبول .

وتغطي مساهمة اليونسكو فيه إعداد فهرس هذه المخطوطات ، ونشره وحفظه وتحديثه بشكل مقروء للحاسوب ، باستخدام مجموعة برامجيات CDS/ISIS ، وتصوير المخطوطات على الميكروفيلم وإنتاج قرص يضم الفهرس وصفحات نموذجية من كل مخطوط .

(٧) ذاكرة روسيا

يعنى المشروع بصون مجموعة المخطوطات السلافية للقرنين الخامس عشر والسادس عشر ، المحفوظة في مكتبة الدولة الروسية في موسكو ، وبتحسين الانتفاع بهذه المجموعة . وهو يشمل أيضًا محفوظات أعمال كثير من كبار المؤلفين الروسيين مثل دوستويفسكي وبوشكين .

وهناك عدة مشروعات أخرى قيد البحث .

الإطار المنهجي

يتضح بجلاء من الأمثلة المذكورة أعلاه أن المبدأين الأساسيين اللذين يوجهان برنامج «ذاكرة العالم» هما صون الوثائق والمقتنيات والمجموعات وتحقيق ديمقراطية الانتفاع بها . وهذان المبدآن مترابطان بطبيعتهما ، نظرًا لأن الانتفاع يستدعي الحماية وأن الصون يكفل الانتفاع .

وتتمثل الخطوات الأساسية لتنفيذ أي مشروع في برنامج «ذاكرة العالم» فيما يلي :

اختيار الوثائق وإعدادها ، وضمان وضعها في ظروف مادية مناسبة ، وتصويرها فوتوغرافيـاً حسب الاقتضاء ، ووضعها في شكل رقمي ، ووصفها وشرحها ، وتزويد العاملين الذين يضطلعون بهذه المهام بتدريب خاص ملائم حيثما يقتضي الأمر . وترجمة الأوصاف الببليوغرافية حيثما يلزم ، بل ترجمة النصوص ذاتها ، وضمان توزيع النواتج على أوسع نطاق ممكن .

وقد اتخذت تدابير لإنشاء لجنتين فرعيتين ، الأولى لإجراء تقييم بصفة منتظمة للتكنولوجيا التي يمكن أن يستخدمها البرنامج ، والثانية لدراسة أساليب تسويق نواتج البرنامج عبر العالم ، وبيعها .

وعقدت اللجنة الأولى اجتماعين خصصا للتحويل الرقمي للوثائق ، واستعرضت التطورات الحديثة في مجال الإعداد الرقمي ، وأعدت مشروع مبادئ توجيهية تقنية مع جدول يبين لكل نوع من الوسائط الناقلة (للنصوص والصور الثابتة من جهة ، وللصوت والصور المتحركة من جهة أخرى) معايير التحويل الرقمي الموصى بها والاطلاع على النصوص وصونها . وأشير إلى أن إعداد برنامج للتحويل الرقمي للوثائق هو أفضل حل وسط بين المطلبين المتعارضين ؛ وهما توسيع نطاق الانتفاع من ناحية وزيادة حماية الوثائق من الناحية الأخرى . أما عن اللجنة الفرعية المعنية بالتسويق فسوف تعقد أول اجتماع لها سنة ١٩٩٦ عندما تكون المشروعات السابق ذكرها قد حققت جميعها نتائج ملموسة .

وأخيرًا ، فلكي تستطيع اليونسكو أن تؤدي وظيفتها كاملة بوصفها منسقاً وحافزاً ، فإنه يجري حاليًا إعداد ثلاث قوائم حصر في شكل قواعد بيانات تُحدَّث بصفة منتظمة ، وذلك بالتعاون مع الاتحاد الدولي لرابطات المكتبات (ايفلا) والمجلس الدولي للمحفوظات (ايكا) وغيرهما من الهيئات المهنية مثل الاتحاد الدولي للتوثيق (فيد) والاتحاد الدولي للمحفوظات السينمائية (فياف) و FIAF والرابطة الدولية للمحفوظات الصوتية (ياسا) وهي كما يلي :

(١) قائمة حصر لمجموعات المكتبات ومقتنيات المحفوظات التي تعرضت لتلف لا سبيل إلى إصلاحه منذ سنة ١٩٠٠ .

(٢) قائمة حصر للعمليات الجارية لحماية التراث الوثائقي .

(٣) قائمة عالمية بمجموعات المكتبات ومقتنيات المحفوظات المعرضة للخطر .

وستعد قوائم الحصر الثلاث هذه في شكل قواعد بيانات تُحدَّث بصفة دورية ، وستشكل الأساس الذي لا غنى عنه لبرنامج «ذاكرة العالم» . وهناك مؤسسات من أكثر من ١٠٠ بلد بعثت بردود تتعلق بالحصر الأول ، واقترح نحو ٥٠ بلدًا مجموعات ومقتنيات لإدراجها في قائمة التراث الوثائقي المهدد بالخطر .

وأخيرًا فإنه اعترافًا بتأثير السينما في العالم ، تقرر ، بمناسبة الاحتفال بالذكرى المئوية للسينما إعداد قائمة تضم من كل بلد نحو ١٥ فيلماً يعدها الأكثر تمثيلاً لتراثه السينمائي الوطني ، تنشر في إطار برنامج ذاكرة العالم ويكون ذلك جزءاً من الاحتفال المذكور .

وفضلا عن ذلك ستنشر اليونسكو قريبًا مبادئ توجيهية بشأن الإطار التقني والقانوني والمالي للبرنامج وهياكل عمله . وسيوزع النص على نطاق واسع بجميع اللغات الرسمية لليونسكو .

السياق القانوني والمالي

إن العمل في إطار شراكة على صعيد دولي يعني أن وجود إطار قانوني يشكل ضرورة مطلقة إذا أريد أن تدار «ذاكرة العالم» بطريقة مسؤولة ملائمة . ويجب مع ذلك أن يبقى هذا الإطار مرنًا بما يكفي لضمان أصالة كل مشروع ولمراعاة اختلاف التشريعات الوطنية .

ومن الضروري أن تُحترم حقوق مالكي المجموعات والتقنيات في إطار المشروع وأن تُحدد بوضوح العلاقة بين المالكين وبين المستخدمين التقنيين والتجاريين ، وخاصة فيما يتعلق بتقسيم الحقوق بين مختلف الأطراف ، وتخصيص حقوق ملكية الصور المنتجة وتقاسم أرباح بيع النواتج المعدة من الصور . غير أنه يبدو واضحًا أيضًا أن الحماية المفرطة التي قد تحد من الانتفاع بالوثائق ستكون متعارضة مع أحد المبادئ الأساسية للبرنامج . وقد أوصت اللجنة الاستشارية الدولية في اجتماعها

الثاني بأن تولي اليونسكو اهتمامًا دقيقًا للمسائل القانونية التي تؤثر في التراث الفكري في سياق الاستخدام المتزايد لوسائط التخزين الالكترونية في المكتبات والمحفوظات ، وبأن تراعي بصفة خاصة إتاحة حرية الانتفاع به في نطاق الحدود المقررة في التشريع الوطني والدولي . وسينشأ فريق عمل من خبراء قانونيين وممثلين للمنظمات غير الحكومية بالتعاون مع الأطراف المعنية الأخرى ، بما فيها اللجنة الأوربية وفريق العمل التابع لمجموعة الدول السبع الكبار ،المعني بالمشروع الرائد الخاص «بالمكتبة الالكترونية» .

وأخيرًا فإنه – فيما يتعلق بالدعم المالي – يجري إنشاء صندوق بإشراف اليونسكو لتمويل بعض مشروعات البرنامج . وسيشمل ذلك على سبيل الأولوية المشروعات ذات البعد الإقليمي أو الدولي . ويمكن لمشروعات أخرى تفي بالمعايير المتفق عليها أن تستخدم شعار «ذاكرة العالم» دون أن تتلقى بالضرورة مساعدة من اليونسكو أو من الصندوق .وقد فتح لليونسكو حساب خاص«لذاكرة العالم» (Ref. 406 INT 61) .

ويجري حاليًا توزيع مجموعة من المواد الترويجية التي تلقي الضوء على أهداف البرنامج على نطاق واسع . وستستخدم هذه المواد أيضًا لاجتذاب أموال للبرنامج . ويعتزم اتباع نهج من شقين : تنظيم حملة موجهة نحو البرنامج وحملات موجهة نحو المشروعات .

وسيكون كل مشروع من مشروعات «ذاكرة العالم» كيانًا مستقلاً بذاته ، وخاصة فيما يتعلق بالتمويل . وإذ لا يمكن أبدًا أن يكون الربح شرطًا أساسيًا مسبقًا لتنفيذ مشروع من المشروعات ، فإنه يجب أن يحقق كل مشروع توازنًا ماليًا بين الاستثمارات اللازمة للتحويل الرقمي والاستنساخ وتوزيع المنتجات ، ولإعداد المجموعات والمقتنيات المستنسخة للحفظ من ناحية ، وبين المساهمات البدئية من الصندوق ومن الخارج وعائد المبيعات الممكنة للنواتج من الناحية الأخرى .

ولن يتحقق هذا التوازن دون مساهمة من الجهات الراعية ومن الشركاء التقنيين والماليين . فالبحث عن شركاء يشكل مرحلة هامة ، إن لم نقل حاسمة ، في مشروعات «ذاكرة العالم» كلها .

ما أن شرعت اليونسكو في برنامج «ذاكرة العالم» حتى بدأ يثير اهتمامًا كبيرًا . إذ تصل إلى اليونسكو بانتظام طلبات للمساعدة بل أحيانًا نداءات للعون . وإنها لمهمة صعبة ، وليس من الممكن ، دون حشد جهود جميع الأطراف المعنية أن يتحول إعلان النوايا إلى ورشة عالمية واسعة لإنقاذ الكنوز من الوثائق المهددة واستنساخها ونشرها .

ومن هذه الزاوية لا يمكن التأكيد بما فيه الكفاية على أهمية اقتصاديات العملية والاستثمارات الكبيرة التي ستتطلبها ، ويقتضي الهدف المزدوج – ضمان الحفاظ على التراث وتيسير الانتفاع بذاكرة العالم هذه حتى تكون في متناول الناس على أوسع نطاق ممكن – طرقاً جديدة للتمويل ، وخاصة من خلال التعاون مع القطاع الخاص .

المصادر

برنامج «ذاكرة العالم» – الاجتماع الأول للجنة الاستشارية الدولية ، بولتوسك ، بولندا ، ١٢-١٤ سبتمبر/ أيلول ١٩٩٣ . التقرير النهائي ، باريس ، اليونسكو ، ١٩٩٣ (PGI-93/WS/17) .

برنامج «ذاكرة العالم» – الاجتماع الثاني للجنة الاستشارية الدولية ، باريس ، فرنسا ، ٣-٥ مايو/ أيار ١٩٩٥ ، التقرير النهائي ، باريس ، اليونسكو ، ١٩٩٥ (CII-95/CONF.602/3) .

برنامج «ذاكرة العالم» – مشروع مبادئ توجيهية عامة لحماية التراث الوثائقي ، باريس ، اليونسكو ، ١٩٩٥ (CII-95/CONF.602/1)

«ذاكرة العالم» – اجتماع الخبراء – منطقة آسيا والمحيط الهادي ، كوالالمبور ، ماليزيا ، ١٢-١٤ ديسمبر/ كانون الأول ١٩٩٤ . التقرير النهائي . كوالالمبور : دار المحفوظات الوطنية لماليزيا ولجنة ماليزيا الوطنية لليونسكو ، ١٩٩٤ .

بحـــوث
الـنـدوة

الطباعة العربية في أوروبا

الأستاذ الدكتور قاسم السامرائي

قاسم السامرائي
(العراق)
أستاذ في جامعة ليدن – هولندا

- من مواليد بعقوبة بالعراق ١٩٣٥م.
- دكتوراه من جامعة كمبردج

الوظائف

- أستاذ في كلية الشريعة بجامعة بغداد.
- أستاذ في كلية الآداب بجامعة بغداد.
- أستاذ في قسم الدراسات الشرقية وكلية اللاهوت بجامعة ليدن.

من نتاجه

- الإنباء في تاريخ الخلفاء. لابن العمراني، ليدن، المعهد الهولندي ١٩٧٣م..
- لطائف الظرفاء من طبقات الفضلاء للثعالبي.
- الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية. الرياض، دار الرفاعي، ١٤٠٣هـ = ١٩٨٣م.
- الاعتبار. لابن منقذ، الرياض، دار الأصالة، ١٩٨٧م
- مقدمة في الوثائق الإسلامية. الرياض، دار العلوم، ١٩٨٢م.
- كتاب القصاص والمذكرين لابن الجوزي. الرياض، دار أمية، ١٩٨٣م.

الحمد لله عالم السر والإعلان ، الواحد المنان ، الرحيم الرحمن والصلاة والسلام على سيد الإنس والجان المبعوث بالرحمة والغفران وعلى آله وأصحابه إلى يوم الدين ،

أيها الإخوة الكرام

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد ،

لقد كدت أُغضب الأخ الدكتور عبد الرحمن فرفور فأحدثكم حول الطباعة العربية في هولندا بالتفصيل ، بيد أنَّ تشعب المعلومات الوفيرة وقصر الزمن المسموح لي به أجبرني على أن أحدثكم حديثاً عاماً حول الطباعة العربية في أوروبا حتى نهاية القرن الثامن عشر ، ومن ثم أُعرِّج على الطباعة في هولندا باختصار ، فأكون بذلك قد أرضيت نفسي وأرضيت الإخوة الكرام الذين تفضلوا بدعوتي شاكراً لهم ثقتهم ومقدراً لهم دعوتهم الكريمة ، وداعياً المولى عزَّ وجلَّ أن يُثيب كل ذي نيَّة على قدر نيَّته .

الطباعة العربية في أوروبا

لا شك في أن الطباعة العربية في أوروبا مرت بمراحل عديدة عبر القرون الماضية ، تحكَّمت فيها أهدافٌ عديدةٌ ودوافعُ مختلفة . و على الرغم من حجم الاضطراب والفوضى التوثيقية في المصادر العربية والأجنبية التي تناولت هذا الموضوع – وقد سردنا أهمها في نهاية البحث – إلا أن فن الطباعة العربية في أوروبا لا يمكن أن تحيط به دراسة مختصرة أو محاضرة عابرة ، فهو لذلك يحتاج إلى دراسة واسعة موثقة ، بل يصلح أن يكون موضوعاً طريفاً لرسالة جامعية علمية جادة في أقسام التاريخ أو المكتبات أو الاستشراق .

ومع هذا فإنني أود أن أؤكد على حقيقة تاريخية ، لعلها فاتت الكثير ممن بحث في تاريخ الطباعة في العالم ، فأقول : إن فن الطباعة في العالم ما كان له أن يحدث لو لم

يَسْبِقْهُ اكتشاف صناعة الكاغد في الصين في بداية القرن الثاني للميلاد[1] أولاً ، ومن ثم انتقال هذه الصناعة إلى المسلمين ثانياً فاحتكروا إنتاجه سبعة قرون . وعلى الرغم من أن صناعة البردي في مصر سبقت صناعة الكاغد بقرون عديدة إلا أن شيوعه في العالم اليوناني والروماني ومن ثُمَّ الأوروبي مادة للكتابة لم يساعد على اكتشافها ، إذ كان على الطباعة في أوروبا أن تنتظر قروناً أخرى حتى تنتشر صناعة الكاغد فيها ليذهب يوهانس غوتنبرغ بشرف اكتشافها ، مع إصرار بعض مؤرخي الطباعة على أن غوتنبرغ تعلم فن الطباعة بالحروف المنفصلة من لورنز يانسون كوستر الهولندي الذي طبع كتباً في النحو اللاتيني . ويرى سفندال أنه من المحتمل أن هذه الكتب مما طبع بالقوالب الخشبية[2] . ومع كل هذا فإن المعروف أن أوروبا كانت تستهلك كثيراً من الكاغد العربي الذي كان يُصدَّر إليها من بغداد ودمشق عبر القسطنطينية ، ومن شمال إفريقيا عبر صقلية ، ومن الأندلس عبر فرنسا ، حتى تعلمه الأوروبيون منهم . وإن المعروف أيضاً أن أول مصنع للكاغد في أوروبا أسسه جان مونت جولفيه[3] في جنوب غرب فرنسا سنة ١١٤٧ م (٥٤٢ هـ) . وقد شارك مونت جولفيه هذا في الحملة الصليبية الثانية ، ووقع في أسر المسلمين حيث قضى فترة أسره في دمشق التي كانت هي وبغداد وشاطبة وفاس أهم مراكز صنع الكاغد في العالم الإسلامي إذ ذاك ، فلا بدَّ أنه اطلع على وسائل صناعته في دمشق فنقلها إلى فرنسا . وبعد ذلك بقرن أُنشيء أول مصنع للكاغد في إيطاليا سنة ١٢٢٦ م ، ولم يحل القرن الرابع عشر إلا وأصبحت إيطاليا المصدِّر الرئيس للكاغد إلى أوروبا ، فانحسر الطلب على الكاغد الإسلامي تماماً[4] . وبدأ تسرب الكاغد الأوروبي إلى الأسواق العربية والإسلامية فيما بعد .

الحق أن فن الطباعة لم يكن اكتشافاً أوروبياً قط ، فقد سبقهم إليها الصينيون ، ومن بعدهم المسلمون ، فتعلم الأوروبيون منهم هذا الفن في جملة ما تعلموه من المظاهر الفكرية والتقنية الإسلامية . ففي الوقت الذي كانت فيه الكتب تطبع في اليابان وكوريا

والصين وبلاد الإيغور بواسطة القوالب الخشبية ثم بالحروف المتحركة كان إنتاج الكتب في العالم الإسلامي عموماً وأوروبا خصوصاً يعتمد على النسخ[٥] ، إلا أننا نعلم أنه كانت هناك بعض المحاولات الطباعية في العالم الإسلامي على القوالب الخشبية (النماذج رقم : ١ ، ٢ ، ٣) ، بيد أنَّ تقنيات هذه الطباعة وتطوُّرَها لم تنتشر عند المسلمين لعدم اهتمامهم بهذا اللون من التقنية الميكانيكية لأسباب ذوقية وفنية حسيَّة تتعلق بجمالية الخط العربي ولغته ، وليست دينية كما يدعي (aesthetics) توماس فرانسيس كارتر حين يقول[٦] : «إن العرب رفضوا لأسباب دينية أن يطبعوا كتبهم المقدسة بوسائل ميكانيكية[٧] مما أخَّر انتشار الطباعة من الشرق الأقصى إلى أوروبا[٨] . والظاهر أن كارتر وسفندال[٩] لم يطَّلعا أو أغفلا المقالات الكثيرة حول استخدام العرب للقوالب الخشبية في طباعة كتبهم الدينية وبخاصة المصحف الشريف[١٠] والأدعية حتى أوراق اللعب (ما تسمى الكوتشينة)[١١] وغير ذلك ، فقد استخدموا طباعة الكتب بالقوالب الخشبية في المشرق العربي والأندلس في نهاية القرن الثالث للهجرة (التاسع للميلاد) في الوقت الذي كان فيه فونج تاو يقوم بطباعة كتب الأدب الصيني القديم . ويؤيد هذا اكتشاف ما يزيد على خمسين وثيقة من الوثائق العربية المطبوعة على الرقِّ والكاغد وقماش الكتان ، اكتشفت في واحة الفيوم بمصر مع الوثائق البردية المعروفة ببرديات الدوق راينر ، وهي تعود إلى ما بين سنة ٢٨٧ و ٧٥١ هجرية ، توزعت على مكتبات القاهرة وهايدلبرغ وبرلين والمتحف البريطاني ومكتبة جامعة كمبردج ومتحف جامعة بنسلفانيا . أكثرها محفوظ الآن في المكتبة الوطنية بفيينا[١٢] وهي موصوفة وصفاً دقيقاً شاملاً في فهرس منشور[١٣] .

ويؤيد هذا أيضاً ما ورد في كتب التاريخ حول نقود القراطيس[١٤] التي كانت تطبع بالقوالب الخشبية ، وكانت شائعة في زمن الملك العادل نور الدين زنكي على رواية صاحب كتاب الروضتين ، وكانت تسمى : «القراطيس السود» ، فاعترض عليه الشيخ عبدالله اليونيني[١٥] فألغاها . وقد كانت شائعة أيضاً في بلاد الخطا حسب

رواية رشيد الدين فضل الله الهمداني الذي روى : «أن الجاو عبارة عن قرطاس مختوم بخاتم الملك يتعامل به في جميع بلاد الخطا بدلاً من الدراهم»[١٦] . واستعملها المغول في العراق وإيران ، إلا أنها لم ترج كرواجها في بلاد الخطا ، فألغيت وقُتل مروِّجُها حسب رواية رشيد الدين أيضاً[١٧] . وحول انتقال فن الطباعة من المشرق الإسلامي إلى أوروبا يقول جاك ريسلر J. Risler : «فلعل أهل جنوة الأذكياء في اهتبال الفرص التجارية قد استوردوا من تحف الشرق إلى أوروبا سرَّ طبع أوراق النقد بطريقة الحروف المتحركة»[١٨] .

أما في الأندلس فإن الإشارات المستقاة من المصادر التاريخية الأندلسية تثبت أن فن الطباعة كان معروفاً فيها أيضاً ؛ ففي ترجمة أبي بكر القلوسي من كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة أنه «رُفع للوزير الحكيم كتابٌ في خواص الأمُدَّة وآلة طبع الكتاب ، غريبٌ في معناه»[١٩] . وأورد ابن الأبَّار أنَّ : بدراً مولى الأمير عبدالله كان يكتب السجلات في داره ثم يبعثها للمطبع ، فتطبع ، وتُخْرَج إليه ، فتبعث إلى العمال»[٢٠] . ويقول جاك ريسلر : «وفي قرطبة كان كاتب الخليفة عبد الرحمن يصدر الوثائق الرسمية في نسخ كثيرة بمساعدة مطبعة بدائية ما زلنا نجهل كيف كانت تعمل»[٢١] . وهناك إشارات أُخر ، تجدها في كتابي : مقدمة في الوثائق الإسلامية[٢٢] .

الطباعة العربية في أوروبا مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بصناعة الكاغد أولاً ، وحمى التنصير ثانياً ، والهيمنة الاستعمارية ثالثاً ، وتطور الاستشراق ووصوله إلى نظام مبني وفق قواعد منظمة رابعاً . وربما لا أبالغ في القول فأزعم أنه لو لم يصنَّع الكاغد في أوروبا لما كانت هناك طباعة ، ولو لم يكن الاستعمار الأوروبي بضروبه المختلفة لما كان هناك مجال للتنصير المنظم ، ولو لم يكن الاستشراق والتنصير لما كانت هناك طباعة عربية في أوروبا . ومن هنا فإن الأوروبيين لم يتوصلوا إلى فن الطباعة إلا بعد أن تعلموا صناعة الكاغد من المسلمين الذين احتكروا صناعته سبعة قرون في سمرقند وبغداد ودمشق والقاهرة وشاطبة وفاس . فنافسوهم في إنتاجه ، مما أدى إلى إغراق

الأسواق الإسلامية بالكاغد الرخيص الثمن منذ بداية القرن العاشر للهجرة ، وبالتالي قضى تدريجياً على صناعة الكاغد أو كاد في المشرق وشمال افريقيا .

وتعلموا منهم أيضاً الطباعة على القوالب الخشبية ، وشاعت هذه الطريقة في طباعة الكتيبات الدينية الصغيرة للجمهور الشعبي الأمي حول القديسين مع صورهم في كل من ألمانيا وهولندا خلال العقد الأخير من القرن الثامن للهجرة (الرابع عشر للميلاد)[٢٣] قبل أن يولد غوتنبرغ ، فلعل شيوعها إذ ذاك كان حافزاً له على تطويرها . ثم إنَّ هناك رواية قديمة تقول : إن إيطالياً وأخته قد استطاعا طبع قصة غرام الإسكندر المقدوني في القرن الثالث عشر للميلاد (القرن السابع للهجرة) بطريقة القوالب الخشبية التي استُوردتْ تقنيتها من مصر[٢٤] . ولعل أقدم ما طبع من الحروف العربية بطريقة القوالب الخَشبية في أوروبا ما ظهر في كتاب برايدنباخ «رحلة للأرض المقدسة» Bernhard Breydenbach: Peregrinatio in terram sanctam المطبوع في ماينز بألمانيا سنة ١٤٨٦ م (النموذج رقم ٤) .

إن ظهور الإسلام وانتصاره على أقوى قوتين عسكريتين وسياسيتين في العالم وهما : الفارسية والبيزنطية ، وانتشاره السريع في كثير من الأقطار النصرانية مثل الشام وشمال إفريقيا والأندلس ، ومن ثمَّ إخفاق القوى الصليبية واندحارها أمام صلاح الدين وخيبة أمل الكنيسة في دخول التتار في الإسلام طواعية ، وتنامي قوة الدولة العثمانية ووقوف جيوشها أمام أسوار فيينا ، وإخفاق جميع الجهود التنصيرية الهائلة على الرغم من وقوع أكثر البلدان الإسلامية تحت الحكم الاستعماري الأوروبي ؛ كلّ ذلك حيَّر عقولهم وجعل علماءهم يتخبطون في معرفة سر هذا الدين الذي لم يتوقعوه ، فقادتهم هذه الحيرة إلى وصف الإسلام بـ : «اللغز» أو «لغز الألغاز» ؛ ولذلك جاءت أحكامهم مشبعة بالافتراء والغلو والتشنيع ، وهذا مجال آخر تناولته في كتابي الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية[٢٥] .

فإن الذعر الذي أصاب أوروبا إثر سقوط القسطنطينية على يد السلطان الهمام محمد الفاتح في ٢٠ جمادى الأولى من سنة ٨٥٧ هـ = ١٤٥٣ م - حتى قيل: «the musulman was feared more than ever المسلم يخيف أكثر من أي وقت مضى»[٢٦] - ولّد شعوراً حافزاً لغوتنبرغ وهو في بدايته أن تنشر مطبعته بعد أقل من سنة من سقوط القسطنطينية كتيباً بعنوان: Turkenkalender يحذر فيه أوروبا من الإسلام ومن تنامي قوته في الشرق وخطره الماحق على أوروبا ، ولعله هو المحفوظ بمكتبة الدولة في ميونخ بعنوان «تحذير النصرانية من الأتراك Eine Mahnung der Christenheit wihder die Turken» وهو مطبوع بحروف غوتنبرغ سنة ١٤٥٤ ولم يبق منه سوى نسخة واحدة فقط .

وقد أدى هذا الشعور بالخوف والرهبة إلى ظهور الكتاب الأسطوري الشائع رسائل الإمبراطور التركي محمد العظيم للودفيك زاكيا Laudivio Zacchia في سنة ١٤٧٢ م على شكل مراسلات ودية بين السلطان محمد الفاتح وملوك أوروبا . وظهر الكتاب مرة أخرى باللغة الإيطالية في فينيسيا سنة ١٥٦٣ م[٢٧] . وقد دفع سقوط القسطنطينية وزحف العثمانيين غرباً بكثير من المغامرين الأوروبيين إلى ارتياد استانبول وبلدان العالم العربي في محاولتهم فهم هذا اللغز المحيِّر ، فظهر سيل من كتب الرحلات المليئة بالمغامرات والعجائب حول الشرق وأهله وعاداتهم وسبل حياتهم من خلال منظار أوروبي ، بل بدأت تظهر أيضاً كتب الرحلات ، كتبها الذين عاصروا الحروب الصليبية[٢٨] .

أما في إسبانيا فقد رأى أسقف غرناطة Fernando de Talavera فرناندو دي تلافيرا بعد سقوطها في سنة ١٤٩٢ (٨٩٨ هـ) «أن تنصير الموريسكو لا يمكن أن يتم إلا إذا عرف القسس ورجال الكنيسة الذين يعملون في غرناطة لغتهم»[٢٩] . ومن هذا الدافع نشر الراهب الإسباني بيدرو دي الكلا Fray Pedro de Alcalá أول كتاب في إسبانيا حوى حروفاً عربية[٣٠] طبعت على قوالب خشبية في جزأين نشرا معاً سنة ١٥٠٥ م[٣١]

(٩١١ هـ) لتدريب المنصرين الإسبان على العربية لمقارعة الموريسكو الذين لم ينجحوا في ثورة جبال البغراس وإقناعهم بصحة الكاثوليكية وفساد الإسلام . وقد أعيد طبع هذا الكتاب مرة أخرى في غرناطة في السنة نفسها وفي جوتنكن بألمانيا سنة ١٨٨٣ م(٣٢) بعنوانين آخرين وهما

١) Arte para ligeramete saber la legua arauiga (طريقة تعلم اللغة لعربية بسرعة) . وهو لتعليم المنصرين اللغة الدارجة التي كان يستعملها الموريسكو في غرناطة .

٢) Vocabulista arauigo en letra castellana(قائمة عربية بالحروف القشتالية) (النموذج رقم ٥) .

وقال في مقدمة كتابه الأول : «لقد حان الوقت لهذا الشعب الذي سبق له التنصر أن يخرج من الظلام العميق والتيه الكبير في الضلال المشين بضلالة نبيهم الذي لا يستحق أن نطلق عليه اسم البشر (مع شتائم أُخر بذيئة للنبي الكريم صلى الله عليه وسلم)»[٣٣] . ويحتوي الكتاب على أسئلة كثيرة جداً ، كان على القسيس أن يوجهها للنصارى الجدد من أهل غرناطة ، وهي عجيبة في فحواها ، غريبة في معناها ، مما يعكس شك الكنيسة العميق في نصرانية الموريسكو . وفي آخر الكتاب يصرح الكلا بأنه أنهى كتابيه في سنة ١٥٠١ وأن خوان دي فاريلا Juan de Varela السلامنكي قام بطبعهما في غرناطة سنة ١٥٠٥ م لأنه لم يكن في غرناطة قبل هذا التاريخ أية مطبعة(٣٤) . والغريب أن الجمعية الإسبانية الأمريكية قد أعادت طبع الكتاب الثاني لبيدرو دي الكلا في نيويورك سنة ١٩٢٨[٣٥] .

وفي سنة ١٥٦٦ م صدر كتاب : العقيدة النصرانية باللغة العربية واللغة القشتالية Doctrina Chistiana en la lengua y castellana لرئيس أساقفة بلنسية مارتن بيريز دي أيالا Martin Perez de Ayala[٣٦] وتواترت الكتب الموجهة لإقناع النصارى الجدد دون انقطاع

حتى قرر الملك فيليب الثالث بعد إلحاح الفاتيكان المتكرر إخراج الموريسكو من الأندلس في سنة ١٠١٨ هـ = ١٦٠٩ م . وقد وصلنا كتاب لشاهد عيان هو أحمد بن قاسم الحجري ، الذي هرب من الأندلس ، وسجل لنا ما رآه في كتاب «ناصر الدين على القوم الكافرين»[٣٧] .

إن اعتقاد علماء النصرانية الراسخ منذ القرن السابع للهجرة (الثالث عشر للميلاد) بجهل المسلمين بالإنجيل وبالتالي بالنصرانية كان العقبة الكؤود في تنصيرهم ؛ وبدافع من هذا الاعتقاد فإنهم سعوا بحماسة غريبة إلى تعلم العربية لغرض ترجمة الإنجيل إلى العربية وتوزيعه على المسلمين . وقد برز هذا الاعتقاد بشدة في القرن الثالث عشر عند ريموند لول ، فقد كان يرى أن تعلم العربية يسهّل تنصير المسلمين ، فتعلمها من أسير أندلسي اشتراه ، فأصبح عمل لول هذا تقليداً اتبعه كثير من علماء النصرانية وبخاصة الرهبان الدومنيكان والفرنسسكان ، الذين كانوا يدفعون أثماناً عالية في الأسير المسلم إذا كان فقيهاً ، ليتعلموا منه حججه ، لكي يستخدموها في التنصير . وقد وصلت إلينا تصنيفات بعض هؤلاء الأسرى بعد فكاكهم من الأسر[٣٨] مثل كتاب «مقامع الصلبان في الرد على عبادة الأوثان» لأحمد بن عبد الصمد الخزرجي[٣٩] ، و«مفتاح الدين» لمحمد القيسي ، و«رسالة السائل والمجيب» لمحمد الأنصاري الأندلسي[٤٠] ، وغيرها ، وجملة من قصصهم في كتب التراجم .

وحديثاً ظهر كتاب في بروكسل[٤١] يحتوي على رسائل أحد قساوسة النصرانية الهولنديين ، واسمه نيكولاس كلاينارد الذي كان اسمه اللاتيني NICOLAUS KLE-NARDUS . فبعد أن تعلم العبرية وكتب في قواعدها كتاباً خرجت منه اثنتان وعشرون طبعة وكتاباً في قواعد اللغة اليونانية خرجت منه أكثر من مئة طبعة ، تبنى دعوة ريموند لول[٤٢] فأصبح تعلم العربية شغله الشاغل ، حتى يستطيع ترجمة الإنجيل للعربية ، فسافر إلى سلامنكا ومنها إلى إشبيلية وغرناطة ، وكتب إلى الملك كارل الخامس ، ليساعده في الحصول على الكتب العربية التي صادرتها محاكم التفتيش

من المسلمين ، وأخيراً استطاع أن يشتري أحد الأسرى المسلمين في حدود سنة ١٥٣٨ م (٩٥٠ هـ) فكان ينعته في رسائله Charufius meus (أي ابن خروفي) وظهر أن خروفيوس هذا لم يكن إلا العالم التونسي محمد بن خروف(٤٣) الذي وقع في أسر الإسبان ، فقرأ عليه هذا القسيس كتاب «المفصل» للزمخشري . ولما فاداه سلطان المغرب سنة ١٥٤٠ م اشترط هذا القسيس على أسيره أن يصحبه إلى المغرب ، فجاء معه إلى سبتة وفاس ليكمل تعلم العربية معه ، بيد أن علماء المغرب أفتوا بحرمة تعليمه ، فعاد إلى الأندلس ، وتوفي في غرناطة فجأة سنة ١٥٤٢ م(٤٤) . ويمكن أن يعد هذا أول مستشرق هولندي ، إلا أنه لم يحظ إلا بحديث عابر ضمن تراجمهم(٤٥) . من كل هذا فإنه ليس من العجب أننا لا نكاد نرى مطبعة أوروبية تمتلك حروفاً عربية لم تنشر طبعة أو طبعات من الإنجيل أو رسائل منه .

أما في إيطاليا فإن حماسة الفاتيكان في ضم المارون والأرثوذكس والنساطرة واليعاقبة والقبط وبقية الكنائس الشرقية إلى كرسي روما وخوفه من انضمامهم للكنائس البروتستانتية كان وراء إنشاء مطبعة الكلية الجزويتية Tipografia del Collegio Romano في روما . فقد أمر البابا بيوس الرابع اليهودي المتنصر إليانو بإنشائها على حسابه فأصدرت أول كتاب بالعربيّة هو «اعتقاد الأمانة الأرتدكسية كنيسة روما» سنة ١٥٦٦ م من تأليف أو ترجمة إليانو . ولعب الهدف نفسه دوراً في إنشاء مطبعة مديتشي في روما بعد الاتفاق الذي تمّ بين الكنيسة المارونية والفاتيكان في سنة ١٥٧٥ م على اتحاد الكنيستين تحت رئاسة بابا روما ؛ فقد أمر البابا غريغوري الثالث عشر سنة ١٥٨٤ م بإنشاء الكلية المارونية في روما لتعليم المنصِّرين الأوروبيين اللغات الشرقية وتعليم نصارى الشرق اللغات الأوروبية وبخاصة المارون الذين انضموا إلى هذه الكلية بحماسة شديدة ، فساعدوا الفاتيكان على تدريب المنصرين وترجمة الكتب التنصيرية ، وفي الوقت نفسه اختار البابا أحد كرادلته ، وهو الكاردنال فردناندو دي مديتشي مديراً ومشرفاً على المطبعة ، فسميت باسمه ، فاختار هذا

جيوفاني باتستا ريموندي Giovani Raimondi وهو أحد المستشرقين الإيطاليين الأوائل ، وكان قد زار الشرق ، وجمع مخطوطات عديدة ، جاء بها إلى روما ، فأصدرت في سنة ١٥٨٤ م بحروف روبرت كرانيون الذي انضمَّ إليها في السنة نفسها أول كتاب لها بالعربية هو Liber vii precationum كتاب «الصلوات السبع» ، وشفعته في سنة ١٥٨٥ م بكتاب «البستان في عجائب الأرض والبلدان» لأبي العباس أحمد بن خليل الصالحي ، الذي ينسبه بروكلمان لسلامش بن كوندوغدو الصالحي ، من رجال القرن العاشر للهجرة[٤٦] . وجاء في صفحة العنوان «طبع بمدينة رومية على يد يوحنا باطتشتا مرايموندي سنة ألف وخمسماية وخمسة وثمانين مسيحية» . وهناك طبعة أخرى تحمل تاريخ ١٥٨٤ م ذكرها سمعون السمعاني في فهرس مكتبة نانيانا في بادوا (المنشور سنة ١٧٨٧ م) ونسب نشرها للطابع الفرنسي روبرت كرانيون Ro-berti Granion المشهور بحروفه العربية الأنيقة في مطبعة دومينيكوس باسا في روما ، وتحمل العنوان كتاب «البستان في عجايب الأرض والبلدان» تأليف العبد الفقير إلى الله الغني سلامش بن كندغدي الصالحي .»[٤٧] والمعروف أن ريموندي اشترى مطبعة دومينيكوس باسا بحروفها العربية سنة ١٥٨٤ م التي قطعها كرانيون فعطف على إغراء كرانيون للعمل معه ، فاستجاب لإغراءات ريموندي المالية ، فتعاون مع مطبعة مديتشي ، فظهر النص مرة ثانية هذه المطبعة بالحروف نفسها في السنة التالية مع تغيير اسم المؤلف الذي اقترحه ريموندي . واستطاع كرانيون في سنة ١٥٨٦ أن يقطع الحروف العربية التي استعملتها مطبعة مديتشي في طبع كتاب «القانون في الطب» لابن سينا مع بعض تأليفه وهو علم المنطق وعلم الطبيعي وعلم الكلام الذي ظهر في سنة ١٥٩٣ م (النموذج رقم ٦) وقبل ذلك بسنتين (سنة ١٥٩١ م) أصدرت هذه المطبعة أربعة آلاف نسخة من كتاب العهد الجديد (الإنجيل) باللغة العربية ، وهو عدد هائل في ذلك الزمن . وفي السنة نفسها أُعيدت طباعة العهد الجديد مع ترجمة لاتينية بين الأسطر العربية ، قام بها اللبناني الماروني جبرائيل الصهيوني . وفي

السنة التالية (١٥٩٢م) صدر منها كتاب «مختصر نزهة المشتاق» للإدريسي لمختصر مجهول ، وأشرف عليه المارونيّان جبرائيل الصهيوني ويوحنا الحصروني ، وترجماه إلى اللاتينية ، ونشراه في باريس سنة ١٦١٩ م بعنوان Geographia Nubensis [٤٨] «جغرافية النوبة» .

ولما كان تدريب المنصرين في الكليات المارونية والجزويتية يحتاج إلى «عدة الشغل» في تعلم القواعد العربية فقد أصدرت مطبعة مديتشي كتاب «الكافية» لابن الحاجب سنة ١٥٩٢ م وكتاب «الآجرّومية» للصنهاجي وكتاب «مبادىء اللغة العربية» ليوحنا ريموندي في السنة نفسها وكتاب «التصريف» للزنجاني سنة ١٦١٠ م حيث كتب مقدمته ريموندي نفسه ، فأكد فيها على أهمية تعلم اللغة العربية لأغراض تنصيرية ، وذلك لأنه «لا يكاد يوجد جزء في العالم لا يستعمل اللغة العربية» . ولما كان الهدف الأساس من إنشاء المطبعة هو نشر الرسالة الكاثوليكية بين نصارى الشرق لتحصينهم ضدَّ عدوى الإسلام ، فقد أمر البابا كليمان الثامن بطبع كتاب : «اعتقاد الأمانة الارتودكسيه مختصر الذي يتقدم برسم الكرسي المقدس الرسولي ليعتقدون به المشارقة الاتيين لأجل اتحادهم مع الكنيسة المقدسة الرومانية» بترجمة إيليا ليفيتا Elia Levita اليهودي المتنصر المعروف بـ يوحنا باتستا إيليانو سنة ١٥٦٦ في مطبعة الجزويت[٤٩] مرةً أخرى في مطبعة مديتشي ، وجاء في نهاية طبعة مديتشي : «ختم في رومي العظمى بأمر قدس سيدنا البابا مار قليمنطس الثامن في طبع الغران دوكا فلورينتسه في سنة ألف [وخمسمايه وخمسة وتسعين]»[٥٠] .

ولم يكن هذا أول كتاب يوجه للنصارى المشارقة ، ففي سنة ١٥٦٣ م وقبل إنشاء مطبعة مديتشي كتب الكاردينال بالرمينو Doctrina Christiana كتاب «العقيدة النصرانية المختصرة» بالإيطالية التي لا يفهمها نصارى الشرق ، فترجمه المارونيان نصرالله شلق العاقوري وجبرائيل الصهيوني - بعد أن تدربا في الكلية المارونية بروما - إلى اللاتينية والعربية بعنوان «التعليم المسيحي» ونشر في روما سنة ١٦١٣ م وسنة ١٦٣٣

و١٦٤٢ و١٦٦٨م «لفائدة المؤمنين الشرقيين» وتُرجم إلى بعض اللغات الشرقية ، وترجما العهد الجديد ، ونشراه بحروف سافاري دي بريف الفرنسي في روما سنة ١٦١٤ م ، ونشر الحصروني والصهيوني أيضاً كتاب «في صناعة النحوية» بحروف سافاري في باريس سنة ١٦١٦ م ، وقام رفيقهما حنا الحصروني بترجمة النص الموسع للكاردينال بلارمينو لكتاب «العقيدة النصرانية» ونشره سنة ١٦٢٧ وأعيد نشره سنة ١٦٣٥ وسنة ١٦٦٨ ، وتُرجم للأرمنية ، ونشر في روما سنة ١٦٣٠ ، وفي باريس سنة ١٦٣٣ ، وفي أمستردام سنة ١٦٦٧ . وتواترت كتب قسس الكاثوليك لهداية «الخراف الضالة» ، فأصدر الكاردينال دي روشيلو كتاب «تعليم المسيحي» وطبع في باريس سنة ١٦٤٠ ومثله فعل توماس كيمبس T. Kempis فكتب كتاب Imitatione Christi وترجمه للعربية بيتروس خوليوس الهولندي - الذي تحول للكاثوليكية ، وانضم للرهبان الكرمليين الحفاة ، واشتغل بالتنصير في حلب والهند ، وهو أخو يعقوب خوليوس المستشرق الهولندي- بعنوان «الاقتداء بالمسيح» ، فنشرته مطبعة البروبغاندة في روما سنة ١٦٦٣ م (النموذج رقم ٧) وأعيد طبعه في روما أيضاً سنة ١٧٣٤ وفي هاله بألمانيا سنة ١٧٣٨ م . ولم تكن ترجمته - على رأي المترجم - لفائدة نصارى الشرق فقط بل للمحمديين أيضاً[٥١] . ولم تقتصر رسالة الفاتيكان على هداية «الخراف الضالة» ، بل تعدتها إلى التشهير برؤساء الكنائس التي رفضت الانضمام تحت راية «الكرسي المقدس» بإصدار منشورات المجامع المسكونية بالعربية لتشويه سمعتهم أمام أتباعهم ؛ مثل المنشور الذي صدر بالعربية من مطبعة يوحنا البوهيمي في روما سنة ١٦٩٤ ضد البطريرك الإسكندري سعيد بن البطريق المعروف بـ أوتاخيوس بعنوان «مضمون المجمع الخلقيدوني المقدس الأرتدوكسي في علة هرطقة أوطاخي المنافق مترجم من اللغة اللاطينية إلى اللغة العربية»[٥٢] . والسبب في نشر هذا المنشور أن المستشرق الإنجليزي جون سيلدن J. Selden نشر قسماً من «تاريخ الكنيسة الملكية» لسعيد بن البطريق بالعربية ، وترجمه

إلى اللاتينية ، فنشر في لندن سنة ١٦٤٢ ، ونشر النص العربي الكامل مع الترجمة بإشراف أدورد بيكوك سنة ١٦٥٨ - ١٦٥٩ ؛ ونشر هوتنجر أيضاً النص العربي مع الترجمة في زيورخ سنة ١٦٥١ وسنة ١٦٦٠ ضمن كتابه Historia Orientalis, Zurich 1651 ، فانبرى لهما أبراهام اكسيلنسيس بإيعاز من الفاتيكان في الرد عليهما بكتاب :

«تفنيد ايتوخيوس بطريرك الاسكندرية والرد على سيلدن وهوتنجر» ، المنشور في مطبعة البروياغندة بروما سنة ١٦٦١ م[٥٣] .

ولم تقتصر «عدة الشغل» على نشر آلات تعليم اللغة العربية بل تعدتها إلى قواعد اللغة القبطية والسريانية والعبرية والحبشية والجورجية والأرمنية واليونانية والبرهمية والمليبارية والتبتية وغيرها من اللغات الأخر ، مما يُظهر النشاط التنصيري الهائل الذي كانت تقوم به الكنيسة الكاثوليكية في روما وفي غيرها من البلدان الأوروبية .

الواضح في تاريخ الاستشراق الأوروبي أن نصارى لبنان كان لهم أثر مهم جداً في هذا التاريخ منذ انضمام المارون إلى الفاتيكان حتى القرن العشرين ، فإن علاقتهم بروما واتصالهم الروحي بها كان له أهمية عميقة في هذا الأثر ؛ فقد هيَّأ لهم السبل لتعاون المستشرقين والمنصرين الأوروبيين معهم ، حتى إننا نجد بعضاً من هؤلاء قد عمل فعلاً مع بعض المستشرقين في مراكز الاستشراق الأوروبي . ولم يكن من باب المصادفة أن يُهدي المستشرق الهولندي توماس أربينوس أول طبعة وما تلاها من طبعات من كتابه : «مبادىء اللغة العربية» الذي نشره في لايدن سنة ١٦١٣ م إلى جبرائيل زيونيتا ويوهانس هسرونيتا وهما : جبرائيل الصهيوني وحنا الحصروني . وفي إحدى طبعات هذا الكتاب بالذات وهي طبعة باريس سنة ١٦٢٠ م أضاف اربينوس بالمشاركة مع كوديوس قائمة بالكتب المعنية بالدراسات العربية حتى وقته ، فذكر طبعة فينيسيا للقرآن الكريم ، وأرخ طبعها بحوالي سنة ١٥٣٠ م . وهناك دراسات أُخر حول الطبعة الفينيسية لـ : دي روسي[٥٤] J. B. de Rossi وغيره[٥٥] .

وقد ظهرت دراسة حديثة للأخ الدكتور يحيى ساعاتي تناول فيها هذه الطبعة وطبعة هامبورغ لإبراهام هنكلمان A. Hinckelmann التي ظهرت سنة ١٦٩٤ م ، وخلص إلى أنها طبعت مابين سنة ١٥٣٧ وسنة ١٥٣٨ م[٥٦] اعتماداً على ما نشرته أنجيلا نيوفو Angela Nuovo في المجلة الإيطالية La Bibliofilia . أما القصد من نشرها فكان - على رأي الكاتبة - تجاريا ، وذلك لتصديرها للسوق العربية التركية ، وأعدت خصيصاً للجماهير الإسلامية التي لم تمتلك بعد آلة الطباعة .

ويضيف صديقنا الفاضل : «وفي ظني أن عدم جودة الطباعة ووجود الأخطاء وعدم العناية بالفواصل كانت من الأسباب التي أدت إلى إحجام المسلمين عن شراء هذه النسخة» . ومع هذا فما زال الغموض يلف هذه الطبعة ، لأننا لا نملك سنداً تاريخياً يؤيد أن هذه الطبعة قد وصلت فعلاً للسوق العربية التركية ! أو أنها خرجت من البندقية أصلاً ؛ فإن اهتمام علماء النصرانية ، كما رأينا ، بالنصوص العربية كان شديداً . فلماذا لا نجد نسخة أخرى منها في أية مكتبة أوروبية عدا الدير الفرنسسكاني في المدينة ذاتها؟ فقد كان الأولى أن تكون نسخة منه في مكتبة الفاتيكان أو بادوا أو باريس؟ بيد أننا نعلم أن طباعة القرآن بأية لغة كان على رأس قوائم الكتب الممنوعة وأن المجامع المسكونية Sacra Congregatio منعت نشر القرآن الكريم أو ترجمته إلى أية لغة مهما كانت ، بل حتى الترجمة اللاتينية التي عملها روبرت أوف كيتون لبطرس المحترم رئيس دير كلوني الفرنسي ونشرها ببلياندر أول مرة سنة ١٥٤٣ في بازل والمرة الثانية في زيورخ[٥٧] سنة ١٥٥٠ م ، منعتها الكنيسة[٥٨] . وإلا فإننا نعلم أن تاجرين إيطاليين حصلا من السلطان مراد الثالث على فرمان مؤرخ سنة ٩٩٦ هـ = ١٥٨٧ م يسمح لهما بتصدير السلع والكتب إلى الأسواق العثمانية . وقد نشر هذا الفرمان في آخر كتاب تحرير أصول إقليدس للطوسي الذي نشرته مطبعة مديتشي سنة ١٥٩٤م ، فكان أول نص تركي بالحروف العربية يطبع في أوروبا (نموذج رقم ٨) .

إن محاولة الفاتيكان كثلكة الطوائف النصرانية في الإمبراطورية العثمانية بخاصة في سوريا ولبنان كان أيضاً وراء ظهور أول كتاب بالعربية في إيطاليا ، استعملت في طباعته الحروف المتحركة . وهو : كتاب «صلاة السواعي» Septem horae canonicae وفق طقوس الكنيسة الملكية المصرية القبطية على يد غريغوريو دي غريغوري الفنيسي (من أهل البندقية) في مدينة فانو سنة ١٥١٤ م التابعة لسلطة الفاتيكان مع أن بعض المؤرخين يؤكد أنها طبعت في جمهورية فينيسيا (النموذج رقم ٩) ، كان بمبادرة من البابا ليون العاشر وعلى نفقته بعد مجمع لاتيران الخامس سنة ١٥١٢م[٥٩] ، الذي قرر العمل على إقناع الكنيسة القبطية بالانضمام إلى كرسي روما . وبعده ظهر كتاب المزامير بالعبراني واليوناني والعربي والكلداني لأوغسطينو جيوستنياني في جنوة سنة ١٥١٦ م من مطبعة بيتروس باولوس (النموذج رقم ١٠) . وعلى الرغم من سوء الحروف وقباحتها إلا أنها أوضح من الحروف التي استعملها رتجر سباي Rutger Spey في نشر رسالة بولس إلى أهل غلاطية سنة ١٥٨٣ في هايدلبرغ بطريقة القوالب الخشبية[٦٠] (النموذج رقم ١١) مما يظهر أن الطباعة العربية بالحروف المتحركة لم تصل إلى ألمانيا بعد ، أو في نشرة كتابي وليم بوستيل :

(١) Lingvarvm duodecim characteri باريس سنة ١٥٣٨ م (النموذج رقم ١٢) .

(٢) Grammatica arabica المطبوع في باريس أيضاً سنة ١٥٤٣ م .

وقد ظهر نص «كتاب السواعي» ضمن كتاب تيسوس أمبروزيوس Introductio in Chaldaicam Linguam «مبادئ اللغة الكلدانية» في مدينة بافيا الإيطالية سنة ١٥٣٩ .

ولم تقتصر حماسة الفاتيكان ومعه طرق الرهبنة المتعددة على هداية «الخراف الضالة» التي تتبع الكنائس الشرقية المختلفة بل تعدتهم إلى «الخرفان العنيدة» التي تعيش في الظلام ، لأن «نور الإنجيل» لم يبدد بعد هذا الظلام المدلهم المحيط بهم ، فبدأوا في تحويل نشاطهم لتنصير المسلمين فأصدروا الكتاب التنصيري الغريب :

«هذا مصاحبت روحانية بين العالمين واسم واحد منهما شيخ سنان واسم الآخر أحمد العالم التي كانت في رجوعهما من الكعبة نافعة لكل مسلم ومسلمة» الذي قيل إن الجزويت نشروه في روما سنة ١٥٦٦ م[٦١] أو سنة ١٥٨١[٦٢] . بيد أنَّ شنورر يؤكد على أن هذا الكتيب كتبه نصراني دون شك لأنَّ لغته عامية وهو خلو من أي شيء يدل على تاريخ الطبع أو مكانه ، ولكنه مع هذا طبع في روما ، وأنه على أكثر الاحتمال من تأليف إليانو . ويستشهد بتقرير توماس أربينوس(٦٣) في تشابه حروفه مع حروف طبعة «اعتقاد الأمانة» الذي ترجمه إيليانو ، وطبعته مطبعة الجزويت بروما سنة ١٥٦٦ م[٦٤] . ومنه نسختان باللاتينية في الفاتيكان بعنوان : "Tractatus per interrogationes et re-sponsiones inter Ahmad al-Tannusi et Senanum Doctorem Aegyptium"[٦٥]

ولم ينته الأمر هنا ، بل بدأت كتب الجدل والردود والدحض تترى دون توقف ، فكان منها سيل عارم جارف بلغات متعددة ، خاصة بعد أن نشر بيلياندر ترجمة دير كلوني ، وبعد أن نشر إبراهام هنكلمان النص العربي مع رده عليه ، وبعد أن نشر لودفج مراجيو رده على القرآن في بادوا سنة ١٦٩٨ . وكل هذه الردود قد سردها شنورر ولامبرت وزنكر وآخرون .

أما إليانو هذا فهو ابن أخي إلياس ليفيتا ، وهما من يهود الشرق الذين اعتنقوا النصرانية ، فانضموا للجزويت في روما ، فقد تعمّد إليانو (بماء المعمودية) سنة ١٥٥١م ، وانضم لهم في سنة ١٥٥٢م ، وبدأ في تدريس العربية والعبرية في كلية الجزويت التي كانت تسمى Collegium Romanum من سنة ١٥٦٢ إلى سنة ١٥٦٥ . وقد قيل عنه إنه لم يكن في وقته من يستطيع فهم لغة الكتابة العربية والكلام بها في روما غيره[٦٦] . فنشرت له المطبعة الملحقة بهذه الكلية كتاب Confessio fidei «اعترافي» باللغة العربية سنة ١٥٦٦ م ، والدافع تنصيري صرف[٦٧] ، لأنه قصةُ رحلته من اليهودية للكاثوليكية .

فلعل كاتب المصاحبة المجهول أراد إقناع نصارى الشرق بصحة اعتقادهم وفساد الإسلام ، فتقمص شخصيتين إسلاميتين ، أجرى على لسانهما ما رآه في الإسلام ونبيه من معايب ، فتلقفه وليم بدويل الإنجليزي الذي يُعدُّ أبا الاستشراق الإنجليزي الذي كان يحلم بتنصير العالم الإسلامي أيضاً ، فأصدر ثلاثة أجزاء صغيرة من كتاب باللغة الإنجليزية القديمة ، ما بين سنة ١٦١٥ وسنة ١٦٢٤م ، وكانت ترجمته لهذا الكتاب الصغير من ضمنها ، بعنوان : Mahomet Unmasked or A Discoverie of the manifold Forgeries, Falfhood, and horrible Impieties of the Blafphemous Seducer Mahomet With a demoftration of the Infufficiencie of his Law, Contained in the cursed ALCORAN Written long fince in Arabicke and now done into Englifh by William Bedwell.

وهو بعد يقول في صفحة العنوان : إن الكتاب قد كُتب بالعربية منذ زمن طويل ، والآن قد عمله بدويل بالإنجليزية . والغالب أنه لم ينشر النص العربي لأننا لا نعرف عنه شيئاً أو أنه لم يكتبه قط ، ومع هذا فإن النص الإنجليزي مليء بسخافاته السمجة وجهله باللغة العربية ، إضافة إلى افتراءاته الباردة على النبي الكريم ص ودينه . وعنوانه يدل على محتواه . بل الغريب أيضاً أن القسم الأخير من كتاب بدويل هذا – وهو سرد لعناوين سور القرآن الكريم الذي ظهر في سنة ١٦١٥ م – كان قد كتبه بناءً على طلب توماس أربينوس أحد أعمدة الاستشراق الهولندي الذي درس عليه[٦٨] .

وكان لابدَّ للنشاط التنصيري من إثارة الجدل ، فأصدر المنصِّر هيورنيموس زفير الذي كان يعمل في إيران والهند كتاباً صغيراً بالفارسية سنة ١٥٩٦ ضد الإسلام بعنوان «آينه حق نما» وكتاب «دستان مسيح» وكلاهما طبع في لايدن بمطبعة الزفير سنة ١٦٣٩ م[٦٩] فانبرى له أحمد بن زين العابدين العلوي فرد عليه برسالة مخطوطة تناقلتها الأيدي[٧٠] . والظاهر أن وقعها كان شديداً على الفاتيكان فأوعزت لفليبو كوادكنولوس أول أستاذ للعربية في جامعة روما بالرد عليه ، فكتبه أولاً باللاتينية بعنوان : Apologia pro Christiana «دفاع عن النصرانية» ، ونشره مركز نشر الدين

الكاثوليكي في روما سنة ١٦٣١ ، ونُشرت الترجمة العربية التي قيل إنه كتبها أولاً بالعربية سنة ١٦٣٧ م بعنوان : «إجابة القسيس الحقير فيليبس كوادانولوس الراهب من رهبانية يقال لها بلغة الفرنجي كليريكوس مينور إلى أحمد الشريف بن زين العابدين الفارسي الأسبهاني طبع هذا الكتاب المبارك الحقير يوسف من جبل لبنان المبارك من قرية بسلوقيت في روميه العظمى»(٧١) . والظاهر من العنوان أن يوسف الماروني هذا ترجمها له .

وانتقلت الحمى التنصيرية إلى إنجلترا فقام أدورد بيكوك الذي ترجم كتاب اللاهوتي الهولندي هوخو دي خروت فنشره في أكسفورد سنة ١٦٦٠ بعنوان «كتاب في صحة الشريعة المسيحية» فاختار منه فصولاً وسمَّاها كتاب «مفتاح الخزائن ومصباح الدفائن» فنشره في لندن(٧٢) بدون مؤلف أو تاريخ ، ووزعته شركة الهند الشرقية في منطقة الخليج العربي ، فانبرى في الرد عليه الشيخ عبدالعزيز بن حمد بن ناصر آل مُعَمَّر بكتاب «منحة القريب المجيب في الرد على عبَّاد الصليب»(٧٣) وأمثال ذلك كثير .

ومع هذا فإن دراسة اللغة العربية في أوروبا لم تكن قليلة الأهمية بحيث إن دراستها كانت أمراً ثانوياً مساعداً في دراسة نصوص العهد القديم والجديد فحسب كما هو معروف ، بل كان هناك اهتمام عميق في دراستها عند فئة أخرى للوصول إلى معرفة ما كتب بالعربية في علم الفلك والطب مثلاً ، ويظهر هذا الاهتمام في كتاب المستشرق الفلكي الألماني يعقوب كرستمان Jacobus Christmannus الذي ترجم مخطوطة العالم الفلكي أحمد بن محمد بن كثير الفرغاني «في الحركات السماوية» في علم الفلك إلى اللاتينية ، ونشرها مع تعليقاته وشروحه في فرانكفورت سنة ١٥٩٠م ، وأعيد نشر كتابه هذا سنة ١٦١٨ ، مما حفز المستشرق الهولندي يعقوب خوليوس الذي خلف أربينوس في لايدن ليقوم بتحقيق النص العربي الذي نُشر في

أمستردام سنة ١٦٦٩ م بمطبعة فاير سترات E. Weyerstraet بعد سنتين من موته سنة ١٦٦٧ م . والغريب أن هذا الاهتمام بغير الأدوات التنصيرية كان ضعيفاً خافتاً في هذا القرن ، واستمر خلال القرن الثامن عشر ، إلا من بعض الدراسات والترجمات التي انصبت على الاختيارات من تاريخ أبي الفداء وتقويم البلدان وسيرة صلاح الدين لابن شداد التي كان المستشرق الهولندي ألبرت سخولتنس مولعاً بها ، أو كتب عبداللطيف البغدادي الطبية(٧٤) . وحسبنا أن نشير إلى أن كرسي اللغة العربية في جامعة لايدن وفي غيرها من الجامعات الأوروبية قد اختفى في القرن الثامن عشر ، وألحقت دراسة اللغة العربية بكرسي اللغة العبرية ودراسة التوراة ، مما أدى إلى أن دراسة اللغة العربية أصبحت محصورة في إطار علم مقارنة اللغات السامية . ويظهر هذا الاتجاه واضحاً في محاضرة ألبرت سخولتنس سنة ١٧٢٩ ، فقال : «إن العربية بنت العبرية ، وإن دراستها تخدم اللاهوت» وأعاد رأيه هذا في خطاب تنصيبه أستاذاً في جامعة لايدن سنة ١٧٣٢ ، فانبرى له المستشرق الألماني يوهان ياكوب رايسكه الذي كان مولعاً بالشعر الجاهلي ، ففند آراءه بعنف ، فبدأت دراسة اللغة العربية تأخذ منحىً جديداً وبخاصة في المدرسة الألمانية ، حيث انتقلت إليها الدراسات اللغوية ، فتحولت لغة الاستشراق من اللاتينية إلى اللغات المحلية كالألمانية والفرنسية وغيرها .

ولم يكد القرن الثامن عشر يصل إلى نهايته حتى بدأ تغيير جذري في النشاط الاستشراقي الأوروبي إذ إن هذه الفترة شهدت ما يسمى في التاريخ الأوروبي بالحركة العقلانية أو ما تسمى بعصر التنوير التي كانت في كل مظاهرها الفكرية موجهة ضد التيارات الدينية وضد سيطرة الكنيسة إضافة إلى الدوافع السياسية التي كانت موجهة إلى إلغاء الأنظمة الإقطاعية في أوروبا . وقد ازداد الاهتمام بالثقافات التي ازدهرت خارج حدود البلدان النصرانية بسبب زيادة التوسع الاقتصادي والسياسي الأوروبي والاستعماري ، وبخاصة بعد أن قاد نابليون حملته العسكرية على مصر ، فبدأ عصر

الاستعمار الفرنسي ، فوقف الغرب منذ ذلك الحين وجهاً لوجه مع الشرق . وفي هذه الفترة بالذات أصبحت معرفة اللغة العربية واللغات الشرقية عموماً أمراً ضرورياً لكل بلد أوروبي له مصلحة سياسية استعمارية واسعة في العالم العربي والإسلامي ، بما في ذلك هولندا التي تقاسمت العالم الإسلامي مع القوى الاستعمارية الأوروبية . وهذا حديث آخر تعجُّ فيه الشجون .

الطباعة العربية في هولندا

أما الطباعة العربية في هولندا فقد كانت متأخرة نسبياً عن غيرها من البلدان الأوروبية ، وكانت في بدايتها ، كما كانت في غيرها من البلدان الأوروبية لاهوتية تنصيرية . وقد بدأ هذا الاتجاه واضحاً في خطاب مجلس الجامعة والبلدية في تعيين خلف رافيئلنجس : «فلعل عبر الإبحار إلى الهند الشرقية (الهولندية) يمكن نشر كلمة الله المقدسة بين الأمة العمياء» . فقد بدأت الطباعة العربية في مدينة لايدن مباشرة بعد إنشاء فرع لمطبعة كرستوفل بلانتاين سنة ١٥٨٥ م وانتقاله من انتفيرب ببلجيكا التي كانت تحت السيطرة الإسبانية الكاثوليكية إلى مدينة لايدن بهولندا البروتستانتية التي تخلصت حديثاً من الحكم الإسباني بعد حروب طويلة دامت من سنة ١٥٦٨ إلى سنة ١٦٤٨ ، فأُنشئت في لايدن بعد أن تحررت من الحكم الإسباني أول جامعة بمفهومها الحديث سنة ١٥٧٥ م . وفي سنة ١٥٨٦ م عين أمناء الجامعة فرانسسكوس رفائيلجوس صهر كرستوفل بلانتاين ، الذي كان مشرفاً على فرع المطبعة ، أستاذاً للعبرية فيها ، وكان قد ساعد بلانتاين على نشر الإنجيل المتعدد اللغات في أنتفيرب ، فاستعان بأحد حفاري الخشب على قطع الحروف العربية لمطبعته ، فنشر نماذج منها في كتابه الصغير : «نماذج من الحروف العربية في مطبعة بلانتاين - رافئيلنجوس» المطبوع مع المزمور الخمسين بالعربية واللاتينية بين السطور في لايدن سنة ١٥٩٥ م[٧٥] حيث يظهر فيها تأثير الحرف المغربي (النموذج

رقم ١٣) ، وصنف معجماً بالعربية واللاتينية لفائدة التجار المسافرين طبع سنة ١٦١٣ بعد موته (النموذج رقم ١٤) . وقبل سنة ١٦١٢ من ظهور هذا المعجم نُشر في مدينة هاناو بألمانيا معجم شنْدلر المتعدد اللغات[٧٦] . وطبعت مطبعته سنة ١٥٩٥ م خطاب توصية من أمير هولندا لبعض التجار الذين أرادوا ارتياد الشرق الأقصى للتجارة(٧٧) بالعربية الفصحى المكسرة والعامية (النموذج رقم ١٥) .

وفي سنة ١٥٩٣ م عينت جامعة لايدن جوزيف يوستوس سكاليخر الفرنسي من أصل إيطالي لتشجيع الدراسات الشرقية . ولم يُعْنَ سكاليخر بالعربية إلا بقدر ما تعينه على دراسة علم الفلك . وقد كان سكاليخر قد درس العربية على وليم أو غوليوم بوستيل الفرنسي الذي كان قد تعلم شيئاً من العربية في أثناء مكوثه باستانبول صحبة المبعوث الفرنسي إليها ، فنزع إلى ما نزع إليه ريموند لول وبدويل وأمثالهما الكثر من الاعتقاد بسهولة تنصير المسلمين : «إذا قدمنا لهم بعض الحجج النصرانية المختارة التي لا تدحض باللغة العربية»[٧٨] . أو قوله : «إن من يعرف العربية يستطيع أن يطعن كل أعداء الدين النصراني بسيف الإنجيل ويدحض ديانتهم بعقيدتهم ، وبمعرفة لغة واحدة فقط يستطيع أن يتخاطب مع العالم كله»[٧٩] ، فكان هدفه من نشر كتابه في القواعد العربية سنة ١٥٣٨ م لم يتعد تدريب المنصرين على العربية . ولعل الغريب في أخلاقه أنه دعا بشدة إلى وحدة الأديان العالمية ووحدة الأمم في دولة واحدة في كتابه .De Orbis terrae concordia etc[٨٠] المطبوع في بازل سنة ١٥٤٤ م ولذلك سمي إذ ذاك بـ «الرجل الحالم» ، والأمر الأغرب فيه أنّ هذا العالم وهذه الدولة يجب أن يكونا نصرانيين .

ومع أن مطبعة مديتشي وغيرها طبعت جملة من كتب القواعد العربية الأخرى فإن هذه الحماسة العارمة لإنقاذ التائهين في ظلمات الضلال قد تعدت إلى يعقوب كرستمان الذي نشر كتابه Alphabetum Arabicum في نوشتاد بألمانيا سنة ١٥٨٢ م ،

واستعمل القوالب الخشبية في طباعة النصوص العربية ، ورتجر سباي الذي نشر كتابه Compendium Grammatices Arabicae في ألمانيا أيضاً سنة ١٥٨٣ م وإلى بارتيمليو رادتمان ، فنشر كتابه «مقدمة في اللغة العربية» في فرانكفورت سنة ١٥٩٢ م(٨١) وإلى بيتر كيرستن الذي نشر كتاباً في القواعد العربية في برسلاو سنة ١٦٠٨ - ١٦١٠ م في ثلاثة أجزاء وفرانسسكو مارتيلوتو الذي نشر Institutiones linguae arabicae في روما سنة ١٦٢٠م ، وبطرس المطوشي الماروني ، الذي نشر كتابه في القواعد العربية في روما سنة ١٦٣٤ م(٨٢) ، وتوماس اوبجيني الذي نشر الآجُرُّومِيَّة مع ترجمتها إلى اللاتينية في روما سنة ١٦٣١ م(٨٣) ، والمستشرق الألماني كرستيان رافيوس C. Ravius الذي كان على صلة بأحد نصارى حلب في أترخت بهولندا(٨٤) والذي كان يعقوب خوليوس يستعين به أيضاً ، نشر كتابه الغريب العجيب ،A general grammer for the ready the Ethiopic languages،attaining of the Ebrew, Samaritan, Calde, Syriac, Arabic and فكان أول كتاب في القواعد العربية ينشر في لندن سنة ١٦٥٠ م(٨٥) .

والغريب أن كتاب «الآجرومية» قد أثّر تأثيراً بالغاً في الاستشراق الأوروبي أيضاً ما بين القرن السادس عشر والثامن عشر ، فقد نشره المستشرق الإيطالي ريموندي ، وترجمه إلى اللاتينية لغرض تنصيري سنة ١٥٩٢ م كما رأينا ، وقد أصبح هذا الكتاب في النهاية أساس كتاب «القواعد العربية» الذي نشره المستشرق الهولندي توماس أربينوس في لايدن أول مرة سنة ١٦١٣ م (النموذج رقم ١٦) ، حيث كان أربينوس يدرِّس العربية . وقد ظهرت طبعة مختصرة لهذا الكتاب في لايدن أيضاً بعنوان : «مبادى اللغة العربية» ، أضاف أربينوس إليها بعض التمارين في القواعد العربية وإرشادات حول تنظيم دراسة اللغة العربية بطريقة ناجحة . ومع وجود طبعة مديتشي للآجرومية وطبعة أوبجيني فقد نشرها اربينوس أيضاً بمطبعته مع كتاب «العوامل المئة» الذي نسبه للجرجاني سنة ١٦١٧ م .

لقد استمر تأثير كتاب أربينوس قوياً في الحلقات الاستشراقية الأوروبية بعد أن نقّحه جبرائيل الصهيوني وسخولتنس وميخائيليس وأضافوا إليه ، فتكرر طبعه مراراً عديدة[٨٦] ليكون الكتاب الأول لتدريس العربية للمبتدئين في جميع أنحاء أوروبا . حتى إن رئيس وزراء فرنسا الكاردينال روشيلو أمر بطباعته سنة ١٦٣٨ وتوزيعه مجاناً على الهيئات التنصيرية العاملة في شمال إفريقيا ، كما يظهر في صفحة العنوان . والطريف في الأمر أن كتاب أربينوس لم يفقد أهميته نهائياً إلا في بداية القرن التاسع عشر حين حلَّ كتاب «التحفة السنية في علم العربية» لسلفستر دي ساسي الفرنسي محله ، وقد ظهرت طبعته الأولى سنة ١٨١٠ م .

الواضح أن نشر هذه «الأدوات» لتعليم اللغة العربية لم يكن دافعه علمياً محضاً ، بل كان دافعاً سيطرت عليه أهداف تنصيرية وجدلية بل استعمارية ، ومن هنا فإننا لا نكاد نرى في أغلب هذه «الأدوات» أية نصوص قرآنية ، بل إن أغلبية النصوص المختارة هي من الترجمات العربية للعهد الجديد أو القديم . ولعل كتاب حنا شلق العاقوري المنشور في روما سنة ١٦٢٢ وكتاب بطرس المطوشي المعروف بـ ميتوستا في القواعد العربية المنشور في روما سنة ١٦٢٤ أحسنُ مثالين على اختيار النصوص من ترجمات الإنجيل .

لقد كان الاستشراق الهولندي الذي كانت لايدن مركزاً له مسيطراً على الدراسات اللغوية وبخاصة فيما يتعلق بالمعاجم العربية ، مع أنه سبق أن كانت هناك محاولات استشراقية مختلفة في أوروبا في القرن السابع عشر في مجال المعاجم العربية ، بيد أن هذه المحاولات لا يمكننا أن نصفها إلا بالمحاولات الفاشلة ، وأحسن مثال على ذلك محاولة جرمانوس السليزي حين نشر «معجم اللغة العربية العامية» بالعامية والإيطالية ، وطبعه في روما سنة ١٦٣٦ م لفائدة المنصرين في تعلم اللغة العامية للوصول مباشرة إلى المسلمين ، ومع هذا فلم يكن ذا أثر فعال في دراسة اللغة العربية

الأدبية في الحلقات الاستشراقية ، بل اقتصر تأثيره في المنصرين ، إذ سرعان ما حلّ معجم رافئيلنجوس اللاتيني العربي الذي نشر في لايدن سنة ١٦١٣ محله ، بيد أن تأثير هذا المعجم لم يدم طويلاً ، فقد حلّ معجم يعقوب خوليوس المطبوع في لايدن أيضاً سنة ١٦٥٣ م محله . وقد اعتمد خوليوس في تأليف هذا المعجم على بعض المعاجم العربية بما فيها كتاب «القاموس المحيط» للفيروزآبادي . واستمرت سيطرة معجم خوليوس على الدراسات الاستشراقية أكثر من قرن ونصف ، ثم فقد تأثيره بظهور «معجم فرايتاج» العربي اللاتيني بأجزائه الأربعة في مدينة هاله بألمانيا ما بين سنة ١٨٣٠ وسنة ١٨٣٧ م .

لقد كان تأثير بوستيل عميقاً في معاصريه أو في من درس عليه أمثال يعقوب كرستمان ورتجر سباي الألمانيين وسكاليخر الفرنسي وغيرهم من المستشرقين واللاهوتيين في استعمال نصوص الإنجيل المترجمة في تعليم العربية وفي اعتقادهم الراسخ أن اللغة العبرية هي أم اللغات السامية وأن اللغة العربية إنما تُدرس فقط لأنها وسيلة مساعدة لفهم بعض الألفاظ العبرية الصعبة في التوراة العبرية . ومن هنا فإن المستشرقين في القرن السابع عشر لم ينتجوا شيئاً جديداً ، وكل الذي نراه من نشاط استشراقي في هذا القرن لا يعدو العمل على نشر الكتب التعليمية التي سبق أن ظهرت في القرن السابق ، والسبب يكمن في أن سمة الاستشراق في هذا القرن كانت لاهوتية صرفاً . ومع أن سكاليخر دعا إلى تعليم اللغة العربية باستعمال النص القرآني وذلك بمقارنته مع الترجمة اللاتينية لروبرت أوف كيتون التي نشرها تيودور ببلياندر Theodor Bibliander في بازل سنة ١٥٤٣ م ، ومع أنه قال لأحد المستشرقين الفرنسيين : «لا تستطيع أن تتعلم العربية بدون القرآن ، كما أنك لا تستطيع أن تتعلم العبرية بدون التوراة»(٨٧) ، إلا أنه كان يرى : «إنه يجب دراسة اللغة العربية لأغراض تنصيرية ، وذلك لمساعدة اللاهوتيين الغربيين لدحض القرآن وتحويل المسلمين إلى النصرانية(٨٨) . ولم يكن خليفته توماس آربينوس في كرسي اللغة العربية أقل حماسة

من أستاذه في بيان فائدة اللغة العربية في فهم نصوص التوراة والإنجيل العبريين وترجمة التلمود الآرامي «فإنها تلقي الضوء على بعض الكلمات والجمل في النص العبري وتفسرها»[٨٩] . بيد أن الوجه التنصيري العملي لتعلم اللغة العربية بان واضحاً في خطاب تنصيبه أستاذاً في الجامعة فقال : «إنَّ لدى المسلمين علماء كلام أكثر مما أتمنى ، وهم في غالبيتهم فاسدون ضالون ، لأنهم أعداء الألوهية وصليب المخلّص ، ومع هذا فإن تعلم العربية - كما يستطيع أي إنسان أن يرى ذلك بسهولة - مفيدٌ للنصارى ، بل حتى ضروري لكي نعيد إلى المسيح الكثير من هذه الأمة العظيمة ، فإنه بدون هذه اللغة لا يمكن أن يفهموا ، ولا يمكن أن نجعلهم ينحرفون عن هذه الهرطقات العنيدة التي سممت عقولهم» . وفي مقدمة كتابه حول سورة يوسف أعلن عن نيته لترجمة القرآن كله إلى اللغة اللاتينية وذلك «بتفسيره تفسيراً أميناً ودحضه دحضاً شاملاً» بيد أن هذا المشروع مات بموته ، فتلقفه خليفته يعقوب خوليوس مؤلف القاموس العربي اللاتيني ، فمات أيضاً في لحده ، على أنه قال في مقدمة كتاب «عجائب المقدور» لابن عربشاه الذي نشره في لايدن سنة ١٦٣٦م : «إنه من المهم أن يعرف العالم النصراني هذه الخرافات والأخطاء (عند المسلمين) لكي تُفهم فهماً تاماً حتى تُحارَب بإخلاص وحماسة ، وحتى يمكننا أن نجد الدواء الناجع في المنطق الصحيح والتقوى لكي نعالج هذه القرحة التي أُهملت قروناً عديدة أو بقيت في الظلام فقدرت على التعفن فأصابت جزءاً كبيراً من العالم بالعدوى»[٩٠] . وقد رأى مستشرق هولندي معاصر أن عمل خوليوس هذا «كان مقصوداً به في المقام الأول الطلبة النصارى الذين يدرسون العربية والذين أراد حمايتهم من مهاوي الزندقة الإسلامية»[٩١] . وقد أراد خوليوس أن يداوي العقل الإسلامي (العفن) بالدواء الناجع ، فعمل على ترجمة كتاب في دحض الإسلام كتبه بالإسبانية يوهانس أندرياس اليهودي المتنصرٌ[٩٢] فلم يكمله خوليوس[٩٣] . وكان أستاذه سكاليخر قد سبقه إلى ذلك ، إذ بدأ بترجمته من الإسبانية إلى اللاتينية بعنوان

«تهافت النحلة المحمدية» Confusion Sectae Muhammedicae[٩٤] . وقد نُشر هذا الكتاب بالإسبانية في إشبيلية سنة ١٥٣٧ م وبالإيطالية في إشبيلية أيضاً سنة ١٥٤٠ م[٩٥] .

ولما كان خوليوس قنصلاً للجمهورية في حلب فقد ترجم بمساعدة بعض نصارى حلب كتباً في المواعظ النصرانية وفي العقيدة وطقوسها لفائدة نصارى الشرق الذين «أنقذوا من الطوفان المحمدي» .

وفي هذه الفترة بالذات بدأ التقارب التجاري والسياسي بين جمهورية هولندا من جانب والدولة العثمانية والمغرب من جانب آخر للعداوة المشتركة لإسبانيا التي لم تزل تحتل القسم الجنوبي من الأراضي المنخفضة المسمى الآن بلجيكا ، واشتد هذا التقارب في بداية القرن السابع عشر بين المغرب وهولندا إلى حد أن القراصنة الهولنديين كانوا يلجؤون إلى المرافىء المغربية ويتعاونون مع المغاربة ضد السفن الإسبانية ، بل إن بعض القراصنة الهولنديين اختار الجزائر مقراً له ، ومنهم من اعتنق الإسلام وتدرج في السلك البحري الإسلامي ، فوصل إلى مراكز عالية في خدمة المغرب أو الدولة العثمانية ، وأصبح تبادل الممثلين أمراً سياسياً وتجارياً مألوفاً ، إلى حد أن الأمير موريتس عرض مشروع حلف عسكري سنة ١٦١٥ م بين هولندا والدولة العثمانية والمغرب لاحتلال إسبانيا واسترداد الأندلس[٩٦] بيد أن هذا الحلف لم يتحقق لانشغال السلطان العثماني بالبلقان والمغربي بالفتن الداخلية . ومع هذا فقد حصل الهولنديون سنة ١٦١٢ م على امتيازاتهم التجارية الخاصة مساواةً لجمهورية فينيسيا (البندقية) وإنجلترا وفرنسا في الإمبراطورية العثمانية لإنشاء مراكز تجارية في الدولة العثمانية ، فصار لهم قناصل في المراكز التجارية في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا وبخاصة في موانىء البحر الأبيض المتوسط . وقد أدى هذا التقارب إلى ظهور الحاجة العملية ، مما دفع جامعة لايدن إلى تعيين يان تونس[٩٧] Jan Theu-nisz لتدريس العربية فيها . وكان هذا طبّاعاً وبائعاً للكتب ومديراً لأحد الفنادق في أمستردام ، وكان له اهتمام بالعربية ، درس شيئاً منها على رافلنجوس ، وحدث أن

نزل أحد المبعوثين المغاربة في فندقه فتعلم منه شيئاً آخر ، وفي الوقت نفسه تعاون مع المطبعة في لايدن ، فنشرت له سنة ١٦١٢ رسالة بولص إلى تيتس بالعربية واللاتينية ، وكتب كتاباً في مجادلته مع هذا المبعوث المغربي الذي سمّاه عبدالعزيز في الدفاع عن النصرانية لم ينشر بعد(٩٨) . ومع كل هذا فقد رفض مجلس الجامعة تعيين يان تونس أستاذاً فيها لاختلاف نحلته النصرانية(٩٩) . وفي السنة نفسها نشرت هذه المطبعة رسائل يوحنا لوليم بدويل بالعربية واللاتينية أيضاً ، وفي هذه السنة بالذات عاد أربينوس تلميذ بدويل إلى لايدن من باريس ، فنشرت له هذه المطبعة كتابه «في القواعد العربية» سنة ١٦١٣م ، فاختارته جامعة لايدن لتدريس العربية ، وفي السنة ذاتها نشرت هذه المطبعة له النص العربي والترجمة اللاتينية لجزء من إنجيل متى ، لتتبعه سنة ١٦١٤ بكتاب «الأمثال» الذي بدأه سكاليخر وكاسوبون الفرنسي ، وأتمه وصححه أربينوس (النموذج رقم ١٧) ، وكان هذا آخر كتاب تخرجه هذه المطبعة ، إذ اشترى بدويل بعض حروفها العربية ، فانتقلت معه إلى إنجلترا . أما ما تبقى منها فلم يعرف له خبر . فقرر أربينوس أن ينشيء في بيته مطبعة لنفسه ، وأن يجد من يقطع له الحروف العربية على نمط حروف مطبعة مديتشي ، فكان كتاب «أمثال لقمان الحكيم وبعض أقوال العرب» أول كتاب تخرجه مطبعة أربينوس سنة ١٦١٥ م (النموذج رقم ١٨) . وفي سنة ١٦١٦ نشر أربينوس كتاب «العهد الجديد لربنا يسوع المسيح» وكتب في دائرة في أعلى صفحة العنوان : «لا إله إلا الله والمسيح ابن الله» (النموذج رقم ١٩) . ونشر سورة يوسف وتهجي العرب مع ترجمة ببليانذر وترجمته وتعليقاته سنة ١٦١٧ (النموذج رقم ٢٠) وكتاب «تاريخ المسلمين من صاحب الشريعة أبي القاسم محمد إلى الدولة الأتابكية» سنة ١٦٢٥ م بالعربية واللاتينية (النموذج رقم ٢١) ، وفي السنة نفسها طبع النص العربي دون ترجمة (النموذج رقم ٢٢) ، وكانت نشرته ناقصة فنشر كلود كاهن تكملتها في سنة ١٩٥٥(١٠٠) .

ولما كان أربينوس في باريس التقى هناك بيوسف بن أبي دقن القبطي المصري الذي لم يفهم من العربية إلا العامية المصرية كما يظهر من مراسلاته . والتقى بجبرائيل الصهيوني ويوحنا الحصروني المارونيين اللذين أهدى إليهما أول كتاب له ، وبوساطة الطبيب الفرنسي إيتيان هوبرت – الذي سبق أن اشتغل طبيباً وجاسوساً في البلاط المغربي[١٠١] – قابل في باريس أيضاً المبعوث المغربي أحمد بن قاسم الحجري الذي جاء لاسترداد ما سرقه القراصنة الفرنسيون من أموال الموريسكو ومتاعهم بعد أن استأجروهم لنقلهم من موانيء الأندلس إلى المغرب حين طردهم الملك الإسباني فيليب الثالث . ولا بد أن الحجري ساعده كثيراً في تأليف كتاب «القواعد العربية» وفي تعلّم العربية عليه ، بيد أنه لم يذكر الحجري بحرف قط في كل ما نشر[١٠٢] . ولما جاء الحجري إلى هولندا زار أربينوس في لايدن وتجادل معه فقال الحجري : «وهو يثبت قوله بالتثليث في الألوهية وكان يشكر ويمدح دينه كثيراً» وهذا ما سبق أن كتبه لإسحاق كاسوبون الفرنسي فقال : «إنني سأكون أكثر قدرة على خدمة أبناء جنسي بصفتي قسيساً من خدمتهم لو كنت عالماً لغوياً» . وقد بيَّن أربينوس هذه الرغبة في خطاب لكاسوبون فقال : «إن معرفة المصادر الفقهية الإسلامية شرط أساس لأية مجادلة مثمرة مع المسلمين» . ومع كل هذا فعلى الرغم من أن أربينوس وخليفته خوليوس لم يكنّا أي احترام للإسلام على أنه دين إلهي ووصفهم إياه بـ «دين الخرافات» إلا أنهما كانا عاملاً فعالاً في إرساء قواعد الاستشراق الهولندي بخاصة والأوروبي بعامة على أسس لغوية حديثة ، اختلفت إلى حد ما في تناولها الشرق وأهله عن الأسس التنصيرية الصِّرف التي لم يحد عنها الكثير من معاصريهم في أوروبا . ومع هذا الاختلاف فإن الاستشراق الهولندي بعامة والرأي العام بخاصة لم يزل يحتفظ بالمفاهيم التي أرساها اللاهوتيون حول الإسلام وأهله . وهو لم يتحرر بعد من تراكمات الصور (التي تسمى بالهولندية Beeldorming) التي غلغلتها كتابات الجدليين على مرِّ القرون في العقل الأوروبي ، وهي بعد لم تزل

تتجدد وتنبش من أكفانها سواء أساء عربي أو مسلم التصرف أم لم يسئ ، بل يُلف من ينشر غسيله في بيان عوار الإسلام ، إن كان فيه عوار ، بالتجلة والتبجيل حفاظاً على حق البشر في حرية الكلام والتعبير عن الفكر الحر ! !

الأمر الواضح أن الاتجاه الاستشراقي كان لاهوتياً صرفاً في أهدافه ودوافعه خلال القرن السابع عشر والثامن عشر ، ويظهر هذا الاتجاه في ما نشره المستشرقون الأوروبيون حول الإسلام خلال هذين القرنين ، بيد أن هذا الاتجاه قد تبدل نسبياً في النصف الأول من القرن التاسع عشر ، حين سيطرت الكتابات الاستشراقية التي تناولت النشاط الفكري الدنيوي في الإسلام على غيرها . ولم يكن هذا التحول في الدراسات الاستشراقية من العناية بالفكر الديني إلى الفكر الدنيوي خاصاً بالاستشراق ، بل تعدّاه إلى غيره من المحاولات لأن هذا التحول كان قد سيطر على الفكر الأوروبي كله في النصف الأول من القرن التاسع عشر . ولم يكن هذا في حقيقة الأمر إلا نتيجة لتحطم قوة الكنيسة بعد الانشقاقات الكثيرة التي حدثت فيها ، فوَهَن دورها وأثرها في المجتمع الأوروبي ، فبرزت ردة الفعل واضحة ضد الكنيسة في ضروب الفن المختلفة والدراسات الإنسانية ، بما في ذلك الدراسات الاستشراقية . فزاد اهتمام المستشرقين في هذه الفترة بالموضوعات التاريخية الإسلامية «أمثال مغازي الواقدي» و«طبقات ابن سعد» و«تواريخ مكة المكرمة» و«سيرة ابن هشام» وكتب الرجال والتراجم إضافة إلى النصوص الجغرافية التي كتبها أمثال ابن حوقل والإدريسي وكتب البلدان الأخرى ودواوين الشعر وألف ليلة وليلة وما إلى ذلك .

ومع كلّ هذا فإن الاهتمام بدراسة اللغة العربية والفكر الإسلامي لم يكن كله في القرن التاسع عشر بمثل هذه الصورة إذ إن الاتجاه العدائي للفكر الديني النصراني الذي تمثل في التيار العقلاني ضد تعاليم الكنيسة ظهر أيضاً بصورة واضحة في الدراسات الاستشراقية ضد الإسلام ؛ فإن المفاهيم التي سيطرت على الفكر الأوروبي في أن الدين الإسلامي لا يختلف عن النصرانية في تأثيره في إعاقة ازدهار الحضارة

والعلوم في العالم الإسلامي كما فعلت النصرانية في العالم الغربي ظهرت واضحة المعالم في كتاب المستشرق الفرنسي أولسنر : «حول تأثير دين محمد خلال القرون الثلاثة الأولى من بداية إنشاء دينه على الجانب الروحي والعادات وأنظمة حكم الشعوب التي اعتنقت دينه» (١٠٣) ، بل إن هذا الاهتمام العميق الذي أولاه بعض المستشرقين لأديان الجاهلية نبع بالدرجة الأولى من هذا الاتجاه مثل كتاب المستشرق فردريك بيرجمان : «حول ديانة العرب في فترة ما قبل الإسلام» (١٠٤) وكتاب أنطون تيودور هارتمان : «محاولة لتصوير بلاد العرب ابتداء من أقدم العصور حتى عصر محمد لتقديم مفهوم أفضل لهذا النبي وقرآنه» (١٠٥) وكتاب المستشرق غوستاف فايل : «محمد النبي : حياته وتعاليمه من المخطوطات والقرآن» (١٠٦) وأمثالهما . واستمر النشاط الجدلي الموجه ضد الإسلام سواء من البروتستانت أم من الكاثوليك في روما وغيرها من المراكز الاستشراقية والتنصيرية عنيفاً ، ولم يزل كما كان إن لم يكن أعنف في وسائل الإعلام المختلفة وفي الأنشطة الكنسية المنتشرة في شتى أقطار العالم وبلدانه وقراه وطرقه المزفتة والترابية والصخرية وأحراشه وغاباته وصحاراه ، وعود في عين الحسود ! ! ﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم﴾(١٠٧) و﴿ إن الله لا يغيِّر ما بقوم حتى يغيِّروا ما بأنفسهم﴾(١٠٨) .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

الحواشـــي

(١) تاريخ الكتاب، لاسكندر ستيبتشفيتش، ترجمة محمد الأرناؤوط، الكويت ١٤١٣ هـ = ١٩٩٣م، ١/ ٤٨ .

(٢) تاريخ الكتاب من أقدم العصور إلى الوقت الحاضر، ترجمة محمد صلاح الدين حلمي، القاهرة ١٩٥٨، ص ١٠٠ .

(٣) في سنة ١٢٧٦م أسس مصنع آخر في مدينة فابريانو بايطاليا وآخر في بولونيا سنة ١٢٩٣م .

(٤) المصدر نفسه ١/ ١٩٩ .

(٥) تاريخ الكتاب ١/ ٢٤٨ .

(6) T. F. Carter, The Invention of Printing in China and its Spread Westward, New York1925, PP.134-55 and240.

(7) T.F. Carter, Islam as a Barrier to Printing, in Muslim World XXXIII (1926) P.213

أعاد كارتر هنا ما قاله في كتابه السابق، ص ١١٢ - ١١٥ .

(٨) اختراع الطباعة في الصين وانتشارها باتجاه الغرب، نقلاً من تاريخ الكتاب ١/ ٢٤٨ .

(٩) ذكر استعمال الصينيين ومن بعدهم الأوروبيين للقوالب الخشبية فقط٩٦ - ٩٨ .

(10) Cf. Gy. Kaldy-Nagy, Beginnings of the Arabic-Letter Printing in the Muslim World, in The Muslim East; Studies in Honour of Julius Germanus, Budapest1974, PP. 201-211

حول الطباعة في الدولة العثمانية وأسباب تأخر الطباعة فيها ودور إبراهيم متفرقة .

(11) Cf. Rosenthal, F., Gambling in Islam, E.J. Brill- Leiden, 1975.

(12) G. Levi Della Vida, An Arabic Book Print, in: The Scientific Monthly 59, Dec.1944.

- F. Bonola Bey, Note sur l'origine de l'imprimerie arabe en Europe, in: Bulletin de l'Institut d'Egypte,5th Series, III 1909.

- R.W. Bulliet, Medieval Arabic tarash; a forgotten chapter in the history of printing, in: Journal of American Oriental Society, CVII 1987.

- T.F. Carter, The Invention of Printing in China and its spread Westward, New York1925.

- Karabacek, Papyrus Erzherzog Rainer.., Wien1894, XVII-XXI H. Loebenstein, Die Papyrusammlung der osterreichischen Nationalbibliothek, Wien 1972.

(13) See : PBRF, "papyrus Erzherzog Rainer", Wien 1894;

(١٤) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين : ١/ ١٤ ورحلة ابن بطوطة والحوادث الجامعة لابن الفوطي .

(١٥) تراجم رجال القرنين السادس والسابع لأبي شامة : ١٢٥ .

(١٦) جامع التواريخ مج٢ ج٢ ١٨١ . وانظر: الدرهم الكاغد، لحبيب الزيات، مجلة المشرق للسنة ٣٥، ١٩٣٧ .

(17) K. Jahn. Das Papiergeld, in Archiv, X,1938,308-340;

............., Paper Curency in Iran, in Journal of Asian History, IV,1970,101-35.
(18) Geschiedenis van- Arabische Cultuure, Utrecht-Antwerpen1960,129,193.

(١٩) مقدمة في الوثائق الإسلامية ، قاسم السامرائي ، الرياض ١٤٠٣ هـ ، ٤٤ .

(٢٠) ابن الأبار ، الحلة السيراء ، تحقيق دوزي ١٣٧ .

(٢١) المصدر السابق ، وانظر : Ph. Hitti, History of the Arabs, London1964, P.564.

(٢٢) مكتبة دار العلوم - الرياض ١٤٠٣ هـ = ١٩٨٣م .

(٢٣) انظر كتاب سفندال السابق ٩٦ - ٩٨ .

(24) P. Lunde, A missing link, (Aramco World Magazine32/2), New York1981, P.27.

(٢٥) دار الرفاعي - الرياض ١٤٠٣هـ = ١٩٨٣م .

(26) R. Smitskamp, Philologia Orientalis, E. J. Brill - Leiden 1983, 1/22.
(27) Ibid. 42.
(28) Cf. Ibid, 42-48.
(29) Don José' Amador de los Rios. Historia de la literatura espanola, Madrid 1861 -1865, V11/358.
(30) F.De Nave, Philogogia Arabica; Arabische studien en drukken in de Nederlanden in de 16de en 17de eeuw, Antwerpen 1986, 62.
(31) Lambrecht, E., Catalogue de la Binliothéque de l'Ecole des Langues Orientales Vivantes, Paris 1897, 1/93.
(32) Petri Hispani de Lingua arabica libri duo Pauli de Lagarde studio et sumptibus repetiti, Gottingee, In Aedib. Dieterichianis, 440 pp.

(٣٣) يأتي بعد ذلك سب مشين للنبي الكريم عليه الصلاة والسلام .

(34) G.W.Drost, De Moriscos in de publicaties van staat en kerk (1492 - 1609), Katwijk (Holland) 1984, p 86.
(35) F. de Nave, p 62.
(36) Drost, p 106.

(٣٧) هو أحمد بن قاسم الحجري الأندلسي . وأقوم الآن بتحقيقه وترجمته للإنجليزية بالاشتراك مع الزملاء بيتر شورد فان كوننكزفيلد وخيرارد فيخرز وسوف يطبع في إسبانيا إن شاء الله .

(٣٨) مثل : مفتاح الدين والمجادلة بين النصارى والمسلمين لمحمد القيسي ، المكتبة الوطنية بالجزائر ، ويقع ضمن مجموعة برقم ١٥٥٧ . وانظر أيضاً دراسة الزميلين P. Sj. Van Koningsveld and G. Wiegers, The Polemical works. of Muhammad al-Qaysi and their circulation in Arabic and al-jamiado among the Mudejars in the 14th Century, in Al-Qantata 1994, XV, 163-199.

(٣٩) نشر في تونس سنة ١٩٧٥ .

(٤٠) منها نسخة مخطوطة ضمن مجموعة في المكتبة العامة بالرباط، برقم D ١١٣٨ .

(٤١) سبق أن نشر في سنة ١٥٥١م في لوفان - بلجيكا، وفي سنة ١٧٠٦م في لايدن .

(42) Cf. Philologia Orientalis, 1/23.

(٤٣) محمد حجي، مراكز الثقافة المغربية أيام السعديين، مجلة البحث العلمي ٦ (١٩٦٥)، ٣٥ - ٦٨؛ ابن القاضي : جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، الرباط ١٩٧٣ - ١٩٧٤، ١/ ٣٢٢ - ٣٢٣؛ فهرست أحمد المنجور، تحقيق محمد حجي، الرباط ١٩٧٦، ٦٩ - ٧١؛ شجرة النور الزكية في طبقات المالكية لمحمد بن محمد مخلوف، تونس ١٣٥٠هـ، ١/ ٢٨١ .

(٤٤) كان الصديق الزميل الأستاذ الدكتور بيتر شورد فان كوننكز فيلد بجامعة لايدن أول من اكتشف هوية ابن خروف وعلاقته بكلاينارد، وهو يعد الآن مقالة حول هذه العلاقة، وسوف ينشرها قريباً .

(45) P.S.Van Koningsveld, Muslim Salves and Captives in Western Europe During the Late Middle Ages, in : Islam and Christan-Relations, vol. 6, No .1, 1995, p 12; F. de Nave, p113 - 116; Philologia Orientalis 1/23.

(46) GAL. S.II, 489.. أشار إلى نسخة منه في باريس

(47) Schnurrer, De Bibliotheca Arabica. Auctam Nunc Atque Intergram, Halae 1811, p 174.

(48) GAL S I 1877; Philologia Orientalis 1/35-37.

(49) M. Steinchneider, Polemische und apologetische Literatur in Arabischer Sprache, Hildesheim 1966, p. 91 ff; 205.

(50) Schnurrer. p 236 (237); p 239 (239).. والغران دوق فلورنتسه هو الكاردينال مريتشي دوق فلورنسا الكبير

(51) F. de Nave, Philologia Arabica : Arabische studeien en drukken in de Nederlanden in de 16de en 17de eeuw, Antwerpen 1986, 216.

(52) Schnurrer, 260 - 265.

(53) Philologia Orientalis 3/33, 343-4.

(54) J. B. De Rossi Corano arabico Venitiies Paganini typis impresso sub. in. sec XVI, Parmae 1805.

(55) Cf, Philologia Orientalis 1/24-26.

(٥٦) تاريخ طباعة القرآن الكريم بالعربية في أوربا ليحيى الساعاتي، عالم الكتب، مج ١٥، عدد ٥، ١٤١٥هـ = ١٩٩٤م، ص ٥١٨ .

(٥٧) هذه الطبعة خالية من مكان الطبع بيد أن لامبرخت ينسبها لزيورخ .

(58) H. Reusch, Der Index der verbotenen Bucher, Boon 1883, 1.137. "der Koran in allen Ausgaben und Sprachen verboten", 163-4; Philologia Orientalis, 2/189 citing Devic, M., Une Traduction inédite du coran, Paris 1883, p 25 (Journal As. Extrait no 9); Lambrecht, 345-6.

(٥٩) ولما توفي يوليوس الثاني سنة ١٥١٣ استمر العمل فيه أيام خليفته جيوفاني دي مديتشي الذي تلقب بـ : ليو (ليون) العاشر .

(60) Lambrecht, op. cit., 396 (1523); Schnurrer, 339 (1583).

(٦١) طباعة العربية في أوربا ، عالم الكتب مج ١٥ عدد ٥ ، ١٤١٥هـ = ١٩٩٤م ، ٤٨٣ . وتذكر :
Josée Balagna, L'imprimerie arab en occident (XVIe et XVIIIe siécles, Paris 1984, p 135, "Romae, in collegio Societatis Jesu 1581". . أنها طبعت في روما سنة ١٥٨١م .

(62) Ibid.

(63) Schnurrer, p. 234-236.

(64) Ibid., "Colloquium Achmad et Sinan Romae edittum. Hune ipfum librum innuit Erpenius, feribens Cafaubono Lutetae IV. kal. October 1611". See as well : Steinschneider, 91ff.
ومنه نسختان خطيتان في الفاتيكان بدون تاريخ أو مؤلف .

(65) God. Vat. 244; 245.

(66) Philologia Orientalis, 1/35.

(67) Cf. G. E. Weil, Elie Levita humaniste et massoréte 1469-1549, E. J. Brill, 1963.

(68) "An Index or Catalogue, of which I did fome three or four yeares fince, at the requeft of M.Th. Erpenius of Gorchem in Holland, a Zealous louer of thefe ftudies".

(69) J. Th. Zenker, Bibliotheca Orientalis, Leipzig 1846-61, 1/207-208.

(70) Cf, Lee, S., Controversial Tracts of Christianity and Muhammadenism, Cambridge 1824; Schnurrer 244-5; Steinschneider, op. cit. 16-17.

(71) Steinschneider, p 16.

(٧٢) المنشور في مطبعة J. D. Macbridge بدون تاريخ .

(٧٣) نشرته دار ثقيف في الرياض أكثر من مرة من الطبعة المصرية لسنة ١٣٥٨هـ ، وقد كتب الأخ محمد بن عبد الله السكاكر أطروحة حول الموضوع ، وقدمها لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية سنة ١٤٠٥هـ لنيل درجة الدكتوراه .

(74) Zenker, 1/88-94.

(75) Specimen Characterum Arabicorrum Officinae Plantinianae Raphelengii.

(76) Smitskamp, R., Oriental Antiquatium, Cat. 601, no 319.
بالعبرية والآرامية والسريانية والتلمودية الربانية والعربية .

(77) Cf. F. de Nave Philologia Arabica : Arabische Studien en drukken in de Nederlanden in de 16de en 17de eeuw, Antwerpen 1986,. 98.

(78) F. de Nave, P. 94 (xciv).

(79) Karl H. Dannenfeldt, The Renaissance Humainsts and the Knowledge of Arabic, in Studies in Renaissance II, 1955, p. 111.

(80) Philologia Orientalis, 3/246.

(81) Schnurrer, p. 20-21.

(82) Philologia Orientalis, 2/168.

(٨٣) قاسم السامرائي : الفهرس الوصفي للمنشورات الاستشراقية المحفوظة في مركز البحوث بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض ١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م ، النص العربي ٢٨ والفرنجي ٥٥ .

(84) M. T. Houtsma, Uit de oostersche correspondentie van Th. Erpenius, Jac. Golius en Lev.

Warner, In : Letterkundige Verhandelingen Kon. Akad. Wetensch. XVII/2, Amsterdam 1887.
(85) Smitskamp, R., Oriental Antiquatium, Cat. 601, no. 290.

(٨٦) آخر طبعة له في هولندة بإصلاح سخولتنس ، ظهرت في لايدن سنة ١٧٧٠ ، وإصلاح ميخائيلس ظهرت في جوتنكن سنة ١٧٧١م .

(87) F. de Nave, op. cit., p. 96 (xcvi).
(88) Ibid.

(٨٩) مقدمة توراة موسى عليه السلام ، نشر أربينوس ، مطبعة أربينوس - لايدن ١٦٢٢ .

(90) J. Brugman & F. Schroder, Arabic Studies in the Netherlands, Leiden E. J. Brill 1979, p. 14.
(91) Ibid. 14.

(٩٢) الغريب أن كل كتاب يكتب ضد الإسلام ينسب إلى مسلم متنصر وهذا واحد منها فقد نسب لعبد الله الذي قيل فيه : إنه كان من أهل شاطبة ، انظر: Steinschneider 220.

(93) Ibid ; Steinschneider 220.

(٩٤) منه نسخة مخطوطة في مكتبة جامعة لايدن برقم : Or ٢٣٩٢ (فهرس سخولتنس ١٢٧٢) .

(95) Cf. Steinschneider, 220.

(٩٦) كتاب ناصر الدين على القوم الكافرين ، دار الكتب المصرية : ١٦٣٤طلعت ، ورقة ٨٩ب . لو اتفقنا مع كبراء الأندلس ونبعث لهم عمارة من سفن كبيرة ليركبوا فيها مع جنودنا نأخذ إشبانية . . . لو كنا نتفق مع سلطان مراكش ونبعث للسيد الكبير أعني السلطان الأعظم . . . ونتفق جميعاً على سلطان إشبانية نظفر به ونأخذ بلاده .

(٩٧) اسمه اللاتيني : Ioannis Antoniadas .

(٩٨) نسخته محفوظة في دار الوثائق لبلدية لايدن ، برقم : ٦٩٥١٠ .

(٩٩) ان يان تونس ينتمي إلى نحلة Mennonite وهي نحلة بروتستانتية نسبة إلى مينو سيمونس وبدأت في النصف الأول من القرن السادس عشر في فريزلاند (شمال هولندا) ، وهي تختلف عن الكنيسة الإصلاحية الهولندية الرسمية في كثير من عقائدها وطقوسها .

(١٠٠) Cf. E. I. 2nd. ed. VI, 144a. الموسوعة الإسلامية ، الطبعة الثانية ٦/ ١٤٤ .

(١٠١) حسب اعترافه للحجري وأنه كان يرسل أخبار المغرب بالشفرة .

(١٠٢) انظر الدراسة الممتعة حول علاقة الحجري بأربينوس وخوليوس :
Gerard A. Wiegers, A Learned Muslim Acquaintance of Erpenius and Golius : Ahmed b, Kasim al-Andalusi and Arabic Studies in the Netherlands, (Documentatiebureau Islam - Christendom), Leiden 1988.

(١٠٣) باريس ١٨١٠ .

(١٠٤) استراسبورغ ١٨٣٤ .

(١٠٥) أولدنبرغ ١٨٠٧ .

(١٠٦) شتوتجارد ١٨٤٣ . انظر قاسم السامرائي : الفهرس الوصفي للمنشورات الاستشراقية ، ١٧ (نقلت المجموعة من مركز

البحوث وهي محفوظة الآن في المكتبة المركزية بجامعة الإمام) .

(١٠٧) سورة البقرة ٢/ ١٢٠ .

(١٠٨) سورة الرعد ١٣/ ١١ .

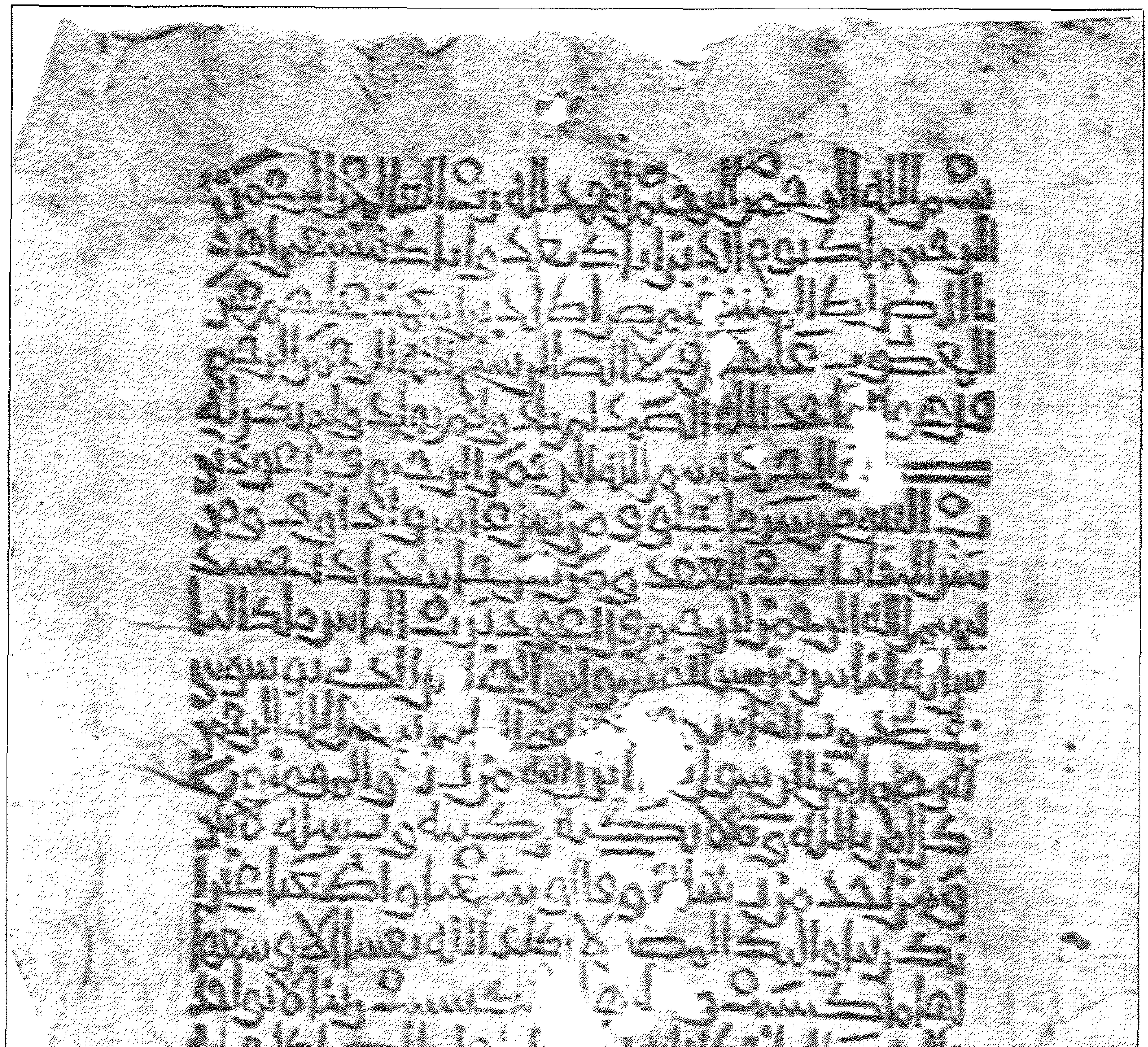

شكل رقم (١)

شكل رقم (٢)

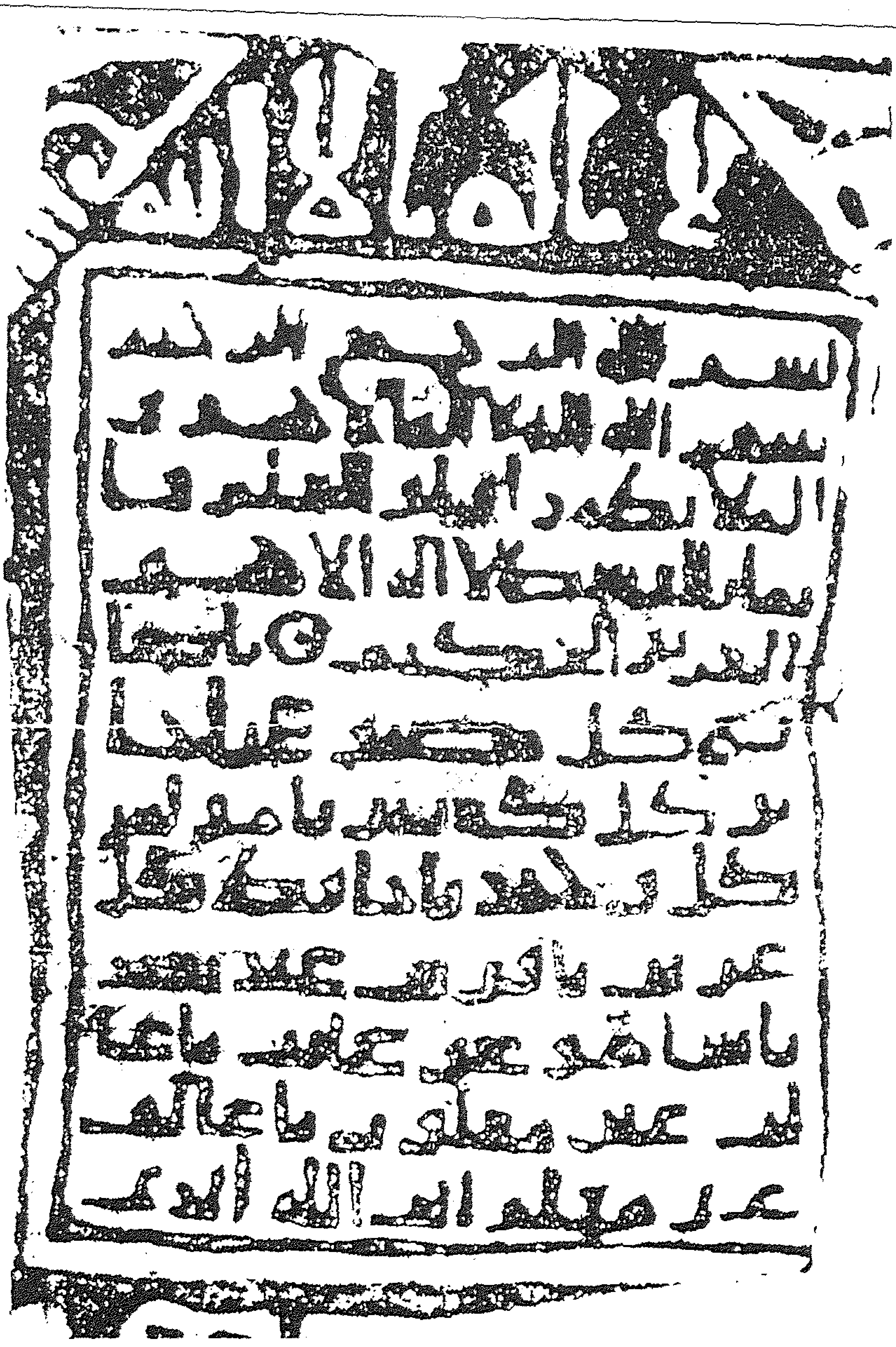

AN ARABIC BLOCK PRINT
OF THE FOURTEENTH CENTURY. UNIV. OF PA. MUSEUM

شكل رقم (٣)

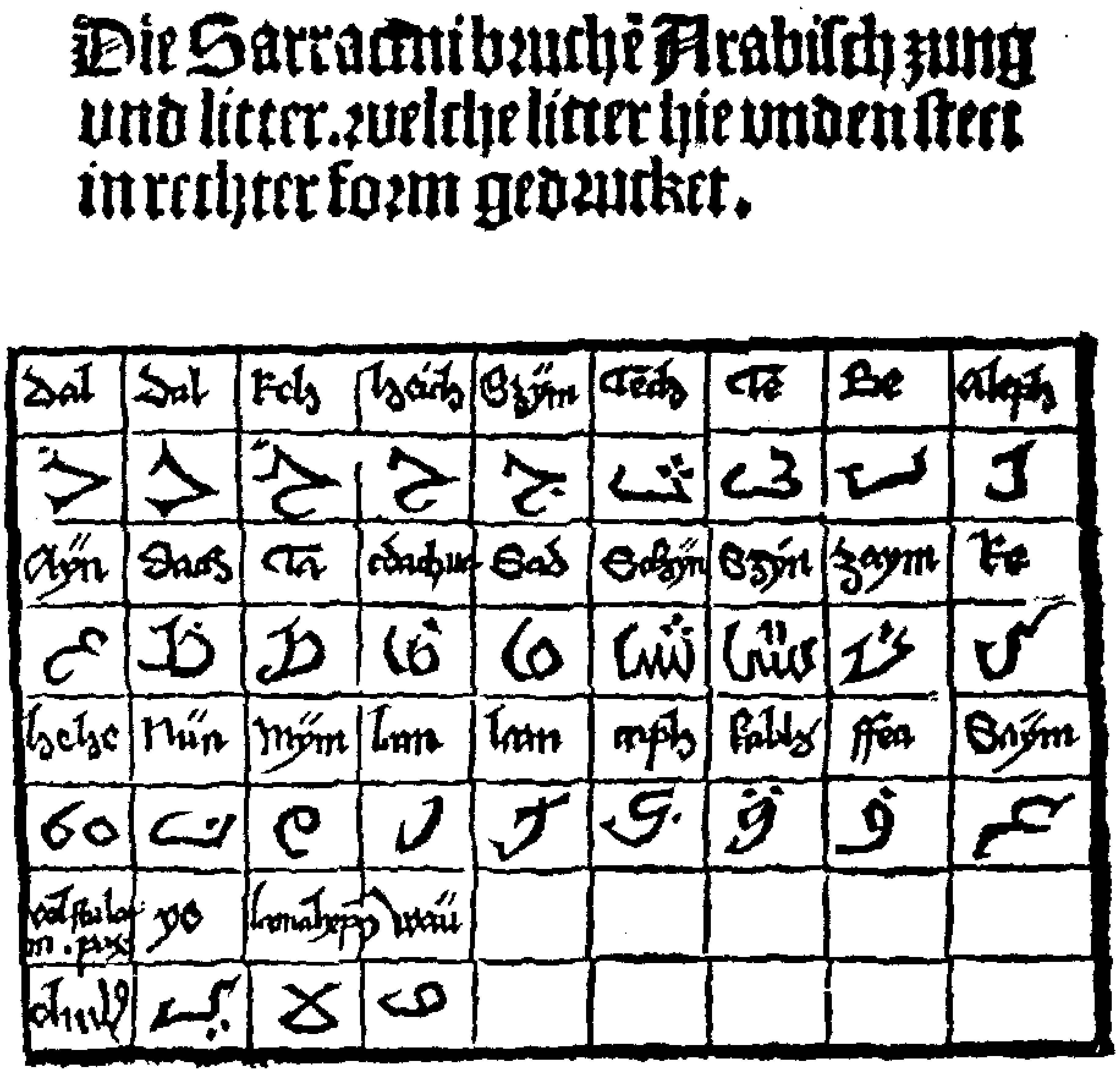

Bernhard von Breydenbach (ca. 1440-1497). Dis buch ist innhaltend die heiligen reysen gein Jherusalem zu dem heiligen grab und furvasz zu der hochgelobten jungfrowen und merteryn sant katheryn (Speier, P. Drach, 1498, n.g.) : het eerste gedrukte Arabische alfabet (Verzamelingen Stadsbibliotheek, Antwerpen, K 102341).

شكل رقم (٤ - أ)

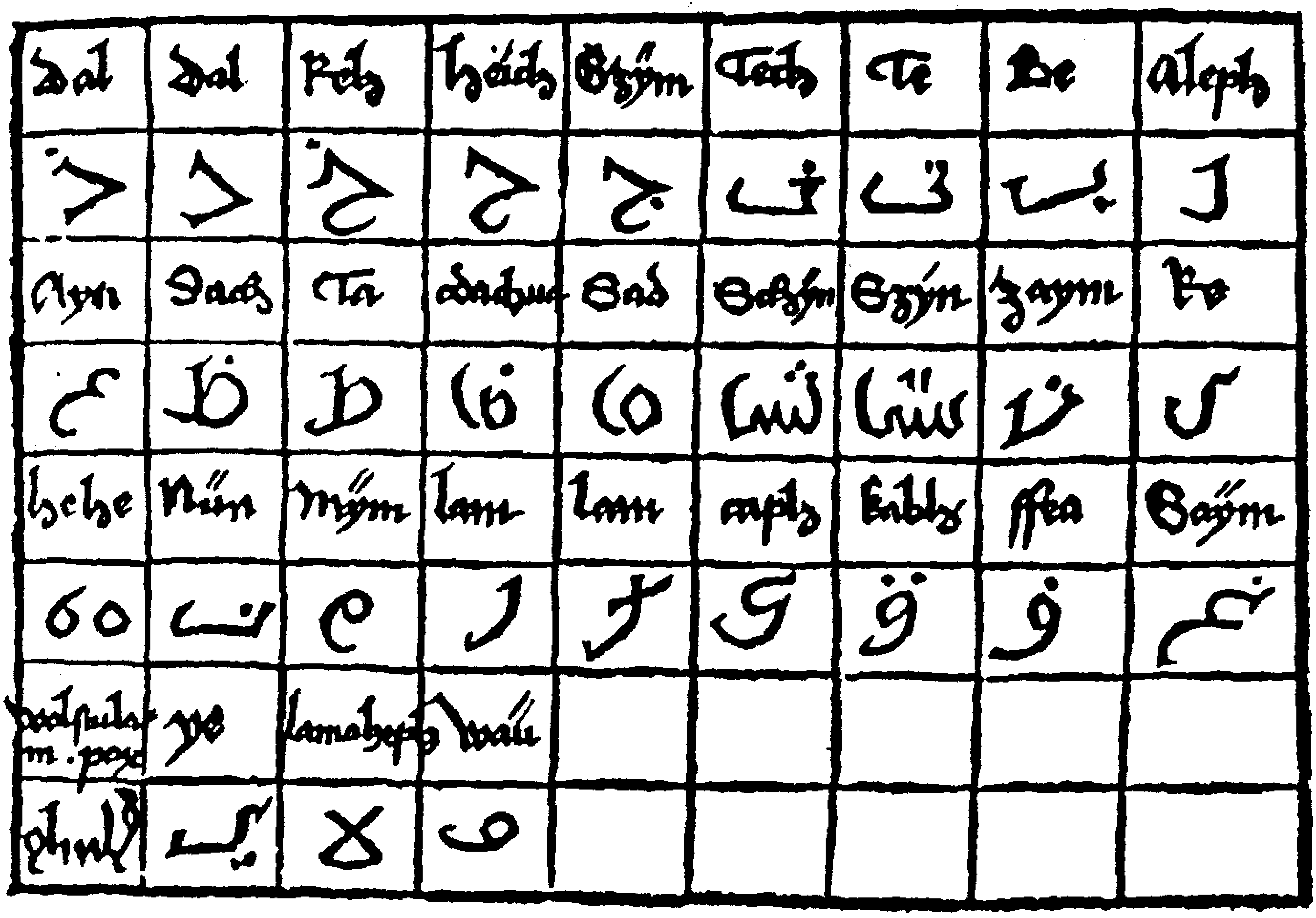

شكل رقم (٤ -ب)

Pedro de Alcala (2de h. 15de e. - le h. 16de e.). Vocabulista aravigo en letra castellana (Granada, Juan Valera, 1505), titelpagina (Verzamelingen Bibliotheek der Rijksuniversiteit te Leiden, 877 D 11).

شكل رقم (٥)

كتاب القانون في الطب

لابو علي الشيخ الرئيس

ابن سينا

مع بعض تآليفه وهو علم المنطق وعلم الطبيعي
وعلم الكلام

R O M AE,
In Typographia Medicea.
M.D.XCIII.
Cum licentia Superiorum.

Avicenna. Liber Canonis de Medicina ... accedunt aliquot ejus opuscula, Logica, Physica, Metaphysica (Rome, Typographia Medicea, 1593), titelpagina (Verzamelingen Koninklijke Bibliotheek Albert I, Brussel, Algemene Verzamelingen, VB 4385 C LP).

شكل رقم (٦)

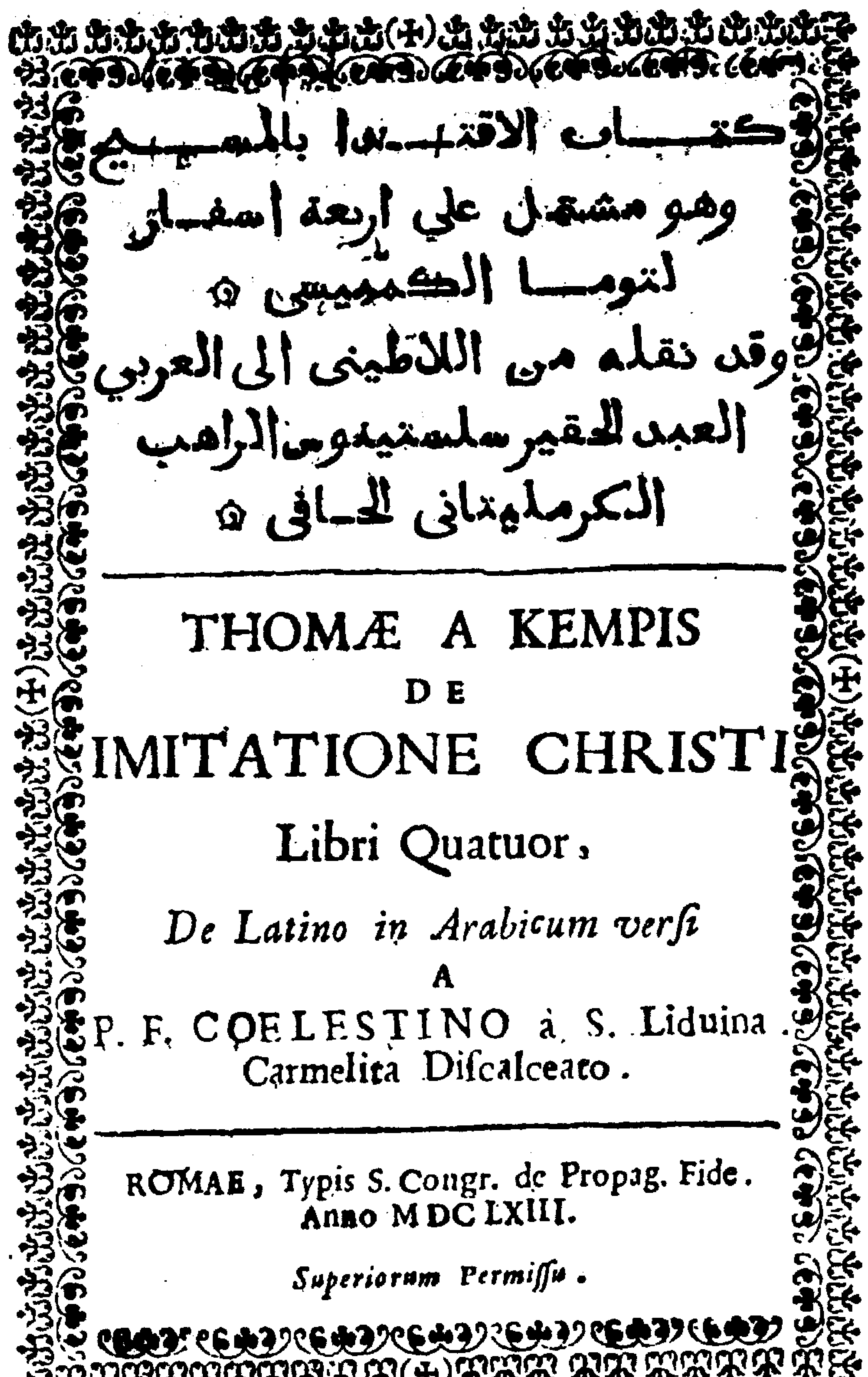
كتاب الاقتدا بالمسيح
وهو مشتمل على اربعة اسفار
لتوما الكمبيسي
وقد نقله من اللاطيني الى العربي
العبد الحقير سلستينوس الراهب
الكرملتاني الحافي

THOMÆ A KEMPIS
DE
IMITATIONE CHRISTI
Libri Quatuor,
De Latino in Arabicum versi
A
P. F. COELESTINO à S. Liduina.
Carmelita Discalceato.

ROMAE, Typis S. Congr. de Propag. Fide.
Anno MDCLXIII.

Superiorum Permissu.

Petrus Golius (1597-1672). Thomae A Kempis De Imitatione Christi Libri Quatuor De Latino in Arabicum versi (Rome, Sacra Congregatio de Propaganda Fide, 1663) (Verzamelingen Koninklijke Bibliotheek Albert I, Brussel, Kostbare Werken, VH 1596 A LP).

شكل رقم (٧)

هذه صورة امر پادشاه اسلام السلطان ابن السلطان
السلطان مرادخان ❁

مفاخر الامراء الكرام مراجع الكبراء الفخام اولوا القدر والاحترام
المختصين بمزيد عناية الملك العلام ممالك محروسمده واقع اولان سنجاق
بكلري وقبودانلر دام عزهم ومفاخر القضاة والحكام معادن الفضايل
والكلام ذكر اولنان يرلرده اولان قاضيلر زيد فضلهم توقيع رفيع همايون
واصل اولجاق معلوم اولاكه. ممالك محروسمده تجارت ايدن افرنج
تاجرلرندن دارندكان فرمان همايون برانتون واو راسبوولد باندينى
نام بازرکانلر درگاه معلامه كلوب ولايت فرنكستاندن تجارت ايچون
بعض متاع وعربي وفارسي وتوركي باصما بعض معتبر كتابلر ورسالهلر
كتوروب ممالك محروسمده كندوحاللرنده بيع وشرا ايدرلر ايكن
بعض كمسنه لر يولده وايزده واسكله ومعبرلرده فضولي يوكلرين يبقوب
دنكلرين بوزوب ايچندن بكندوكلري اقمشه وساير امتعه قسمي اقچه
سوز وجزوي بها ايله جبرا الوب وسزده عربي وفارسي كتابلرنيلر ديو
تجارت ايچون كتوردوكلري جميع كتابلرني اللرندن الوب بهاسن
ويرميوب وكندولرك ووكيللرينك وادملرينك بيع وتجارتلرينه مانع
اولد قلرين بلدروب من بعد امن وامان اوزره كلوب كيدوب كندو
حاللرنده تجارت اتدوكلرنده برفرد دخل اليوب منت ومجانا
متاعلري النميوب وديدكلري بوزلميوب منع اولنمق بابنده حكم همايونم
طلب اتدوكلري اجلدن بيوردم كه حكم شريعمله هرقنكزك تحت
حكومتنده داخل اولورلر ايسه يولده وايزده ومنازل ومراحلده
واسكلهلر ومعبرده كندو حاللرنده امن وامان اوزره بيع وشرا وتجارت
ايدرلركن خارجدن برفردي متاعلرينه دخل اتدرميوب وصاحبنك
رضاني اولمدين جبرا برنسنهلرين واول مقوله كتابلرين غصب
اتدرميوب هرنه الور لرايسه حسن رضالريله بيع ايدنلردن بتمام
ذكربها لريله الدروب اقچه سوز ويااكسوك بها ايله جزويدن وكليدن
برنسنهلرين الدرميوب من بعد مذكوران بازركانلره ووكيللرينه
وادملرينه شرع شريفه وعهدنامه همايونه مخالف اصلا وقطعا كمسنه دخل
وتجاوز اتدرميه سز ممنوع اولميوب عناد ومخالفت ايلينلري اسما
لريله يازوب عرض ايليهسز بوخصوص ايچون تكرار شكايت
اتدرميه سز شويله بلسز وبعد اليوم بوحكم شريفمي اللرنده ابقا
ايدوب علامت شريفه اعتماد قلاسز ❁ تحريرا في اوايل ذي الحج سنه
ست وتسعين وتسعمايه ❁ محروسه قسطنطينية ❁

شكل رقم (٨)

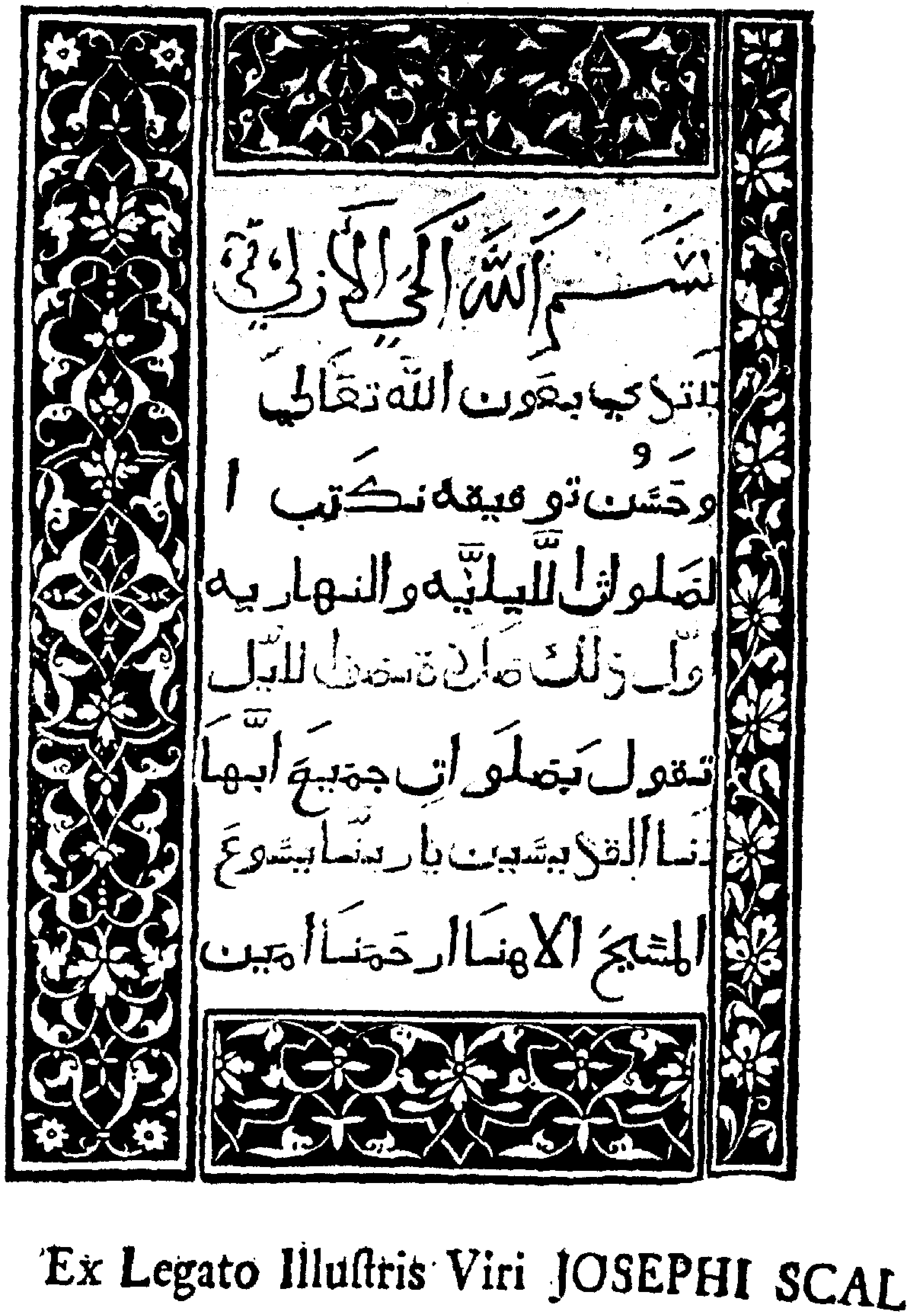

De 'Septem Horae canonicae' (Fano, Gregorio de Gregorii, 1514), f° 1 r° (Verzamelingen Bibliotheek der Rijksuniversiteit te Leiden, 876 G 27).

شكل رقم (٩)

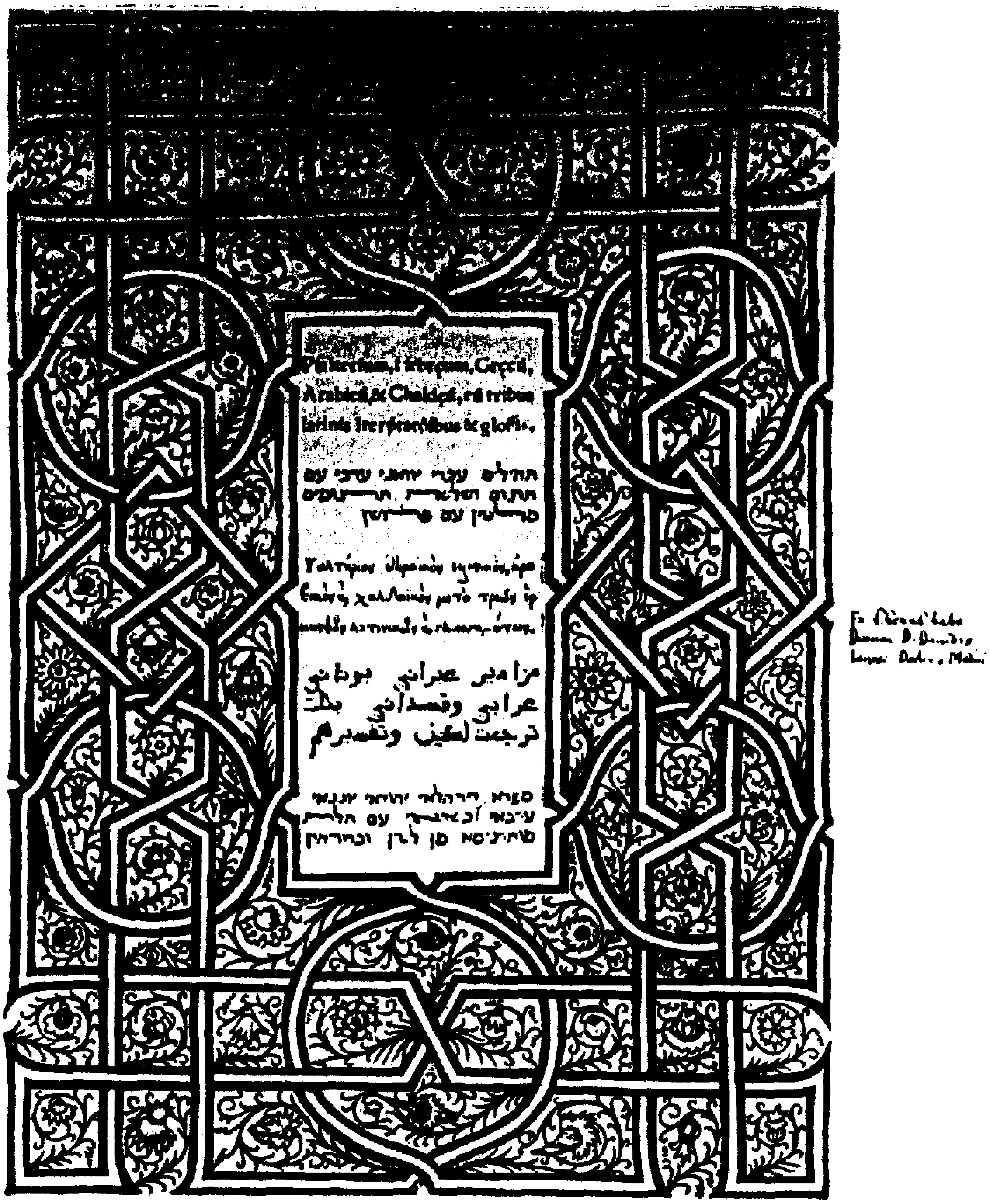

Agostino Giustiniani (1470-1536). Psalterium Hebreum, Grecum, Arabicum et Chaldeum cum tribus latinis interpretationibus et glossis (Genua, Pietro Paolo Porra, 1516), titelpagina (Verzamelingen Koninklijke Bibliotheek Albert I, Brussel, Afdeling Kostbare Werken, VII 66 C LP).

شكل رقم (١٠-أ)

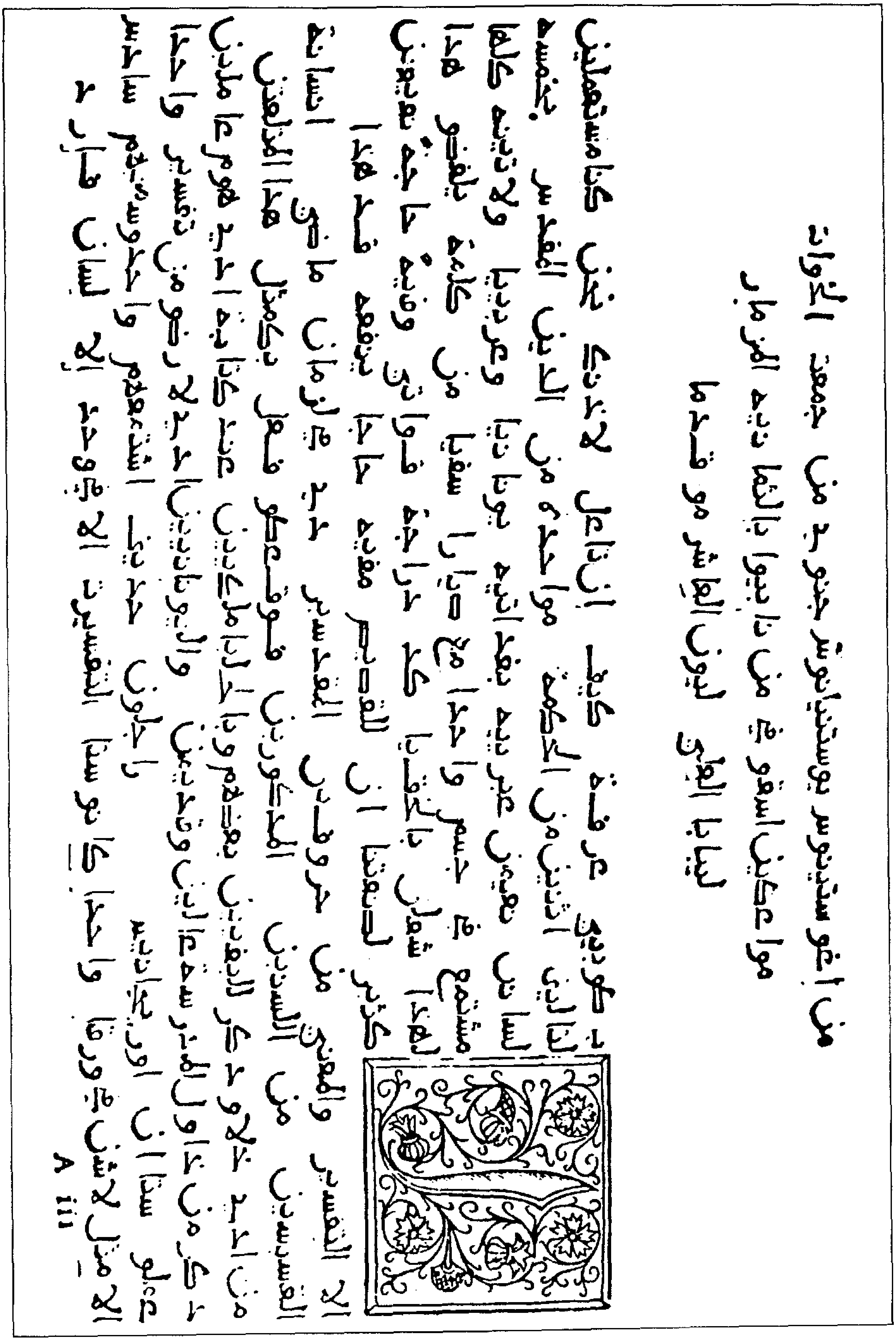

شكل رقم ١٠ - ب)

Aben Gezla, een epitome van de Almagest en de Historia Abul Hassumi, dat de krijgsverrichtingen van de christenen en Saracenen verhaalt over een periode van zevenhonderd jaar, naast andere manuscripten, zou op deze wijze een woordenboek en een spraakkunst kunnen worden samengesteld, die de hoekstenen zouden vormen voor de verdere grondige studie van het Arabisch die pas dan mogelijk zou worden. Deze wens zou pas jaren later, in 1608, in vervulling gaan, toen voor Christmann de eerste leerstoel voor het Arabisch werd opgericht aan de universiteit van Heidelberg.

J. Fück, Die arabischen Studien in Europa, 1955, 46 ; W.M.C. Juynboll, Zeventiende-eeuwsche beoefenaars van het Arabisch in Nederland, 30 ; R. Smitskamp, Philologia Orientalis, II, 110.

5- Rutgher Spey (16de eeuw)

54- Spey, Rutgher. Epistola Pauli ad Galatas, item sex primaria Capita Christianae Religionis Arabice, Quibus ad finem adiunctum est Compendium Grammatices Arabicae. Heidelberg, [Jacob] Mylius, [1583]; UL, 877 D17.

// الله واحد // بسم الاب والابن والروح القدس

// غلاطيه // رساله بولس الرسول الي اهل

EPISTOLA PAU-//LI AD GALATAS, ITEM SEX//PRIMARIA CAPITA CHRISTIANAE RELI-//GIONIS ARABICE. QUIBUS AD FINEM AD-//iunctum est Compendium Grammati-//ces Arabicae,//AUTHORE RUTGHERO SPEY//BOPARDIANO, ECCLESIAE SCHONAVIENSIS,//QUAE SUPRA HEYDELBERGAM EX GALLIS COL-//ligitur, Et ab Illustrissimo Principe Ludovico Electore//Palatino, etc. fovetur, Pastore.//ADDITA QUOQUE EST INTERPRETATIO//Latina ad verbum (eodem Authore) reddita.//HAEC ANTE HAC NUNQUAM TYPUS EVUL-//gata, nunc primum in usum studiosorum huius lin-//guae excuduntur.// DANIEL 7.// ולה יהב שלטן ויקר ומלכו וכל עממיא אמיא ולשניא לה //
// תתחבל //יפלחון שלטנה שלטן עלם די לא יעדה ומלכותה די לא
Philip.2.// πᾶσα γλῶσσα ἐξομολογήσεται, ὅτι κύριος Ἰησοῦς Χριστὸς //
εἰς δόξαν θεοῦ πατρός. // 215 x 161 mm. ; [84] blz. n.g; : sierinitialen ; Arabisch ; beschadigd exemplaar (laatste bladzijde met colofon en drukkersmerk is onvolledig).

شكل رقم (١١)

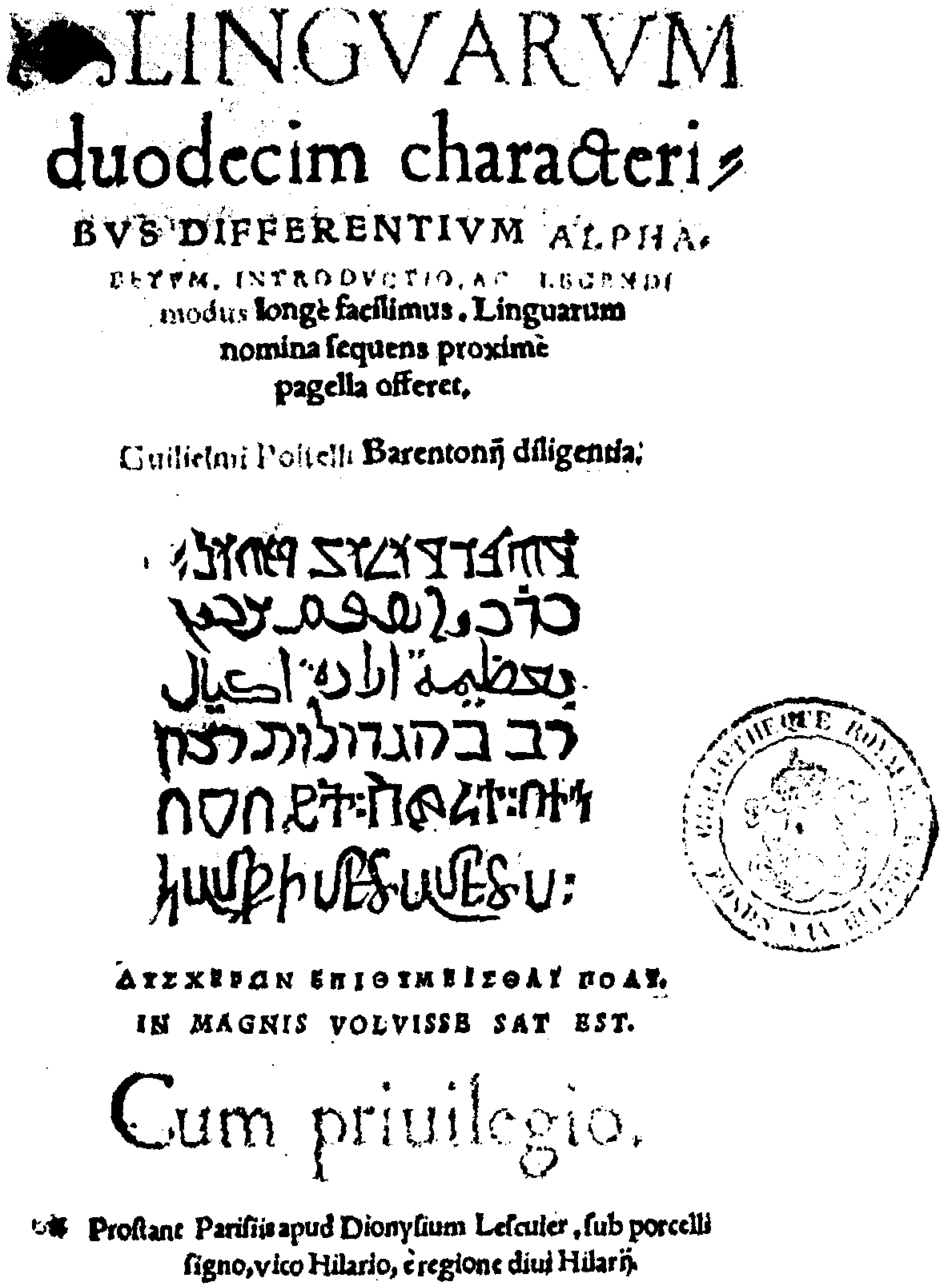
LINGVARVM
duodecim characteri-
BVS DIFFERENTIVM ALPHA-
BETVM, INTRODVCTIO, AC LEGENDI
modus longè facillimus. Linguarum
nomina sequens proximè
pagella offeret,

Guilielmi Postelli Barentonij diligentia.

IN MAGNIS VOLVISSE SAT EST.

Cum priuilegio.

Prostant Parisiis apud Dionysium Lescuier, sub porcelli
signo, vico Hilario, è regione diui Hilarij.

Guillaume Postel (1516-1581). Linguarum duodecim characteribus Differentium Alphabetum Introductio ac Legendi modus longae facilimus (Parijs, Dionysius Lescuier 1538), titelpagina (Verzamelingen Koninklijke Bibliotheek Albert I, Brussel, Kostbare Werken, VII 10.089 A 1 LP).

شكل رقم (١٢)

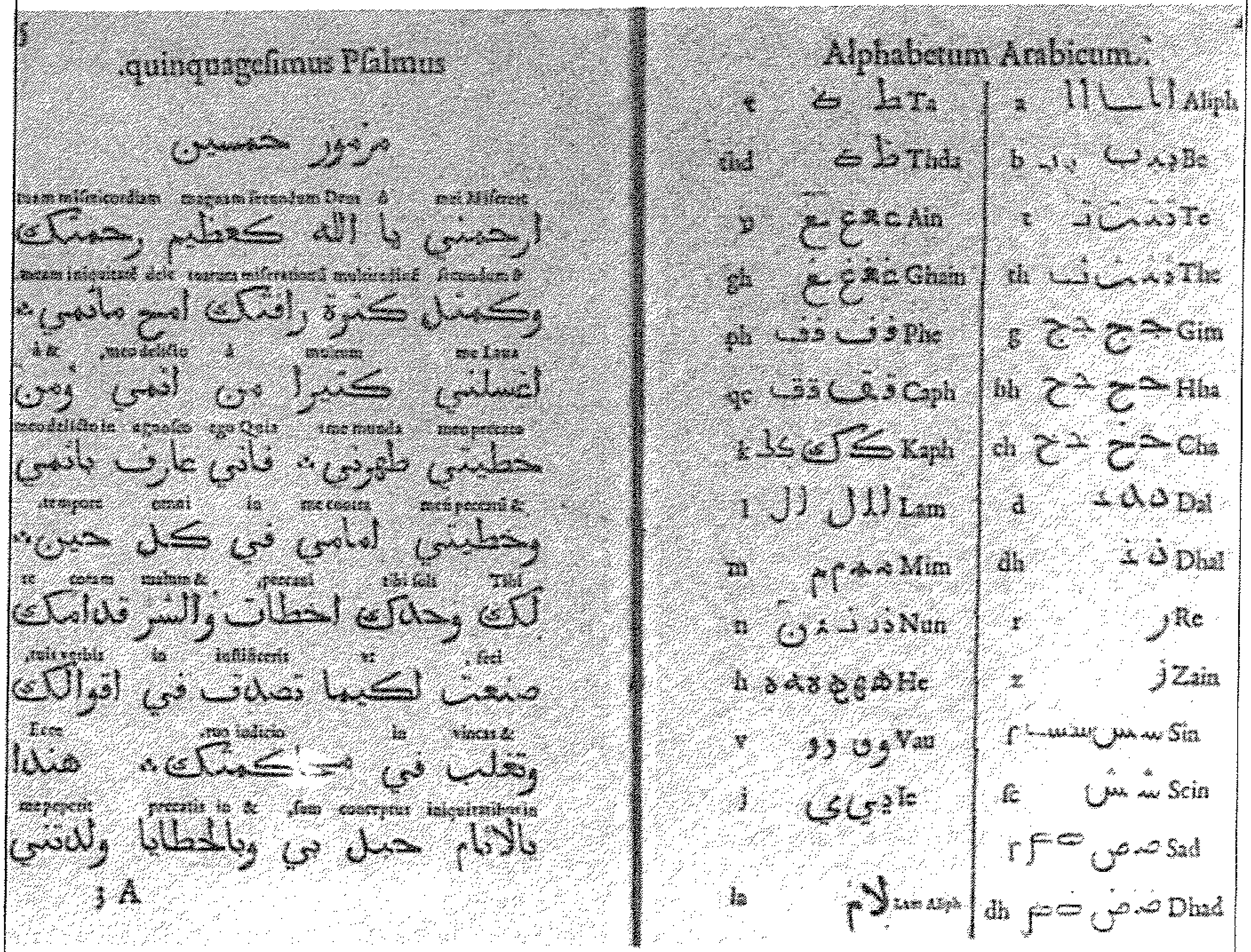

quinquagesimus Psalmus

مزمور خمسين

Alphabetum Arabicum.

Aliph, Be, Te, The, Gim, Hha, Cha, Dal, Dhal, Re, Zain, Sin, Scin, Sad, Dhad, Ta, Thda, Ain, Ghain, Phe, Caph, Kaph, Lam, Mim, Nun, He, Vau, Ie, Lam Aliph

Franciscus I Raphelengius (1539-1597). Specimen Characterum Arabicorum Officinae Plantinianae Franc. Raphelengii (Leiden, Franciscus I Raphelengius, 1595), p. 4-5 (Verzamelingen Museum Plantin-Moretus, Antwerpen, A 1584).

شكل رقم (١٣)

LEXICON ARABICVM.

sic حجج *quod plurale esse puto Luc.* 13.
(Res, negocium, probatio, ratio *Scal*)

Alia forma in Fut. أَحْتَجُّ Contracto, litigo, conqueror, causor, disputo, ratiocinor, discepto *Gloss.*

يَحْتَجُّ Ratiocinatur *Gloss.* Excusat & defendit se *Act.* 26. & *Rom.* 2.

مُحْتَجٌّ Disceptator. *Glos.*

إِحْتِجَاج Dimicatio, disputatio, disceptatio, contentio, ratiocinatio *Glos.* Defensio.

Forma פאעל *in Alc.* تحاجّوا Disputabunt.

Hinc حاجّ & حاجة Disputatio, apologia.

Vide حاج

חגירה حجا

Legitur Gal. 2. لا يسلكون المحجّة *pro*, Non ambulant rectè, recto pede, inculpatè.

Apud Auic. قد حجبه *Interp.* Et debilitari faciat eum.

חתי خشي

Hinc فاستحثّوا Et persuaserunt, impulerunt.

أحثا Stercus.

חתי خشي Timuit.

Act. 50. لمن يخشى

φοβεῖσθαι مستخشي

חגג حجّ *Idem quod Heb:* Festum egit.

Fut. يحجّوا Festum celebrent יחגו

حجّ Festum & peregrinatio celebrandi festi causa. حاجّ *etiam dicitur*

Act. 19. سقاية الحاجّ

Gen. 38. تأجرني ثماني حجج conduces me octo annos.

حجّج *Etiam* causam & litem instituit.

(*Act.* 52. حجّتهم *nisi sit à* حاجّ)

Fut. أحجّ Confero, tracto *Glos.* disputo.

حجّة Obiectio, causa in lite *Glos.* & *Act.* 52. ἀπολογίαν.

Franciscus I Raphelengius (1539-1597). Lexicon Arabicum (Leiden, Officina Raphelengiana, 1613), p. 79 (Verzamelingen Museum Plantin-Moretus, Antwerpen, A 1364).

شكل رقم (١٤)

الايريتسون ناسويه تعلما البرنس ومادن وبحطس ويرا وفليسيمغا على علدريه هولنديه
زلنديه وبلاد فريسيه الغربيه الاوطرايكطسين وطرنسيولنيه على البحر الملغمه لجميع امرى معدمين
وعلماء كل مكان ومدبري المدن والصقع الذي من يقرؤن الكتاب هذا معكم السلام من الله قادر على الكل.

لاجل لما طلبنا شيا موافقا ونافعا ان يستطيع لنا اصدقا الشعوب الغريبة وساكنين بلادنا وخاصة المواطنين على عنايه
التجارة يسيروا الى الامم والجزاير البعيدة عن حدودنا ويخالطوا ويشاركوا بعضهم بعضا بامر التجارة ويبنوا بهذا وبعده
المحبة الوسيعه معا نحن مريدين ان نتفق لطلبات شديدة الرجال المكرمين ولحبابنا قرنلس دي هوطمن جرد دي
ويسعن رسمار دي هيل ويروه هنف رييس المراكب الحاضرة ليتمم مرامهم نبين لكل احد ان كنا قد اعطيناهم
ومنحناهم حرمة تامة ومقدرة على ان يقلعوا يبحروا بسفنهم في اليم الى ممالك وجزاير الهند ونواحي المشرق ومع السكان
هنالك يترددوا ويتعلقوا بامر التجارة بموجب كل همة جلة ومحبة اليهم من جهة جميع ساكنين بلادنا كما ان نحن
واعدين بشهادة هذه كل ذلك لجميعهم ولهذا السبب نحن نسال ونطلب الى كلكم وواحد فواحد الذين تملكون
ويرسون الى مرفى ارضكم هولاى المقدم ذكرهم ويأتون بمراكبهم وتجارتهم بان لا تقتلوهم وتطيروا لهم رحمة ونعمة
فقط بل وانتم تعمروهم حسنا واحتوهاوا بامثال سخيم رزقين لهم كلما يستحقيه الاشياء التي كمال المرام المحمود
الذي هم مشتغلين به ولو ان يعترى ان بعضكم يسرون هاهنا نحن نقيم لهم ويوجد لمقدار معادل ومشاكل لجارهم
مكافاة جزيله ونساعدا باستعداده بحرص الاحسان لهم بكل حين وبعد ذلك ونحن امرنا جهرا الرجال المذكورين
احبابنا كملا يقعوا على احدى بلحر او لسان لحر من اي مذهب يكون كفرتا وعدوة ولا يقاتلوهم الا مغصوبين
ومظلومين اولا فان عسى ان بايدي العداة يسقطوا حتى يصلح عليهم الى ابعاد ولحساب من الفعل الغارس فيقدرون
ان يعملوه نسخيعا ويغير المخالفه وبهم الذين يلحقوهم يكون هو من ابعد ان امكنهم لن تقضوا عليهم حسبما
خروج الضرورة وذلك فانه يدع العقل عند جميع الامم ونحن نقر شيا جاهرا ومادينا لواحد ولواحد بان يدفع ويبعد
عن نفسه ظلما وقهرة ظالم وقسر مكتوب ومختوم في هغا من بلد هولنديه سادسة وعشر من الشهر المسمى يلواريوس
من عام خمسة وتسعين على تاريخ مسيحنا

Geleidebrief gesteld in het Arabisch door Franciscus I Raphelengius (1539-1597), waarin de Prins van Oranje verzoekt Cornelis de Houtman (ca. 1540-1599) en zijn gezelschap op hun reis tegemoetkomend te behandelen (Leiden, Officina Raphelengiana, 1595) (Verzamelingen Museum Plantin-Moretus, Antwerpen, R 63.8 (4)[72]).

شكل رقم (١٥)

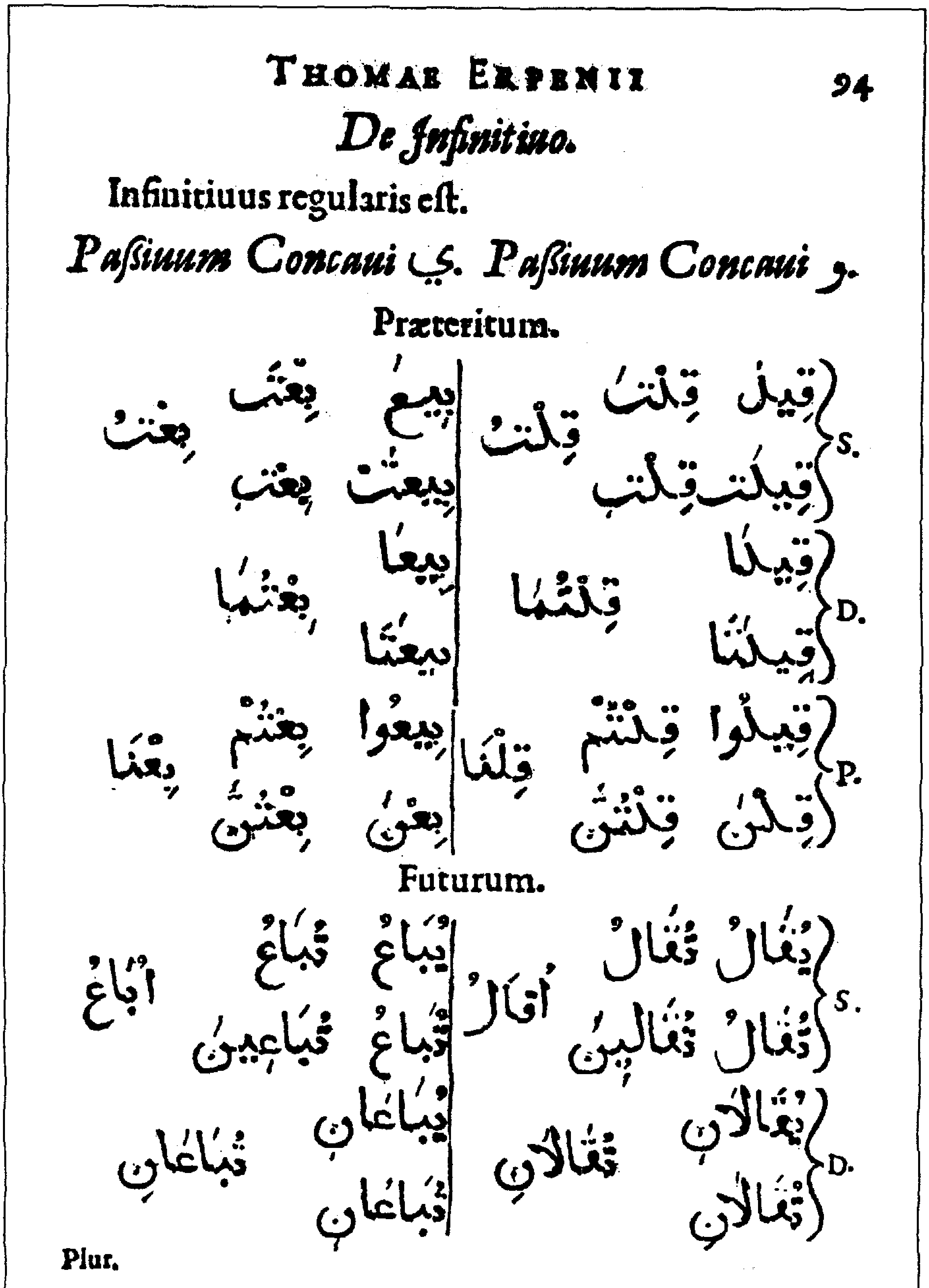

THOMAE ERPENII 94

De Infinitiuo.

Infinitiuus regularis est.

Paſsiuum Concaui ي. Paſsiuum Concaui و.

Præteritum.

S. قِيلَ قِلْتَ قِلْتُ / قِيلَتْ قِلْتِ — بِيعَ بِعْتَ بِعْتُ / بِيعَتْ بِعْتِ

D. قِيلَا قِلْتُمَا / قِيلَتَا — بِيعَا بِعْتُمَا / بِيعَتَا

P. قِيلُوا قِلْتُمْ قِلْنَا / قِلْنَ قِلْتُنَّ — بِيعُوا بِعْتُمْ بِعْنَا / بِعْنَ بِعْتُنَّ

Futurum.

S. يُقَالُ تُقَالُ أُقَالُ / تُقَالُ تُقَالِينَ — يُبَاعُ تُبَاعُ أُبَاعُ / تُبَاعُ تُبَاعِينَ

D. يُقَالَانِ تُقَالَانِ / تُقَالَانِ — يُبَاعَانِ تُبَاعَانِ / تُبَاعَانِ

Plur.

Thomas Erpenius (1584-1624). Grammatica Arabica (Leiden, Officina Raphelengiana, 1613), p. 94 (Verzamelingen Museum Plantin-Moretus, Antwerpen, A 1590).

شكل رقم (١٦)

كتاب الأمثال

SEV

PROVERBIORVM ARABICORVM

Centuriæ duæ,

Ab anonymo quodam Arabe collecta & explicatæ: cum interpretatione Latina & Scholiis

IOSEPHI SCALIGERI I. CÆS. F.

ET

THOMÆ ERPENII.

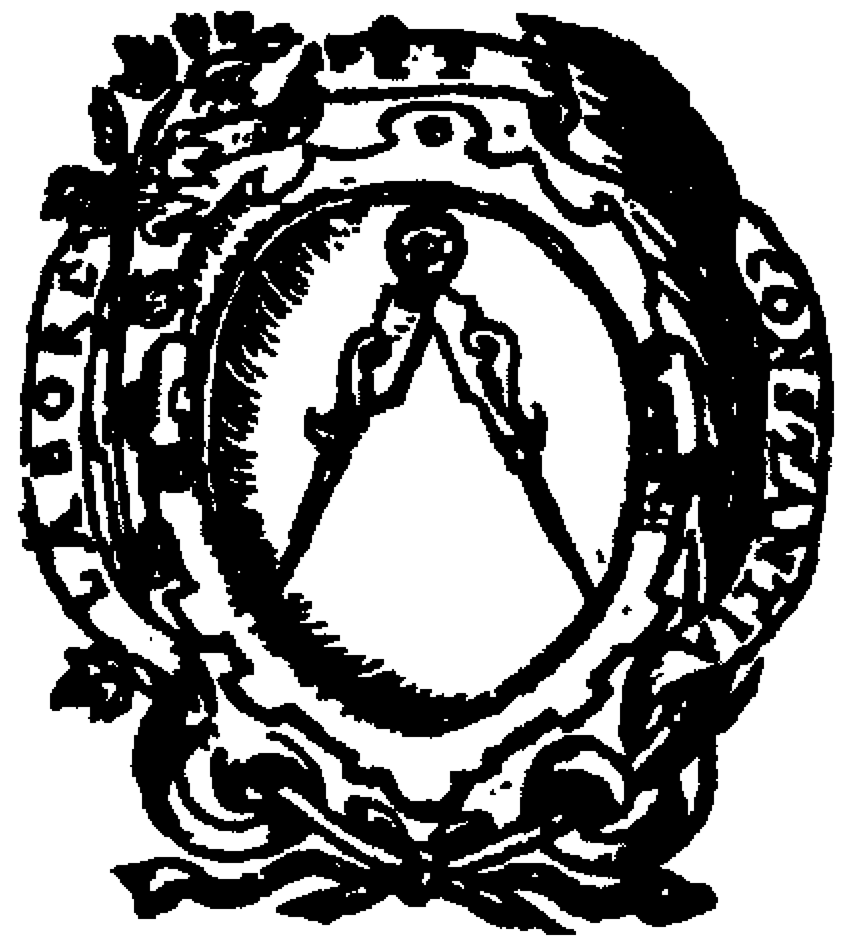

LEIDÆ,

In Officina Raphelengiana,

1614.

Thomas Erpenius (1584-1624). Proverbiorum Arabicorum Centuriae duae (Leiden, Officina Raphelengiana, 1614), titelpagina (Verzamelingen Museum Plantin-Moretus, Antwerpen, 4-6 [1]).

شكل رقم (١٧)

امثال لقمان الحكيم وبعض اقوال العرب

LOCMANI SAPIENTIS

FABVLÆ

ET

SELECTA QVÆDAM ARABVM

ADAGIA.

Cum interpretatione Latina, &
Notis THOMAE ERPENII.

LEIDAE,
In Typographia ERPENIANA Lingua-
rum Orientalium. 1615.

Thomas Erpenius (1584-1624). Locmani Sapientis Fabulae et selecta quaedam Arabum Adagia (Leiden, Typographia Erpeniana Linguarum Orientalium, 1615), titelpagina (Verzamelingen Centrale Bibliotheek van de Rijksuniversiteit Gent, BL 615 (1)).

شكل رقم (١٨)

العهد الجديد لربنا
يسوع المسيح *

NOVVM
D.N. Iesu Christi
TESTAMENTVM
Arabice.

Ex Bibliotheca Leidensi.

Edente
THOMA ERPENIO.

LEIDÆ
In typographia Erpeniana
Linguarum Orientalium.
1616.

Thomas Erpenius (1584-1624). Novum D.N. Jesu Christi Testamentum Arabice (Leiden, Typographia Erpeniana, 1616), titelpagina (Verzamelingen Centre général de documentation, Université catholique de Louvain, A 69 6 20).

شكل رقم (١٩)

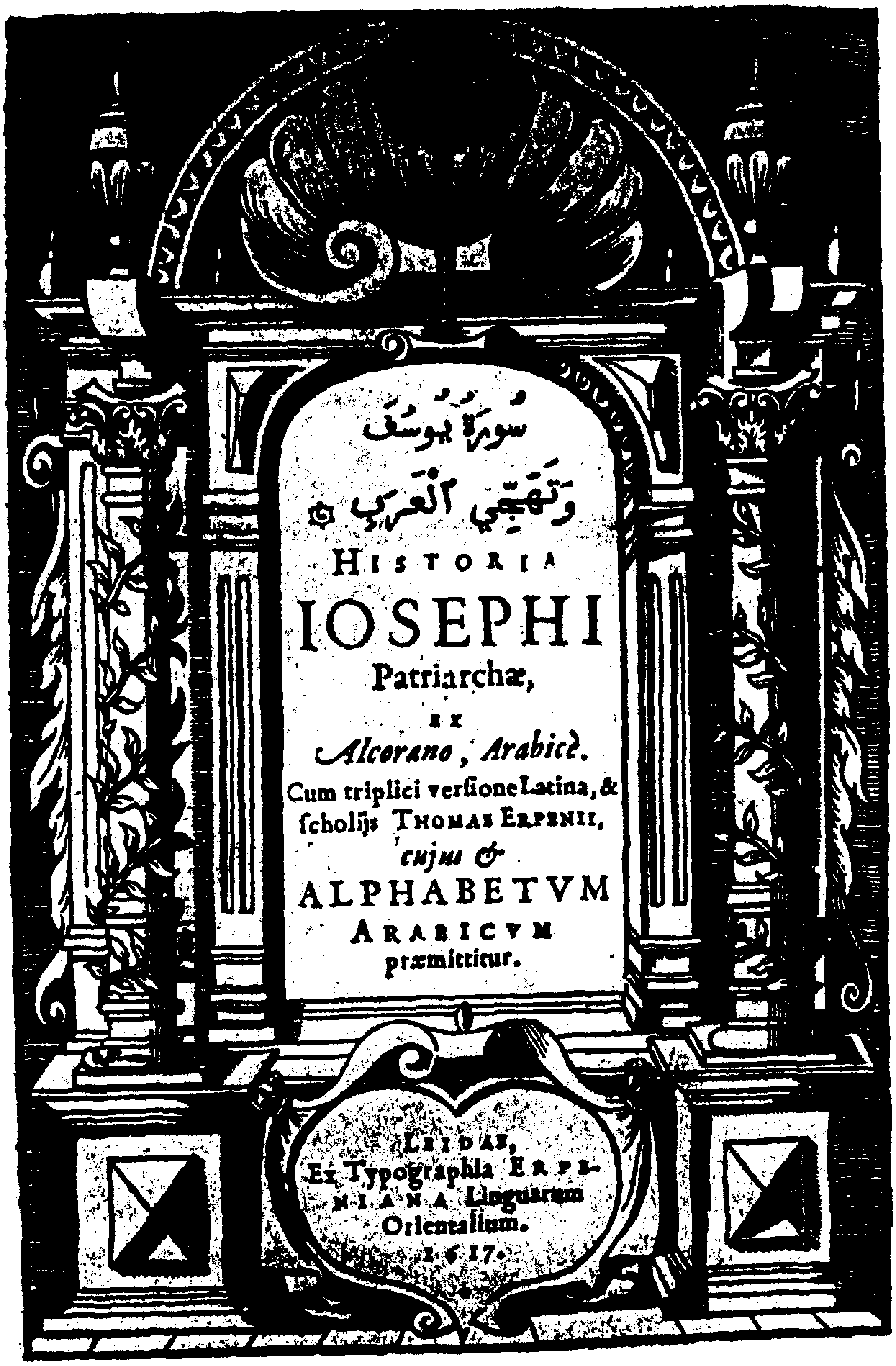
سُورَةُ يُوسُفَ
وَتَهَجِّي ٱلْعَرَبِ
HISTORIA
IOSEPHI
Patriarchæ,
EX
Alcorano, Arabicè.
Cum triplici verſione Latina, &
ſcholijs THOMAE ERPENII,
cujus &
ALPHABETVM
ARABICVM
præmittitur.
LEIDAE,
Ex Typographia ERPENIANA Linguarum
Orientalium.
1617.

Thomas Erpenius (1584-1624). Historia Josephi Patriarchae ex Alcorano, Arabice (Leiden, Typographia Erpeniana, 1617) (Verzamelingen Stadsbibliotheek, Antwerpen, C 735).

شكل رقم (٢٠)

تاريخ المسلمين
من
صاحب شريعة الاسلام ابي القاسم محمد الى الدولة الاتابكية *
تأليف
الشيخ المكين جرجس بن العميد ابي الياسر بن ابي المكارم بن ابي الطيب *

ID EST,

HISTORIA
SARACENICA,
QVA
RES GESTAE MVSLIMORVM,
INDE
a MVHAMMEDE primo Imperij & Religionis Muslimicæ auctore, usque ad initium Imperij ATABACAEI, per XLIX Imperatorum successionem fidelissimè explicantur.

Insertis etiam passim Christianorum rebus in Orientis potissimum Ecclesijs eodem tempore gestis.

Arabicè olim exarata
à GEORGIO ELMACINO fil. ABVLJASERI ELAMIDI f. ABVLMACAREMI f. ABVLTIBI.
Et Latinè reddita operâ ac studio
THOMAE ERPENII.

Accedit & Roderici Ximenez, Archiepiscopi Toletani, Historia Arabum, longè accuratius, quàm antè, è Manuscripto codice expressa.

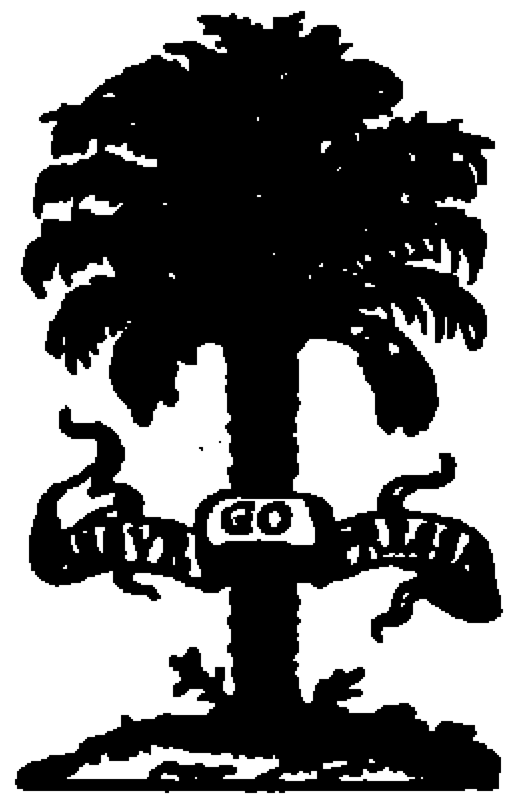

Lugduni Batavorum,
Ex Typographia ERPENIANA Linguarum Orientalium. 1625.
Prostant apud
IOHANNEM MAIRE, & ELZEVIRIOS.

Thomas Erpenius (1584-1624). Historia Saracenica, qua Res Gestae Muslimorum inde a Muhammede... usque ad initium Imperii Atabacaei explicantur (Leiden, Typographia Erpeniana, 1625, titelpagina (Verzamelingen Museum Plantin-Moretus, Antwerpen, R 36.3).

شكل رقم (٢١)

تاريخ المسلمين
من
صاحب شريعة الاسلام ابي القاسم
محمد الي الدولة الاتابكية *
تاليف
الشيخ المكين جرجس بن العميد ابي
الياسر بن ابي المكارم بن
ابي الطيب ۞

ختم في مدينة ليدا بالات
توماس الاربني ۞

شكل رقم (٢٢)

بعض المصادر المهمة حول الطباعة العربية في أوروبا

- N. Ahmad, The development of Arabic printing, in: New library world.77,1976.
- J. Balagna, L'imprimerie arabe en occident, XVIe, siécles, Paris 1984.
- E. Braches, Raphelengius's Nashchi and Maghribi; some reflections on the origine of Arabic typography in the Low Countries, in: Quaerendo 5,1975.
J.F.C.A. Briels, Zuidnederlandse boekdrukkers en boekverkopers in de Republiek der Verenigde Nederlanden omstreeks1570-1630; Een bijdrage tot de Kennis van de geschiedenis van het boek, Nieuwloop1974 (Bibliotheca bibliographica neerlandica, VI).
- R. W. Bulliet, Medieval Arabic tarsh: a forgotten chapter in the history of printing, New Haven1987. (Journal American Oriental Soc., 107pp.427-438).
- T. F. Carter, The Invention of Printing in China and its Spread Westward, New York1925.
- V. Chauvin, Bibliographic des ouvrages arabes, ou relatifs aux Arabes publiés dans I'Europe Chrétienne de 1810 á 1855 Liége 1892 - 1922.
- D. W. Davies, The provenance of the Oriental types of Thomas Erpenius, in: Het Boek30 (1949-1915)117-122.
- G. Dugat, Histoire des orientalistes de l'Europa du XIIe au XIXE siecle précédée d'une esquisse Série du historoque des orientales vol.I-II, XIXe siécle, Paris 1868-70.
- Ch. Enschede, Typefoundries in the Netherlands from the fifteenth to the nineteenth Century by Charles Enschede en Zonen at Haarlem first published in French in 1908. An English Translation with Revision and Notes by Harry Carter with the assitance of Netty Hoeflake, edited by Lotte Hellinga, Haarlem1978.
- J. Fück, Die arabischen Studien in Europa bis in Anfang des 20 jahrhunderts, Leipzig 1955.
- G. Galbiati, La prima stampa in Arabo, in: Miscellanea G. Mercati, VI, Citta del Vaticano,1946,408-413 (Studi e Testi,126).
- A. Hamilton, The Victims of Progress: the Raphelengius Arabic Type and Bedwell's Arabic Lexicon, in: Liber Amicorum Leon Voet, under redaction of F. de Nave, Anwerpen 1985,97,107.
- W. M. C. Juynboll, Zeventiende-eeuwsche beoefenaars van het Arabisch in Nederland, Utrecht 1931.
- E. Kümmerter, Arabischer Typendruck in Europa und im Orient, in : Bücher imWandel der Zeiten, Tübingen. 1966, 74-81.
- E. Lambrecht, Catalogue de la Bibliotheque de l'Ecole des langues Orientales Vivantes, Par-

is1897.
- J. Mohl, Vingt-Sept ans d'histoire des Orientales, Paris 1840-1847.
- F. de Nave, Arabische Studien en drukken in de Nederlanden in de 16de en 17de eeuw, onder redactie van.., Antwerpen1986.
- Chr. Fr de Schnurrer, Bibliotheca Arabica, Hallae1811 (Amsterdam1968),
- M. Schwab, Les incunables orientaux et les impressions orientales au commencement du XVIe siecle, Paris1883.
- R. Smitskamp, Philologia Orientalia, A description of books illustrating the study and printing of Oriental languages in Europe, Leiden-E. J. Brill 1976-83.
وفي آخرها تجد قائمة كاملة بالمصادر الأوروبية المعنية بالطباعة العربية في أوروبا.
- M. Steinschneider, Polemische und Apologetische Literatur in arabischer Sprache, Leipzig1877 (Hildesheim1966).
- ---------------, Die europaischen Uebersetzungen aus dem Arabischen bis Mitte des17. Jahrhunderts, Graz1956.
- H. D. L. Vervliet, The Type Specimen of the Vatican Press1628, Amsterdam1967.
- -----------------, Sixteenth-century printing types of the Low Countries, Amsterdam1968.
- L. Voet, The Plantin press (1555-1589); A Bibliography of the works printed and published by Christopher Plantin at Antwerp and Leiden, Amsterdam 1980-1983.
- H. F. Wijnman, The origin of Arabic typography in Leiden, in: E. J. Brill's Books on the Orient, Leiden1957, VII-XV.
- J. T. Zenker, Bibliotheca Orientalis, Leipzig1846-61 (Amsterdam1970).

أوائل المطبوعات العربية في تركيا وبلاد الشام

الدكتور وحيد قدورة

وحيد قدورة

أستاذ مساعد في علم المكتبات والمعلومات بالمعهد الأعلى للتوثيق – جامعة تونس

- من مواليد مدينة صفاقس بتونس، ١٩٥٥م
- دكتوراه في علم المكتبات والمعلومات من جامعة السوربون

الوظائف

- اختصاصي معلومات بمراكز المعلومات في فرنسا.
- أمين مكتبة بدار الكتب الوطنية بباريس.
- اختصاصي معلومات بمركز التوثيق في وزارة الشغل بباريس.
- أول رئيس للاتحاد العربي للمكتبات والمعلومات.

من نتاجه

- تقنيات المعلومات والاتصالات في الوطن العربي، تونس، ١٩٩١م.
- بداية الطباعة في استانبول وبلاد الشام تطور المحيط الثقافي (١٧٠٦–١٧٨٧م) زغوان، مركز سيرمدي والرياض، مكتبة الملك فهد ١٩٩٢.
- عدد من المقالات في مجلات عربية وأجنبية.

١ - الإشكالية والمنهجيّة :

لا يزال العلماء يعترفون إلى اليوم بأن المطبعة هي : «التقنية الأكثر فاعلية والتي لم يخترع الإنسان قط مثيلاً لها»[1] وهي إلى الآن أساس تقنيات المعلومات والاتصالات . إلا أنّ دورها لا يقتصر على الجانب التّقني الصّرف ، بل إن لها بالإضافة إلى ذلك دوراً تاريخيّاً واجتماعيّاً وثقافياً بارزاً في حياة الشعوب منذ خمسة قرون . فالمطبعة ليست مجرد آلة «محايدة» ، فقد ساهمت بقسط وافر في التحولات الفكرية والاقتصادية والاجتماعية التي عرفتها المجتمعات الأوروبيّة ، وهي أولى بوادر تفتح العرب على الاكتشافات والعلوم الحديثة التي عرفتها أوروبا ، إذ تعدّ الطباعة أوّل تقنية سلميّة مهمة يستعيرها العرب من الخارج بعد حوار وصراع طويل بين المصلحين والمحافظين .

وتسعى هذه الدّراسة إلى الإجابة عن أسئلة البحث التالية :

- **ما ظروف نشأة المطابع العربية باستانبول وبلاد الشام؟ .**
- **كيف كان تصور المسلمين والمسيحيين العرب «لفن الكتابة الجديد» قبل تأسيس مطابعهم وبعد ؟ وبعبارة أخرى هل كانت المطبعة بالنّسبة لهم أداة لنشر المعرفة وإثراء الحوار الحضاري مثل أوروبا أم أنّ لهم تصوّرات أخرى؟ .**
- **ما حصيلة المطابع العربية التي تاسّست في المشرق؟ وما أهم خصائص الإنتاج الفكري المطبوع؟ .**

وفيما يتعلق بالمنهجية المتّبعة فقد سلكنا منهج البحث التاريخي الاجتماعي بالاستناد إلى المصادر الأوليّة الآتية :

بواكير المطبوعات العربية : تمّ حصر هذه الكتب التي طبعت في المشرق خلال القرن الثامن عشر (١٧٠٦ - ١٧٨٧)[2] ثم دراستها . وأغلبها محفوظ بدار الكتب الوطنية بباريس وبعض المكتبات اللبنانية والسورية الخاصة .

وتعدّ هذه المطبوعات مصدراً أوّلياً ثميناً للمعلومات حول ظروف الطباعة والتحقيق .

الأرشيف : هناك وثائق أرشيفية مهمّة محفوظة بـ(الأرشيف) الوطني بباريس و(أرشيف) وزارة الخارجية الفرنسية (مثل مراسلات سفير فرنسا باستانبول) و(أرشيفات) خاصة (مثل سجلات دير الشوير بلبنان) .

المخطوطات : مثل «مخطوطات شبان اللغة» بدار الكتب الوطنية بباريس وهي ترجمات فرنسية للأعمال الأدبية التّركية في القرن الثامن عشر .

مصادر مطبوعة : مثل شهادات الرحّالة الأوروبيّين من القرن السادس عشر حتى التاسع عشر

٢ - ظروف نشأة الطباعة بالمشرق في القرن الثامن عشر :

يمكن تناول الإطار التاريخي العام الذي ظهرت فيه المطبعة العربيّة بالمشرق في عنصرين رئيسين هما :

- أسباب بعيدة أو جذور الطباعة العربية (من القرن التاسع حتى القرن السابع عشر) .
- أسباب مباشرة (القرن الثامن عشر) .

٢ ، ١ - الأسباب البعيدة أو جذور الطباعة العربية بالمشرق :

لم يكن فنّ الطباعة بأشكاله المختلفة غائباً عن المسلمين ، على الأقل من حيث درايتهم واطّلاعهم على أساليبه ، إن لم يكونوا قد مارسوه عمليا في بعض الفترات في أشكاله البدائية . فقد واكبوا التحولات التي عرفها فنّ الكتابة الجديد والمتجدّد ، منذ استخدام الألواح الخشبية حتى اختراع الطباعة بالأحرف المنفصلة .

ويمكن تقديم ثلاثة عناصر لتفسير الجذور البعيدة للطباعة العربية .

٢ ، ١ ، ١ - أساليب الطباعة «البدائية» عند العرب :

استخدم المسلمون فن الطباعة بالألواح الخشبية«Xylographie» منذ العهد العباسي الأول (القرن الثاني الهجري / التاسع الميلادي) وقد استعاروه من الصينيين الذين اخترعوه منذ القرن الثاني الميلادي[٣] . فطبعوا على القماش والورق ، وطوّروا أساليب هذا الفن إلى حدّ يجعلنا نتساءل : هل كان لهم مساهمة في اختراع أساليب الطباعة بالأحرف المنفصلة قبل الأوروبيين أو استخدامها على الأقل؟ .

إن ما يبرز هذا التساؤل هو وجود إشارات عن مساهمة محتملة للمسلمين بالأندلس قبل سقوط غرناطة وبعده في تطوير طرق الطباعة :

● الاشارة الأولى ما ورد في مصدرين أندلسيين متأخرين يتحدثان عن فنّ غامض للطباعة ، الأول لابن الخطيب ، وعنوانه «الإحاطة في أخبار غرناطة» الذي ذكر أنّ أبا بكر القلوسي أهدى للوزير الحاكم كتاباً عن خصائص صناعة الحبر وأدوات الطباعة وهذا الكتاب فريد في محتواه .[٤]

أما الشهادة الثانية فهي لابن الأثير الذي ذكر في كتابه «الحلة السرية» أن بدراً مولى الأمير عبد الله كان يكتب السجلات في داره ، ثم يبعث بها فتطبع .[٥]

وقد اختلف العلماء حول هاتين الشهادتين[٦] إلا أنه يبدو - أمام غموضهما ، وفي غياب مصادر أخرى - أن الأمر يتعلّق بأسلوب متطوّر للطباعة بالألواح الخشبية .

● ترخيص السلطان العثماني بايزيد الثاني لليهود الذين استقروا بتركيا بعد ما طردوا من إسبانيا بإقامة مطابع عبريّة لهم عام ١٤٩٤[٧] . وإذا كان باستطاعة اليهود الذين كانوا يقيمون بالأندلس ممارسة عملية الطباعة ، فهل سيكون ذلك عسيراً على المسلمين المهاجرين أيضاً من الأندلس ، وقد عرفوا بمهاراتهم في الصناعات المختلفة ومنها النقش على المعادن . وكذلك بإسهامهم العلمي في شتّى مجالات المعرفة . وهنا نطرح السؤال الآتي : هل كان المسلمون الأندلسيّون يحذقون فنّ

الطباعة بالأحرف المنفصلة منذ القرن الخامس عشر؟ . وهل قاموا بطباعة الكتب؟ .

إن الإجابة الدقيقة عن السؤال رهينة باكتشاف مصادر معلومات أخرى ، قد تلقي الأضواء على حقائق جديدة . بقي فقط الإشارة إلى أن الموريسكيين قد يكونون ساهموا مساهمة فعالة في طبع كتب عربية بإسبانيا المسيحية .

إذا لم يكشف التاريخ عن آثار ومصادر توضح إن كان المسلمون قد استخدموا فعلاً المطبعة بالأحرف المنفصلة قبل القرن الثامن عشر فإن هناك أدلة كثيرة تبين أنهم كانوا يعلمون ويواكبون نشاط المطابع التي ظهرت بالصين ثمّ بأوروبا .

٢ ، ١ ، ٢ - طباعة الصين ثم أوروبا :

اخترع الصيني «بي شينغ» (Pi-Chin) سنة ١٠٤١م طريقة الطباعة بالأحرف المنفصلة «أو المتحركة»[٩] . وهو أسلوب متطور جداً بالقياس إلى أسلوب الألواح الخشبية . لأنه يساعد على طبع آلاف النسخ من أي كتاب كان . إلا أنّ اختراع «بي شينغ» بقي محدوداً[١٠] لعدة أسباب ، منها استعماله للطّين ثمّ الخشب الذي لا يعطي حروفا رقيقة وجميلة ، وغياب آلات أو تقنيات تساعد على الإسراع في العمل . وهذا ما عمل الألماني «غوتنبرغ» على تفاديه بعد أربعة قرون من الزّمن ، إذ استعمل المعادن (النحاس والفولاذ) لإعداد الحروف المنفصلة ، واستعمل المعصر (مثل معاصر العنب في ألمانيا) في عمليّة الطبع ، فطبع أول كتاب له عام ١٤٥٠ ، وهو الكتاب المقدّس .

كيف اطلع المسلمون على هذا الاختراع؟

فيما يتعلق بمواكبة الاختراع الصّيني :

هناك مصدر إسلامي من القرن الرابع عشر الميلادي يؤكد ذلك ، وهو كتاب «جامع التواريخ» للوزير فضل الله بن عماد بن علي رشيد الدين(١٢٤٧ - ١٣١٨م) الذي تحدّث عن زيارته للصّين ومشاهدته للمطبعة ووصف الأحرف المنفصلة للغة

الكاتاي (Katai) .

فيما يتعلق بمواكبة الاختراع الأوروبي :

هناك شهادات عدّة تبيّن ذلك من بينها :

● ترخيص السلاطين العثمانيّين للأقليّات الدينيّة (اليهود ، الأرمن ، اليونانيين . . .) بإقامة مطابع لهم بشرط عدم استخدام الحرف العربي[11] .

● شهادة إبراهيم متفرقة الذي تحدّث في «رسالة وسيلة الطباعة» عن اهتمام العلماء المسلمين بفنّ الطباعة وتحمّسهم للاستفادة منه منذ عهد طويل[12] . إلا أن هناك عراقيل منعتهم من إقامة مطابع بالأحرف العربية المنفصلة قبل سنة ١٧٢٦ .

● شهادات لبعض العلماء المسلمين تبيّن تردّدهم في استخدام فنّ الكتابة الجديد[13] .

تؤكد هذه الشهادات اطلاع المسلمين على اختراع المطبعة في الصين وأوربا . إلا أن موقفهم منها كان سلبياً ، إذ إنهم أعرضوا عنه مدة طويلة فسبقهم الأوربيون في طباعة الكتب بالأحرف العربية . فما ذا كان موقفهم من هذا الإنجاز ؟ .

٢ ، ١ ، ٣ - المطبعة العربية في أوروبا وصداها بالمشرق :

طبع الأوروبيون كتبا عربية كثيرة منذ سنة ١٥١٤م ووصل عددها إلى قرابة ١٦٧ كتابا[14] قبل أن يظهر أوّل كتاب عربي مطبوع بالمشرق . وتأسّست نتيجة لذلك مطابع للكتب العربيّة والشرقيّة في عديد من المدن بفرنسا وإيطاليا وهولندا وألمانيا وإنكلتره وغيرها .

ولئن كان هناك جزء من هذا الإنتاج المطبعي العربي موجّهاً للأساتذة والطلبة والمستعربين بأوروبا فإنّ جزءاً مهماً منه كان موجّها للشرقيين ، سواء منهم المسيحيون العرب أم المسلمون . فكيف كان موقف الطرفين :

موقف المسيحيّين العرب :

قبلت الطوائف المسيحيّة الكتب العربية المطبوعة في أوروبا التي أرسلت بها على الخصوص كنيسة روما وكذلك فرنسا عن طريق مبعوثين لها مبشرين من اليسوعيّين . وقد وقف النصارى على فوائد المطبعة الثقافية والعلمية فوجدوا فيها أيضاً سنداً معنوياً مهماً لكونها من عمل «إخوانهم في الدين» الذين يريدون مؤازرتهم وتوحيد مجهوداتهم في نطاق مشروع الفاتيكان الكبير المتمثّل في «الاتحاد مع الكنائس الشرقية المستقلّة»[١٥] . وكانت علاوة على ذلك أداة فعّالة لدعم «الهوية الثقافية» لهذه الطوائف التي تمثّل أقليات دينية داخل العالم الإسلامي ، إذ إنها تؤكّد على خصائص طوائفها وتجمع شتات كل طائفة حول كنيستها . ولم يقتصر موقف المسيحيّين العرب على الترحيب بهذه الكتب ، بل عملوا على المشاركة في عملية طباعة الكتب العربية بطريقتين

- طريقة مباشرة : ساهم المارونيّون في النشر العربي على الخصوص في مطابع روما وباريس ترجمة ومراجعة وطبعاً للنّصوص الدينيّة واللغوية[١٦] .

- طريقة غير مباشرة : من جانب الأرثوذكس الملكيّين الذين أرسلوا مخطوطات طائفتهم إلى الفاتيكان بغرض طباعتها بعد ترجمتها من السريانية إلى العربية ومراجعتها ، كما قدّموا نصائح حول طريقة طباعة كتبهم[١٧] .

لكنّ الطوائف نفسها أبدت بالمقابل تحفّظات على محتوى قسم من الكتب بسبب بعض الخلافات العقائدية بين الكنائس الشرقية وكنيسة روما ، الأمر الذي أدّى أحياناً إلى رفض عدد من عناوين الكتب[١٨] . وقد تكون هذه الخلافات وراء رفض روما لأيّة محاولة مارونيّة تريد إقامة مطابع عربيّة بجبل لبنان ، إذ إنها لم تساند المشاريع التي قدّمها لها التلاميذ المارونيّون . لطبع كتبهم في الشرق[١٩] . كما كانت وراء رفض روما طبع كتب أرثوذكسيّة بسبب اعتراض بطريرك أنطاكية على

مراجعتها .

موقف المسلمين :

على الرّغم من اقتناع عدد كبير من العلماء المسلمين بفوائد الطباعة إلا أن التردّد والخوف من ردود فعل العلماء المحافظين حتى من العامّة حال دون الاستفادة من خدمات المطبعة بل من استعمال الكتاب المطبوع بأوروبا مدة طويلة . فكانت نتيجة ذلك أن أحجم المتعلّمون من المسلمين عن شراء كتب عربية علمية مطبوعة بإيطاليا مثل كتاب القانون الثّاني في الطب لابن سينا الذي طبعته مطبعة الميدتشي بروما سنة ١٥٩٣ . وكانوا يفضّلون شراء الكتاب مخطوطاً رغم أنّ ثمن الثّاني يساوي عشرة أضعاف ثمن الأوّل[٢٠] .

وكان ردّ فعل العامة شديداً ، اعتدى بعضهم على تاجرين أوروربيّين ، كانا قد أحضرا كتباً علمية عربية مطبوعة بروما ، وأتلفوها تعبيراً عن رفضهم التّام للمطبعة وإنتاجها . وتدخّل السلطان مراد الثّالث بحزم لحماية التجّار من جهة ولتشجيع بيع المطبوعات من جهة أخرى ، فأصدر لهذا الغرض فرماناً يرجع تاريخه إلى سنة ٩٩٦هـ = ١٥٨٨م[٢١] .

٢ ، ٢ - الأسباب المباشرة لاستخدام المطبعة العربيّة بالشّرق :

بعد مرور أكثر من قرنين ونصف على اختراع «غوتنبرغ» ، وبعد تكثّف الاتصالات بين العثمانيين والأوروبيين على جميع المستويات ، أصبح المناخ مهيئاً لإدخال فنّ الطباعة العربية إلى الشرق وللاستفادة أيضاً من جميع الاكتشافات والعلوم الحديثة .

٢ ، ٢ ، ١ - عصر التفتّح والإصلاح : (١٧١٧ - ١٧٣٠)

هناك عدّة عوامل تفسّر تغيّر المناخ السياسي والاجتماعي والثّقافي في اتّجاه الإصلاح والتفتّح على أوروبا المسيحيّة ومن أبرزها :

- الهزائم العسكرية التي منيت بها الدولة العثمانية أمام روسيا والنّمسا ، في بداية القرن الثامن عشر دفعت بالباب العالي إلى عقد اتّفاقيات سلام ، مثل اتّفاقية «باساروفيتش» عام ١٧١٨ مع النّمسا ، خاصة أنّ السلطان العثماني الحاكم أنذاك وهو أحمد الثالث (١٧٠٣ - ١٧٣٠) كان مسالماً بطبعه وقد عيّن وزيراً لتنفيذ «سياسة سلمية» مع أوروبا ، هو الصدر الأعظم إبراهيم باشا داماد (١٦٦٢ - ١٧٣٠) . وكانت فترة السّلام هذه فرصة للتّفكير في أسباب ضعف الجيش والدولة ، ولإدخال بعض الإصلاحات .

- حركة الإصلاح ، وأخيراً وجدت نداءات المصلحين العثمانيين منذ أكثر من قرن آذاناً صاغية في عهد أحمد الثالث ، إذ نبّه عديد من العلماء والوزراء إلى المخاطر التي كانت تهدد الدولة بسبب انحلال الجيش وإفلاس الخزينة والركود العلمي وغيره ، ونادوا بإصلاح المؤسسات الإدارية والعسكرية والاقتصادية والثقافية . ومن بين المصلحين نذكر حاجي خليفة وكوشي باي ولطفي باشا .

عمل أحمد الثالث على إعادة بناء الجيش والاقتصاد وعلى تنشيط الحركة الفكرية والعمليّة ، فأسس المكتبات وشجّع العلماء على التدريس والتأليف . واستفاد سكّان الامبراطورية من الانتعاش الاقتصادي في فترة السلم لتحسين ظروف عيشهم . ومنهم سكّان استانبول الذين غيّروا نمط حياتهم من الخشونة إلى الدعة والترفه والشّاعرية ، وأطلق على هذه الفترة «لالي دوري» أي عصر الخزامى ، نسبة إلى زهرة الزّنبقة التي جلبت من هولاندا وانتشر غراسها في كامل حدائق العاصمة[٢٢] . وهذا النمط الجديد من الحياة كان قد استوحاه أبناء استانبول من مجتمع باريس ، كما صوره لهم أحد السفراء العثمانيين .

٢ ، ٢ ، ٢ - السفير العثماني بباريس :(١٧٢٠ - ١٧٢١)

كان لهذه السفارة تأثير مباشر استخدام تقنيات واكتشافات أوروبية من طرف

العثمانيين ومن بينها المطبعة . فقد كتب هذا المبعوث تقريراً مفصّلا ضمّنه في كتاب[٢٣] يصف فيه جميع مشاهداته في فرنسا وعلى الخصوص مظاهر التقدّم العلمي التي وصل إليها الفرنسيّون . كما جاءت هذه السفارة في فترة مناسبة للاستفادة من جميع الفنون والاختراعات والعلوم الحديثة التي تعرفها أوروبا . وهو ما كان يرمي إليه الوزير إبراهيم باشا داماد إلى جانب مهمّة السفير الدبلوماسية .

قام بهذه المهمّة ضابط كبير يدعى محمد شلبي الملقّب بـ «يرمسكز» أو «الثامن والعشرين» نسبة إلى رقم الوحدة العسكرية التي كان يعمل بها[٢٤] . زار محمد شلبي يرمسكز مطبعة بباريس ، إلاّ أنّه لم يتحدّث عنها في تقريره رغم أنّ أحد مرافقيه الفرنسيّين يؤكّد ذلك «فقد اهتم السفير بالآلات والمصانع وخاصة الميداليّات والمطبعة . . .»[٢٥] . ويرى سليم نزهت كرجك أنّ السفير «لا يتحدّث عن المطبعة . . . لأنّه لم يعدّها شيئا جديداً عليه ، حيث نجد هناك فقرة في رحلته تشير إلى أنّ لديه فكرة كاملة عن طبع الكتب . . .»[٢٦] . ويبدو أنّ يرمسكز قد تحاشى الحديث عن المطبعة حرصاً منه على عدم إثارة المحافظين ، خاصّة أنّه كان يعد مع ابنه سعيد شلبي مشروع إقامة مطبعة باستانبول[٢٧] .

٢ ، ٢ ، ٣ - رسالة إبراهيم متفرقة أو الحوار حول المطبعة :

جاءت هذه الرسالة لتضع حدّا لحالات التردّد والخوف والرّفض تجاه مشروع إدخال المطبعة في البلاد الإسلامية[٢٨] . فإبراهيم متفرقة من أبرز أنصار هذا المشروع ، عمل مع دعاة التفتّح والتّجديد على إقناع المحافظين بأهميّة الأخذ من علوم أوروبا وتقنياتها ، ومن بينها الطباعة . فكتب «رسالة وسيلة الطباعة» حوالي عام ١٧٢٥ عدّد فيها فوائد المطبعة كمضاعفة عدد الكتب وإحياء المؤلفات الإسلامية وانخفاض أسعار الكتب مما يسهم في تثقيف عامة الناس ، وكان في الوقت نفسه يبرز عيوب النسخ بخط اليد وتهاون الناسخين ، ويبيّن الأضرار التي حصلت للمسلمين

من جرّاء غياب المطبعة .

وقد أمكن لإبراهيم متفرقة أن يقنع أصحاب القرار في الدولة برأيه ، فحصل على موافقة شيخ الإسلام والعلماء المقرّبين للباب العالي[٢٩] ، ثمّ الوزير إبراهيم باشا والسلطان العثماني أحمد الثالث الذي رخّص له ولسعيد شلبي بإقامة مطبعة بالحرف العربي بشرط عدم طبع كتب الشريعة والفقه الإسلامي (خط همايون بتاريخ ١٥ ذي القعدة ١١٣٩هـ = ١٧٢٦م) . وقد استند أحمد الثالث في قراره إلى فتوى شيخ الإسلام التي تجيز ذلك . وبذلك حصل إبراهيم متفرقة وسعيد شلبي على جميع الضمانات القانونية وعلى الدعم السياسي اللازم لإنجاز المشروع بعيداً عن أيّ ردود فعل قد يقوم بها المحافظون المعارضون للمطبعة .

٢ ، ٢ ، ٤ – علاقة المسيحيين العرب برومانيا :

لعبت هذه العلاقات بين الأقليات المسيحية داخل الامبراطوريّة العثمانية دوراً مباشراً في إقامة مطابع عربية مسيحيّة ببلاد الشام . وكانت هده الروابط تجمع بين معتنقي المذهب الأرثوذكسي بسوريا وأوروبا الشرقية منذ أمد طويل ، ثم تطوّرت على نحو خاص في ظل الدّولة العثمانية إذ كانوا يتبادلون الزيارات للنّظر في شؤون طوائفهم الدينية والاجتماعية والثقافية[٣٠] .

قام بطريرك أنطاكية «أثناسيوس الثالث دباس» بزيارات عديدة إلى بلاد الفلاخ ومولدافيا ، لجلب الكتب الدينيّة اليونانية منها ، ثم للتقدّم بطلب إلى حاكمها لطبع كتب أرثوذكسيّة بالعربية . وقد جاء هذا الطلب بعد أن رفضت كنيسة روما طبع هذه الكتب بسبب الخلافات العقائديّة كما رأينا .

ولئن نجحت المطبعة العربيّة التي تأسست ببوخارست سنة ١٧٠١ في نشر كتابين مسيحيّين[٣١] ، فإنها لم تتمكّن من مواصلة عملها بسبب صعوبة الاتصال بين بلاد الفلاخ وبلاد الشام وبسبب غياب العرب المتخصصين بمراجعة النصوص العربية

وإصلاح الأخطاء المطبعية .

لذلك فكر بطريرك أنطاكية أثناسيوس الثالث دباس في إنشاء مطبعة قريبة من طائفته وبالتحديد بمدينة حلب ، لوجود جالية مسيحيّة مهمّة بها ، ولأنها المقر الثاني لبطريرك أنطاكية . خاصّة أنّ حاكم رومانيا قسطنطين بسرابا برانكوفيانول وعده بتقديم المساعدات اللازمة له .

تفاعلت هذه العوامل البعيدة والقريبة لتهيئة المناخ المناسب لإقامة المطابع الأولى بالأحرف العربية في بلاد الإسلام . وهذه المشاريع تعني أنّ هناك تحوّلاً مهماً قد حصل في المجتمع العثماني ، إذ انتقل من الانغلاق إلى التفتّح ومن الجمود الفكري إلى الإبداع . وبعبارة أخرى فإنّ العالم الإسلامي بتبنّيه أداة ثقافية «ثورية» وهي المطبعة سيعرف نمطاً حضارياً جديداً .

٣ - مطابع استانبول وبلاد الشام

بعد دراسة الظروف التي أحاطت بدخول المطبعة العربية إلى المشرق ، يتناول هذا الجزء بالتحليل المطابع التي أنشئت في القرن الثامن عشر ، وطرق تنظيمها إدارياً وفنياً ، وطرق تحقيق المخطوطات ، ومراقبة عملية النشر .

٣ ، ١ - إدارة المطابع العربية :

٣ ، ١ ، ١ - إدارة مطبعة استانبول : (١٧٢٦)

المدير : قام بتأسيس مطبعة استانبول وإدارتها سعيد شلبي وإبراهيم متفرقة ، وكلاهما موظف سام لدى الباب العالي . وهذا يدلّ على أنّ المشروع كان تحت إشراف سياسي مباشر تصوّراً وتنفيذاً ومتابعة .

سعيد شلبي : ابن يرمسكز سفير الدولة العثمانية إلى باريس ، عمل كاتباً لوالده في أثناء السفارة ، وتقلّد فيما بعد مناصب دبلوماسيّة وسياسيّة مهمة (صدر أعظم عام

١٧٥٥) ، أعد مشروع إقامة مطبعة بالتّعاون مع متفرقة .

إبراهيم متفرقة (١٦٧٥ - ١٧٤٥) : رجل أدب وعلم ودبلوماسي ، كان من أشهر رجال الإصلاح في الدولة العثمانية في القرن الثامن عشر ، أصله مجري ، اعتنق الإسلام صغيراً ، درس علوماً كثيرة وتبحّر فيها حتى لقّب بمتفرقة أي متعدّد المواهب . تحمّس - كما رأينا - للاستفادة من الاختراعات الحديثة وخاصّة المطبعة ، ووجد في صديقه سعيد شلبي خير سند لتحقيق هذا المشروع الرّائد .

لم تدم هذه الإدارة المشتركة للمطبعة طويلاً إذ سرعان ما انفرد إبراهيم متفرقة بتسييرها من سنة ١٧٣٠ إلى وفاته سنة ١٧٤٥ ، ثم خلفه في إدارة المطبعة تلميذه إبراهيم أفندي القاضي(١٧٤٥ - ١٧٥٦) ، وأغلقت بعد وفاته إلى سنة ١٧٨٤ حين أعاد فتحها أحمد واصف ومحمد راشد أفندي وهما كذلك موظفان ساميان لدى الباب العالي ، الأول مؤرّخ البلاط والثاني رئيس الديوان .

كان من نتائج ارتباط المطبعة بالباب العالي أن تأثّرت هذه المؤسسة بالتقلّبات السياسية ، إذ توقّفت فترات طويلة في أثناء الأزمات . كما تأثرت على الخصوص بتصوّرات رجال السياسة لدور المطبعة ، فلم تطبع إلا الكتب التي تتناسب مع هذه الرؤى ، كما سنرى ذلك لاحقاً .

العاملون : يبدو أنّ المطبعة استعانت في البداية بخبرات أجنبيّة للتشغيل[٣٢] ، ثم استعيض عنها بعمّال مسلمين بعد ما اكتسبوا الخبرة الفنّية الكافية لحفر الأحرف وصبّها وتصفيفها وطبع النصوص ، وحفر الرسوم والخرائط على لوحات من نحاس . وكان يتجاوز عدد العاملين عشرة . كما عمل بالمطبعة في بعض المناسبات مسيحيّون ويهود مثل الأب اليسوعي «هولدمان» واليهودي «يونس»[٣٣] . وكان مدير المطبعة يتولّى توزيع المهام بين العاملين ويشرف على كامل عمليّات الطباعة .

الموارد الماليّة : كانت متنوّعة وتتمثّل خصوصاً في :

- أموال خاصة من مؤسسي المطبعة ، إبراهيم متفرقة وسعيد : وذلك حسبما ورد في خط همايون لأحمد الثالث عام ١٧٢٦ ، إلاّ أنّ ذلك لم يمنع الدولة من تقديم الدّعم لهما .
- مساهمات الباب العالي : كانت ظرفية ، وتمثّلت في دفع أجور العمّال عند تأسيس المطبعة حسب خط همايون لعبد الحميد الأوّل عام ١٧٨٤ .
- هبات ومساعدات من رعاة العلم والأدب .
- ثمن الكتب المطبوعة : كانت تباع في البداية بثمن زهيد ، لا يغطّي التكلفة . ورغم ذلك فإنها لم تجد رواجاً ، ممّا تسبّب في عجز مالي وفي تخفيض النسخ من ١٢٠٠ إلى ٥٠٠ نسخة فقط[٣٤] .

لم تكن هذه الموارد كافية لاستمرار الإنتاج المطبعي ، ولم تكن المداخيل تغطّي المصاريف ، الأمر الذي تسبّب في نشوء عدة صعوبات كانت تؤدي إلى تعطيل المطبعة فترات طويلة .

٣ ، ١ ، ٢ - إدارة مطبعة حلب :(١٧٠٦ - ١٧١١)

المدير : يعدّ البطريرك «أثناسيوس الثالث دباس» مؤسّس مطبعة حلب ومديرها ، فهو الذي أعد المشروع ونفذه خلال عمر المطبعة القصير وهو ستّ سنوات . وكان هذا البطريرك رجل أدب ، يحذق اللغتين العربية واليونانية ، تولّى ترجمة عدّة كتب مسيحيّة إلى العربية وطبعها بحلب . واكتسب خبرة فنيّة في ميدان الطباعة عندما عمل بمطبعة بوخارست (١٧٠١ - ١٧٠٢) .

العاملون : يبدو أن مطبعة حلب لم تلتجيء إلى فنّيين أوربيّين ، إذ اعتمدت على قدرات أبناء الطائفة الأرثوذكسية ، وتذكر المصادر أن البطريرك دباس كان يتولّى إعداد الأحرف العربيّة وتصفيفها وطباعة النصوص ومراجعتها[٣٥] بمساعدة مجموعة

من الفنيين ، لم تذكر لنا المصادر سوى أشهرهم وهو الشماس عبد الله الزاخر[٣٦] الذي سيكون له أثره الكبير في تأسيس مطبعة الشوير .

المواد المالية : تتكوّن هذه الموارد على الخصوص من :

- مساعدات أمير بلاد الفلاخ (رومانيا) : ورد ذكر ذلك في مقدّمة أوّل كتاب طبع بحلب (كتاب الزبور ١٧٠٦) حيث يشيد البطريرك بهذه المساعدة القيّمة .
- هبات أثرياء الطائفة الأرثوذكسيّة : حسبما ورد في مقدّمة كتاب المواعظ الذي صدرفي سنة ١٧١١ .
- مساعدات رجال الدير : مثل البطريرك «كيرلس الخامس» الذي مول طبعة كتاب «الباركليتيكي» عام ١٧١١ ، كما نصّت على ذلك مقدّمة هذا الكتاب .

لم تكن هذه الكتب مخصّصة للبيع بل وزّعت مجاناً على كنائس الطائفة ، وبذلك افتقدت المطبعة مصدراً مالياً مهماً لتمويل نشاطها وعدم الاقتصار على الهبات . وقد تكون الصعوبات الماليّة من بين أسباب توقّف المطبعة المبكّر .

٣ ، ١ ، ٣ - إدارة مطبعة الشوير : (١٧٣٤ - ١٨٩٩)

المدير : أسّس مطبعة الشوير بجبل كسروان بلبنان وأدارها عبد الله الزاخر (١٦٨٠ - ١٧٤٨) وكان عمل من قبل بمطبعة حلب ، ثم فرّ منها بعد اعتناقه للمذهب الكاثوليكي . وقد وجد مساعدة عظيمة من المبشرين اليسوعيّين الذين يريدون مؤازرة الكاثوليكية بسوريا[٣٧] . ثم خلفه بعد وفاته تلميذه سليمان قطان (توفي ١٧٧٨) . أمّا الإشراف العام فقد تعهّد به رؤساء الرهبانيّة الشويريّة .

العاملون : ذكرت مصادر الرهبانيّة الشويرية بعض أسماء العاملين مثل المديرين ، ويواكيم بن مطران ، وموسى ابن أخي سليمان قطان . أمّا أغلب المساعدين فهم من رهبان دير الشوير . وقد تلقّى كل هؤلاء تدريبات بإشراف عبد الله الزاخر . ويلغ عدد

العاملين في أثناء إدارة سليمان قطان سبعة ؛ ثلاثة رهبان يعملون في الطباعة واثنين في التصفيف واثنين في حفر الأحرف وسبكها[٣٨] .

الموارد المالية : تتمثل فيما يأتي :

- أموال خاصة من عبد الله الزاخر ، مؤسس المطبعة ، الذي ينتمي لعائلة ثريّة .
- مساعدات مالية وعينيّة من المبشرين اليسوعيّين وتجّار أوروبيّين يعملون بالشرق .
- مساعدات من أثرياء الكاثوليكيّين العرب[٣٩] .
- مساعدات عينيّة من الرهبانيّة الشويريّة التي كان رهبانها يعملون بالمطبعة مجاناً .
- ثمن الكتب التي كانت تباع بسعر مماثل لتسهيل ترويجها .

استطاعت هذه المطبعة أن تضمن بعض الموارد القارّة لتأمين استمرار العمل بها ، وهذا عنصر مهم يفسّر بقاء المطبعة حتى نهاية القرن التاسع عشر .

٣ ، ١ . ، ٤ - إدارة مطبعة بيروت :(١٧٥١ - ١٧٦٦)

لا يعرف عن هذه المطبعة إلاّ النزز القليل من المعلومات بسبب اختفاء مصادرها إثر زلزال هزّ المبنى الذي كان يؤويها بدير القدّيس «جيورجيوس» عام ١٧٦٦ .

وهناك اختلافات حول مؤسّس المطبعة ومديرها ، ويبدو أنّ بطريرك أنطاكية «سلفستروس القبرصي»(١٦٩٦ - ١٧٦٦) هو الذي أسّس المطبعة ببيروت ، وكان يرمي من ذلك إلي إحياء المشروع الذي بدأه سلفه «أثناسيوس دباس» بمدينة حلب . إلاّ أنّه استعان في تنفيذه بأحد أثرياء بيروت الأرثوذكسيين وهو «يونس بن نيقولا الجبيلي» المعروف بأبي عسكر ، الذي يعتقد بعض الدارسين أنه هو مؤسس

المطبعة[٤٠] . لكن الذي تبين أن «سلفستروس» هو الذي لعب الدّور الأساسي في إنشاء مطبعة بيروت ، إذ كانت لديه الخبرة الفنّية والقدرات العلميّة والدينية التي تخوله ذلك[٤١] .

٣ ، ٢ - الجوانب الفنّية للطباعة العربية :

اصطدمت تجارب المطبعيّين الأوائل في المشرق بصعوبات عديدة من جراء افتقادهم الخبرة الكافية ، فكان أن تعثّروا منذ البداية في إعداد الأحرف العربية ، وصعب عليهم صنع آلات الطباعة محلّيا . كما جابهوا على مستوى آخر مشاكل لتحقيق المخطوطات ونشر الكتب .

٣ ، ٢ ، ١ - أحرف الطباعة العربية :

إعداد أحرف الطباعة المنفصلة :

تعتمد تقنية أحرف الطباعة المنفصلة التي اخترعها الصينيّون ثمّ طوّرها الأوروبيّون على إعداد طابع من معدن الفولاذ الصلب يستخدم لحفر قالب من نحاس ، وهذا القالب يصلح لسبك أمثلة الأحرف من الرصاص . وكانت هذه العمليّات تستدعي خبرة فنيّة كبيرة في النقش على المعادن وفي صبّ أمثلة الأحرف . وهي مهارة لم تكن لتعوز صناع المعادن في المشرق وخاصة الصائغين منهم . ويلاحظ في هذا الإطار أن عبد الله الزاخر كان صائغاً مثلماً كان «غوتنبرغ» الألماني من قبل ، وقد تمكّن من نقش أحرف مطبعة الشوير وسبكها ، كما ساهم من قبل في إعداد أحرف مطبعة حلب[٤٢] . إلا أنّ هذه الأحرف كانت من خشب[٤٣] .

وفيما يتعلق بمطبعة استانبول فقد تمكّن إبراهيم متفرقة أيضاً مع فريق من الصنّاع المسلمين الماهرين من إعداد الأحرف العربية وكذلك اللاتينيّة[٤٤] .

المشاكل الفنية لأحرف الطباعة العربية :

من طبيعة الكتابة العربية التصاق الأحرف بعضها ببعض ، وإذا اتّبعت طريقة التفريق

بين الأحرف كاللاتينية فإن النتيجة تكون سلبية ، إذ نحصل على نص عربي غامض . وقد أخفق الأوروبيّون في الفصل بين الأحرف العربية ، فتركوه ، وتمكّن الناقشون من تحضير الأشرطة الرابطة «Les Ligatures» ونجحوا في طبع نص عربي شبيه بالمخطوط : نذكر «قرانجون» في روما(١٥٨٥) وعبد الله الزاخر في الشوير (١٧٣٤) وإبراهيم متفرقة في استانبول (١٧٢٦) . وهكذا فقد طوّعت المطبعة للكتابة العربيّة عوضا عن أن تطوّع الكتابة للمطبعة .

- إن شكل كل حرف عربي يختلف حسب موقعه في الكلمة : فصورة حرف الباء مثلاً في أول الكلمة تختلف عن صورتها في وسطها وآخرها . وهذا يتطلب حفر عدد مرتفع من القوالب لكل حرف عربي بخلاف الأحرف اللاتينية .
- إضافة قوالب للحركات : كالفتحة والهمزة والتضعيف . . . وللأشرطة الرابطة .
- هناك أحرف ترتفع فوق السطر وأخرى تنزل تحته وهذا يتطلب تخصيص مكان أكبر للنصّ العربي من النص اللاتيني .

وينتج عن ذلك :

- إضاعة وقت كبير في تحضير الأحرف وتركيبها لطبع النصوص . فكان المطبعي في الشوير مثلاً يمر أمام طاولة طولها ١٨ قدماً قصد البحث عن الأحرف في صناديق القوالب .[٤٥] .
- خسارة حجم أكبر من الورق .
- تخصيص عدد مرتفع من العمال ومبالغ ماليّة عالية .
- الوقوع في أخطاء الكتابة خاصّة عند وضع العلامات على أحرف الطباعة العربية .

٣ ، ٢ ، ٢ - آلات الطباعة :

لئن تمكّنت المطابع العربية من إعداد الأحرف العربية بالاعتماد على الكفاءات المحلية ، فإن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة لآلات الطباعة وهي تقنيات متطوّرة في ذلك العصر ، فالتجأت إلى استيرادها من أوروبا .

- استانبول : اشترى إبراهيم متفرقة هذه الآلات من أوروبا وعددها ستّ ، استعملت أربع منها لطبع الكتب واثنتان للخرائط[٤٦] .
- حلب : يبدو أن «أثناسيوس دباس» حصل على آلات الطباعة من بوخارست بفضل العلاقات الروحيّة التي تربط الطائفتين الأرثوذكسية في سوريا ورومانيا .
- الشوير : اقتنى اليسوعيون الآلات من أوروبا وعلى الأرجح من فرنسا ، لفائدة مطبعة الشوير[٤٧] .

٣ ، ٢ ، ٣ - نشر الكتب : تحقيق المخطوطات ومراقبة الطبعات

حرص مشرفو المطابع العربية على نشر كتب خالية من الأخطاء بعد تحقيقها وعلى إخراجها في شكل طيّب ، حتى يدفعوا بالجمهور لاقتنائها عوضاً عن المخطوطات ، ويعملوا بذلك على تغيير عادات المتعلمين في القراءة . وكان هاجسهم الأوّل الخوف من وجود أخطاء في الكتب المطبوعة قد تسيء إلى المطابع وتكون فرصة سانحة للمحافظين للقضاء على مشاريعهم التحديثية . فعملوا على تنظيم عملية النشر بطرق مختلفة .

النشر باستانبول : أحدث السلطان أحمد الثالث لجنة رقابة للعمل مع مدير المطبعة على متابعة عملية النشر . كانت تتكوّن من أربعة علماء . وتتمثّل مهمّتها في :

- اختيار الكتب بغرض طبعها على أن تتجنّب طبع كتب الشريعة والفقه

الإسلامي .

- طلب ترخيص من الباب العالي قبل طبع أيّ كتاب .

- تحقيق المخطوطات للوصول إلى النص الأصلي للمؤلف . وقد ذكر المؤرخ «تودوريني» مثلاً أن هذه اللجنة اكتشفت عدداً من الأخطاء في مخطوطات صحاح الجوهري بترجمة تركيّة ، فحرصت على إصلاحها ، الأمر الذي تسبّب في تأخر إصدار الكتاب[٤٨] .

- إصلاح الأخطاء المطبعيّة قبل إعطاء الإذن بالسّحب ومراقبة إجراءات الطباعة كلها .

النشر بالمطابع المسيحية : تولّى هذه المهمة مديرو المطابع بالتعاون مع رجال الدّين في الطائفة الأرثوذكسيّة (حلب وبيروت) وفي الحزب الكاثوليكي (الشوير) . وقد واجهتهم صعوبات جمّة لتحقيق المخطوطات الدينيّة . وتنقسم هذه المخطوطات إلى ثلاثة أقسام :

- مخطوطات مسيحية مقدّسة : مثل الإنجيل والزبور وهي كتب قديمة ترجمت إلى العربية منذ القرن الثامن الميلادي . وكانت مليئة بالأخطاء ، فقد ورد مثلا في كتاب «الرسائل» المطبوع بالشوير عام ١٧٧٩ ما يأتي : «ثم اعلم أنّه إذا كانت نسخة الرسائل العربية مع كثرة الأيام والأعوام قد أدخل بها جهل الكتبة من العوام بعض تغييرات لجمل لم يدركوا فحواها فحرّروها بالغلط وتحريفات لألفاظ لم يفهموا معناها فصحفوها بنقل الحروف والنقط . . .» .

- مخطوطات مترجمة : هي نتيجة حركة تعريب واسعة قامت لدى الطوائف المسيحية في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، تمثّلت في نقل كتب من اليونانيّة أو السريانية أو اللاتينيّة أو الإيطاليّة إلى العربية . إلا أنّ

المترجمين لاقوا صعوبات جمّة بسبب عدم تضلّع بعضهم باللغة العربية (مثل اليسوعيّين بالشوير) وبسبب صعوبة إيجاد مقابل عربي لمصطلحات مسيحيّة . فكان الأسلوب غير سليم واللغة أقرب أحيانا إلى العاميّة أكثر منها إلى الفصحى .

- مؤلّفات معاصرة : مثل كتاب «البرهان الصريح» لعبد الله الزاخر(١٧٦٤) وكانت لغته سليمة .

كانت مهمّة المحققين صعبة ، عملوا على مراجعة المخطوطات بالتثبّت من المعاني أولاً ، وذلك بمقابلة الترجمات العربية بالأصل[٤٩] ثم بإصلاح التراكيب وأخطاء اللغة ثانيا[٥٠] ، قد وصل بهم الحدّ إلى إعادة ترجمة كتب بسبب عدم استقامة معانيها[٥١] .

تولّى تأسيس المطابع الأربع وإدارتها رجال العلم ، إلاّ أنّهم ارتبطوا بالسلطة السياسية (استانبول) أو السلطة الدينيّة المسيحية (حلب والشوير وبيروت) وذلك للحصول على الدعم الأدبي والمادي .

وقد جابهت هذه المؤسسات عدّة عراقيل خصوصاً في البداية بسبب نقص الخبرة الفنّية وقلّة الموارد الماليّة . إلا أنها تمكّنت من التّغلّب على معوقات أساسية مثل إعداد الأحرف العربية ، والتمويل ، أو مراجعة المخطوطات ومتابعة عملية النشر .

٤ - حصيلة النتاج الفكري المطبوع :

لم يكن عدد الكتب المطبوعة في القرن الثامن عشر كبيراً (١٧٠٦ - ١٧٨٧) بسبب عديد من المعوقات التي اعترضت سبيل المطابع ، ومنها المعوقات الفنّية والمالية والسياسية ، إلاّ أنّه يمكن بالقراءة التحليليّة لهذا الإنتاج الحصول على فكرة واضحة عن محتوى المطبوعات وأسباب اختيار المواضيع ، وبالتالي معرفة

اتجاهات النشر وتصوّر المشرفين على المطبعة لأثر «فنّ الكتابة الجديد» في التحولات التي يشهدها المجتمع العثماني في تلك الفترة .

٤ ، ١ - خصائص نتاج مطبعة استانبول :

نشرت هذه المطبعة كتباً في أربع لغات هي العربية والتركية والفارسية والفرنسية . وعلى الرغم من قلة عدد الكتب العربية المطبوعة ، إلا من المهم دراسة ملامح كامل نتاج مطبعة استانبول لمعرفة نتائج أول مشروع من هذا النوع ينجزه المسلمون .

٤ ، ١ ، ١ - نموّ النتاج المطبعي :

نشر في استانبول ٢٠ كتاباً على امتداد ٦١ سنة (١٧٢٦ - ١٧٨٧) أي بمعدّل كتاب واحد كلّ ثلاث سنوات . إلا أنّ التوزيع الفعلي لهذا النتاج عبر السنين لا يتطابق مع هذا المعدّل ، إذ شهدت الست عشرة سنة الأولى إصدار ١٧ كتاباً ، في حين لم ينشر سوى كتاب واحد خلال أربعين السنة الباقية (١٧٤٦ - ١٧٨٤) بسبب الأزمات السياسية والصعوبات الماديّة وموت مدير المطبعة إبراهيم متفرقة .

٤ ، ١ ، ٢ - لغات النتاج :

صدر ١٥ كتاباً باللغة التركية ، و٥ كتب ثنائية اللغة : ثلاثة بالتركية والعربية ، وواحد بالتركية والفارسية ، وواحد بالتركية والفرنسية . وتحمل الكتب العربية الثلاثة المترجمة عنوانين فحسب (أعيد طبع أحدها) .

- صحاح الجوهري مع ترجمة تركية لوانقولي سنة ١٧٢٨ ثم سنة ١٧٥٦ .
- إعراب الكافية لابن الحاجب مع ترجمة تركيّة لزاني زادة : ١٧٨٥ .

٤ ، ١ ، ٣ - مواضيع الكتب أو اتجاهات النشر :

إذا استندنا إلى أقوال أنصار «فنّ الكتابة الجديد» فإن اهتمامهم الأساسي عند إنشاء المطبعة ، سينصب على إنقاذ كتب تراث المسلمين المهدّدة بالانقراض نظراً للإهمال الذي أصاب العديد منها ، ثم على الإكثار من الكتب العلميّة والأدبية

الحديثة لنشر المعرفة وتوعية المجتمع الإسلامي والنّهوض به[٥٢] . وهذه الآمال المعلّقة على المشروع كانت مبنيّة على ضوء ما حققته المطبعة بأوروبا من إنجازات . فهل تمكّن هؤلاء من تحقيق مشروعهم المعرفي الإصلاحي؟ .

كانت مواضيع الكتب المطبوعة على النحو التالي :

- التاريخ : ثلاثة عشر كتاباً ، ثمانية منها تتعلّق بتاريخ الدولة العثمانية (حوليات عثمانيّة) ، وأربعة تتعلق بتاريخ مصر وبلاد فارس وأمريكا وتيمورلنك ، وواحد يتمثّل في جدول زمني للتاريخ الإسلامي .
- النحو واللغة : أربعة كتب ، معجمان في اللغة (الصحاح للجوهري وفرهنك شوري بالفارسية) وكتابان في النحو .
- الجغرافيا : كتابان ، الأول «مرآة العالم» (جهان نما) والثاني حول البوصلة (فيوصات مغناطيسي) .
- السياسة : كتاب واحد وهو أصول الحكم في نظام الأمم (إصلاحات عسكرية) .

في غياب مؤلفات الشريعة الإسلامية التي لم يسمح بنشرها ، اتجهت عناية إبراهيم متفرّقة ومن خلفه نحو كتب اللغة والعلوم الإنسانية وخاصة منها المصنفات التاريخية التي حصلت على نصيب الأسد . ونلاحظ تبايناً واضحاً بين خطاب أنصار «فنّ الكتابة الجديد» وطبيعة إنجازاتهم بعد تأسيس مطبعة استانبول ، إذ لا يوجد من أمّهات الكتب سوى النزر القليل (مثل الصحاح) ومن كتب العلم الحديث سوى كتابين في الجغرافيا ، في حين انصب اهتمام مشرفي النشر على إصدار كتب التاريخ وخاصّة الحوليّات العثمانيّة . وذلك لخدمة غرضين :

- تمجيد إنجازات الأمراء العثمانيين وخاصّة انتصاراتهم العسكرية ، وهذا يعني أنه تم توظيف المطبعة لإضفاء الشرعية على الحكام الأتراك

بإبراز أحقّيتهم التاريخية في السلطة .

- الدعوة إلى إصلاح هياكل الدّولة التي أصابها الضعف والخلل ولاسيما المؤسسة العسكرية والاقتصادية . فقد تعرضت كتب التاريخ لمظاهر الانحلال في الدولة إلى جانب تناولها للمكاسب التي حقّقها السلاطين ، ودعت إلى ضرورة إصلاح الوضع السياسي (حوليات أحمد نعيمة ١٧٣٤) .

استخدمت المطبعة منبراً للمجدّدين من أجل المناداة بالإصلاح قصد النهوض بالدولة وبالمجتمع ، ونبهت إلى خطر اندثار الدولة العثمانية مثلما سقطت الدولة الصفوية بفارس (تاريخ سياح ١٧٢٩) ، وقد ذهب الأمر بإبراهيم متفرقة إلى طبع كتاب له يدعو فيه إلى إدخال إصلاحات جوهرية على الجيش (أصول الحكم في نظام الأمم ١٧٣١) .

كانت المطبعة أداة لخدمة الأغراض السياسية أكثر منها لخدمة الأغراض العلمية والاجتماعية . ويمكن تفسير هذا التوجّه بالارتباط الوثيق لمطبعة استانبول بالباب العالي وبمشاغله وأزماته (ثورات الانكشارية ومقتل السلاطين والتدهور الاقتصادي . . .) .

٤ ، ٢ - خصائص نتاج مطابع حلب والشوير وبيروت :

٤ ، ٢ ، ١ - نموّ النتاج المطبعي :

نشرت الطوائف المسيحية ٢٩ كتاباً خلال ٨١ سنة (١٧٠٦ - ١٧٨٧) من بينها ١٣ كتاباً أعيد طبعه ، أي بمعدّل كتاب واحد كل ثلاث سنوات ونصف ، إلا أنّ حصص المطابع في هذا النتاج لم يكن متوازنا :

- حلب : ثمانية كتب ، من بينها كتابان أعيد طبعهما (١٧٠٦ - ١٧١١) .

- الشوير : تسعة عشر كتاباً من بينها أحد عشر كتاباً أعيد طبعها (١٧٣٤ - ١٧٨٧) .

- بيروت : كتابان (١٧٥١ - ١٧٦٦) .

ويلاحظ أنّ مطبعة الشوير تتصدّر هذا النتاج ، إذ استطاعت أن تتيح استمرار النشاط رغم بعض الصعوبات الظرفية ، في حين تعطّلت مطابع حلب وبيروت بسرعة للأسباب المذكورة سابقاً .

٤ ، ٢ ، ٢ - موضوعات الكتب أو اتجاهات النشر :

لم تنشر هذه المطابع إلا كتباً دينيّة مسيحيّة وهذا الاختيار يعود إلى ارتباطها - على عكس مؤسسة استانبول - بالكنائس الشرقية . وتنقسم هذه المواضيع الدينية إلى ثلاثة أقسام :

* نصوص مقدسة : مثل الإنجيل والمزامير .

* كتب الأخلاق والزهد والصلاة : مثل المواعظ والتأمّلات الروحيّة .

* كتب الدفاع عن المسيحية : مثل كتاب التعليم المسيحي .

ويرمي رجال الطائفتين الملكيّة الأرثوذكسيّة والكاثوليكية إلى تحقيق الأغراض الآتية حسبما ورد في مقدّمة بواكير مطبوعاتهم لتبرير هذا الاختيار :

- توفير الكتب الدينية للرهبان ، لأن المخطوطات كانت نادرة جدّاً .

- تقديم الكتب التي تحتاج إليها الكنيسة باللغة العربية التي انتشرت انتشاراً واسعاً في تلك الفترة ، للتعويض عن اللغة اليونانية والسريانية في الكنائس السورية .

- جمع شتات الطائفة حول رواية واحدة للنصّ الديني والقضاء على الانحرافات» .

- تعليم اللغة العربية للأطفال : وهذا الهدف رغم أنه ثانوي قياساً بالأهداف السابقة إلا أن مطبعة الشوير كانت تشدّد عليه فوضعت الحركات والعلامات في كتاب المزامير والرسائل لهذا الغرض .

لم تهتمّ المطابع المسيحيّة بنشر كتب الآداب والعلوم الحديثة ، بل اتجهت نحو طبع الكتب الدينية وذلك بغرض إثبات هوية الطوائف المسيحية التي تمثّل أقليّة داخل العالم الإسلامي الشاسع ، وتوحيد صفوف أبنائها بتقديم نصوص دينية موحدة ، وللقضاء على الانشقاق بين المسيحيين العرب ، لكن مع اختلاف وجهات نظر الأرثوذكس والكاثوليك حول هذه المسألة .

كان لمحدودية النتاج المطبعي من جهة ومحدودية تصورات المشرفين على النشر العربي دور أساسي في ضعف تأثير المطابع العربية الأولى في الحياة العلمية والثقافية والاجتماعية بالمشرق . إذ اتجهت مطبعة استانبول لخدمة الأغراض السياسية أكثر مما اتجهت لخدمة الأغراض العلمية ، ومطابع حلب وبيروت والشوير لخدمة الأغراض الدينية والسياسية لطوائفها ، فلم تحقّق التأثير والإشعاع اللذين وصلت إليهما المطبعة بأوروبا في بداياتها .

٥ - خاتمة :

على الرغم من محدودية تأثير المطبعة ، إلا أن إقامة مثل تلك المطابع في الدولة العثمانية في القرن الثامن عشر تمثل تحوّلاً جذرياً في المجتمع العثماني إذ إنّها تعكس مدى عزم المسلمين والمسيحيين على التفتّح على الحداثة وعلى الاكتشافات العلمية القادمة من أوروبا ، ومدى حرصهم على إصلاح الأوضاع الاجتماعية والتعليمية المترديّة بداية من استخدام أداة ثقافية «ثوريّة» هي آلة الطباعة . وهذه البداية كانت صعبة للغاية لأنها لاقت معارضة من طرف المحافظين ، وجابهت كذلك صعوبات فنّية وماديّة كبيرة ، إلا أنّ هذا «الاختراق» الذي حصل يمثّل بداية يقظة

العرب والمسلمين إذ كانت نموذجاً يقتدى به لتأسيس مطابع عربية في القرن التاسع عشر ، كما كانت وسيلة لتغيير عادات القراءة الثقافية لدى المتعلمين ولبث الأفكار الإصلاحيّة . ويكون من المناسب التأريخ لبداية النهضة العربية بمطلع القرن الثامن عشر وليس بزمن وقوعها أي في منتصف القرن التاسع عشر .

الحواشي

(1) DESCHATELETS (Gilles).- L'enseignement des technologies de la D.B.A. ou l'exploitation des technologies dans l'enseignement de la D.B.A.- Revue maghrebine de documentation,n° 6-7, 1992, p.18.

(٢) اعتمدنا في عملية الحصر البيليوغرافي على بيليوغرافيات راجعة أساسية أهمها :

- SCHNURRER (C.F).- Bibliotheca arabica.- Halae ad-Salam, 1811, reeditee a Amsterdam Oriental press,1966.
- Bibliotheque de SYLVESTRE DE SACY par Daunou.-Paros1843-1847.
- ZENKER (J.Y).-Bibliotheca orientalis.-Leipzig,1846.

(3) DAHL (Svend).-Histoire du livre.-Paris : Poinat, 1967.-p.8

(4) HAMMER-PURGSTALL(J).-"SUR UN passage cuireux de l'Ihatet sur l'art d'imprimer chez les arabes en Espangne".-Journal asiatique, 1852, n° 2,4 serie, t. xx, pp. 252-255.

(٥) صدر السابق .

(٦) يرى فيليب حتي أنّ هناك فعلاً مطبعة بدائية إلا أن أسلوبها بقي مجهولاً ، أما قايمن فيلاحظ أن كلمة طبع لا تحمل المعنى المعروف اليوم . انظر : قدورة (وحيد) .- بداية الطباعة العربية في استانبول وبلاد الشام : تطور المحيط الثقافي ١٧٠٦-١٧٨٧ .- زغوان - تونس : مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات ؛ الرياض : مكتبة الملك فهد الوطنية ، ١٩٩٣ .- ص ٧٧-٧٨ .

(٧) ذكر ذلك الرحالة نيكولا دي نيكولا الذي زار استانبول عام ١٥٥١ .

Les navigations, peregrinations et voiyages faits en la Turquie.-Antwerp,1576, p.246. Cité in LEWIS (Bernard).- The Emergency of modern Turkey.-Oxford University Press, 1961.- p.42.

(٨) انظر بيليوغرافية شنورر .

(٩) ستيتشفيتش (الكسندر) .-تاريخ الكتاب ، ترجمة محمد الأرناؤوط .-الكويت : المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، ١٩٩٣ (عالم المعرفة ، ١٦٩-١٧٠) القسم ٢ ، ص ١٤-١٦ .

(١٠) انتشر هذا الاختراع في جنوب شرقي آسيا واستعمله الأتراك الويغور عام ١٣٠٠ . انظر المصدر السابق .

(١١) أسس اليهود مطابع عبرية لهم باستانبول وسالونيك عام ١٤٩٤ ، وأقام الأرمن أول مطبعة لهم بمدينة سيفا عام ١٥٦٧ ، أما اليونانيون فقد أنشأوا مطبعة باستانبول عام ١٦٢٧ .

(١٢) نشرت هذه الرسالة في أول كتاب أصدرته مطبعة استانبول عام ١٧٢٨ وهو صحاح الجوهري . وفي مجلة المكتبات الفرنسية ترجمة لهذه الرسالة .

"Mémoire sur l'utilité de l'établissement de l'imprimerie a Constantinople par Ibrahim Mutafarrika "in : Documents sur l'imprimerie á Constantinople" publies par H.Omont.-Revue des

Bibliotheques, 1895, pp. 193-200.

(١٣) نذكر هنا على سبيل المثال الحوار الذي دار بين طبيب مصري والرحالة ستوكوف حول مزايا المطبعة وعيوبها . انظر :
STOCHOVE (Chevalier Vincent).-Voyage du Levant.-Bruxelles : A. Velpius,1650.

(١٤) قدورة (وحيد) .- بداية الطباعة . . . المصدر نفسه ص ٤٢ .

(١٥) شيخو (لويس) .-الطائفة المارونية والرهبانية اليسوعية .-بيروت : المطبعة الكاثوليكية ، ١٩٢٣ .-ص٨٢ .

(١٦) برزت نخبة من تلاميذ المعهد الماروني بروما (تأسس عام ١٥٨٤) في ميدان الطباعة ، من بينهم : جبرائيل الصهيوني وإبراهيم الحاقلاني وجرجيس عميرة ويعقوب هلال . انظر :
RAPHAEL(Pierre).-Le role du Collége maronite romain dans l'orientalisme aux XVI° et XVII° siecles.-Beyrouth : Université St. Joseph, 1950. p24.

(١٧) اتصل عبد الكريم كرمي بطريرك أنطاكية بمطبعة مجمع نشر الإيمان بروما بغرض طبع كتب الطائفة الأرثوذكسية وبعث إليها رسالة بعنوان بيان طبع الكتب كيف يكون .
NASRALLAH(Joseph).-Histoire du mouvement litteraire dans l'eglise melchite.-Paris : chez l'auteur, 1979. vol. IV p.70.

(١٨) قدورة(وحيد) .- بداية . . المصدر نفسه ، ص ٥٤-٥٦ .

(١٩) مثل مشروع ميخائيل المطوشي عام ١٧٠٠ الذي أراد طبع كتب دينية بجبل لبنان لفائدة الكنيسة المارونية .

(٢٠) هذا ما ذكره المستشرق قالان عند تقديمه لموسوعة هربولو .
HERBELOT.-La bibliotheque orientale.-Paris, 1697.-f.14.

(٢١) نشر هذا القرار في آخر صفحة من كتاب تحرير أصول أقليدس ، ترجمة نصير الدين الطوسي .-روما : مطبعة الميدتشي ، ١٥٩٤ .

(٢٢) تتحدث زوجة سفير انكلترا باستانبول عن حياة البذخ هذه في كتابها :
MONTAGU(M).-L'Islam au peril des femmes : une anglaise en Turquie au XVIII° siecle.-Paris : Maspéro, 1981 (La decouverte) I° edition1757.

(٢٣) ترجم كتابه إلى الفرنسية :
EFFENDI(Mehmet Yirmisekiz Chelebi).-Le paradis des infidéles:un ambassadeur ottoman en France sous la Régence.-Paris : Maspéro, 1981 (La decouverte)I° edition1757.

(٢٤) محمد أفندي شلبي يرمسكز رجل مثقف مولع بالآداب العربية والتركية والفارسية . قام بعدة مهام ديبلوماسية وإدارية .
(25) SAINT-SIMON(Louis De Rouvaroy). Memoires complets et authentiques...sur le siécle de Louis XIV et la Régence.-Paris :Sautel, 1829 vol 18 p328.

(٢٧) سليم نزهت كرجك .- تاريخ الطباعة في تركيا : ١٧٢٩-١٩٢٩ ، ترجمة سهيل صابان .- الرياض : مكتبة الملك فهد الوطنية ، ١٩٩٣ ص ٣٥ .

(٢٧) قدورة (وحيد) .- بداية الطباعة . المصدر نفسه ص ١٨٣ .

(٢٨) حول أسباب عزوف المسلمين عن استعمال المطبعة ، انظر المصدر السابق ص ٧١-١١٤ .

(٢٩) ورد نص تقاريظ العلماء المسلمين العثمانيين على رسالة إبراهيم متفرقة في كتاب صحاح الجوهري الذي صدر باستانبول سنة ١٧٢٨ .

(30) SIMONESCU(Dan).-"Impressions de livres arabes et karamanlis en Valachie et en. Moldavie au XVIII° siécle" Studia et acta orientalis, n° 5-6, 1967, pp.50-51.

(٣١) كتاب القدسات الثلاثة صدر ببوخاريست سنة ١٧٠١ وكتاب الاورولوجيون سنة ١٧٠٢ .

(٣٢) استناداً إلى تودوريني قد يكون متفرقة جلب عمالاً من ألمانيا .

TODERINI(A.G).- De la littérature des Turcs.-Paris : Poinçot, 1789 t.3 p.21.

(٣٣) طبع الأب هولدرمان كتاب النحو التركي (فرنسي - تركي) بغرض تعليم التركية للتجار الفرنسيين بالمشرق .

(٣٤) سليم نزهت كرجلك .-تاريخ الطباعة . . . المصدر نفسه ص ٦٨-٦٩ .

(٣٥) ورد ذلك مثلا في مقدمة أول كتاب طبع في حلب (المزامير ١٧٠٦) حيث يقول دباس : إننا وفقنا إلى عمل طبع الحرف العربي .

(٣٦) - ترجمة عبد الله الزاخر من إعداد تلميذه يواكيم مطران ، حسب مخطوط حريصا ، مجلة المسرة ، ١٩٤٨ ، ص٣٨٧ .

(37) BACEL(P).-"Abdallah zakher" Echos d'Orient,n° 11.1908. p.219. NASRALLAH(Joseph).-L'imprimerie au

(38) Liban.-Beyrouth.-Harissa, 1949.-pp. 148-150.

(٣٩) قدورة (وحيد) .- بداية . . .المصدر نفسه ، ص ١٥٤ .

(٤٠) حاج (أثناسيوس) .- الرهبانية الباسيلية الشويرية في تاريخ الكنيسة والبلاد .-جونية : مطبعة الكريم الحديثة ، ١٩٧٣ ج ١ ، ص ٥٥٠ .

(٤١) سلك سلفستروس القبرصي طريقة سلفه أثناسيوس دباس نفسها إذ إنه اتصل بأمير رومانيا وطبع في جاسي قرب بوخاريست خمسة كتب دينية (١٧٤٥-١٧٤٧) قبل أن ينشئ مطبعة بيروت . وكان رجل علم وأدب .

(٤٢) نصر الله (جوزيف) .-مطابع الملكيين مجلة المسرة ١٩٤٨ ، ص٤٥٠ .

(٤٢) المصدر السابق .

(٤٤) يؤكد ذلك الأب هولدرمان الذي عمل مع متفرقة عند طبع كتاب النحو التركي .

Lettre du P.Holderman. Galata 5 aout 1730. Revue des bibliothéques,n° 36, 1926. p.6.

(45) VOLNEY(C.F).-Voyage en Egypte et en Syrie.-Paris : La Haye-Mouton, 1959.-p.293-294, I° édition Paris 1787.

(46) "Lettre du P.Holderman...op.cit." p.10.

(٤٧) شيخو (لويس) .- تاريخ فن الطباعة . المشرق رقم ٣ ، ١٩٠٠ ، ص٤٦٠ .

(48) TODERINI(A.G.).-De la litterature..op.cit. t.3, p.25.

(٤٩) ورد في مقدمة كتاب السنوات الكنائسي الصادر بالشوير عام ١٧٧٥ ما يأتي : لذلك جمعنا كتباً يونانية كثيرة وقابلنا النسخة العربية على تلك النسخ المستعملة في كنائس الروم مقابلة مضبوطة بغاية التدقيق .

(٥٠) ذكر أثناسيوس دباس في مقدمة كتاب المواعظ المطبوع بحلب عام ١٧١١ أنه رأى مع تمادي الأيام وتخالف عقول الناسخين وعدم معرفتهم بمعاني الكتب وقوانين اللغة العربية قد وهى تركيبه (أي الكتاب) وتقوضت مبانيه ، وأزيد (كذا) ما لا

احتياج إليه ، ونقص ما تدعو الضرورة إليه . فتلافاه حينئذ بحسب الامكان ، وحذف ما زاد عن الواجب من الإعادات المملة . . .

(٥١) هذا ما حدث لكتاب ميزان الزمان الذي طبع بالشوير عام ١٧٣٤ ، فقد أعيدت ترجمته من الإيطالية إلى العربية .

(٥٢) رسالة وسيلة الطباعة لإبراهيم متفرقة .

تاريخ الطباعة العربية في شبه القارة الهندية

الأستاذ مختار أحمد الندوي

مختار أحمد الندوي

مدير مكتبة الدار السلفية – بومباي

- من مواليد مئو بالهند، ١٩٣٠م
- الشهادة العالمية من دار العلوم (ندوة العلماء) لكناو

الوظائف

- المشاركة بتأسيس مكتبة الحاج عبد الله الشرقية (أكبر مكتبة في شرق آسيا).
- رئيس الجمعية المحمدية التعليمية في بومباي.
- رئيس الجمعية المحمدية الخيرية في بومباي.
- رئيس إدارة بناء المساجد والمدارس.
- أمير جمعية أهل الحديث لعموم الهند.
- عضو المجلس التأسيسي للهيئة الخيرية الإسلامية العالمية في الكويت.
- ممثل جمعية إحياء التراث الإسلامي الكويتية بالهند.
- نائب رئيس المجلس العلمي في الهند.
- رئيس الجمعية العامة الخيرية في بومباي.

من نتاجه

- رياض الشعراء لعلي قلي خان.
- المصنف في الأحاديث والآثار لابن أبي شيبة (بالمشاركة)، بومباي، الدار السلفية، ١٩٧٩م.
- الجامع لشعب الإيمان للبيهقي (بالمشاركة) بومباي، الدار السلفية، ١٩٨٦م.

الحمد لله وكفى والصلاة والسلام على رسوله الحبيب المصطفى وعلى آله وصحبه الذين أثبتوا ما أثبت ونفوا ما نفى .

قبل كل شيء يجدر بنا أن نقدم فائق تقديرنا وغاية شكرنا إلى عبقرية السيد جمعة الماجد الذي شق حبه العميق للعلم والعلماء خطوطًا جديدة وآفاقًا واسعة للعلوم والمعارف ، ولا شك أن جمعه للعلماء والمنتمين لمختلف فروع العلوم على منصة واحدة يحتاج إلى همة سامية وحماس متزايد وروح رياضية كبرى وجذوة علمية ملتهبة ، شخصية السيد جمعة الماجد جاءت تجسيداً لكل هذه المعاني الرفيعة وملتقى لكل هذه الفضائل الجليلة . ولا يختلف اثنان في أن مثل هذا الاجتماع للتحدث عن وضع الكتاب العربي والبحث عن ماضيه وحاضره يحمل من الجدوى والمنفعة رصيداً هائلاً ، وفضل ذلك كله يرجع إلى السيد جمعة الماجد الذي يجمع بحسب اسمه المجد ، ويستعيد الشرف ، ويربط الحاضر بالماضي في مجال الكتاب العربي ، كي تتراءى لنا صورة الكتاب العربي في وضوح وجلاء كاملين دون غموض ولا إبهام ، وبهذه المناسبة ندعو الله تعالى أن يبارك جهوده ويتلقى أعماله وأعمالنا بحسن القبول ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

وبعد ،

فإن الثقافات الإنسانية دخلت منذ أواسط القرن الرابع عشر الميلادي في دور ازدهارها العجيب عندما اخترعت الآلات والأدوات المطبعية ، ومعنى ذلك أن النهضة الإفرنجية أخذت في الرقي شيئًا فشيئًا ، في حين أخذت ممالك الشرق وخاصة الأقطار التي سادها الإسلام بالتدهور ، ولذلك أسباب ظاهرة كثيرة ، منها احتكاك البلاد الإفرنجية بالمسلمين وبلدانهم زمن الحروب الصليبية ، كذلك تسلط الغُزّ ثم المغول بالإضافة إلى المخاصمات الداخلية ؛ كل ذلك وإن كان حقيقًا بأن يعد سببًا واحدًا ، ولكنه في الواقع بمنزلة أم الأسباب والعلل لتدهور المسلمين من

القمة رويداً رويداً إلى نهاية الضعف والاستكانة والانخفاض .

ومهما يكن فان الله تبارك وتعالى في كتابه العظيم هدانا إلى هذه النقطة الأساسية التي نؤمن بها حيث قال : ﴿ وتلك الأيامُ نُداولُها بَيْنَ النَّاس﴾ (سورة آل عمران ٣/ ١٤٠) من هنا انقلب التلامذة أساتيذاً والأساتيذ تلامذة وهل ذلك إلا من مكاسب أيدينا؟

كانت الثقافة بجملة أصولها وفروعها تتمتع بقوة ونماء وازدهار وإثمار وبكل ما يحف بها من المحاسن تحت ظلال القرآن ورايته . ثم انعكس الأمر نتيجة نكوصنا على أعقابنا نحن المسلمين وترك الاعتصام بالكتاب والسنة في الميادين كلها ، فصرنا منذ القرن الرابع عشر - أو قبله بزمن يسير - متأخرين تأخراً مؤسفًا للغاية ، وصار الغربيون يتقدمون في الثقافات البشرية تقدمًا مستمراً إلى هذا الوقت ، ولو أننا لم يحل بيننا وبين خدمة البشرية هاتيك العوائق أو العراقيل التي أشرنا إليها فيما سبق لاستثمرنا بإذن الله تلك الأشجار التي سقيناها بعرق جبيننا ومعين دمائنا ، غير أن القدر ونحن نؤمن به تمامًا جرى إلى ما جرى ، فإذا بالآخذين منا الصناعات والحرف والابتكارات الأساسية في حقل الآلات يقدمون إلى البشرية مباشرة ما لم نستطع تقديمه إليها إلا بواسطة .

وبعد كل ذلك فإن القوة الاستعمارية الغربية أضرت بنا كثيراً من جملة مضارها التي أصابتنا ، أفادتنا قليلاً في ميادين العلوم والصناعات وابتكار الآلات ، ونحن لا ننكر قط فضلها في ذلك ، كما لا يمكن لنا أن ننكر على قدامى الإغريق والروم والسريان والفرس وما إليها من الأمم التي تركت للإنسانية في الأزمنة السحيقة ما استطاعت من التراث ، إلى أن جاء الإسلام ووقت العمل بكتاب الله المنزل مع التأسي بأسوة النبي الأعظم الباهرة الظاهرة الطرية العطرة قديمًا وحديثًا وفيما يتلو الزمن الحديث إلى أن تقوم القيامة بإذن الله تبارك وتعالى .

لقد بلغنا في معرفة الخطوط وتحسينها ، وفي ميادين الكتابة وتحقيقها الغاية القصوى حتى إذا لم يبق بيننا وبين اتخاذ الخطوة النهائية نحو ابتكار آلات سبك الحروف المطبعية وطباعة الكتب عليها سوى القليل سبقنا الغرب سبقًا كبيراً .

للطباعة صلة قريبة بما تقدمها من النقش على الخواتم وكذلك على حواشي الطراز وأمثالها من التصاوير على الأقمشة ، وكانت القوالب تتخذ لاستيفاء كل ما تدعو إليه الحاجة ؛ ففي مختلف العصور الإسلامية مثلاً سبكت دراهم ودنانير كثيرة فقط للعطاء وبث الأموال بين الفقراء والمحتاجين وربما للادخار في خزائن شخصية . وفي هذا الصدد نشير إلى الدينار الألفي للصاحب إسماعيل بن عباد . وقرأنا قبله بكثير عن جعفر بن يحيى البرمكي الذي صاغ دنانير من الذهب الخالص نقش على كل دينار بيت أو بيتان محتواهما البيان عن اسم بعض هذه القطع الذهبية على سبيل العطاء والمعونة لأصحاب الحاجة . يتضح من هذا أننا كنا على اتصال وثيق بالنقش المقولب أو الطبعة المقولبة حتى في القرن الثاني للهجرة ، ثم شيئًا فشيئًا وبمرور الزمن كثر استخدام القوالب للنقش والطبع ، وإن لم نكن عرفنا طرق استعمالها في استنساخ الكتب والاستكثار من النسخ المحتاج إليها ، ولذلك أسباب غير يسيرة ، من أهمها أن الإسلام في كل شيء وكذلك في نشر الكتب وتوفير نسخها على الجمهور لا يعتني إلا بالأمانة المحتمة قدر المستطاع ، ليكون العلم خالصًا غير مشوب ، خالياً من أنواع التحريف والتصحيف وما إليها من الأغلاط . ولأجل ذلك اتصل العلم بأصوله وفروعه من السلف إلى الخلف مستنداً إلى تصريحات القراءة عرضًا أو سماعًا - بتمام النصوص أو أجزائها وأطرافها - على شيوخ كل صنف من صنوف العلم ما بين محدثين ومفسرين وأطباء ومتفلسفين وأمثالهم . فلعل هذا هو السبب المهم الذي حال دون وصولنا إلى ما بقي قطعه من المسافات القريبة أو البعيدة في حقل الطباعة والنشر ، ومن جراء ذلك ، ربما لم نخط بخطوات واسعة في استخدام القوالب حتى الوصول إلى ما بعدها من الاتصال بآلات الكتابة والطباعة التي اخترعوها نتيجة لانحدارنا المتواصل كما تقدمت الإشارة إلى أسباب ذلك .

ومهما يكن فان الطباعة العصرية فيما ذكروا بعد بحث وتفحص تتصل في الأزمنة الماضية السحيقة بمباديها في بلاد الصين ، وبعد قرون طويلة دخلت في جو حديث من بلاد الغرب الأوربية . وهنا نترك الإشارة إلى أولية بعضهم على بعضهم الآخر .

ولابد أن نشير إلى أنّ أهل البرتغال هم الذين بدأوا صناعة الطباعة في ناحية من القطر الهندي وخاصة في «جوا» لنشر كتبهم ومقالاتهم الدينية بلغة التاميل التي أعدها الأستاذان جون غونسا لوس وجون دي فيريا ، وذلك في أواسط القرن الخامس عشر الميلادي . ثم في بداية القرن الثامن عشر الميلادي ظهرت قوالب مالابارية ولأول مرة *طبعوا ترجمة الأناجيل الأربعة وأسوة الحواريين وغير ذلك على الطريقة الليتوغرافية* في مدينة مدراس ، كما أقاموا هناك في ذلك الوقت مصنعًا لصناعة الورق ، وفي الوقت نفسه أنشأ بهيم راؤ باريك أول مطبعة شخصية في مدينة بومباي ، طبع فيها كتباً بعدة لغات على أحجار الطباعة المعروفة بالطريقة الليتوغرافية ، ولكننا لم نقف على نشراتها الأولى باللغة العربية . وهذه الطريقة تلاها طريقة الطباعة على الحروف المطبعية .

وكانت مدينة كلكتا منذ بدء الاستعمار وخاصة عندما نزلها الإنجليز مركزاً تجاريًا لشركة الهند الشرقية الإنجليزية ، ثم إنها صارت أهم المراكز لسلطتهم الاستعمارية على بلاد الهند كلها ، فدخل من ضمن الآلات العصرية الكثيرة ما يخص فن الطباعة . وقد ثبت الآن أن المستشرق الكبير سرجارلس ولكنس استطاع أن يسبك الحروف العربية بخطيها النسخي والنستعليق المعروف بالخط الفارسي لشيوعه بين الإيرانيين وأصحاب اللغة الأردية بالهند .

ولعل المستشرق المذكور سبك هاتيك الحروف في مدينة كلكتا ، ثم اتفق له أن يرافق وليم كيري إلى مركز التبشير الواقع في سيري رامفور من ضواحي كلكتا القريبة ، وبنى هناك المطبعة التبشيرية ، واتخذ الأبجديات الهندية لنشر الكتب المسيحية وتراجم الأناجيل والتوراة باللغات المحلية . وهكذا انتشرت الطباعة

العربية على الحروف المسبوكة . وليس من اليسير أن نطلع على تلك المطبوعات مرتبة على أزمان طبعها إلا بعد جهد متواصل ، ويحول دون ما نريد ندرة تلك الكتب وتوافرها في مكان دون مكان ، وإنما اطلعنا مثلاً على الرسالة السراجية في الفرائض لمؤلفها سراج الدين السجاوندي وعرفنا أنها طبعت على حروف مطبعية بخط النسخ سنة ١٢٠١هـ بكلكتا .

وانتشرت في كلكتا دور الطباعة وكان ممن أقامها الإدارات الحكومية لشركة الهند الشرقية وكذلك رجال من بيضان الإنجليز على نفقتهم الخاصة . ثم إن كثيراً من المواطنين المسلمين والهندوس أخذوا ينخرطون في سلك القائمين على الطباعة بالحروف المسبوكة فنشروا - أي المسلمون خاصة - كتبًا كثيرة باللغة العربية والفارسية وخاصة القرآن الكريم وبعض كتب الحديث ، وفي الوقت نفسه مال جم غفير منهم إلي الطباعة الليتوغرافية ، لأن الشعب الهندي مازال يألف منذ قرون عديدة سابقة خطوط اليد دون الحروف المطبعية الرصاصية فكثرت إلى جانب المطابع المستعملة للحروف المطبعية دور الطباعة الليتوغرافية ، حتى إن بعض الأسر الإنجليزية بالنظر إلى القبول العام أقامت مطابع استمرت تطبع الكتب العربية وما إليها على الطريقة الليتوغرافية دون الحروف المطبعية .

ولما وضعت الشركة الحاكمة في قوانين النشر والطباعة شروطًا قاسية كان منها ضرورة الحصول على إذن الإدارات الحكومية لنشر أي كتاب أو جريدة ، فكان الناشرون يستأذنون الحكومة كلما أرادوا إصدار أي كتاب ، ولكنهم قلما جاوزوا الطباعة الليتوغرافية إلى طبع الكتب على الحروف المسبوكة ، ولعل من أسباب ذلك أشياء عديدة ، أشرت إلى بعضها ، أما بقيتها فعلى النمط الآتي :

١ - الحروف المطبعية لقلة المرونة بسبكها لم تكن تبقى على الهيئة المطبوعة مدة طويلة بل كانت كثيراً ما تتكسر .

٢ - إذًا كانوا يحتاجون إلى سبك الحروف سبكًا جديدًا بعد مدة وجيزة من

استعمالها ، وكان سبكها يتطلب مصاريف كثيرة بالقياس إلى ما يأتيهم من إيرادات .

٣ - إلى زمن غير يسير ظلوا محتاجين إلى استيراد الآلات اللازمة من خارج البلاد أو مباشرة من بلاد إنكلترا وراء البحار ، وكان ذلك طبعًا يحول بينهم وبين أغراضهم التجارية إذ إنهم لم يقدروا خلال زمن طويل على صنع الآلات دون أي استعانة من خارج بلاد الهند .

٤ - أما الطريقة الليتوغرافية فكانت بالنظر إلى أختها رشيقة وأقل مؤونة وسهلة الانقياد .

على رأس هاتيك المطابع الليتوغرافية كانت مطبعة الشركة الآسيوية الليتوغرافية في كلكتا ، هذه المطبعة أخرجت إلى النور مثلاً الفتاوى الحمّادية سنة ١٨٢٥م وبعد سنتين نشرت فصول العمادي والدر المختار ، كما أنها طبعت في الطب العربي كتاب المغني في شرح الموجز لسديد الدين الكازروني سنة ١٨٣٢م .

وبالإضافة إلى هذه المطبعة ظهرت مطابع ليتوغرافية كثيرة زاد عددها حتى نهاية القرن التاسع عشر عن مئتي مطبعة ، في مدينة كلكتا وحدها .

أما مطابع الحروف فمنها مطبعة الشركة الحاكمة نفسها ، ومنها مطبعة كلكتا «فورت وليام» ، وأنشئت بعدهما بزمن مطبعة التبشير المعروفة «بتست مشن بريس» أنشئت سنة ١٨١٨م ، وكانت في مكانها الشهير إلى أواسط هذا القرن على طرف شارع «سر كلر رود» وكان في حوزتها حروف مطبعية في خط التعليق إلى جانب حروف خط النسخ المطبعية . وأكثر مطبوعاتها طبعت بحروف النسخ ، على أن بعضها ظهر بحروف التعليق أيضًا ، استمرت هذه المطبعة بجهودها الجبارة تطبع الكتب والرسائل وما إليها ، كلها على الحروف المطبعية في أكثر من أربعين لغة ، وكان من مطبوعاتها كتاب الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني الذي

طبع بمراجعة عدد من علماء المدرسة العالية وعلى رأسهم عميدهم المستشرق المعروف «باسبرنجر» عام ١٨٠٠م .

وهذه المطبعة عنيت بها الجمعية الآسيوية في كلكتا التي أسسها السيد وليم جونس في سنة ١٧٨٤م ، أما بقية المطبوعات التي أخرجتها هذه المطبعة ، خاصة بعناية الجمعية الآسيوية فسيأتي سرد أسمائها حسبما أمكن لي الوقوف عليها مباشرة بالوراقية الملحقة بمقالي هذا[١] . وينبغي لنا أن نشير إلى أن هذه المطبعة الآن لم يبق لها أثر ، وإنما قامت على أنقاضها مبان شامخة لبعض الجرائد باللغة الإنجليزية أو البنغالية .

ولو وصفنا مساهمة المطابع الهندية في خدمة اللغة العربية ونشرها لكتب التراث العربي الإسلامي مع بُعدها عن البلدان العربية لما اتسع لنا الوقت ، غير أنه لا يمكن إغماض العين عن ذلك العدد الهائل من المطابع العربية المبعثرة في طول الهند وعرضها ، فلم تكن بلدة كبيرة أو صغيرة إلا كان فيها مطبعة أو أكثر ، ولكن لا بد أن نشير إلى بعض المؤسسات والشخصيات المعنية بطباعة الكتب ونشرها .

فمن المؤسسات العلمية الكبيرة التي كان لها فضل عظيم في إحياء الكتب الدينية والعلمية وبعثها من مدافنها في المكتبات العتيقة ونشرها في العالم الإسلامي دائرة المعارف في حيدر آباد ، التي تأسست عام ١٣٠٦هـ = ١٨٨٨م بتوجيه العلامة السيد حسين البلكرامي ومولانا عبدالقيوم ومولانا أنوار الله خان أستاذ سمو «النظام» . وقد قامت هذه المؤسسة العظيمة بطبع مئات من كتب الحديث والرجال والتاريخ والعلوم الرياضية ، والحكمة ، كان العالم الإسلامي والأوساط العلمية محرومة منها منذ عهد بعيد ، وتسامع بها العلماء والمدرسون ، فكانت خدمة جليلة للعلم والدين وبرهانًا على ما كان للمسلمين من اتصال روحي وفكري بالثقافة الإسلامية وحب عميق لها ، وقد اعترف كبار العلماء ورجال الثقافة في الشرق والغرب بجهود هذه المؤسسة العظيمة وضخامة عملها وقيمة ما تنشره من التراث العلمي .

ومن الشخصيات العظيمة ذات المنة العظيمة والفضل الكبير على تاريخ الطباعة العربية في شبه القارة الهندية السيد الأمير نواب صديق حسن خان أمير ولاية بهوفال (١٢٤٨-١٣٠٧هـ= ١٨٣٢-١٨٩٠م) .

كان العلامة الأمير نواب صديق خان نابغة القرن التاسع عشر الميلادي ، لم يكن له نظير في زمانه ، حاز أشتات الفضائل وأنواع المحامد والشمائل ، وفقه الله للجمع بين الرئاستين العلمية والعملية ، وبين الحسنيين الدنيا والآخرة ، وبين النقيضين الإمارة من جهة ، والاشتغال بالتأليف والدراسة والتحقيق من جهة أخرى ، قام - إلى جانب سياسة البلاد وتدبيرها - بحركة علمية تأليفية واسعة ، ونشر آثار السلف والمحققين الناصرين للسنة على نطاق واسع في جميع أرجاء الهند بل في العالم الإسلامي كلّه ، كما قام وحده في مجال التأليف والنتاج العلمي بما يفوق كثيراً أكبر المجامع العلمية في الشرق والغرب اليوم ، وقد بلغت مؤلفاته اثنين وعشرين ومائتين ، وإذا ضُمّت إليها الرسائل الصغيرة عدّت ثلاثمائة .

كان الأمير نواب صديق حسن خان شخصية عصامية مجددة ، ترك أثرًا كبيراً ، وأسدى خدمات جليلة ، وشق طرقًا جديدة للبحث والدراسة والتأليف والتحقيق ، وفتح آفاقًا واسعة للفكر والمطالعة ، ملأ مكتبات الهند ومراكز الثقافة فيها وفي العالم العربي ثقافة وعلمًا وبحثًا ودراسة .

كان ذا شغف عظيم بالعلم وذا نشاط كبير بنشره التراث الديني ودراسته وإحيائه ، والحفاظ على ذخائر الفكر الإسلامي . وتحقيقًا لهذا الغرض جمع حوله نخبة ممتازة من العلماء والأفاضل والمحققين الباحثين والأساتذة النابغين للتدريس في مدارس الإمارة المبعثرة في أرجاء بهوفال ، فكانت في زمنه محط رجال العلم ومنتجع رواد الحديث ومركزًا كبيرًا للطباعة والنشر والتوزيع .

وكان السيد الأمير مغرمًا باقتناء الكتب القديمة القيمة والمخطوطات النادرة في مختلف العلوم والفنون ، أنفق في سبيل الحصول على نوادر الكتب أموالاً طائلة بكل

سخاء ورحابة صدر ، وازداد شوقه هذا بعد رحلته إلى الحجاز ، فقد وجد هناك كتبًا لم يكن رآها في الهند ، فاشتراها ونسخها .

وتحقيقًا لهذا الغرض اتخذ وكلاء في جميع أقطار العالم الإسلامي ، يرسلون إليه الكتب والمخطوطات أيًا كانت وبأيٍّ ثمن كان ، وكان وثيق الاتصال بهؤلاء الوكلاء الأفاضل ، يرسل إليهم الأموال بل يودع عندهم منها الكثير .

وكان من هؤلاء الوكلاء على سبيل المثال الشيخ أحمد الشرقي . الشيخ حسين بن محسن اليماني . الشيخ عبدالله بن راشد النجدي . الشيخ العارف بالله عبدالله المهاجر ، نزيل مكة المكرمة . الشيخ يوسف بن مبارك الشافعي اليمني . الشيخ أبو بكر المطوف المكي . الشيخ محمد بن حميد ، مفتي الحنابلة بمكة المكرمة . الشيخ الأديب أمين العلواني ، نزيل مصر . الشيخ عبداللطيف البصري . الشيخ محمد فارسي ، نزيل القسطنطينية . وغيرهم كثير ، كانوا أكثر من عشرين وكيلاً خارج الهند .

وأما في مجال طباعة الكتب ونشرها وتوزيعها فيحتل السيد الأمير رأس قائمة المعنيين بأمور الطباعة في شبه القارة الهندية ، فلما عين بعد عودته من الحج ناظرًا للمعارف في الإمارة أتيحت له فرصة ذهبية لنشر الكتب وإقامة المطابع وتوثيق العلاقات الواسعة مع المطابع الكبرى داخل البلاد وخارجها ، وأنفق في سبيل ذلك مبالغ كثيرة وأموالاً طائلة ، ووزع الكتب من أقصى العالم الإسلامي إلى أدناه بدون ثمن .

وكان جزءاً من اهتمامه بالمطابع إنشاء أربعة منها في الإمارة ، وهي : المطبع السكندري . المطبع الشاه جهاني . المطبع السلطاني . المطبع الصديقي .

ورغم تنشيط هذه المطابع الأربعة وتشغيلها فإنه اتصل بالمطابع الهندية الأخرى ومطابع الدول الإسلامية لتيسير توزيع الكتب ، وتعميمًا للفائدة ، وتشجيعًا لحركة

الطبع والنشر . وكثيراً ما كان يراجع مطبعة مفيد عام في مدينة آكره ، ومطبعة بولاق بمصر ، ومطبعة الجوائب في تركيا .

وبالإضافة إلى ذلك كانت له روابط وثيقة بدور النشر والتوزيع والرجال المعنيين بالطباعة والنشر من أقصى العالم الإسلامي إلى أدناه ، وكان الأمير ينفق عليهم ، ويمنحهم العمولات والأجر ونفقات البريد وغيرها ، نذكر من هؤلاء بعض الأسماء على سبيل المثال الشيخ أحمد القيسي (مصر) . الشيخ حبيب أفندي (الإسكندرية) . الشيخ أحمد بن ناصر (تركيا) . الشيخ طاهر أفندي (الجزيرة العربية) . الشيخ حسن ابن علي عبدالله (عدن وحولها) . السيد محمد العربي (ليبيا والمغرب العربي) . الشيخ عبدالقادر دريك حشمت (بغداد ومدن العراق) .

قام هؤلاء الوكلاء بنشر الكتب وتوزيعها خير قيام ، وأسدوا خدمة جليلة لتوعية الأجيال القادمة ، فالكتب التي نشرها السيد الأمير في الدور الأول هي :

١ - فتح الباري في شرح صحيح البخاري ، لم تكن مخطوطة الكتاب في الهند ، فاشتراها من الحديدة بستمائة دينار ذهبي ، وكانت بخط ابن علان ، وطبعها في مطبعة بولاق في مصر بخمسين ألف روبية .

٢ - تفسير ابن كثير ، نشره مع كتابه «فتح البيان» بعشرين ألف روبية .

٣ - نيل الأوطار للإمام الشوكاني ، أنفق على طباعته بمصر خمسة وعشرين ألف روبية .

ووزع هذه الكتب مجانًا في الهند وخارجها ، وكان مسؤول نشر الكتب وتوزيعها في الهند الشيخ غلام رسول السورتي ، والمسؤول خارج الهند الشيخ أحمد البابي الحلبي ، ولهم مساعدون يقومون بالتصحيح والنشر والتوزيع .

نظرًا إلى هذه الخدمات الجليلة والمآثر الحميدة في سبيل إحياء التراث الإسلامي والفنون العربية المختلفة يجب علينا نحن المعنيين بالكتاب العربي تقييم آثاره

وخدماته تقييمًا علميًا وتاريخيًا وإزاحة الستار عن هذه المناقب والمآثر العلمية والفنية والإشادة بمكانته في تاريخ العلم والتأليف والإصلاح والدعوة في الهند .

ومن الشخصيات البارزة التي لعبت دوراً عظيمًا في تاريخ الطباعة العربية في شبه القارة الهندية في القرن التاسع عشر منشي نول كشور (١٨٣٦ - ١٨٩٥) كان له فضل كبير في طباعة مئات الكتب العلمية والدينية ونشرها وتوزيعها في الأوساط العلمية داخل الهند وخارجها .

وكانت مطبعته العظيمة في مدينة لكناؤ - في الواقع - جامعة العلوم والفنون ، وملتقى المؤلفين والمصنفين ، ومعهد العلم والفن حقبة من الزمن ، وهو الذي بذل جهوداً كبيرة لاقتناء الكتب القديمة النادرة من مكتبات الهند العتيقة ، وبعثها من مدافنها ، وطبعها بإجادة فائقة وعناية لائقة استرعت انتباه العلماء والفضلاء ونالت عظيم الإعجاب وفائق التقدير ، وكان حصل على خدمات عدد كبير من العلماء والفضلاء والمصححين الماهرين في فنهم .

ورغم أنه كان هندوكيًا من أسرة برهمية (الطبقة العليا من الهندوس) إلا أنه توجه جاداً إلى إحياء الكتب الدينية والمراجع العربية والعلوم الإسلامية والفنون العصرية والثقافات المختلفة المتنوعة مترفعًا عن التعصب الديني والانحياز القومي .

وهو الذي اعتنى عناية فائقة بطباعة القرآن الكريم في مختلف أحجامه وأشكاله ، نشر بعض طبعاته مع ترجمة معانيه في مختلف اللغات ونشر بعضها الآخر مع الشرح والتفسير .

وجهوده المشكورة في اقتناء الكتب القديمة والمخطوطات النادرة أنقذت قسطًا كبيراً من التراث الإسلامي من الضياع وحوادث الزمان .

فضله على المسلمين وعلى التراث الإسلامي كبير لا يمكن لأحد أن يجحده ، وما أسدى إلى العلوم الإسلامية والمراجع العربية من يد العناية والإنقاذ لا يمكن أن ينكر ،

كل ذلك يتطلب منا أن نُخلد ذكره في تاريخ الطباعة العربية في شبه القارة الهندية ، ونذكر فضله ، ونعتني بما ترك من أثر وقدم من خدمات .

ولم يكتف منشي نول كشور بإقامة المطابع ونشر الكتب ، بل أنشأ مصنعاً لصناعة الورق وآخر لسبك الحروف ، كما أسس داراً للترجمة بجوار المطبعة ، وحصل على خدمات المترجمين الأفاضل في مختلف اللغات ، واتصل بالعلماء المقيمين في الأماكن والمدن البعيدة ، واستفاد منهم في ترجمة بعض الكتب وتحشية بعضها الآخر حتى تمكن من طبع آلاف المجلدات في مختلف اللغات . وقبل وفاته بقليل وزع مليون نسخة من القرآن المجيد مجانًا .

كان في الهند إلى الشمال مصانع كثيرة للورق منذ دخول الإسلام وقد ازدهرت خصوصاً طوال عصر الدولة المغولية ثم انقرضت على أيدي الإنكليز . وكان الهنود يعرفون صنوف الأوراق بإنتاجها المحلي وغير المحلي ، غير أن الحصول على الورق المحلي استمر سهلاً شائعًا ، وهذا الصنف من الورق يعرف باسم «ديسي» أي المحلي ، وكان هناك صنف آخر أرفع منه بكثير ينتج في كشمير وهو المسمى الكاغد الكشميري ، وكذلك كانوا يستوردون نوعًا من الورق من نواحي خراسان وخاصة من سمرقند وبخارى وبلخ وما إليها . فلما دخل الاستعمار أخذ بعض المطابع يستورد الورق من إنكلترا وغيرها من البلدان الأفرنجية ، ثم أنشئت تحت نير الاستعمار مصانع محلية للورق ، ومن أشهرها مصنع تيتاكره القريب جدًا من مدينة كلكتا الكبرى .

في الختام - ولا ختام لمثل هذا الحديث - نلفت النظر إلى وجوب إقامة الحوافز لترغيبنا نحن أهل الهند على العناية بنشر الكتب العربية من كل نوع وخاصة ما يتعلق بالدين الحنيف المنيف ، أي بكتاب الله العظيم وعلومه وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وعلومها . وروائع كتب التراث مثل مصنفات المحدثين الكبار الذين

يطول سرد أسمائهم . وكلنا بحمد الله يعرفهم عن كثب ، ومصنفات المصلحين علمًا وتحقيقًا وعملاً حسب المستطاع بتوفيق الله كالشيخ ابن تيمية الحراني وتلاميذه ، وعلى رأسهم الشيخ ابن القيم وابن عبدالهادي ومن تلاهم من أصحاب الجيل ومصنفات الذهبي وابن كثير وابن الملقن والعراقي وابن حجر العسقلاني والعلامة العيني ومن تلاهم من تلاميذهم إلى زمن الشيخ الكبير محمد بن عبدالوهاب ومن اقتفاه من كبار الشيوخ المصلحين ، والإمام الشوكاني ومن اتصلت به أسانيدهم . فقد عنيت الهند بالمؤلفات الجليلة لهؤلاء وأمثالهم ، وانتفعت بها ، وربما سرت روحهم إليهم لعلاقتهم المخلصة .بالدين وكانت اللغة العربية بظواهرها آلة وحيدة للاستقاء من معين الإسلام علاً ونهَلاً ، فمن هنا مازلنا في دور العلم والمعاهد والجامعات الخاصة وغير الخاصة ندعو الله من أعماق القلوب أن تزدهر هاتيك الحقول بدراسة الكتاب والسنة ، فإنها تخدم الإنسانية الكبرى خدمة خالصة لله وحده لا شريك له غير مشوبة ، فلأجل ذلك تلا تحرير الهند بناء جامعات دينية في مختلف الأصقاع الهندية من وارانسي في الناحية الشمالية إلى المنصورة وحواليها . وقد ألجأتنا الحاجات بالطبع إلى أن نؤسس دورًا للطباعة ونبني المطابع على أحدث الأساليب الفنية ، فازدهرت مدينة حيدر آباد بمطابعها وبدائرة المعارف وأخواتها المحلية ، وكذلك حسب المستطاع ظلت مدينة بومباي تساهم في خدمة اللغة المباركة بدار الطباعة لأبناء غلام رسول وبدار القيمة لعبد الصمد وأولاده ، ومنذ نحو عقدين أو أكثر وفقت الدار السلفية بفضل الله العظيم للعناية بنشر الكتب الضخمة في مجلدات كثيرة وأشتات الرسائل ، وكلها لكبار الأعلام الذين أنجبتهم الملة الإسلامية منذ عصر الرعيل الأول إلى الآن على أحدث أساليب البحث والتنقيب والتحقيق والتعليق ، وهي في الوقت نفسه مطبوعة بالحروف الجميلة الجذابة ، وعلى الورق الصقيل ، ولها بحمد الله في أوساط العلم والعلماء دوي سائد وقبول حسن ، كما تدعو أخواتها أن تتقدم في ميادين هذه الخدمة الأساسية التي تحتاج إلى

التفاهم والتعاون والتصادق والتكاتف خالصة لوجه الله عز وجل .

بعض الاقتراحات إلى حضرة السيد جمعة الماجد المحترم حفظه الله تعالى

نظراً لعناية السيد جمعة الماجد بنشر المعرفة والثقافة العربية والإسلامية وإحياء التراث ، وحبه العميق للعلم والعلماء ، وأثر مركزه الرائع في هذه المجالات نتقدم إلى سعادته ببعض الاقتراحات والمشروعات العلمية المفيدة التي تتعلق بالتراث الإسلامي في الهند ، التي تفيد الأوساط العلمية والثقافية في العالمين العربي والإسلامي ، ونرجو من سعادته التوجه إليها بنظر الاستحسان والقبول والتنفيذ . فمن أهم هذه الاقتراحات :

أولاً : نشر كتاب نواب صديق حسن خان وسيرته وتوزيعه في البلدان العربية بنطاق واسع كي تتعرف الأوساط العلمية والثقافية نابغة الهند في القرن التاسع عشر من خلال تاريخ الدراسة والتأليف وطباعة الكتب العربية ، وقد قطع الكتاب جميع مراحل الاستعدادات وهو جاهز الآن للطباعة .

ثانيًا : نقل مؤلفات السيد الأمير نواب صديق حسن خان الفارسية إلى اللغة العربية ونشرها وتوزيعها في الأوساط الثقافية ، وذلك لأن بعض مؤلفاته الفارسية تحتوي على علوم جمة ومعلومات قيمة ، تسر الناظرين وتفيد القارئين .

ثالثًا : إحياء بعض مؤلفاته المطبوعة قديمًا بإعادة طبعها ونشرها وتوزيعها ، وخاصة المطبوعات التي نفدت نسخها والناس يشتاقون إلى اقتنائها .

رابعًا : إعداد فهرس لجميع المخطوطات العربية الموزعة في مختلف مكتبات الهند يكون مرتباً ترتيبًا موضوعيًا ، حتى تظهر هذه

النوادر إلى النور ، ويتعرف عليها العلماء والمعنيون بالمخطوطات العربية في الشرق والغرب ، وينقذوا ما يمكن إنقاذه من الضياع وحوادث الزمان .

ولما كانت الدار السلفية تبذل قصارى جهودها منذ بداية تأسيسها في اقتناء المخطوطات النادرة ، والكتب القيمة القديمة وتعمل على طبعها ونشرها وتعنى بمؤلفات السيد نواب صديق حسن خان عناية فائقة لانسجام الفكر والرأي واتحاد المنهج والمبدأ في العمل ، وكذلك تتمتع الدار السلفية بروابط وعلاقات وطيدة مع جميع مطابع الهند ومكتباتها ، العلمية والتجارية ، وعندها رجال أكفياء في مختلف الفنون ، نظراً إلى ذلك نرجو من مركز جمعة الماجد مواصلة التعاون والترابط العلمي والتشاور معها فيما يتعلق بالهند من العلوم والفنون .

الحواشي

(١) ضُمّت الوراقية المذكورة إلى غيرها من الوراقيات التي عمل المركز والمجمّع على إخراجها مستقلة بعنوان «أوائل المطبوعات العربية حتى نهاية القرن التاسع عشر» .

تاريخ الطباعة العربية في الأمريكتين

الأستاذ فوزي تادرس

فوزي تادرس

الأمين الأول للمجموعة العربية والإسلامية في مكتبة الكونغرس.

- من مواليد الأقصر في مصر، ١٩٣٤م.
- ماجستير في المكتبات والمعلومات من جامعة متشغان آن أربر.
- يعدّ حالياً أطروحة للدكتوراه في الدراسات العربية والإسلامية في الولايات المتحدة.

الوظائف

- خبير اليونسكو في المكتبات بجامعة قطر.
- عمل في مكتبات جامعات يوتا وأنديانا ومتشغان.
- مفتش للمكتبات في دار الكتب المصرية.

من نتاجه

- القرآن الكريم في مكتبة الكونغرس. واشنطن، مكتبة الكونغرس ١٩٩٣م.
- دليل معرض مخطوطات القرآن الكريم. الدوحة، جامعة قطر، ١٩٩١م.
- سكة السلامة. تأليف سعد الدين وهبة (ترجمة). القاهرة، المؤسسة المصرية للكتاب، ١٩٧٩م.

إن الكتاب العربي في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، سواء في الوطن العربي أم في خارجه لم يحظ باهتمام كبير لرصد إنتاجه وضبطه ، فقد كان هذا النوع من الدراسات الببليوغرافية يأتي دائمًا بالدرجة الثانية في الدراسات . ولئن كانت عملية دراسة الكتاب العربي وإنتاجه وانتشاره في الوطن العربي خلال الحقبة المشار إليها قابعة في الظل ، فهي شبه معدومة خلال الفترة نفسها في الأمريكتين . وليس من شك في أن ظهور هذا النتاج وبداية انتشاره في العالم الأمريكي لم يحظ من المكتبيين بدراسة متكاملة الأطراف ، متباينة الأهداف .

لقد جاءت معلوماتنا عن النتاج العربي في غير موطنه وما نشر من أوعية النشر التقليدية في ذلك الوقت : (كتب ، جرائد ، مجلات) من خلال الدراسات التي قام بها مؤرخونا وأدباؤنا عندما درسوا ظاهرة الهجرة العربية إلى الأمريكتين ، أو عندما درسوا الأدب العربي المهجري : شعره ونثره ، خاصة عندما تناولت تلك الدراسات مشاهير أدباء المهجر الذين لاقوا شهرة عالمية مثل جبران خليل جبران (١٨٨٣ - ١٩٣١) ، وإيليا أبو ماضي (١٨٨٩ - ١٩٥٧) ، وميخائيل نعيمه (١٨٨٩ - ١٩٨٨) . هذا والمكتبة العربية تزخر بكثير من هذه المصادر التي درست هجرة السوريين المثقفين ، وعالجت نتاجهم الأدبي ، سواء ما كان منه على شكل مقالات ، أم دراسات ، أم رسائل[1] ، ففي هذه الدراسات نجد إشارات مقتضبة عابرة عن الكتب العربية في المهجر ، وناشريها ، وطابعيها ، ولهذا كانت الصعوبات التي تواجه الباحث في تاريخ الطباعة العربية في الأمريكتين أنه في أغلب الأحيان لا يجد المعلومات الببليوغرافية الكاملة في الكتب العربية التي ذكرها هؤلاء الباحثون ، فقد كانوا عادة يكتفون بذكر اسم الكتاب ، أو ذكره مع تاريخ نشره ، وأحيانًا مع ناشره ، أو طابعه ، أو معهما معًا ، أو بدونهما ، وهذا هو الأغلب الأعم . ومن أجل هذا السبب نجد بعض القوائم الببليوغرافية المتعلقة بالأدب العربي التي أعدها بعض المكتبيين قد ظهرت وفيها جميع السمات التي نجدها في هذا النوع من الحصر الببليوغرافي

الذي يمارسه بعض المكتبيين وهم يحصرون مادتهم . هذا بالاضافة إلى تكرار بعض المواد ، أو وجود كثير من الأخطاء في بعض البيانات لاختلاف ما كتب عنها في المصادر المتعددة(٢) .

ولعل أهم المشكلات التي واجهتني في قسم من القوائم هو التحقق من عناوين بعض الأعمال ، وذلك بسبب اختلاف المداخل ، وعدم التزام الببليوغرافيين بتوحيدها عند نشرها مع استعمال الإحالات اللازمة . هذا وقد طبق بعضهم قواعد الأنكلو أمريكية لسنة ١٩٤٨ ، واستعمل آخرون قائمة القواعد الأنكلو أمريكية الثانية AACR II ، في حين جاء فريق ثالث بقواعد اجتهادية .

لذلك تجيء بنية هذا البحث ومجاله من منظور ببليو - أدبي لدراسة الاتجاهات العددية والنوعية ، لرصد هذا النتاج الفكري من أوائل المطبوعات العربية في المهجر ، والعوامل النفسية التي دفعت هؤلاء الكتاب للتعبير عن خلجات نفوسهم ، وأسباب هجرتهم(٣) وطموحهم إلى أبعاد شاسعة لتحقيق آمال عريضة واعتزازهم بقوميتهم وحنينهم لوطنهم ولعودتهم . ومع غياب المصادر الإحصائية التي يمكن اتخاذها أساسًا للدراسة جاءت ضرورة تجميع ببليوغرافيا لكل ما أنتج خلال هذا القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين كما نراها في سلسلة الوراقيات التي ينوي مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث والمجمّع الثقافي إصدارها .

هذا ، ومن ناحية أخرى لم تكن هذه الببليوغرافيا في حد ذاتها هدفًا فقط ، بل كانت ركيزة لدراسة تاريخ الكتاب العربي في الأمريكتين دراسة ببليو - أدبية لاستخلاص هذا النتاج ، ومنها نستطيع استخراج المؤشرات والمقاييس الببليوغرافية في عملية حصر أوعية المعلومات وضبطها ، وتحليل اتجاهاتها للوصول إلى تاريخ الطباعة العربية في الأمريكتين .

يقع بُعد هذه الدراسة الزمني بين سنة ١٨٩٢ ونهاية عقد الخمسينات من هذا

القرن ، ويشمل بعدها الجغرافي أمريكا الشمالية والوسطى والجنوبية . ولقد قامت هذه الدراسة بحصر البعد الإنتاجي لأدباء المهجر ، ثم أظهرت البعد الموضوعي لما نشر ، وإن كان معظم ما نشر في مجال الأدب شعراً ، ونثراً ، ورواية ، ومسرحية . ولو أنّ الأغلبية العظمى من هذا الأدب هي الشعر ، ذلك الوعاء الذي وجد فيه هؤلاء الأدباء ضالتهم للتعبير عن معاناتهم في حنينهم لوطنهم الأم وتحرقهم شوقًا إلى أهاليهم ، كما وجدوا فيه الخلاص للتخفيف من حدة هذه الآلام وتلك المعاناة في قصائد نشروها في الوعاء المعروف في الصحافة ، بشكليها الجرائد والمجلات ، وهو ما يطلق عليه البعد الوعائي للأدب الدوري . وتكشف هذه الدراسة عن هذا الوعاء الدوري ، وعن الدوريات التي أصدرتها الصحفيات والأديبات العربيات في المهجر ، وجهودهن في نشر الأدب العربي . في طيات هذا ومن بين ثناياه استطعنا أن نستنتج تاريخ الطباعة العربية وحركة النشر وأسماء المطابع العربية ومواقعها وأصحابها وتواريخ إنشائها والكتب والدوريات التي أصدروها .

ولقد بلغت محصلة الكتب التي جمعتها من المصادر العربية المختلفة ٤٩٤ كتابًا ، وزعت على المرحلة الزمنية الواقعة بين سنتي ١٨٨١ و ١٩٥٠ . . فكان نصيب نشر الكتب في كل عقد كالآتي :

المدة الزمنية	عدد ما صدر فيها من كتب
١٨٨١ – ١٨٩٩	٥
١٩٠٠ – ١٩٠٩	٣٩
١٩١٠ – ١٩١٩	٧٥
١٩٢٠ – ١٩٢٩	٧٧

١٩٣٠ - ١٩٣٩	١٠٥
١٩٤٠ - ١٩٥٠	٨٤
١٨٨١ - ١٩٥٠ كتب بدون تاريخ نشر	٣٨٥ ١٠٩
مجموع الكتب	٤٩٤

وبلغ مجموع الجرائد ٣٢٩ جريدة ، وزعت على الفترة الزمنية من ١٨٩٢ إلى ١٩٥٠ فكان نصيب نشر الجرائد في كل عقد كالآتي :

المدة الزمنية	عدد ما صدر فيها من جرائد
١٨٧٩ - ١٨٩٩	٢٢
١٩٠٠ - ١٩٠٩	٤٩
١٩١٠ - ١٩١٩	١١١
١٩٢٠ - ١٩٢٩	٦٩
١٩٣٠ - ١٩٣٩	٣٦
١٩٤٠ - ١٩٥٠	١٥
١٨٧٩ - ١٩٥٠	٣٠٢
جرائد بدون تاريخ	٢٧
مجموع الجرائد	٣٢٩

وبلغ مجموع المجلات ١٤٤ مجلة ، وزعت على العقود الزمنية الستة من ١٨٩٩ إلى ١٩٥٠ ، فكان نصيب نشر المجلات في كل عقد كالآتي :

المدة الزمنية	عدد ما صدر فيها من مجلات
١٨٩٩	٣
١٩٠٠ - ١٩٠٩	١٦
١٩١٠ - ١٩١٩	٤٣
١٩٢٠ - ١٩٢٩	٣٠
١٩٣٠ - ١٩٣٩	٢٢
١٩٤٠ - ١٩٥٠	١٣
١٨٩٩ - ١٩٥٠	١٢٧
مجلات بدون تاريخ نشر	١٧
مجموع المجلات	١٤٤

وإذا كانت الاتجاهات العددية والنوعية لأوائل الكتب العربية قد فرضت المنهج الإحصائي ، فان دراسة الكيان المادي للكتاب العربي في تلك الفترة قد فرضت منهج التحليل الببليوغرافي .

وقادتني طبيعة الموضوع إلى توزيع المادة العلمية لدراسة الاتجاهات العددية والنوعية للكتاب العربي في المهجر ، حيث يمكن تحليل النتاج الكلي سنة بعد سنة وعقداً بعد عقد . ولقد كان الوصول إلى هذه الظاهرة هو ضرورة تحليل الظروف الاجتماعية والاقتصادية والثقافية التي كانت سائدة ، أو التي عاشها هؤلاء المهاجرون وتعايشوا فيها ومنها ومعها .

لقد أنتج الأدباء المهجريون وأثروا الأدب العربي ، وإن كان هناك تفاوت في نتاج الأدب بين الشمال والجنوب ، فكان أكثره من حيث العدد في المهجر الجنوبي ، ولكن لمعت في الشمال أسماء هامة بلغت شهرتها العالم مثل جبران خليل جبران وإيليا أبو ماضي .

وما يتعلق بعدد الكتب فقد كانت سنوات ١٩٣٠ - ١٩٣٩ أكثر السنوات نتاجاً للكتب ، في حين أن سنوات ١٩١٠ - ١٩١٩ كانت أكثر السنوات نتاجاً للجرائد وللمجلات ، وأقل سنوات النتاج (الكتب ، المجلات ، الجرائد) كانت سنوات ١٩٤٠ - ١٩٥٠ .

وبمقارنة ما نشر من الكتب في نيويورك - أكبر مدينة تجمع فيها المهاجرون العرب في الشمال - مع سان باولو ، - أكبر مدينة تجمع فيها العرب المهاجرون في أمريكا الجنوبية - نجد أن الكتب التي نشرت في الأولى بلغت ١٢٤ كتابًا ، بينما نشر في الثانية في المدة الزمنية نفسها ١٣٣ . وفي المدة الزمنية ذاتها نجد أن ما نشر من جرائد في نيويورك ٣٨ جريدة ، بينما نشر في سان باولو ٧١ جريدة ، كما نشر في نيويورك ٢٧ مجلة ، وفي سان باولو ٢٦ مجلة . . ولعل السبب في ذلك هو أن العرب في أمريكا الجنوبية كانوا أكثر منهم في أمريكا الشمالية ، وبالتالي فإن حملة الأقلام فيها كانوا أكثر . ولذا يكون عدد ما أنتجوه من أدوات النشر فيها أكثر من مثيلاتها في أمريكا الشمالية(٤) .

أما عن الموضوعات التي غطتها هذه المطبوعات فقد بلغ عدد الكتب الأدبية ٣٥٧ كتابًا ، وهناك ٣٩ رواية ، أما الموضوع الذي صدرت فيه برقم أقل فهو موضوع الهجرة ، فقد نشر حوله ١٥ كتابًا ، وهناك ١١ كتابًا عن تاريخ سوريا ، وغطى باقي الكتب التي رصدتها الببليوغرافيا موضوعات مختلفة .

جدول يبين سنوات الازدهار وسنوات الكساد

(الكتب)

السنة	عدد الكتب	سنوات الازدهار		سنوات الكساد	
		السنة	العدد	السنة	العدد
١٨٨١	١			١٨٨١	١
١٨٩٥	١			١٨٩٥	١
١٨٩٨	١			١٨٩٨	١
١٨٩٩	٢			١٨٩٩	٢
١٩٠٠	٥	١٩٠٠	٥		
١٩٠١	٣				
١٩٠٢	٢			١٩٠٢	٢
١٩٠٣	٤				
١٩٠٤	٩	١٩٠٤	٩		
١٩٠٥	٥	١٩٠٥	٥		
١٩٠٦	٣				
١٩٠٧	٣				
١٩٠٨	٤				
١٩٠٩	١			١٩٠٩	١
١٩١٠	٤				
١٩١١	٥	١٩١١	٥		
١٩١٢	٧	١٩١٢	٧		
١٩١٣	٩	١٩١٣	٩		

١٩١٤	٦	١٩١٤	٦		
١٩١٥	٢			١٩١٥	٢
١٩١٦	٨	١٩١٦	٨		
١٩١٧	٨	١٩١٧	٨		
١٩١٨	١٠	١٩١٨	١٠		
١٩١٩	١٦	١٩١٩	١٦		
١٩٢٠	١٣	١٩٢٠	١٣		
١٩٢١	٨	١٩٢١	٨		
١٩٢٢	١٠	١٩٢٢	١٠		
١٩٢٣	٦	١٩٢٣	٦		
١٩٢٤	٧	١٩٢٤	٧		
١٩٢٥	٤			١٩٢٥	٤
١٩٢٦	٧	١٩٢٦	٧		
١٩٢٧	٥			١٩٢٧	٥
١٩٢٨	١٠	١٩٢٨	١٠		
١٩٢٩	٧	١٩٢٩	٧		
١٩٣٠	١٩	١٩٣٠	١٩		
١٩٣١	١١	١٩٣١	١١		
١٩٣٢	١٥	١٩٣٢	١٥		
١٩٣٣	٦	١٩٣٣	٦		
١٩٣٤	٩	١٩٣٤	٩		
١٩٣٥	١١	١٩٣٥	١١		
١٩٣٦	٥			١٩٣٦	٥
١٩٣٧	١١	١٩٣٧	١١		

١٩٣٨	٩	١٩٣٨	٩		
١٩٣٩	١٣	١٩٣٩	١٣		
١٩٤٠	١٠	١٩٤٠	١٠		
١٩٤١	١٠	١٩٤١	١٠		
١٩٤٢	٦			١٩٤٢	٦
١٩٤٣	٤			١٩٤٣	٤
١٩٤٤	٨	١٩٤٤	٨		
١٩٤٥	٧	١٩٤٥	٧		
١٩٤٦	١٤	١٩٤٦	١٤		
١٩٤٧	١٣	١٩٤٧	١٣		
١٩٤٨	٤			١٩٤٨	٤
١٩٤٩	٥			١٩٤٩	٥
١٩٥٠	٣			١٩٥٠	٣

جدول يبين سنوات الازدهار وسنوات الكساد

(الجرائد)

السنة	عدد الجرائد	سنوات الازدهار		سنوات الكساد	
		السنة	العدد	السنة	العدد
١٨٧٩	١			١٨٧٩	١
١٨٨٩	١			١٨٨٩	١
١٨٩٢	١			١٨٩٢	١

٤	١٨٩٤			٤	١٨٩٤
٢	١٨٩٦			٢	١٨٩٦
٢	١٨٩٧			٢	١٨٩٧
		٦	١٨٩٨	٦	١٨٩٨
		٥	١٨٩٩	٥	١٨٩٩
		٥	١٩٠٠	٥	١٩٠٠
		٥	١٩٠١	٥	١٩٠١
٤	١٩٠٢			٤	١٩٠٢
		٧	١٩٠٣	٧	١٩٠٣
٤	١٩٠٤			٤	١٩٠٤
٣	١٩٠٥			٣	١٩٠٥
		٦	١٩٠٦	٦	١٩٠٦
٤	١٩٠٧			٤	١٩٠٧
٤	١٩٠٨			٤	١٩٠٨
		٧	١٩٠٩	٧	١٩٠٩
		١٤	١٩١٠	١٤	١٩١٠
٦	١٩١١			٦	١٩١١
		١٠	١٩١٢	١٠	١٩١٢
		١٢	١٩١٣	١٢	١٩١٣
		١٠	١٩١٤	١٠	١٩١٤
		١٣	١٩١٥	١٣	١٩١٥
		٩	١٩١٦	٩	١٩١٦
		١٠	١٩١٧	١٠	١٩١٧
		١٢	١٩١٨	١٢	١٩١٨

٤	١٨٩٤			٤	١٨٩٤
٢	١٨٩٦			٢	١٨٩٦
٢	١٨٩٧			٢	١٨٩٧
		٦	١٨٩٨	٦	١٨٩٨
		٥	١٨٩٩	٥	١٨٩٩
		٥	١٩٠٠	٥	١٩٠٠
		٥	١٩٠١	٥	١٩٠١
٤	١٩٠٢			٤	١٩٠٢
		٧	١٩٠٣	٧	١٩٠٣
٤	١٩٠٤			٤	١٩٠٤
٣	١٩٠٥			٣	١٩٠٥
		٦	١٩٠٦	٦	١٩٠٦
٤	١٩٠٧			٤	١٩٠٧
٤	١٩٠٨			٤	١٩٠٨
		٧	١٩٠٩	٧	١٩٠٩
		١٤	١٩١٠	١٤	١٩١٠
٦	١٩١١			٦	١٩١١
		١٠	١٩١٢	١٠	١٩١٢
		١٢	١٩١٣	١٢	١٩١٣
		١٠	١٩١٤	١٠	١٩١٤
		١٣	١٩١٥	١٣	١٩١٥
		٩	١٩١٦	٩	١٩١٦
		١٠	١٩١٧	١٠	١٩١٧
		١٢	١٩١٨	١٢	١٩١٨

١٨٩٤	٤			١٨٩٤	٤
١٨٩٦	٢			١٨٩٦	٢
١٨٩٧	٢			١٨٩٧	٢
١٨٩٨	٦	١٨٩٨	٦		
١٨٩٩	٥	١٨٩٩	٥		
١٩٠٠	٥	١٩٠٠	٥		
١٩٠١	٥	١٩٠١	٥		
١٩٠٢	٤			١٩٠٢	٤

جدول يبين سنوات الازدهار وسنوات الكساد

(المجلات)

السنة	عدد المجلات	سنوات الازدهار		سنوات الكساد	
		السنة	العدد	السنة	العدد
١٨٩٩	-			١٨٩٩	٣
١٩٠٠	٣			١٩٠٠	١
١٩٠١	١			١٩٠١	٢
١٩٠٢	٢			١٩٠٢	–
١٩٠٣	–			١٩٠٣	–
١٩٠٤	–			١٩٠٤	–
١٩٠٥	–			١٩٠٥	٣
١٩٠٦	٣			١٩٠٦	٣
١٩٠٧	٣			١٩٠٧	٣
١٩٠٨	٣			١٩٠٨	١

١٩٠٩	٣			١٩٠٩	٣
١٩١٠	٤	١٩١٠	٤		
١٩١١	٢			١٩١١	٢
١٩١٢	٣			١٩١٢	٣
١٩١٣	٤	١٩١٣	٤		
١٩١٤	٣			١٩١٤	٣
١٩١٥	٤	١٩١٥	٤		
١٩١٦	٤	١٩١٦	٤		
١٩١٧	٧	١٩١٧	٧		
١٩١٨	٦	١٩١٨	٦		
١٩١٩	٦	١٩١٩	٦		
١٩٢٠	٣			١٩٢٠	٣
١٩٢١	١			١٩٢١	١
١٩٢٢	٥	١٩٢٢	٥		
١٩٢٣	٥	١٩٢٣	٥		
١٩٢٤	٣			١٩٢٤	٣
١٩٢٥	–			١٩٢٥	–
١٩٢٦	٣			١٩٢٦	٣
١٩٢٧	–			١٩٢٧	–
١٩٢٨	٥	١٩٢٨	٥		
١٩٢٩	٥	١٩٢٩	٥		
١٩٣٠	١			١٩٣٠	١
١٩٣١	٤	١٩٣١	٤		
١٩٣٢	٣			١٩٣٢	٣

١٩٠٩	٣			١٩٠٩	٣
١٩١٠	٤	١٩١٠	٤		
١٩١١	٢			١٩١١	٢
١٩١٢	٣			١٩١٢	٣
١٩١٣	٤	١٩١٣	٤		
١٩١٤	٣			١٩١٤	٣
١٩١٥	٤	١٩١٥	٤		
١٩١٦	٤	١٩١٦	٤		
١٩١٧	٧	١٩١٧	٧		
١٩١٨	٦	١٩١٨	٦		
١٩١٩	٦	١٩١٩	٦		
١٩٢٠	٣			١٩٢٠	٣
١٩٢١	١			١٩٢١	١
١٩٢٢	٥	١٩٢٢	٥		
١٩٢٣	٥	١٩٢٣	٥		
١٩٢٤	٣			١٩٢٤	٣
١٩٢٥	–			١٩٢٥	–
١٩٢٦	٣			١٩٢٦	٣

أما عن الظروف الاجتماعية والثقافية والنفسية التي عاشها هؤلاء الأدباء ، والتي حدت بهم إلى بداية الكتابة والتأليف وإنشاء المطابع لنشر أوعية الفكر المعروفة في ذلك الوقت من صحف ومجلات وكتب ، فيمكن القول إننا لو تتبعنا مرحلة تكوين هؤلاء الأدباء لوجدنا أنهم اعتمدوا أساسًا على القراءة ، لتنمية مواهبهم الذاتية ، وتحصيل ما أمكن تحصيله من المعرفة في ضوء الصراعات السياسية والاجتماعية والدينية والطائفية التي تعرضت لها البلاد قبل هجرتهم(٥) . وبجانب هذه الصراعات استفاد ذلك الجيل من دعوات الإصلاح بشكل أقوى ، هذه الدعوات وضع بذورها في سوريا المعلم بطرس البستاني (١٨١٩ - ١٨٨٣) وابنه سليم (١٨٤٦ - ١٨٨١) . . وفي مصر كانت هناك دعوات قوية ، وتيار شديد للإصلاح ، وضع بذوره الأولى رفاعة الطهطاوي (١٨٠١ - ١٨٧٣) ، وجمال الدين الأفغاني (١٨٣٨ - ١٨٩٧) ، وعبدالله النديم (١٨٤٥ - ١٨٩٦) ، وأديب إسحاق (١٨٥٦ - ١٨٨٥) . وسعد زغلول (١٨٥٧ - ١٩٢٧) . . وتولى الإصلاح الديني الشيخ محمد عبده (١٨٤٩ - ١٩٠٥) ، كما تولى مهمة الإصلاح السياسي عبدالرحمن الكواكبي (١٨٥٥ - ١٩٠٢) ، وكان الاتجاهان في الواقع من وحي جمال الدين الأفغاني ، وكان لظهور كتاب أم القرى (١٨٩٨) وكتاب يقظة الأمة العربية (١٩٠٥) صدى كبير في الأوساط العلمية والثقافية ، ولهذا يمكننا القول : إن هذه الظروف وهذه الدعوات وهذه الحركات الإصلاحية ساعدت على تكوين الخلفية الثقافية لهؤلاء المهاجرين ، وكانت هي القاسم المشترك والعامل النفسي الذي ربطهم بوطنهم ، وغذى عروبتهم في مرحلة تكوينهم ، ومن ثم أشعلت حنينهم لتراب أرضهم بعد هجرتهم . وما هي إلا سنوات قليلة من وصولهم لمهجرهم حتى تفتحت العبقريات الشعرية ، وانبثقت المواهب الأدبية ، ووجد الشعراء لأقلامهم في الصحافة مجالاً رحبًا ، وجناحًا ينقل إليهم أخبار وطنهم ، ولذلك نجد الأحداث العربية الواقعة على المسرح العربي قد تمثلت في أشعارهم وكتاباتهم . وإذا بالغيرة القومية تظهر ملّحة بين ثنايا القصائد(٦)

وإذا بالحنين للوطن يبدو حاراً ، وإذا بالحديث عن المرأة يبدو دافئًا حانيًا . ولكن الهجرة ذلك القدر المحتوم قد فرقت بين الابن وأبيه ، وبين الأخ وأخيه ، وبين الحبيب وحبيبته ، وفي هذا يقول رشيد أيوب (١٨٧١ - ١٩٤١) في قصيدته «أنا والأماني» :

هـون الـله وعـدنـا فـالـتـقـيـنـا ... وتـذكـرنـا الـلـيـالي فبكـينـا
وعـقـدنـا مـوثـقًـا أن لا نـوى ... بعـد هذا ، هكذا نويـنـا
إنمـا لـمـا طوينـا سـاعـة ... يـعلـم الـلـه بـهـا كـم طـويـنـا
دارت الـدنـيـا بـنـا دورتـهـا ... فـتـفـرقـنـا . . كـأنّـا مـا الـتـقـيـنـا

وفي ساعة الفراق وقبل الرحيل للعالم الجديد يصف الشاعر إلياس فرحات (١٨٩٣ - ١٩٧٦) وعد الحبيبين :

خصلة الشعر التي أعطيتنيها ... عندما البين دعاني بالنفير
لم أزل أتلو سطور الحب فيها ... وسأتلوها إلى اليوم الأخير

ولما كانت سوريا نهبًا للفقر والجوع ، بالإضافة إلى تفشي الأحقاد الطائفية فيهاغدت الهجرة إلى العالم الجديد في جوهرها قدراً محتومًا على كثير من السوريين الذين اقتلعتهم الهجرة من تربة أجدادهم وآبائهم ، ونقلتهم أياماً وأسابيع طويلة على ظهر السفن بين موج البحر وصخبه وهديره ، لتغرسهم في مواطن أخرى ، وبيئات مختلفة ، كان صخب العيش فيها أقوى هديراً من موج البحر الصاخب الذي ركبوه ، وكان السعي فيها للقمة العيش أقوى من مصارعة الموج لهدير البحر(٧) .

ولقد كان للعامل السياسي دافع قوي لهؤلاء المهاجرين لكي يرحلوا عن موطنهم يحملون على أكتافهم أعباءهم وهمومهم ، فقد كانت سوريا ترزح تحت الحكم العثماني الذي حطم فيها طاقات الفكر وقتلها ، وكبل الشعب السوري بأغلاله

وعندما مات الرجل المريض[٨] الراقد فوق عرش الآستانة بدائه اقتسم تركته العريضة قراصنة من نوع آخر هم الإنجليز والفرنسيون .

انشطرت الأرض الواحدة ، وفتح الاستعمار فاه لكي يبتلع خيراته ، ويفتت جسده ويقسمه إلى دول مختلفة ، تغيرت اللافتات القديمة ، وبقي مضمونها قائماً ، كتب على هذا الشعب المسكين أن يرزح تحت استعمار واستعمار ، ومن جوع إلى جوع ، ومن حرمان إلى حرمان ، تغيرت الأشكال وظل المضمون كما هو ، وحتى في مجال الاقتصاد الزراعي السوري ، فقد كان ضعيفًا يعتمد على الطرق البدائية في الزراعة ، ولهذا لم يجد الفلاح السوري بديلاً عن الزراعة الضعيفة إلا أن يترك فأسه ، وأن يركب البحر ليهاجر في أرض الله الواسعة على أمل عودة قريبة بعد أن تتحسن أحواله المالية .

لقد كانت هناك عوامل ثانوية أخرى ، منها شعور الأقليات باضطهادهم - وإن كان هذا وهمًا نشره الاستعمار نفسه للتفرقة - ومنها مثلاً تأثر السوريين الذين لم يهاجروا بالرسائل التي كانت تصلهم من أقاربهم المهاجرين وهي تفيض في وصف هذه البلاد بما فيها من حرية وحضارة ، ثم تأثرهم أيضًا بما كانوا يسمعون من العائدين من المهجر سواء في زيارات قصيرة أم لعودة دائمة ، واستقرار نهائي ، وكان مظهرهم وتصرفهم يدل على تحسن أحوالهم المالية[٩] كثيراً بما ادخروه في غربتهم ، الأمر الذي يكفي ليكون في حد ذاته دعاية وحافزاً لغيرهم من المتخلفين عن الهجرة ليهاجروا مثلهم ، فكان هؤلاء يقعون بين دفع وجذب ، دفع للهجرة للتخلص من أوضاعهم وسوء حالتهم ، وجذب إلى البلاد التي يسمعون عنها ويرون عينات غنية من العائدين منها ، وتأثير هذه تمامًا مثل تأثير السياح الذين كانوا يحجون إلى الأماكن المقدسة[١٠] ، وكانوا ينفقون بسخاء في أثناء زياراتهم بما يدل على رغد عيشهم في أوطانهم ، ولا ننسى أيضًا أثر المبشرين الذين كانوا يحيون في بحبوحة من العيش في

سوريا ولبنان وفلسطين ، وكان هؤلاء ينفقون عن سعة سواء لأغراض التبشير أم السياسية ، أم للحصول على كتب التراث العربي والإسلامي والآثار .

كذلك لا نستطيع أن نغفل جانب تجارة نقل المهاجرين على السفن ، إذ كان عملاء الهجرة والمقرضون يتولون إغراء الشباب بالهجرة وتسهيلها لهم بتحمل نفقات العيش[١١] ، والإقامة في المهجر على أن يقوموا برد هذه المبالغ في المهجر مع الفائدة المرتفعة ، وربما كان هؤلاء السماسرة يتولون بأنفسهم تحصيل أجور المهاجرين ثم يدفعون لهم نفقاتهم الضرورية ، وكان هذا نوعًا من الرقيق يعرف باسم النظام البادروني Padrone System . والشكل الآتي يلخص أسباب الهجرة[١٢] .

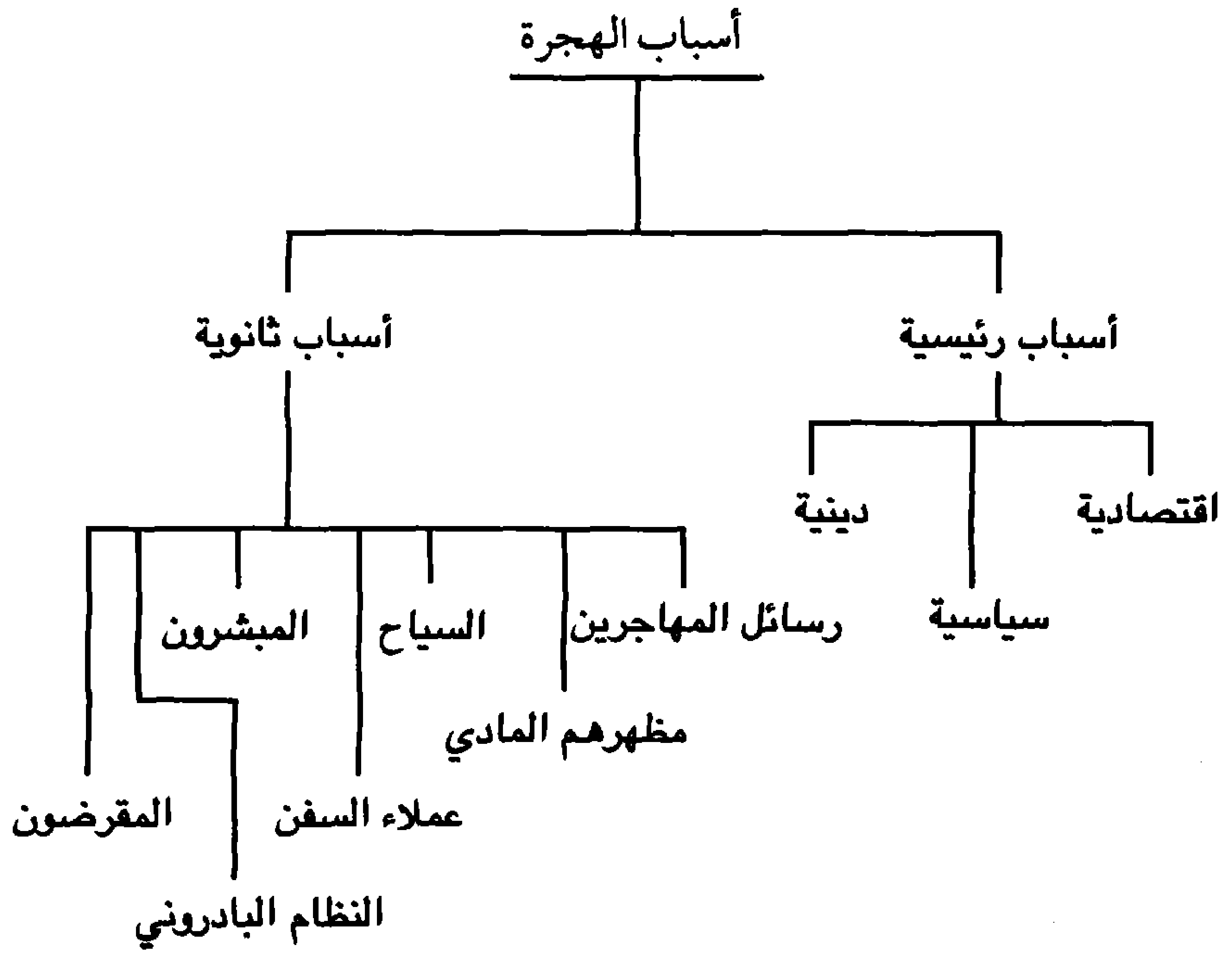

لعل من المناسب أن نذكر أنه كانت هناك ثلاث فئات من المهاجرين السوريين عندما عرفت سوريا حركة الهجرة ، لقد كانت غالبية الفئة الأولى من المهاجرين الأوائل من الفلاحين والعمال الذين سافروا على نفقة سماسرة العمال والمهربين - وكان لا يهمهم من الحياة سوى توفير بعض المال لتأمين حياتهم وكثمن لغربتهم وفراق أهلهم ، والسوري بطبيعته يحب التجارة ، لذلك راح يحمل «الكشه» ذلك الصندوق الملعون المليء بالأمشاط والدبابيس وفناجين القهوة العربية ، على ظهره يطوف بها الشوارع في البرد القارس والحر اللافح ، يكسب يومًا ، وتمضي أيام بلا كسب[١٣] .

أما الفئة الثانية من المهاجرين السوريين فهم الذين هاجروا إلى مصر ، وإلى غيرها من الدول العربية سنة ١٨٦٠ على أثر الاضطراب السياسي في الشام[١٤] ، ووجدوا في مصر مهد الثقافة العربية الإسلامية خلاصهم ، وفيها بدأت عملية صقل هؤلاء المهاجرين ، وراح بعضهم يوطد أموره على الاستقرار النهائي فيها ، بينما راح آخرون يرتبون أمورهم ليشدوا الرحال مرة ثانية إلى الأمريكتين .

أما الفئة الثالثة فهي التي رحلت رأسًا من المراكز الحضارية السورية واللبنانية ، وكان كثير من مهاجري هذه الفئة من المثقفين الموهوبين[١٥] ، وعندما وصلوا إلى مهجرهم لم تتوقف أعمالهم على التجارة والشؤون الاقتصادية فقط ، بل راحوا يدخلون عالم الأدب والصحافة ويمارسون ما تتطلبه هذه الآداب الإنسانية من مستلزمات ، فأسسوا المطابع وعليها نشروا جرائدهم ومجلاتهم[١٦] ، واستطاعوا برغم مشقة الحياة أن يؤثروا في العالم الأمريكي ، فالأدب العربي يمثل عقلية الشرق بما فيها من روحانية وسمو وإيمان ، وكان من نتيجة ذلك أن نشروا في الغرب تلك اللمسات الحانية ، وكأن كتابات جبران محاولة «لشرقنة» الغرب . كان لهؤلاء الشعراء المهجريين كذلك تأثير في الوطن العربي نفسه ، بما تركوه فيه من نتاج أدبي

وافر أطلقوا عليه اسم «البلاغة الجبرانية»[١٧] . والشيء المهم أن هؤلاء السوريين واللبنانيين والفلسطينيين هم الذين أحدثوا انقلابًا في مفهوم الأمريكان نحو العرب ، فعرفوا أنهم ورثة حضارة . . بعد أن كانوا يسمونهم «توركو» . وأطلق هؤلاء المهاجرون لقب الأندلس الجديدة على البيئات العربية هناك ، وكونت لهم عنصرًا له قواه المادية والمعنوية تشبيهًا بالأندلس القديمة التي فتحها العرب وأنشأوا فيها تلك الدولة[١٨] ، ولكن الأندلس الجديدة دخلها العرب مستضعفين ، ساعين للرزق ، بينما دخل العرب الأندلس القديمة من قبل فاتحين ، منتصرين ، ينشرون أدبهم ولغتهم ودينهم في زهو وفخار ، وبالرغم من اختلاف المسيرتين إلا أنهما نجحتا في نشر اللغة العربية وآدابها في العالم بطريقة تدعو للإعجاب وخاصة بالنسبة لما انتجه هذا الفيض الصغير من المهاجرين من أدب عربي رفيع ، ويحسن بنا أن نشير إلى أنه في سنة ١٩٢٧ عقد في مدينة نيويورك أول مرة مؤتمر الكتاب العرب ، وكان يهدف إلى تقديم الكتاب العربي للأمريكان ، «وبذلك حملوا روح الشرق العربي إلى المهجر»[١٩] ونشروها في العالم الجديد .

ولعل السؤال الذي يطرح نفسه الآن : كيف ومتى بدأت اللغة العربية تظهر في الوجود الأمريكي ، شماله وجنوبه؟ . وكيف كان إنشاء المطابع وظهور الصحف التي نالت اهتمامًا بالغًا من هؤلاء المثقفين المهاجرين الذين راحوا يصدرونها بكثرة[٢٠] . والإجابة عن هذا السؤال هو أن الصحافة العربية في المهجر الأمريكي لعبت دورًا كبيرًا في ذلك . ويُعزى السبب في كثرة ظهور الصحف والمجلات العربية إلى كثرة المنازعات والخلافات الطائفية والمذهبية ، أو الإقليمية والدينية التي كانوا يعيشونها قبل هجرتهم .

تلك كانت حالة المهاجرين العرب المتمثلة في الاتجاه الفردي لأوضاعهم ، فقد انتقلوا إلى العالم الجديد يحملون في قلوبهم شعور الفرقة وعدم الاتحاد التي جبلوا

عليها في موطنهم الأصلي ، ولهذا كان في المهجر لكل طائفة أو مذهب جريدة تعبر عنه وعن اتجاهه وفكره وتدافع عنه ، فكانت جريدة الهدى التي أسسها نعوم مكرزل (١٨٦٧ - ١٩٣٢) مثلاً سنة ١٨٩٨ - أهم الجرائد العربية في المهجر ، إن لم تكن أقدمها - لسان حال الطائفة المارونية في المهجر الأمريكي ، ولهذا كانت تدخل معارك مع الصحف الأخرى ، وكان من أسباب خلافها مع زميلاتها دعوتها إلى انفصال لبنان عن سوريا . وكانت جريدة البيان التي أسسها سليمان بدور عام ١٩١١ للدفاع عن قضايا الدروز ونشر أخبارهم والكتابة عن أحوالهم ورعاياهم وآمالهم ، كذلك كانت جريدة مرآة الغرب التي أسسها نجيب دياب سنة ١٨٩٩ في نيويورك لسان حال الأرثوذكس العرب في أمريكا[٢١] .

يمكن القول : إن الصحافة بجرائدها ومجلاتها فتحت أبوابها كي يكتب فيها هؤلاء الأدباء باكورة نتاجهم قبل أن يجمعوها في كتب . لقد كانت الصحافة هي المدرسة الأولى التي تعلم فيها ذلك الجيل السوري المثقف فنون الكتابة الأدبية ، وهي التي فتحت صفحاتها لكي ينشروا فيها بذور أعمالهم فتمرسوا وأبدعوا . وما هي إلا سنوات حتى تفتحت فيها عبقرياتهم الشعرية ، وتفجرت مواهبهم الأدبية على الرغم من الرصيد التعليمي البسيط الذي تلقوه في صغرهم .

وكانت جريدة كوكب أمريكا[٢٢] أول جريدة عربية ظهرت في الولايات المتحدة سنة ١٨٩٢ ، أصدرها نجيب عربيلي (١٨٦٢ - ١٩٠٧) . . وكان ظهورها حدثًا غريباً بالنسبة للأمريكيين أنفسهم ، فرأوا جريدة تصدر بحروف مغايرة لحروفهم ، وتقرأ من اليمين إلى اليسار . ولاقت هذه الجريدة صعوبات بالغة في مرحلة تأسيسها ، فقد كان الحرف العربي غير متوافر في المهجر ، وافتقدت الطابعين والمنضدين الذين يتقنون اللغة العربية ، ولكنها استطاعت الحصول على الحروف برغم صدور قانون عثماني يقضي منع خروج هذه الحروف من البلاد ، أصدره

السلطان عبدالحميد الثاني (١٨٤٢ - ١٩١٨) ، وذلك بسبب خوفه أن تنشر في البلاد الأجنبية ، وخاصة في إنكلترا التي تعاديه كلاماً يهاجم نظام الحكم أو ينتقد الأوضاع العثمانية . واستطاعت هذه الجريدة لحسن الحظ الحصول على الحروف العربية رغم هذا القانون وذلك بأحد الطرق الآتية أو بها كلها مجتمعة ؛ فقد كان لاتصال والد نجيب بالمبشرين الأمريكان أثر في تسهيل خروجها ، كما حصلت عليها عن طريق الوزير المفوض الذي يستطيع أن يخرج ما يشاء في الحقيبة الدبلوماسية ، وقد كانت تربطه بالعرابلة روابط صداقة ، وكان السلطان أحياناً لا يرى أي ضرر أو خوف من أسرة العربيلي ، وهو في الوقت نفسه محتاج لمثل هذه الأسرة في أمريكا لكي تكتب عن محاسنه ، وهو في الوقت نفسه محتاج إلى صداقة أمريكا . . على أية حال ظهرت الجريدة وفي سنتها الأولى مدح للحكم العثماني ، ونلاحظ أن العرابلة قد هاجروا إلى أمريكا سنة ١٨٧٨ ولم يمض على حكم السلطان أكثر من عامين ، وبطبيعة الحال فإن الحاكم في السنوات الأولى لحكمه يحاول إصلاح دولته ، وهذا ما انعكس على هذه الجريدة من مدح وإطراء .

وتصدَّر الهلال - شعار الدولة العثمانية - عدد الجريدة الأول ، ذلك الشعار بما له من قدسية وإيحاء القومية ، فهو هلال الدولة وهلال الخلافة وهلال الدين ، وفي هذا العدد الأول شرحت الجريدة أهدافها في خدمة الدولة والأمة في المشرقين ، وتجنبت المستوعر من الكلام النافر[٢٣] . وقد غطت الجريدة موضوعات كثيرة ، وعالجت مشكلات الهجرة ، واستمر صدورها سبعة عشر عاماً .

صدرت في فيلادلفيا بعد ذلك جريدة العصر ، وجريدة الهدى ، اللتان أرجئ الحديث عنهما إلى حين الكلام عن المطابع العربية . . يلي ذلك جريدة المهاجر التي أصدرها أمين الغريب في ١٥ تموز ١٩٠٣[٢٤] . ولعل من حسن حظ جبران خليل جبران أن قابل الغريب في الوقت المناسب بعد أن أنشأ الأخير جريدته ، التي أخذ

يفتح صفحاتها لكتابات جبران . فكانت المهاجر بذلك هي المدرسة العملية التي تعلم فيها جبران ، ومنها وبها خرج صوته إلى العالم العربي بأمريكا والوطن الأم ، وباختصار كانت المهاجر لجبران المدرسة والقارئ والكاتب ، ومن ناحية أخرى أدرك الغريب احتياجه إلى مقالات جبران الدورية ليصدرها في كل عدد ، ثم جمعت في شكل كتب .

عندما اطمئن الغريب إلى كتابات جبران ، زاد حنينه إلى وطنه ، فقرر العودة إلى لبنان . وبكتابات جبران نستطيع أن نقول : إن المهاجر كانت هي الجريدة التي ردت للصحافة العربية اعتبارها لبعدها عن الطائفية والانتقاد .

نشر جبران خليل جبران في جريدة المهاجر(٢٥) المقالات التالية :

عنوان المقالة	التاريخ	العدد
أغنية الموج	١٩٠٥/٧/٢٦	١١١
أغنية الجمال	١٩٠٥/٧/٢٩	١١٢
أغنية السعادة	١٩٠٥/٨/٢	١١٣
أغنية المطر	١٩٠٥/٨/٥	١١٤
أنشودة الزهرة	١٩٠٥/٨/١٢	١١٦
أغنية	١٩٠٥/٨/١٦	١١٧
حياة الحب	١٩٠٥/٨/١٩	١١٨
دمعة وابتسامة	١٩٠٥/٨/٢٣	١١٩

الوثيقة الخالدة	١٩٠٥/٨/٢٦	١٢٠
دمعة وابتسامة	١٩٠٥/٩/٢	١٢١
السلم	١٩٠٥/٩/٦	١٢٢
بين الخرائب	١٩٠٥/٩/٩	١٢٣
حلم في البرية	١٩٠٥/٩/١٣	١٢٤
دمعة وابتسامة	١٩٠٥/٩/١٦	١٢٥
نظرة إلى الآتي	١٩٠٥/٩/٢٠	١٢٦
اللقاء	١٩٠٥/٩/٣٠	١٢٧
الدهر والإله	١٩٠٥/١٠/٤	١٢٨
ملكة الجمال	١٩٠٥/١٠/٧	١٢٩
المجرم	١٩٠٥/١٠/١١	١٣٠
يا لائمي	١٩٠٥/١٠/١٤	١٣١
مناجاة	١٩٠٥/١٠/١٨	١٣٢
رحماك يا نفس رحماك	١٩٠٥/١٠/٢١	١٣٣
الأمس واليوم	١٩٠٥/١٠/٢٥	١٣٤
حكاية	١٩٠٥/١١/١	١٣٦
دمعة وابتسامة	١٩٠٥/١١/٤	١٣٧
ملاك السلم	١٩٠٥/١١/٨	١٣٨
بيت السعادة	١٩٠٥/١١/١١	١٣٩
مدينة الماضي	١٩٠٥/١١/١٨	١٤١
حكاية صديق	١٩٠٥/١١/٢٣	١٤٢
الأرملة وابنها	١٩٠٥/١١/٢٥	١٤٣

الوثيقة الخالدة	١٩٠٥/٨/٢٦	١٢٠
دمعة وابتسامة	١٩٠٥/٩/٢	١٢١
السلم	١٩٠٥/٩/٦	١٢٢
بين الخرائب	١٩٠٥/٩/٩	١٢٣
حلم في البرية	١٩٠٥/٩/١٣	١٢٤
دمعة وابتسامة	١٩٠٥/٩/١٦	١٢٥
نظرة إلى الآتي	١٩٠٥/٩/٢٠	١٢٦
اللقاء	١٩٠٥/٩/٣٠	١٢٧
الدهر والإله	١٩٠٥/١٠/٤	١٢٨
ملكة الجمال	١٩٠٥/١٠/٧	١٢٩
المجرم	١٩٠٥/١٠/١١	١٣٠
يا لائمي	١٩٠٥/١٠/١٤	١٣١
مناجاة	١٩٠٥/١٠/١٨	١٣٢
رحماك يا نفس رحماك	١٩٠٥/١٠/٢١	١٣٣
الأمس واليوم	١٩٠٥/١٠/٢٥	١٣٤
حكاية	١٩٠٥/١١/١	١٣٦
دمعة وابتسامة	١٩٠٥/١١/٤	١٣٧
ملاك السلم	١٩٠٥/١١/٨	١٣٨
بيت السعادة	١٩٠٥/١١/١١	١٣٩
مدينة الماضي	١٩٠٥/١١/١٨	١٤١
حكاية صديق	١٩٠٥/١١/٢٣	١٤٢
الأرملة وابنها	١٩٠٥/١١/٢٥	١٤٣

الوثيقة الخالدة	١٩٠٥/٨/٢٦	١٢٠
دمعة وابتسامة	١٩٠٥/٩/٢	١٢١
السلم	١٩٠٥/٩/٦	١٢٢
بين الخرائب	١٩٠٥/٩/٩	١٢٣
حلم في البرية	١٩٠٥/٩/١٣	١٢٤
دمعة وابتسامة	١٩٠٥/٩/١٦	١٢٥
نظرة إلى الآتي	١٩٠٥/٩/٢٠	١٢٦
اللقاء	١٩٠٥/٩/٣٠	١٢٧
الدهر والإله	١٩٠٥/١٠/٤	١٢٨
ملكة الجمال	١٩٠٥/١٠/٧	١٢٩
المجرم	١٩٠٥/١٠/١١	١٣٠
يا لائمي	١٩٠٥/١٠/١٤	١٣١
مناجاة	١٩٠٥/١٠/١٨	١٣٢
رحماك يا نفس رحماك	١٩٠٥/١٠/٢١	١٣٣
الأمس واليوم	١٩٠٥/١٠/٢٥	١٣٤
حكاية	١٩٠٥/١١/١	١٣٦
دمعة وابتسامة	١٩٠٥/١١/٤	١٣٧
ملاك السلم	١٩٠٥/١١/٨	١٣٨
بيت السعادة	١٩٠٥/١١/١١	١٣٩

كما كانت جريدة كوكب أمريكا أول جريدة عربية في نيويورك[٢٦] . كذلك كانت جريدة الفيحاء التي أصدرها سليم بالش بمساعدة أبناء عمه سليم ودعبيس وعبد الله بالش الذين أحضروا له الحروف العربية من ألمانيا . وآلة طابعة من ريو دي جانيرو في أوائل تموز سنة ١٨٩٤ . بعد ذلك توالى ظهور الجرائد[٢٧] والمجلات العربية في المهجر الجنوبي فكانت جريدة الرقيب التي أصدرها أسعد خالد ونعوم لبكي عام ١٨٩٦ أول جريدة عربية تصدر في ريو دي جانيرو بالبرازيل . وفي سان باولو أصدر خليل ملوك وشكري خوري مجلة الأصمعي في ٢ نيسان ١٨٩٨ ، وأنشأ الخوري يوحنا سعيد جريدة الصاعقة في ١٨٩٨ . وفي شيلي أصدر الخوري بولس الخوري سنة ١٩١٢ أول جريدة عربية هناك هي جريدة المرشد في سانتياغو . وفي بونس أيرس بالأرجنتين أصدر الخوري يوحنا سعيد مجلة صدى الجنوب عام ١٨٩٩ . وكانت جريدة الارتقاء السوري هي أول جريدة عربية أنشأها فومس دحبر في هافانا عام ١٩١٤ . بعد ذلك توالى ظهور الجرائد والمجلات في أمريكا الشمالية . والوسطى والجنوبية .

أسماء الجرائد والمجلات ودلالاتها[٢٨]:

إن دراسة أسماء الجرائد والمجلات التي اختارها أصحابها تدل دلالة واضحة عما يجيش في عقولهم ، فهي لم تأت اعتباطًا[٢٩] ، وإنما كانت مسميات لمدلولات يريدون بها التعبير عن أشياء يتطلعون إلى تحقيقها أو أشياء يتمنونها ، أو هي عملية تنفيس لواقع مر يعيشونه ، وإن كانت هذه الأسماء مضحكة أو ساخرة ، فهناك مثلاً أسماء تعبر عن معنى سياسي مثل الاستقلال ، الوطن ، النهضة ، الأحرار ، سوريا الجديدة ، لبنان الكبير ، السلام . وهناك أسماء تعبر عن القيم الفاضلة والمثل العليا التي كانت الشعوب العربية تتطلع إليها وتصبو لتحقيقها مثل : العدل ، الصواب ، الإصلاح ، الحقيقة ، الإخلاص ، الإكرام ، السعادة ، الكلمة الحرة . وهناك صحف

حملت الطابع العربي ، مثل شرقي ، وطني ، إسلامي ، الاتحاد العربي ، سوق عكاظ ، يقظة العرب ، الشبيبة المتحدة ، الاتحاد اللبناني ، الشبيبة السورية ، أرزة لبنان ، الشرق ، فتى الشرق ، بريد الشرق . وهناك صحف تسمت بأسماء ثورية تعبيراً عن غضب الشعب العربي ، ومظالم الاستعمار ، والأوضاع السائدة ، والحكومات الظالمة . وكل ما هو غير مقبول أو مرضي عنه ، مثل الصاعقة ، البركان ، الزويعة ، الرعد ، الكاوي . وهناك مجلات تمثل القوة والسلاح ، مثل السيف ، الجهاد ، السهام . وهناك صحف مالت للفكاهة والنقد الساخر ، مثل جراب الكردي ، جراب الحاوي ، الماشطة ، سائق الحمارة ، حمارة بلدنا ، المقرعة ، الكابوس ، الهراوة الصفراء . وهناك صحف أطلق عليها أسماء البلاد أو المواضع ، مثل البرازيل ، الأمازون ، أمريكا ، سان باولو ، الأرجنتين ، الأندلس .

وهناك أسماء صحف ومجلات ذات مدلولات جغرافية ، مثل الشرق ، بشراي ، الشرق والغرب ، الشمس ، العالمين ، الفيحاء . وهناك صحف في أسمائها معان رمزية ، مثل العصبة ، الجاهلية ، المؤدب ، المهجر ، الطبيعة . وهناك صحف أو مجلات تحمل أسماءً مهنية أو حرفية ، مثل الحاوي ، الراوي ، الرائد ، الصياد ، المرشد ، المرسل ، الحارس ، الأستاذ ، الشبيبة العاملة . وهناك أسماء للمجلات النسائية ، مثل المرأة الجديدة ، الفتاة ، فتاة بوسطن .

دور المرأة العربية في حركة نشر الكتب والمجلات والجرائد:

نستطيع أن نقول إن دور المرأة في حركة نشر الكتب العربية في الأمريكتين ، وفي الإطار الزمني الذي حددناه ، كان دوراً محدوداً ، فهي في ذلك كانت تفضل أن تكون الأم والأخت والزوجة[٣٠] التي تلعب دوراً غير مباشر في الحياة الأدبية ، ولم يدخل في ميدان النتاج الأدبي سوى القليل منهن ، نذكر على سبيل المثال سلوى سلامة ، فقد كتبت «أمام الموقد» وهي مجموعة روائع لبعض وقائع الحياة ، نشرتها في سان

باولو دار الطباعة والنشر العربية سنة ١٩٤١ ، ثم «جرة المن» وهي مجموعة مما طاب نشره من منشورات في الدار نفسها سنة ١٩٣٠ ، كذلك «حديقة خطب» وهي مجموعة خطب ألقيت بالبرازيل ونشرتها عام ١٩٤٨ ، ثم «خيوط الحياة» وهو الخطاب الذي ألقته في صالون جرمانيا في حفل جمعية ملجأ اليتيم ، ونشرته في سان باولو . كذلك «في نفسها سيف» وهو الخطاب الذي ألقته في مدرسة الكرمة بسان باولو سنة ١٩١٦ . وهناك أيضًا اسما كوراني حمام التي كتبت «ثمرة الأشجان في فقد الشباب» ونشرته مطبعة الفيحاء سنة ١٩٣٧ . وكذلك نظمت نيفين سابا «الأناشيد الحبرية في الديار الأمريكية» وهو مجموعة قصائد نشرتها مطبعة ملوحي سنة ١٩٤٧ . وأما سلمى صائغ (١٨٨٩ - ١٩٥٣) فكتبت «صور وذكريات»[٣١] ونشرته في سان باولو ، مطبعة دار الطباعة والنشر العربية سنة ١٩٤٦ . كذلك نجد عفيفة كرم (١٨٨٣ - ١٩٢٤) تنشر «ابنة الملك» (د . ت) ، «بديعة وفؤاد» (١٩٠٦) ، «غادة عشميت» (١٩١٤) ، «فاطمة البدوية» (د . ت) ، «كليوبترا» (د . ت) ، «محمد علي باشا» (د . ت) ، وقامت بترجمة «ملكة اليوم» (١٩٠٨) ، «نانسي ستار» (١٩١٤) . ثم هناك ماري إبراهيم نجار التي ترجمت رواية «جزيرة الذهب» (١٩١٣) . في حين قامت روز نحول نعمة بتأليف كتاب «الموسيقى والأغاني السورية والمصرية المسجلة» (بالعربية والإنجليزية) ونشرته عام ١٩٣٦ .

كذلك قامت لبيبة هاشم (١٨٨٠ - ١٩٤٧) بإصدار جريدة الشرق والغرب في سانتياغو . وكذلك نشرت سلوى سلامة في جريدة الكرامة في سان باولو . وأصدرت عفيفة كرم مجلة العالم الجديد في نيويورك (١٩١٠) ثم العالم النسائي الجديد (١٩١٢) ثم المرأة الجديدة (١٩١٢) . . وأصدرت ماري يني عطا الله الأدبية والخطيبة مجلة منيرفا[٣٢] .

المطابع العربية في أمريكا الشمالية

لا شك أن البحث في المطابع العربية بأمريكا الشمالية خلال الفترة الزمنية التي

حددها البحث يتناول أهم الجرائد العربية التي تعد في ذلك الوقت مثلاً طيبًا لحركة نشر الكتب العربية . واتساع توزيعها ، ونقصد هنا «جريدة الهدى» ومطبعتها .

أما الجريدة نفسها فقد أنشأها نعوم مكرزل (١٨٦٧-١٩٣٢)[٣٣] . ومما يدعو للدهشة أن هذا الرجل الذي خدم الصحافة العربية في المهجر - وكانت جريدته من أكثر الجرائد العربية توزيعًا ، ومن أحسنها إخراجاً - لم يكن ذا دراية بالعمل الصحفي قبل أن يقوم بإنشاء هذه الجريدة وفي وطن غريب ، ولكن يبدو أنّ لذكائه وإصراره أثراً في النجاح ، فقد ضربت جريدته الرقم القياسي في التوزيع والشهرة والاستمرار .

تنقل نعوم مكرزل في عدة أعمال قبل إصداره هذه الجريدة ، ولكن ما يهمنا أنه قام بإصدار جريدة غيرها في فيلادلفيا وكان اسمها «العصر» (١٨٩٤) ، كانت تطبع على الجيلاتين ، ومن حيث التاريخ كانت جريدة العصر تعدّ الجريدة الثانية بعد كوكب أمريكا ، ولكنها لم تعمر طويلاً .

وأنشأ نعوم مكرزل بعدها جريدة الهدى في ٢٢ فبراير ١٨٩٨ ، واستمر صدورها حتى ١٨ فبراير ١٩٧١ ، وكانت هذه الجريدة أول جريدة عربية تستعمل طريقة اللينوتيب ، وإلى مكرزل نفسه يرجع الفضل في استعمال الحرف العربي في آلة اللينوتيب هذه .

صدرت الهدى أسبوعيًا في شكل مجلة ذات حجم صغير ، بغلاف ملون ، وظلت تصدر بهذا الشكل مدة عام ، ثم أصدرها في ثماني صفحات على شكل جريدة ، واستمرت هكذا أربع سنوات ، وكان مكرزل يعمل بمفرده في تحريرها وإدارتها .

لعل هذا النجاح المبدئي الذي لاقته الجريدة في فيلادلفيا دفعه بشدة لنقلها إلى نيويورك عام ١٩٠٣ حيث الجالية العربية أكبر ، وحيث احتمال توزيعها أكثر . وقد خطا خطوة أكثر جرأة فأصبحت تصدر في أربع صفحات وبالحجم الكبير ، ثم في ثماني صفحات ، وبدأ العمل يتطلب تعيين عدد أكبر من المساعدين ، فقد كثر

توزيعها عما كانت توزعه في فيلادلفيا[٣٤] .

ومن جهة المطبعة فقد كان من حسن حظها أن يملكها ويديرها مكرزل ، الذي اجتهد في تحسين المطبعة حتى تتحسن الجريدة ، وحتى يقبل جمهور أكبر على الاشتراك فيها ، ولهذا كان همه الوصول بجريدته إلى الكمال الفني والإخراج الصحفي الممتاز عن طريق النهوض بالمطبعة وتطويرها .

في عام ١٩٠٩ ظهرت المنضدة العربية ، فسارع مكرزل لشراء واحدة منها ، وقد ساعد ذلك على صدور الجريدة في ثماني صفحات ، وفي تلك المرحلة بدأ يستخدم الصور في الموضوعات والمقالات ، ولذلك زاد عدد المناضد لتصبح خمساً ، وكانت مطبعة الهدى أول من استعمل نوعًا ممتازاً من المناضد طراز ١٤ . . ونتيجة لاستعمال هذا النوع أمكنه أن يضاعف حجم الجريدة وأن يخرجها بحرف أجمل ، وبنفقة أقل ، فالمناضد أغنته عن كثير من العمال ، الذين اقتضوه دفع رواتب وتأمينات . . كان الاستغناء عن جمع الحروف باليد خطوة بارعة ، مكنته من الصف على ثلاثة أشكال مختلفة على المنضدة الواحدة في وقت واحد .

زادت المطبعة من إمكانيات نجاحها ، فاقتنت الآلة الطابعة الكبرى ، وكان الورق الذي تستخدمه يأتيها على شكل لفات كبيرة ، وبهذه الطريقة أخذت الجريدة تطبع بصفحاتها الثماني وتطويها وتعدها مباشرة من الحروف وليس عن طريق إعداد صفائح[٣٥] ، وكان لاستعمال آلة اللينوتيب عام ١٩١٩ الفضل في سرعة الطبع . وكان مكرزل أول من أدخل الحرف العربي على هذه الآلة .

تطورت المطبعة أكثر واستوردت آلة تقوم بطبع الصور محفورة على قطع من الكرتون ، فتأخذ الصحيفة وتقطع الصور بمنشار كهربائي ، وكانت هذه العملية تتم في مطبعة الهدى بدلاً من تجهيزها في مطابع أمريكية بعيدة كل البعد عن المطابع العربية ، واستطاعت جريدة الهدى بذلك توفير الوقت والجهد والمال .

لقد كان تطوير مطبعة الهدى واستعمالها المناضد الممتازة والمتطورة دافعًا قويًا لبعض المطابع العربية الأخرى كي تقوم في تقليدها .

كان في أمريكا الشمالية مطابع عربية كثيرة أغلبها مطابع الجرائد العربية التي كانت تصدر في ذلك الوقت ، وكانت تقوم أيضًا بطبع المجلات والكتب العربية .

أهم المطابع العربية في المهجر الجنوبي

كانت صحيفة الفيحاء (١٨٩٤) لصاحبها سليم بالش أول من استخدم الحروف العربية ، استوردتها من ألمانيا الغربية ، وكان شكري خوري صاحب جريدة أبو الهول (١٩٠٦) أول من صنع أمهات الأحرف العربية في البرازيل . ويعد متري بركات[٣٦] أول من اشتغل على آلة الصف الليونتيب في البرازيل . وكان هناك مطابع وناشرون كثيرون نذكر منهم : الأندلس الجديدة ، دار الطباعة العربية ، المطبع التجاري ، مطبعة الأتلانتك ، مطبعة الأيام ، مطبعة البريد ، المطبعة التجارية ، المطبعة التجارية السورية ، مطبعة الجالية ، مطبعة الجديد ، مطبعة الزهراوي ، مطبعة السلام ، المطبعة السورية ، المطبعة السورية الأمريكية ، مطبعة الشرق ، مطبعة الصواب ، المطبعة العربية ، مطبعة الفنون ، المطبعة الفنية ، مطبعة الكرمة ، المطبعة اللبنانية ، مطبعة المناظر ، مطبعة المهاجر ، مطبعة النسر ، مطبعة الوطن ، مطبعة جريدة أبو الهول ، مطبعة جريدة الأنباء ، مطبعة جريدة الإنسانية ، مطبعة جريدة البرازيل ، مطبعة جريدة الحرية ، مطبعة جريدة الدليل ، مطبعة جريدة الرائد ، مطبعة جريدة السمير ، مطبعة جريدة الشمس ، مطبعة جريدة العروس ، مطبعة القلم الحديدي ، مطبعة سوريا ، مطبعة لبنان ، مطبعة لسان العدل الدولية ، دار نشر جراب الكردي ، مطبعة سامي ، مطبعة صفدي ، مطبعة طوبيا التجارية ، مطبعة مجلة الإصلاح ، مطبعة مجلة الكرمة ، مطبعة مجلة المناهل ، مطبعة مرآة الغرب ، مطبعة مسامرات المهاجر ، مطبعة ملوحي ، مطبعة نشابي[٣٧] .

أما الناشرون فنذكر منهم جامعة برنستون ومطبعتها ، ويرجع الفضل في ذلك إلى السوري المهاجر فيليب حتي (١٨٨٦ - ١٩٧٨) أول رائد عمل على نشر الدراسات العربية والإسلامية في الولايات المتحدة[٣٨] .

الرابطة القلمية

الحديث عن تاريخ الطباعة العربية يتطلب الكتابة عن «الرابطة القلمية» ، ومثيلتها «العصبة الأندلسية» ، وذلك لما نشره أعضاء هاتين الهيئتين من كتب أدبية في المهجرين الشمالي والجنوبي . . لقد تنبه بعض الأدباء العرب في المهجر الشمالي بقيمة ما أصدروه ، تمثل ذلك في ظهور حركة أدبية رفيعة يغلب عليها النزعة الرومانتيكية والبعد عن الكلاسيكيات ، والالتزام بالقافية التي كانت الطابع العام للشعر في الوطن العربي ، اجتمع هؤلاء الأدباء وقرروا تأسيس ما عرف باسم «الرابطة القلمية» وأعلنوا عنها في نيويورك سنة ١٩٢٠ . ويعود الفضل في تأسيسها إلى جبران خليل جبران ، ومن أهم أعضائها ميخائيل نعيمه (١٨٨٩ - ١٩٨٨) ، عبدالمسيح حداد (١٨٩٠ - ١٩٦٣) ، إيليا أبو ماضي (١٨٨٩ - ١٩٥٧) ، ندرة حداد (١٨٨٧ - ١٩٥٠) ، وليام كاتسفليس (١٨٧٩ - ١٩٥١) ، رشيد أيوب (١٨٨١ - ١٩٤١)[٣٩] .

كان أهم صفات هذه الرابطة أنها أثرت في الشعر العربي الحديث بما كان أعضاؤها يقدمونه من تجديد في الشكل والمضمون[٤٠] . . ساعد على ذلك جو الحرية والديمقراطية التي كانوا يتمتعون بمناخهما في أمريكا .

وضع جبران شعار الرابطة ، وهو دائرة فيها كتاب مفتوح ، وعلى صفحتيه خطت عبارة «لله كنوز تحت العرش مفاتيحها ألسنة الشعراء» ، وفوق الكتاب صورة الشمس وقد ملأت أشعتها نصف الدائرة ، وأسفل الكتاب سراج شطره الأيمن محبرة فيها قلم ، وتحت الدائرة اسم الرابطة القلمية .

أصدرت الرابطة أول كتاب لها بعنوان «مجموعة الرابطة القلمية» سنة ١٩٢١ ضم مجموعة من آثار أعضائها(٤١) .

لقد أصدر أعضاء الرابطة القلمية أعمالاً خالدة ، وخاصة ما كتبه جبران ، من هذه الأعمال التي تدور في النطاق الزمني الذي حدده البحث نجد رواية «الأجنحة المتكسرة» الذي نشرته مطبعة مرآة الغرب سنة ١٩١١ ، يحكي فيها قصة تجربته الشخصية في حب سلمى كرامة التي لم يستطع أن يتزوجها بسبب الأوضاع الإقطاعية والدينية التي كانت تمنح لرجال الدين والتي تمكنهم من فرض إرادتهم على الرعية التي يسوسونها ، وفي هذا الوقت تمكن المطران من أن يزوج سلمى لابن أخيه ، مما دفع جبران إلى السخط والسخرية ، والثورة على رجال الدين . ومن أعمال جبران قصيدة المواكب في ٢٠٣ أبيات يبدؤها جبران بقوله :

الخير في الناس مصنوع إذا جبروا

والشر في الناس لا يفنى وإن قبروا

ففي هذا المطلع لخص حقيقة الإنسان ، ووصف الخير والشر كما يتعامل بهما الإنسان ، ويصور مواكب نفوسهم التي تنزع إلى هدفها البعيد وراء الحياة ، وهو الكمال الإنساني»(٤٢) .

وفيها يقول :

هل تخذت الغاب مثلي منزلاً دون القصور

فتتبعت السواقي وتسلقت الصخور

هل تحممت بعطر وتنشفت بنور

وشربت الفجر خمراً في كؤوس من أثير

هل جلست العصر مثلي بين جفنات العنب

والعناقيد تدلـــــــت كثريـــات الذهـــــب
هـل فـرشـت الـعـشـب لـيـــلاً وتلحفـــت الفضـــا
زاهـــداً فيمـــا سيأتـــي ناسيـــاً ما قـــد مضـــى

على أن كتاب النبي هو أعظم ما كتب جبران ، ونشره سنة ١٩٢٣ في نيويورك ، وهو أوسع كتبه انتشاراً ، وفيه تتضح نظرته واهتمامه بمشكلات المجتمع البشري ، وجرائم المجتمع ، وراح فيه يعالج معالجة المفكر العالم كيف يستطيع أن يمنح السعادة للمجتمع الإنساني . وفي الكتاب وصايا للحب والزواج والأولاد والعطاء والعمل والجريمة والعقاب والحرمان .

وفي كتابه الأرواح المتمردة نجد «صراخ القبور» وهو قصة ثلاثة أشخاص أحدهم فتى دافع بحياته عن شرف فتاة عذراء ضعيفة اغتصبها أحد رجال الأمير ، فأنقذها منهم . والثاني صبية عذراء ليس لها ذنب سوى أنها أحبت . والثالث فقير بائس عاش طول عمره يخدم أحد الأديرة بإخلاص وتفان ، ولكنه عندما كبرت سنه وضعفت قدرته طرده الرهبان . نشر هذا الكتاب في مطبعة المهاجر سنة ١٩٠٨ .

ولقد ظهرت في «الفنون» كتابات بتوقيع صاحبها على أنه «عضو في الرابطة القلمية» مثل . . .

العصبة الأندلسية

راودت الأدباء فكرة تأسيس رابطة لأدباء المهجر الجنوبي على غرار ما قام به أعضاء الرابطة القلمية في المهجر الشمالي ، فاجتمع في عام ١٩٣٣ شكر الله الجر (١٨٩٨ - ١٩٧٥) بالشاعر ميشال المعلوف بمنزل هذا الأخير في سان باولو ومعهما نظير زيتون (١٩٠١ - ١٩٦٧) وحبيب مسعود (١٨٩٩ - ؟) ونصر سمعان (١٩٠٥ - ١٩٦٧) ويوسف البعيني (١٩٠٨ - ١٩٤٩) وحسني غراب (١٨٩٩ - ١٩٥٨) .وقبلوا عضوية رشيد سليم الخوري الشاعر القروي (١٨٨٧ - ؟) وعقل

الجر (١٨٨٦ - ١٩٤٦) وشفيق المعلوف (١٩٠٦ - ١٩٧٦) وجورج حسون المعلوف (١٨٩٣ - ١٩٦٥) وذلك لتغيبهم. وتقرر بهذا الاجتماع تأسيس «العصبة الأندلسية».

وكما أصدرت الرابطة القلمية مجلتها كذلك أصدرت العصبة الأندلسية مجلة «العصبة الأندلسية» سنة ١٩٣٥[٤٣]. عهد إلى حبيب مسعود رئاسة تحريرها، وأخذت تشجع الأدباء على نشر آثارهم وأعمالهم فكان مما نشرته «أحلام الراعي» لالياس فرحات.. كما نشرت ديوانه في ثلاثة أجزاء سنة ١٩٣٢.. والعواطف المجسمة نظماً ونثراً سنة ١٩٣٢، كذلك نشرت «سيرة حياتي» لتوفيق صغون سنة ١٩٣٢.. وهي تحكي ما جرى له في سوريا ولبنان قبل هجرته.. كما نشرت «عبقر» وهي ملحمة شعرية كتبها شفيق المعلوف، واحتفلت بظهورها العصبة الأندلسية سنة ١٩٣٦، وأعيد طبعها أربع مرات، كان آخرها سنة ١٩٤٩.

ضمت عبقر عبارات الجاهليين والأساطير العربية وما فيها من خرافات ومعتقدات، وقارن بينها وبين مثيلاتها عند سائر الشعوب القديمة كالمصريين والفرس والفينيقيين والهنود. وهذه الملحمة رحلة خيالية في واد مجهول هو عبقر الذي يعيش فيه الجن والغيلان والعرافون والأقزام وغيرهم من عجائب المخلوقات، قام الشاعر برحلته بعد أن أخذه معه شيطان شعره الذي يقف خلال الرحلة أمام عرافة عبقر ومعه الشاعر الذي ارتعد من منظرها، مما جعلها تثور عليه وتقذفه بقارص الكلام.

وددت يا غادر لو أنني
أطلقت ثعباني لا ينثني
عنك فيرديك ... ولكنني
أخشى على الثعبان من غدرك

في نابه السم كان . . . وصار في صدرك

فليس هذا الصل بالأفعوان . . بل أنت يا إنسان[٤٤] .

كانت مجلة العصبة تخرج في مائة وعشرين صفحة من الحجم المتوسط يزين غلافها الخارجي صورة لأثر مهم أو شخصية خالدة أو نحو ذلك . ثم اسم العصبة وتحته عنوان فرعي «مجلة أدب وفن» ثم محتويات العدد وهي عادة مقالات أدبية علمية وترجمات لشخصيات معروفة ، وبها «باب الأدب العربي» وباب «من الأدب البرازيلي» وباب «نوادر» أو طرائف علمية وكانت تهتم بالأمور السياسية والاجتماعية وخاصة تلك التي تدور حول الوطن العربي .

استمرت مجلة العصبة في الصدور حتى عام ١٩٤١م ، حين توقفت بقرار جمهوري قضى بتعطيل جميع المجلات أو الجرائد التي تصدر بغير لغة البلاد ، ولما خفت الأمور عادت للظهور مرة أخرى سنة ١٩٤٧م إلى أن توقفت نهائيا عام ١٩٦٠[٤٥] .

هناك ملاحظة جديرة بالذكر وهي أن شعراء العصبة الأندلسية كانوا يتميزون باتجاههم القومي والاجتماعي[٤٦] . وقد نظموا في ذلك قصائد كثيرة ، نذكر منها على سبيل المثال ما قالوه في المناسبات الدينية كالمولد النبوي الشريف ، أو في ذكرى الهجرة ، يقول نصر سمعان في مدح النبي محمد صلى الله عليه وسلم :

شعلة الحق لم تزل يا محمد	منذ أضرمت نارها تتوقد
غمر الأرض نورها فإذا رمت دليلاً	فعد إلى الأرض واشهد
جئت والناس في ضلال وغي	ومن الهَدْي في يديك مهند
ودوت صيحة فسُلَّ فخروا	خشية الحق راكعين وسجّد[٤٧]

وفي قصيدة بعنوان «محمد» ألقاها في ذكرى عيد المولد النبوي الشريف سنة ١٩٣٦ يقول :

كوكب رحّب الوجود به يـوم تجلى على الوجود شعاعه
كلمات مرت العصور وغـارت في مهاوي الزمان زاد ارتفاعه
لا تسل عن محمد واغبط الدنيا فأغلى كنوزها أوضاعه
شهد الله أننا في سبيل الحق والمجد كلنا اتباعه .[٤٨]

وأهم منشورات العصبة : «نداء المجاديف» (د . ت) . «الكل زهرة عبير» (د . ت) . «عيناك مهرجان» (د .ت) . «سنابل راعوث» (د . ت) . « ديوان القروي» (د . ت) . وقد اشتمل على دواوينه السابقة وهي «الرشيديات» ، «القرويات» ، «الأعاصير» (١٩٣٣) «اللاميات الثلاث» (١٩٤٧) . ثم نجد «معلقة الأرز» (١٩٣٨) لنعمة قازان ، و«خيالات» (١٩٤٥) و«زورق الغياب» (د . ت) لرياض المعلوف ، و«جبران حيًا وميتًا» (١٩٣٢) و«ما أجملك لبنان» (١٩٥٠) لحبيب مسعود ، و«ذكرى الهجرة» ، و«روسية في موكب التاريخ» (١٩٤٥) لنظير زيتون ، و«صور وذكريات» (١٩٤٦) لسلمى صايغ ، و«أقاصيص» لجورج حسون معلوف . . و«بني أورفليس» (١٩٣٨) و«المنقار الأحمر» (١٩٣٩) ، و«الوشاح الأبيض» لشكر الله الجر ، و«ديوان عقل الجر» . . وغيرها من انتاج أعضاء العصبة أو غيرهم .

وهناك ديوان إلياس طعمة الذي أعلن إسلامه عام ١٩١٦ وعرف بأبي الفضل الوليد وفيه يقول :

إني انتظرت القمـر أشكو له أمـري
فازددت لما ظهـر جمرًا على جمـر
هذا خيال الوطـن في وجنة البـدر

هــذي سـفـوح الـتــــلال هــذي أعــالــيـهـــــا
هـذي عيـون الجـــبـال تــجــري مــآقــيــهـــا
هـذي مـراعــي الـظــبــا هـــذي مــآويــهـــــا
هـذي ديـار الـصـبـــايـا يـا لـيــتـنـي فيـهـــــا

وفي ديوانه الصيف يقول :

دار العروبة دار الحب والغــزل هاجرت منك وقلبي فيك لم يزل

ثم رياض معلوف واشتهرت قصيدته «هل يا ترى نعود» التي يقول فيها :

كـم هـــمـــت في الـمـعـمـور مــا غـــرنـي مــنـظــــر
بـــلـــدي الــمــهــجــــور وكـــوفــي الأخــضـــر
أحـــلـــى مـــن الـــقـــصـــور والـــذهـــب الأصـــفـــر
هل يـا تــرى نعـــود

وخير ما أختم به مقالي هو الإشارة إلى ديوان «همس الشاعر» للشاعر جورج صيدح (١٨٩٣ - ١٩٦٨) طبعه في نيويورك عام ١٩٢٩ . . وله ديوان «النوافل» طبعته المطبعة السورية في بونس آيرس عام ١٩٤٧ . . وله «حكاية مغترب» نشرته أيضًا المطبعة السورية . وما أرق جورج صيدح عندما يخاطب مصر . . وأنا أحد المهاجرين . . عندما يقول :

لــك قــربــت مــهـجـتـــي . . وشـبـــابـــي الــذي انـصـــرم
أنــا مــيـــت . . فــإن أعـــد فــرمــيــم مــن الــرمـــم
إنــمــا الـعـيــش نــائـيـــًا عـنـك يـا مـصـر كـالـعـــدم

الحواشي

(١) فرسوني، فؤاد: «حول الضبط الببليوجرافي لأدب المهجر ومصادره»، عالم الكتب، المجلد ٤، العدد ٤، يناير ١٩٨٤. ص: ٥٢٩ - ٥٣٥.

(٢) عبدالرزاق، فوزي: «باقات من المطبوعات العربية الصادرة في الأمريكتين». المرجع السابق، ص: ٦٠٣ - ٦٤٦.

(3) Khalaf, Samir. "The Background and Causes of Lebanese/ Syrians immigration to the United States Before Warld War 1". IN Crossing the Waters, ed. Eric J. Hooglund. Washington, D.C.". Smithsonian Institution Press, 1987. PP. 27.

(٤) عودات، يعقوب: الناطقون بالضاد في أمريكا الجنوبية، بيروت: دار ريحاني للطباعة والنشر، ١٩٥٦، ج ١، ص: ٢٥٩.

(٥) محمد، نعيمة مراد، العقلية الأندلسية، هجرة الأدب العربي إلى أمريكا اللاتينية، الاسكندرية: منشأة المعارف، ١٩٧٧، ص: ٥١.

(٦) مسعود، حبيب، «في الأدب المهجري» الأبحاث، بيروت، الجامعة الأمريكية، السنة ٢، العدد ٢، حزيران ١٩٤٩، ص: ١٨٢.

(٧) طعمة، جورج، المغتربون العرب في أمريكا الشمالية. دمشق: وزارة الثقافة، ١٩٦٦، ص: ٧.

(٥) محمد، نعيمة مراد، العقلية الأندلسية، هجرة الأدب العربي إلى أمريكا اللاتينية، الاسكندرية: منشأة المعارف، ١٩٧٧، ص: ٥١.

(٦) مسعود، حبيب، "في الأدب المهجري" الأبحاث، بيروت، الجامعة الأمريكية، السنة ٢، العدد ٢، حزيران ١٩٤٩، ص: ١٨٢.

(٧) طعمة، جورج، المغتربون العرب في أمريكا الشمالية. دمشق: وزارة الثقافة، ١٩٦٦، ص: ٧.

(٨) سراج، نادره جميل. شعراء الرابطة القلمية: دراسات في شعر المهجر. القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٤. ص: ٢٧ - ٢٩.

(٩) حسن، حسن جاد. الأدب العربي في المهجر. ط١، القاهرة: دار الطباعة المحمدية، ١٩٦٢، ص: ٢٢.

(10) Melki, Henry. Arab American Journalism and its Relation to Arab American literature Ph.d. dissertation. Georgetown University, 1972. P. 2 -6,

(١١) محمد، نعيمة مراد. المرجع نفسه، ص: ٢٠.

(١٢) حتي، فيليب. «حركة المهاجرة السورية الحديثة» في تاريخ التجارة السورية في المهاجر الأمريكية. نيويورك: المطبعة السورية الأمريكية، ١٩٢٠ - ١٩٢١. ج ١، ص: ٨ - ١٢.

(١٣) صيدح، جورج. أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الأمريكية. بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦٤. ص: ٣٨.

(١٤) محمد، نعيمه مراد. المرجع نفسه. ص: ٢١.

(15) Ansara, James. The Immigration and Settlement of the Syrians. Boston: Harvard College, 1931. pp. 47-50.

(١٦) قاسم، جمال زكريا. العرب في أمريكا: دراسة لتاريخ الهجرة العربية إلى الولايات المتحدة. القاهرة: معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٨٨. ص: ١٧٠.

(١٧) يوسف، كامل. الشعر العربي في أمريكا"، الرسالة، ٣٠ أغسطس ١٩٤٣، ص: ٦٩٨ - ٦٩٩.

(١٨) مسعود، حبيب. المرجع نفسه. ص: ١٨٣.

(١٩) عودات، يعقوب. المرجع نفسه. ص: ٨٣

(20) Naff, Alixa. "The Early Arab Immigrant Experience" IN The Development of Arab-American Identity, ed. Ernest McCarus. Ann Arbor: University of Michigan Press, 1994. P. 23-35.

(٢١) سراج، نادره جميل. المرجع نفسه. ص: ٤٧.

(22) Bernard, William. The Immigrant Press and its control. New Jersy : Patterson Smith, 1971. P. 56-70.

(٢٣) كوكب أمريكا. ١٥ نيسان ١٨٩٢. ص: ٢.

(٢٤) داغر، يوسف أسعد. قاموس الصحافة اللبنانية، ١٨٥٨ - ١٩٧٤. بيروت: الجامعة اللبنانية، قسم الدراسات الأدبية، ١٩٧٨. ص: ٢٧٧.

(25) Melki, Henry. Ibd. pp 212-214

(26) Naff, Alixa. Becoming American : The Early Arab Immigrant Experience. Carbondale: Southern Illinois University Press, 1985. P. 320 -323.

(٢٧) سعادة ، جورج عارج. النهضة الصحفية في لبنان. بيروت، دار وكالة النشر العربية، ١٩٦٠. ص ١٥٢ - ١٥٧.

(٢٨) داغر، يوسف أسعد. المرجع نفسه. ص: ٤٥٩ - ٤٨٥.

(٢٩) محمد، نعيمه مراد. المرجع نفسه. ص: ٣١.

(30) Naff, Alixa. Becoming American. P. 227,

(٣١) حسن جاد. المرجع نفسه. ص: ٣٧.

(٣٢) الناعوري، عيسى. أدب المهجر، ط ٢، القاهرة، دار المعارف ١٩٦٧. ص ص: ٣٥ - ٤٠.

(٣٣) الموسوعة العربية الميسرة. القاهرة: دار القلم ومؤسسة فرانكلين، ١٩٦٥. ص: ١٧٣٥.

(٣٤) طرازي، فيليب. تاريخ الصحافة العربية. بيروت: المطبعة الأدبية، ١٩١٤. المجلد ٤، القسم الرابع، ص: ٤٠٨.

(٣٥) مكرزل، سلوم. المرجع نفسه. ص ص: ١٣٥ - ١٤٣.

(٣٦) عودات، يعقوب. المرجع نفسه. ج٢، ص: ٥٨٦.

(٣٧) عبدالرزاق، فوزي. المرجع نفسه. ص: ٦٤١ - ٦٤٣.

(38) Kritzeck, James and Bayly Winder. The World of Islam: Studies in Honour of Philip Hitti. London: Macmillan, 1959. PP. 1-9,

(٣٩) السيد، محمد شفيع الدين. الرابطة القلمية ودورها في النقد العربي الحديث. القاهرة: المجلس الأعلى لرعاية الفنون، ١٩٧٢. ص: ١٢ - ١٥.

(٤٠) الخوري، وديع رشيد. ظهور وتطور الأدب العربي في المهجر الأمريكي. ط ٢. بيروت: دار الريحاني للطباعة والنشر، ١٩٦٩. ص: ٢٨.

(41) Jayyusi, Salma Khadra, Trends and Movements in Modern Arabic Poetry. Leiden : E. J. Brill, 1977. V.1, PP. 67-138.

(٤٢) الناعوري، عيسى، المرجع نفسه ٣٥ -٤٠.

(٤٣) الدقاق، عمر. شعراء العصبة الأندلسية في المهجر، بيروت : مكتبة دار الشرق ١٩٧٣. ص ١٠٤ - ١٣٤.

(٤٤) الناعوري، عيسى. المرجع نفسه، ص ٣٠٢.

(٤٥) محمد، نعيمة مراد. المرجع نفسه، ص ٤٣.

(٤٦) الدقاق، عمر. المرجع نفسه، ص ١٥١.

(٤٧) سمعان، نصر. المرجع نفسه، ص ٨١.

(٤٨) سمعان، نصر. المرجع نفسه، ص ٨٤.

المراجع العربية

(١) بوكر ، عبد اللطيف خليفة. المغتربون العرب في البرازيل . طرابلس : المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان ، ١٩٨٢ .

(٢) حتي ، فيليب. «حركة المهاجرة السورية» في تاريخ التجارة السورية في المهاجر الأمريكية. نيويورك : المطبعة السورية الأمريكية ، ١٩٢٠. جـ١ .

(٣) حسن ، حسن جاد . الأدب العربي في المهجر ط ١ . القاهرة : دار الطباعة المحمدية ، ١٩٦٢ .

(٤) داغر ، يوسف أسعد . قاموس الصحافة اللبنانية ، ١٨٥٨ – ١٩٧٤ . بيروت : قسم الدراسات الأدبية – الجامعة اللبنانية ، ١٩٧٨ .

(٥) الدقاق ، عمر . شعراء العصبة الأندلسية في المهجر . بيروت : دار الشرق ، ١٩٧٣ .

(٦) سراج ، نادرة جميل . شعراء الرابطة القلمية : دراسات في شعر المهجر . القاهرة : دار المعارف ، ١٩٦٤ .

(٧) سركيس ، يوسف اليان . معجم المطبوعات العربية والمعربة . القاهرة : مطبعة سركيس ، ١٩٢٨ .

(٨) سعادة ، جورج عارج : النهضة الصحفية في لبنان . بيروت : دار وكالة النشر العربية ، ١٩٦٠ .

(٩) سمعان ، نصر . ديوان نصر سمعان شاعر العروبة ، نسقه وأشرف على طبعه وقدم له رشيد شكور . سان باولو ، البرازيل : دار المراحل للطباعة والنشر ، ١٩٧٢

(١٠) صيدح ، جورج . أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الأمريكية . بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٦٤ .

(١١) طرازي ، فيليب . تاريخ الصحافة العربية . بيروت : المطبعة الأدبية ، ١٩١٤ .

(١٢) طعمه ، جورج . المغتربون العرب في أمريكا الشمالية . دمشق : وزارة الثقافة والإرشاد ، ١٩٦٦ .

(١٣) عبد الرزاق ، فوزي . «باقات من المطبوعات العربية في الأمريكتين» عالم الكتب ، المجلد ٤ ، العدد ٤ ، يناير ١٩٨٤ . ص ص ٦٠٣–٦٤٦ .

(١٤) عودات ، يعقوب . الناطقون بالضاد في أمريكا الجنوبية . بيروت : دار ريحاني للطباعة والنشر ، ١٩٥٦ .

(١٥) فرسوني ، فؤاد . «حول الضبط الببليوغرافي لأدب المهجر» عالم الكتب، المجلد ٤ ، العدد ٤ ، يناير ١٩٨٤ . ص ص ٥١٤–٥٢٥ .

(١٦) قاسم ، جمال زكريا . العرب في أمريكا : دراسة لتاريخ الهجرة العربية إلى الولايات المتحدة الأمريكية . القاهرة : معهد البحوث والدراسات العربية ، ١٩٨٨ .

(١٧) قنديلجي ، عامر إبراهيم . العرب في المهجر الأمريكي : جهودهم ، صحافتهم ، جمعياتهم . بغداد : وزارة الإعلام ، ١٩٧٧ .

(١٨) مائة عام على ميلاد جبران خليل خبران : محاضرات ألقيت في النادي الثقافي العربي . بيروت : النادي الثقافي العربي ، ١٩٨٤ .

(١٩) مجموعة الرابطة القلمية : مختارات آثار أدبية لأعمال الرابطة القلمية في نيو يورك . نيو يورك : المطبعة التجارية السورية الأمريكية ، ١٩٢١.

(٢٠) محمد ، نعيمة مراد . العصبة الأندلسية : هجرة الأدب العربي إلى أمريكا اللاتينية . الإسكندرية : منشأة المعارف ، ١٩٧٧ .

(٢١) مسعود ، حبيب . «في الأدب المهجري» الأبحاث . بيروت : الجامعة الأمريكية ، المجلد ٢ ، العدد ٢ ، حزيران ١٩٤٩ .

(٢٢) مكرزل ، سلوم . تاريخ التجارة السورية في المهاجر الأمريكية . نيويورك : المطبعة السورية الأمريكية ، ١٩٢٠ . جـ١ .
(٢٣) الموسوعة العربية الميسرة . القاهرة : دار القلم ومؤسسة فرانكلين ، ١٩٦٥ .
(٢٤) الناعوري ، عيسى . أدب المهجر ، ط٢ . القاهرة : دار المعارف ، ١٩٦٧ .
(٢٥) يوسف ، كامل . «الشعر العربي في أمريكا» الرسالة ، ٣٠ أغسطس ١٩٤٣ ص ص ٦٩٨-٦٩٩ .

المراجع الأفرنجية

(1) Ansara, James. The Immigration and Settlement of the Syrians. Boston : Harvard College, 1931.

(2) Bernard, William. The Immigrant Press and its Control. New Jersy : Patterson Smith, 1971.

(3) Hooglund, Eric, ed. Crossing the Water. Washington, DC.: Smithsonian Institution Press, 1987.

(4) Jayyusi, Salma Khadra. Trends and Movements in Modern Arabic Poetry. Leiden : E. J. Brill, 1977.

(5) Kritzeck, James & Bayly Winder. The World of Islam : Studies in Honour of Philip Hitti. London : Macmillan, 1959.

(6) Melki, Henry. Arab American Journalism and its Relation to Arab American Literature. Ph.D. Dissertation. Georgetown University, 1972.

(7) Naff, Alixa. Becoming American : the Early Arab Immigrant Experience. Carbondale : Southern Illinois University Press, 1985.

(8) --------------. "The Early Arab Immigrant Experience" In The Development of Arab-American Identity. ed. Ernest McCarus. Ann Arbor : University of Michigan Press, 1994.

حول تاريخ الطباعة العربية في المغرب العربي خلال القرن التاسع عشر

الأستاذ الدكتور محمد بن شريفة

محمد بن شريفة

محافظ الخزانة العامة بالرباط

- من مواليد المغرب، ١٩٣٠م.
- دكتوراه في الآداب من جامعة القاهرة.

الوظائف

- أستاذ بكلية الآداب في الرباط.
- عميد كلية الآداب في وجدة.
- عضو أكاديمية المملكة المغربية منذ تأسيسها.
- عضو الأكاديمية الملكية للتاريخ في مدريد باسبانيا.
- عضو في مجامع اللغة العربية(دمشق - القاهرة - عمان).

من نتاجه

- ملعبة الكفيف الزرهوني (تحقيق).
- الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة لابن عبد الملك (تحقيق).
- ديوان ابن فركون (تحقيق).
- ابن عبد ربه الحفيد (تأليف).
- أمثال العوام في الأندلس لأبي يحيى الزجالي (تحقيق وشرح).

الطباعة في المغرب الأقصى

من الأقوال المأثورة «المعاصرة حجاب» ، ويمكن أن ننسج على منوال هذا القول فنقول : «المجاورة حجاب» ، ولعلّ هذا القول يصدق - أكثر ما يصدق - على المغرب الأقصى عندما نتحدث عن الطباعة أو غيرها من المحدثات التي ظهرت في أوربا ثم انتقلت إلى البلدان العربية والإسلامية ، فالمغرب المجاور لأوربا والواقع على مرمى البصر من إسبانيا ، كان من أواخر البلدان العربية اتصالاً بالطباعة واستعمالاً لها ، على حين كانت بلاد الشام ومصر - وهي ليست قريبة قرب المغرب من أوربا - أسبق منه بزمن كثير إلى استجلاب المطبعة واستخدامها .

وقد كانت سياسة العزلة التي لجأ إليها المغرب وأسلوب إغلاق الأبواب على نفسه - طمعًا في حماية أرضه وأملاً في صيانة استقلاله - من أسباب جهل ما يجري في أوربا من أحداث أو تجاهلها ، وما يظهر فيها من بدع ومحدثات . ثم إن العلاقة بين المغرب وجيرانه الأوربيين ظلت متأثرة بميراث المواجهات التاريخية المعروفة التي كان من آثارها - بعد ضياع الأندلس - استيلاء الأسبانيين والبرتغاليين على مواقع في السواحل المغربية ، وكان لما قام به المغاربة من جهاد ونشاط في البحر أثره في طبيعة العلاقة بين المغرب وأوربا ، وقوي الحذر من دول أوربا ولا سيما تلك التي كان لها أطماع في المغرب ، وقد اشتدت الكراهية للأوربيين بعد احتلال فرنسا للجزائر وتونس وعم الاستعمار معظم العالم الإسلامي ، ولهذا ظلت العلاقة بين المغرب وأوربا علاقة بين دار إسلام ودار حرب ، وقد كان السفراء المغاربة - منذ القرن السابع عشر - يوجهون إلى مختلف العواصم لأغراض تتصل وتتسم بهذه العلاقة ، فهي إما من أجل تحرير أسرى أو تجديد هدنة أو ما أشبه ذلك .

أما معرفة أحوال القوم والاطلاع على ما ظهر عندهم من علوم وصنائع من أجل نقلها والاستفادة منها فلم يكن يومئذ أمرًا واردًا ولا شيئًا مرغوبًا فيه ، وآية ذلك أن

المؤرخ الناصري السلاوي - الذي توفي في نهاية القرن التاسع عشر ، وألّف أول تاريخ عام للمغرب وصل فيه إلى عام ١٨٩٥ - قد ختم تاريخه بالشكوى من تغير أحوال المسلمين في آخر حياته ، وعلل ذلك بملابسة الفرنج لهم ومخالطتهم إياهم ، وقرر أن الضرر يكثر بكثرة الاختلاط مع الأوربيين ، ويقل بقلتها ثم قال : «والدليل على ذلك أن أهل المغرب أقل الأمم اختلاطًا بهم ، فهم أرخص الناس أسعاراً وأرفقهم معاشًا وأبعدهم زيًا وعادة من هؤلاء الفرنج ، وفي ذلك من سلامة دينهم ما لا يخفى ، بخلاف أهل مصر والشام وغيرهما من الأمصار . فإنه يبلغنا عنهم ما تصم عنه الآذان» .

نعم . إن بعض السفراء المشار إليهم ممن دوّنت سفاراتهم في رحلات كانوا يشاهدون عجائب الصناعات وبدائع الاختراعات ويصفونها في رحلاتهم السفارية المدونة وتقاريرهم الرسمية . وأشير هنا على سبيل المثال إلى الوصف الدقيق للمطبعة الملكية بباريس الذي ورد في رحلة الصفّار إلى فرنسا سنة ١٨٤٥ ، فقد وصف كاتب الرحلة المطبعة المذكورة ، ونعت آلات الطباعة ، ومراحل الطبع ، وقال عن المطبعة إجمالاً : إنها من أعاجيب الصنائع ، وقد وقف وقفة خاصة أمام عمل المصففين ووصف طريقتهم في تصفيف الحروف ، وذكر أن الواحد منهم يصفف الحروف على اللوحة مثلما هي في الورقة ، وأنه يمكن أن يصنع ذلك حتى لو لم يكن يعرف الكتابة والقراءة إذ «يكفيه أن يعرف مقابلة الحروف بمثلها» . ثم يقول : «اختبرنا واحداً منهم ، وكتبنا له بيدنا سطراً ، فأنزله كما هو بحروفه وترتيبها . ثم قلنا له : افسخه ! ففسخه . وكانت الحروف أربعة وثلاثين حرفًا فردّ كل حرف في بيته الذي ينزل فيه بسرعة : أخذها بيده جملة ، ثم جعل يفرقها في بيوتها . فلم يخطئ في حرف واحد منها بإنزاله في غير محله ، مع غاية السرعة . فتعجبنا منه غاية العجب» .

ويخيل إليّ أن وصف الصفار الطويل الدقيق وتعجبه يتجاوز حد الفضول ، وأرى أنه

يحمل معنى التحبيذ والتحسين ، ويهدف إلى الإيحاء بفكرة المطبعة إلى السلطان الذي رفعت إليه هذه الرحلة .

وإذا كان هذا السفير لم يستطع أن يجاوز الإعجاب إلى الاقتراح فإن السفير الحاج إدريس العمراوي الذي كانت سفارته إلى باريس سنة ١٨٦٠ أي بعد سفارة الصفار بخمس عشرة سنة وصف أيضًا دار الطباعة الملكية وما أدخل عليها من تحسينات ، وكانت له الشجاعة أن يتقدم بتزويد المغرب بهذه الآلة ، ومما جاء في وصفه قوله : «وهذه الآلة التي اتخذوها للطبع ، هي في كل الأمور عامة النفع ، معينة على تكثير الكتب والعلوم ، وأثرها في ذلك ظاهر معلوم ، وقد اتخذوها في جميع بلاد الإسلام ، واغتبط بها مشاهير العلماء الأعلام ، ويكفيك من شرفها وحسن موقعها رخص الكتب التي تطبع بها ، وقد اعتنوا بتصحيحها وبالغوا في تهذيبها وتنقيحها ، مع جودة الخط وإيضاح الضبط ، وهذه نسخة القاموس المطبوعة عام اثنين وسبعين بمصر يباهي بوجودها هذا العصر ، لا تجد في النسخ القديمة مثلها ولا ما يقرب منها ، فقد كانت عدت عليها أيدي الناسخين ، حتى عجزت عن تداركها عقول الراسخين ، وكادت تنبذ لكثرة التحريف ، وتطرح لأجل التصحيف مع شرف موقعه من الدين ، واعتناء المتأخرين به والمتقدمين ، حتى قيض الله له بعض علماء مصر ، فصرفوا إليه وجه اعتنائهم بهمة دولتهم ورؤسائهم ، فجاءت هذه النسخة في غاية الإتقان ، وبرزت في ميدان الجودة والإحسان ، واتسمت لحسنها في غرة الدهر ، وفاز الساعون فيها بعظيم الأجر ، وجميل الذكر ، ومن عجيب سعدها أنها تباع بنصف ثمن النسخ المحرفة .

«ونطلب من الله بوجود مولانا أمير المؤمنين أن يكمل محاسن مغربنا بمثل هذه المطبعة ، ويجعل في ميزان حسناته هذه المنفعة ، فكم أبدت دولته من مفاخر ، وكم جددت سعادته من مآثر» .

وهذه الفقرة الأخيرة تذكرنا بالرسالة التي رفعت إلى السلطان أحمد الثالث حول منفعة إقامة مطبعة في القسطنطينية . كما تذكرنا أيضًا برسالة أخرى في الموضوع ، كتبها إيطالي كان في خدمة الدولة التونسية ، هو الكولونيل لويجي كاليكاري ، ووجهها إلى خير الدين أو الجنرال حسين وسأعرض لها فيما بعد .

ونسخة القاموس التي أشار إليها السفير هي التي أشرف على تحقيقها وضبطها الشيخ نصر الهوريني والشيخ محمد قطه العدوي وقد طبعت فعلاً عام ١٢٧٢هـ .

لا نعرف هل لقي طلب السفير العمروي قبولاً لدى السلطان أم لا ؟ . وكل ما نعرف أن الظرف لم يكن مناسبًا ، إذ إن السلطان المذكور وهو محمد الرابع كان مشغولاً في ذلك التاريخ بعدد من المشكلات ، منها الحملة الإسبانية على مدينة تطوان سنة ١٨٦٠ ، وهذه الحملة - كالحملة الفرنسية - حملت معها مطبعة أقامتها في المدينة المذكورة لكنها كانت بالحروف اللاتينية فقط ، وكانت مطبعة متواضعة تدار باليد ، وكان الهدف منها إخراج جريدة للجيش الإسباني الذي كان جاثمًا على صدر مدينة تطوان الحمامة البيضاء . وتعدّ هذه المطبعة من الناحية التاريخية أول مطبعة تدخل إلى المغرب ، كما أن الجريدة التي كانت تطبع فيها وتدعى «صدى تطوان» تعد أول جريدة صدرت في المغرب ، غير أن هذه الجريدة وتلك المطبعة لم يكن لهما أي تأثير يذكر .

وقد شاء الله أن يكون الفضل في دخول أول مطبعة عربية إلى المغرب لمواطن مغربي هو الفقيه السيد الطيب الروداني قاضي مدينة تارودانت في جنوب المغرب ، وكان سبق له أن ولي القضاء في مدينة وجدة المتاخمة للجزائر التي احتلها الفرنسيون منذ سنة ١٨٣٠ .

خرج هذا القاضي - الذي يبدو أنه كان على شيء من الثراء - من تارودانت قاصداً حج بيت الله الحرام عام ١٢٨٠هـ ، ولما كان راجعًا من الحج مر بمصر - كدأب

المغاربة - ، ويبدو أنه توقف فيها مدة لا بأس بها ، مكنته من الوقوف على بعض المطابع والاتصال بالمطبعيين ، وهذا يدل على أنه كان يفكر قبل سفره للحج في أمر المطبعة وشرائها ، وكان خبر المطبعة في مصر قد عرف قبل التاريخ المذكور في المغرب ، كما أن بعض مطبوعاتها وصلت إلى المغرب مع بعض الحجاج ومنهم السفير الحاج إدريس العمراوي ، وقد يكون الفقيه الروداني الذي كان قاضيًا بوجدة كما ذكرنا على علم بخبر المطبعة الفرنسية في الجزائر عندما كان قاضيًا في وجدة ، وعلى كل حال فقد اشترى هذا الفقيه مطبعة حجرية بثمن لا نعرف قدره ، ولا نعرف الجهة التي اشترى منها المطبعة ، وقد تكون هي مطبعة بولاق التي كان بها يومئذ قسم للطباعة الحجرية ، ولا نعرف كذلك تاريخ شراء هذه المطبعة ، ونقدر أنه تم في أول ربيع الأول من سنة ١٢٨١هـ ، لأن عقد الاتفاق مع المطبعي المصري الذي سترد الإشارة إليه كان في ١٤ من الشهر المذكور .

ويبدو أن قاضي تارودانت هذا كان يعرف ما يريد ، ويعرف طبيعة المطبعة الحجرية ، ويدرك أنها مناسبة للخطوط العربية عامة والخط المغربي خاصة ، وأنها لهذا السبب صالحة للبيئة المغربية المحافظة ، وربما كان ثمن هذه المطبعة مناسبًا ومشجعًا ، ولعل الخبير المطبعي الذي تعاقد معه القاضي بعد شراء المطبعة أفهمه أن المرور بمرحلة الطباعة الحجرية ضروري قبل الانتقال إلى الطباعة المسمارية أو السلكية كما سميت في المغرب .

ومهما يكن من أمر فإن من المعروف أن المطبعة الحجرية لقيت في أول الأمر قبولاً خاصًا ونجاحًا طيبًا في جميع البلاد الإسلامية لأسباب تقنية وفنية وثقافية واجتماعية واقتصادية ؛ فهي - كما ذكرنا سالفًا - ملائمة للخط العربي ومطاوعة لأشكاله المتنوعة ، كما أنها لا تقضي نهائيًا على حركة الانتساخ والنساخين الذين كانوا يتعيشون من نسخ الكتب ، وكان عددهم كبيرًا في العالم الإسلامي ولا سيما في القسطنطينية والقاهرة .

وقد لخص بعضهم أسباب استعمال المطبعة الحجرية في بعض البلاد الإسلامية فيما يأتي :

(١) لا تتطلب تجهيزاً كثيراً ولا تستدعي مؤسسة كبيرة .

(٢) لا تقضي على فئة النساخين .

(٣) تحافظ على الخط العربي المعروف بحسنه وجماله .

(٤) لا تتعارض مع ما تعود عليه الناس في القراءة ، فقد كان يسهل عليهم الانتقال من القراءة التقليدية في الكتّاب والمعهد إلى قراءة المطبوعات الحجرية ، على حين كان الأمر مختلفًا مع المطبوعات الأخرى . وقد لوحظ عند بداية الطباعة «التيبوغرافية» أن عدداً قليلاً في البلدان الإسلامية يستطيع التعامل معها ، أما عامة الناس - والبسطاء منهم خاصة - ممن تعلموا القراءة في الألواح فكانوا معتادين على قراءة الخط اليدوي لا غير ، وقد نرى اليوم في هذا الأمر مفارقة ، ولكنه لم يكن حينئذ كذلك ، وقد أدركت شخصيًا بعض العلماء المغاربة المسنين كانوا يؤثرون القراءة في المطبوعات الحجرية على غيرها .

(٥) أن المطبعة الحجرية جربت في عدد من البلدان الإسلامية منذ بداية القرن التاسع عشر ، أي قبل أن يقدم القاضي الروداني على شرائهـا من مصر ، فقد طبع بها أول كتاب في الهند سنة ١٨٠١ ، وفي تركيا عام ١٨٠٣ ، وفي تونس عام ١٨٢٨ ، وفي مصر عام ١٨٣٨ ، وفي الجزائر عام ١٨٤٥ ، وفي تونس عام١٨٤٩ ، وفي لبنان عام ١٨٥٣ ، وفي العراق عام ١٨٥٦ .

وإذا كانت معظم البلدان الإسلامية - كالبلدان الأوربية نفسها - استعملت المطبعة العادية قبل المطبعة الحجرية فإن الأمر كان مختلفًا في حالي المغرب وتونس حيث كانت البداية بالمطبعة الحجرية ، غير أن هناك فرقًا واضحًا بين البلدين ، فتونس لظروف مساعدة استطاعت أن تنتقل بعد ثلاث سنوات من تجربة الطباعة الحجرية إلى الطباعة المعروفة ، أما المغرب فقد اختار الطباعة الحجرية وبقي متمسكًا بها منذ دخولها إليه بعيد منتصف القرن الثامن عشر إلى منتصف هذا القرن تقريبًا .

إن قاضي تارودانت كان إذن عارفًا بمزايا المطبعة الحجرية ، ولذلك أقدم على شرائها ، ولأنه أدرك أن هذه المطبعة لا بد لها من مطبعي يشغلها فقد تعاقد مع مطبعي مصري يدعى محمد إبراهيم القباني ، وينص هذا الذي وصل إلينا على أن المعلم المذكور يرافق القاضي من القاهرة إلى تارودانت لتشغيل المطبعة سنة كاملة بشروط مفصلة في العقد الذي نثبت صورته هنا .

وعلى أساس هذا العقد سافر المعلم المصري في رفقة مشغّله قاضي (النموذج رقم ١) تارودانت ، ولما وصل المركب إلى مرسى الصويرة - و كان من المنتظر أن يسافر الرجلان منها برًا إلى مدينة تارودانت - حصل ما لم يكن في حسبان القاضي ، فقد أشير عليه أن يهدي المطبعة إلى السلطان محمد الرابع ، فحملها صحبة المعلم المصري إلى مكناس حيث كان السلطان يومئذ ، وقدمها إليه . فقبل الهدية منه وأكرم المعلم المصري ، وهكذا تحولت بداية المطبعة في المغرب من مشروع فردي إلى مشروع رسمي ، ولكن اسم قاضي تارودانت نقش في المدونات التاريخية المغربية بوصفه صاحب مبادرة رائدة ، وتوفي رحمه الله سنة ١٢٨٢هـ .

وضعت المطبعة في مدينة مكناس التي كانت عاصمة لبعض ملوك الدولة العلوية ، وكان أول ما طبع فيها هو كتاب الشمائل للترمذي ، سنة ١٢٨٢هـ ، يقول العربي المشرفي : وقد بدئ تيمنًا بسيرة المصطفى عليه الصلاة والسلام ، وطبعت عن نسخة مروية بسند المحدث الحافظ أبي علي الصدفي ، (انظر النموذج رقم ٢) .

ثم نقلت المطبعة بعد طبع كتاب الشمائل إلى مدينة فاس العاصمة العلمية ، حيث جامعة القرويين ، وأصبحت مطبعة رسمية حكومية ، وسميت بالمطبعة المحمدية (نسبة إلى محمد الرابع) ، وكانت تدعى أحيانًا بالمطبعة المولوية وبالمطبعة السعيدة ، وقد بدأت - كما تبدأ الأشياء - بداية متأنية وبسيطة ، وطبع فيها من سنة ١٨٦٥ إلى سنة ١٨٧١ ستة كتب فقط ، إذ كانت هذه المدة مرحلة تدريب على

عمليات الطباعة الحجرية ، وهي معقدة ، وكان جهازها المتواضع لا يزيد على الطابع المصري ومعاونين اثنين له وناسخ ومصحح ، وكان كراء مقرها وأجور هؤلاء العاملين بها من الأحباس (الأوقاف) .

أما الكتب التي طبعت فيها خلال هذا الدور الأول القصير فهي :

١ - الشمائل المحمدية للترمذي .

٢ - شرح الآجرومية للأزهري .

٣ - مختصر الدر الثمين لميارة .

٤ - شرح التحفة للتاودي .

٥ - شرح الخرشي الصغير على مختصر خليل .

٦ - قصيدة مولدية للسيد الرفاعي .

ثم توقفت هذه المطبعة عن العمل مدة سنة لأسباب فنية وإدارية ، فقد ترك المعلم محمد المصري المطبعة وعاد إلى بلده ، ويبدو أن خلافًا ما ظهر حول نفقات تسيير هذه المطبعة ، ومهما تكن الأسباب فقد تخلى المخزن عن المطبعة وتولى أمرها أحد أبناء الأسر الفاسية ، وهو السيد محمد بن محمد الأزرق الذي تعلم الصنعة على يدي المعلم محمد ، وحصل على إجازة من عالم مغربي كان السلطان محمد الرابع وجهه لتعلم صناعة الطباعة في مطبعة بولاق بمصر ، وأثبت في آخر هذا البحث صورة من إجازة عبدالقادر الشفشاوني الفاسي للطيب الأزرق الفاسي (النموذج رقم ٣) .

وعلى أساس هذه الإجازة فوتت المطبعة إلى هذا الأزرق الذي سيكون له ولأفراد من أسرته دور بارز في إخراج عدد مهم من المطبوعات الحجرية ، وقد التزم هذا المعلم الفاسي *«بدفع العشر من الكتب التي تطبع لجانب المخزن في مقابل أحجاره ومطبعته التي يقع فيها الطبع»* . .

وهكذا ملئ الفراغ الذي تركه المعلم المصري ، وأمكن تشغيل المطبعة بعد أن

بقيت مهملة بسبب توجه المذكور الذي كان قيمًا عليها لحال سبيله . وتشير بعض الوثائق إلى أن طلبة العلم في فاس هم الذين طلبوا وألحوا في الطلب من أجل إعادة تشغيل المطبعة ، وكانوا في هذا على عكس زملائهم في مراكش ، فقد ألف أحد هؤلاء رسالة في الترغيب بالمؤلفات الخطية والتحذير من الكتب المطبوعة ، مبررًا ذلك بأنها سبب في تقليل الهمم وعدم حفظ العلم ونسيانه .

لقد كان الدور الثاني في تاريخ المطبعة الحجرية - التي صارت تسمى بالمطبعة الفاسية - دورًا حافلاً بالعطاء المطبعي ، وقد برز فيه مطبعيون آخرون لعل أبرزهم العربي الأزرق - وهو أخو الطيب الأزرق ، وقد ارتقى بفن الطباعة الحجرية إلى مستوى عال كما يبدو ذلك في كتاب تحرير أصول الهندسة لأقليدس تأليف نصير الدين الطوسي الذي طبع سنة ١٢٩٣هـ .

ومن هؤلاء المطبعيين في هذا الدور الثاني المكي بن إدريس ، وقد نافس بني الأزرق وأخرج مجموعة من الكتب كشرح المختصر للهلالي وشرح فرائض المختصر لمحمد بنيس مع حاشية لمحمد بن المدنفي كنون وشرح التحفة للتسولي والحصن الحصين لابن الجزري وشرح الخلاصة للمكودي وغيرها . وقد طبع هذه الكتب في المطبعة الفاسية التي كان يطبع فيها أولاد الأزرق بالدرجة الأولى . ولكن هذا الطابع أو الناشر المنافس توقف بعد طبع هذه الكتب المسرودة ، وواظب الأخوان الحاج الطيب الأزرق والعربي الأزرق على الطبع في هذه المطبعة التي يبدو أنها لم تعد قادرة على تلبية الحاجات والطلبات ، ولهذا ظهرت مطابع حجرية أخرى جديدة .

ويدأ دور جديد في الطباعة الحجرية هو الدور الثالث ، فقد أنشأ الحاج الطيب الأزرق مطبعة حجرية جديدة وأعانه فيها ولده أحمد ، وأنشأ أخوه العربي الأزرق مطبعة حجرية خاصة به ، وأنشأ أحمد بن عبدالمولى اليملاحي مطبعة حجرية دعيت

بالمطبعة الجديدة ، وأنشأ عبدالسلام الذويب الفاسي - الذي بدأ خطاطًا مطبعيًا - مطبعة كانت جل مطبوعاتها لشيخين من شيوخ الزوايا ، هما الشيخ محمد بن عبدالكبير الكتاني والشيخ ماء العينين . ثم أنشأ السلطان مطبعة حجرية أيضًا أطلق عليها اسم المطبعة الحفيظية ، جدد بها المطبعة الحجرية الأولى وجهزها تجهيزاً جديداً إذ كان قد مرّ على تأسيسها أربعون عامًا ونيف . وقد وضعت هذه المطبعة الحفيظية - التي كانت بعض مطبوعاتها آخر ما ظهر في القرن التاسع عشر - حداً لغيرها من المطابع الحجرية الأخرى واشتغل فيها العمال الذين كانوا في هذه المطابع .

إن حصاد المطبعة الحجرية خلال القرن التاسع عشر في المغرب كان طيبًا في جملته ، وقد وقع إحصاؤه أول مرة من بعض المهتمين ، وأولهم ابن شنب وليفي بروفنسال في عملهما الذي عنوانه : «فهرس المطبوعات الفاسية» ، وقد حاولا أن يحصيا هذه المطبوعات حسب التسلسل الزمني ويعدّ عملهما رائداً في بابه إذ إنه أنجز سنة ١٩٢٢م .

ومن حسن الحظ أنه أنجز في هذا التاريخ المبكر الذي كانت المطبوعات الفاسية فيه ماتزال رائجة ، وبذلك أمكن إحصاؤها ، إذ إنها لقلة عدد المطبوع منها تناقص الموجود منها بعد التاريخ المذكور ، وقد وقع الرجلان في بعض الأوهام ، ولكنها أوهام محتملة وخفيفة بالنظر إلى مجموع العمل المفيد الذي قاما به .

وبعد ابن شنب وليفي بروفنسال قام عالم مغربي فاضل هو الأستاذ ابن الماحي الإدريسي القيطوني بتأليف كتابه القيم «معجم المطبوعات المغربية» ، وقد تتبع في هذا المعجم الذي كانت المكتبة المغربية بحاجة إليه ما وقف عليه من المطبوعات الفاسية .

وجاء أخيراً باحث عراقي إلى المغرب بوصفه موظفًا في مكتبة جامعة هارفارد ،

فاشتغل بموضوع المطبوعات الحجرية الفاسية مستعينًا بالجهود المذكورة ومستفسراً المسؤولين عن الخزائن العامة وأصحاب المكتبات ، وتمكّن من إنجاز إحصاء جديد لهذه المطبوعات . ولعله يعد الآن أوسع إحصاء في الموضوع ، وقد سمعت أن السيد فوزي عبدالرزاق قد أنجز أيضًا رسالة جامعية في أمريكا عن موضوع الطباعة في المغرب ، ولكني لم أتمكن من الوقوف عليها .

يمكن بعد إلقاء نظرة سريعة على هذه اللائحة أن نلاحظ ما يأتي :

(١) جلّ هذه المطبوعات الحجرية مصنفات تعليمية ، أي إنها كانت من الكتب الدراسية في مراحل التعليم المختلفة .

(٢) معظمها يرجع إلى الفقه والنحو والتوحيد والقراءات ، وهذه هي العلوم التي كانت أساس التعليم في القرويين بفاس قبل النظام وبعده ، وأعني بالنظام ذلك النظام الذي قسم التعليم في المؤسسة إلى ابتدائي وثانوي ونهائي ، وقد بدأ العمل به في الثلاثينات من هذا القرن ، وذلك على غرار ما تمّ في الأزهر .

(٣) نصيب الأدب والتاريخ ضئيل ومثله نصيب العلوم ، فلا نجد في الأدب ما يذكر إلا ما كان من محاضرات اليوسي وديوان ماء العينين ، ولا نصادف فيما يمس التاريخ إلا الأنيس المطرب وإلا بعض كتب التراجم مثل جذوة الاقتباس . أما العلوم فإذا استثنينا تحرير الأصول لأقليدس وبعض كتب القلصادي نجد أنها تكاد تكون معدومة .

(٤) في هذه المطبوعات كتب ورسائل تتصل بالتصوف ومناقب الأولياء .

الطباعة في تونس

سأحاول - بعد هذا العرض الموجز لتاريخ الطباعة في المغرب الأقصى خلال القرن التاسع عشر - أن أعالج الموضوع نفسه في تونس جهد الإمكان ، ولا أخفي عليكم أني كنت أفضل أن يعالجه أحد الإخوان التونسيين ، فأهل مكة أدرى بشعابها كما يقال . على أني لست من أهل هذا الشأن على العموم ، وإنما اضطررت إلى

الكتابة فيه تلبية لدعوة كريمة لم يسعني إلا قبولها شاكراً .

إن تاريخ الطباعة في تونس يشبه من بعض الوجوه مثيله في المغرب ويختلف عنه من وجوه أخرى ، فقد كانت المحاولات الأولى - التي بدأت في تونس قبل المغرب بنحو عشرين سنة - فردية وحجرية ، أي إن الطباعة في تونس بدأت بالمطبعة الحجرية ، وكانت البداية بمجهود فردي خاص ، هو مجهود الراهب بورجاد ، فقد كان لدى هذا الراهب مطبعة ذات حروف عربية ، أخرج فيها ترجمة عربية لكتاب له عنوانه : مسامرة قرطاجنة ، تقع في جزأين . وهذه المسامرة عبارة عن مناظرة في القرآن والإنجيل بين قاض ومفت وراهب ، ترجمها من الفرنسية إلى العربية سليمان الحرائري ، ونثبت صورة الصفحة الأولى والأخيرة للجزء الثاني منها في نهاية البحث (النموذج رقم ٤) .

إن السماح لهذا الراهب الفرنسي بإنشاء مطبعة للتبشير تحت ستار الحوار في تونس لم يكن من المعقول أن يحصل مثله في المغرب ، ويبدو أن بورجاد هذا كانت له مداخلة مع رجال الدولة ، فقد أهدى كتابه المذكور إلى مصطفى خزنه دار وزير الخارجية يومئذ ، واستطاع أن يجلب إليه عدداً من التونسيين . ولا أنسى أن أشير إلى أن هذا الكتاب - الذي طبع طباعة حجرية رديئة وبخط رديئ - قد ختم بتاريخ هجري كما يلي : «انتهى بحمد الله وحسن عونه سنة ١٢٦٦هـ» وهو يوافق سنة ١٨٤٩م التي أصبحت تاريخ أول كتاب طبع طبعة عربية حجرية في تونس . وقد تنبهت الدولة التونسية إلى ما في هذه المطبعة من خطر فأغلقتها . وأسس البايات منذ أحمد باي مطابع حجرية ، طبع أحدهم فيها الأوراق المالية (النموذج رقم٥) . ثم وقع العدول عن ذلك بسبب التزوير .

ولم تظهر الطباعة الحجرية بشكل واضح ورسمي إلا في عهد المشير محمد باي ، فقد اشترى هذا مطبعة حجرية من باريس ، وجلبها مع لوازمها إلى تونس العاصمة ،

وكان افتتاحها في سنة ١٨٥٧ . وأول ما طبع فيها الوثيقة التي تدعى عهد الأمان (النموذج رقم ٦) .

وقد أرسل الباي المذكور طالبًا تونسيًا ليتقن صناعة الطباعة الحجرية في باريس ، والواقع أن استعمال التونسيين لهذه الطباعة كان مختلفًا تمامًا عن استعمال المغاربة لها ، فالتونسيون استعملوها في طبع الأوراق المالية ورسم الخرائط والأطالس ، وفي ذلك يقول أحدهم في تقديم أطلس طبع فيها :

هذه المراسم من طباعة تونس	نقشت على الحجر الجلي الأملسِ
وبذاك أثمرت الحجارة وانتقت	باكورة الإبداع في ذا الأطلس
جمعت جميع ممالك الدنيا به	وحبته للشهم المليك الأكيس
لازال مفخر دولة عزت به	وسمت به من كل فضل أنفس .

لكن تجربة الطباعة الحجرية في تونس كانت مع هذا ضعيفة كمًا وكيفًا ، فالنماذج التي رأيناها مما طبع على الحجر في تونس هي (كليشيهات) ، أما المطبوعات الحجرية الفاسية فهي في غاية الإتقان خطًا وتصحيحًا وورقًا ، وكثير منها يعدّ تحفًا فنية .

نعم إن التونسيين برعوا وبرزوا في الطباعة التيبوغرافية منذ أن أسس الصادق باي المطبعة الرسمية التونسية ، فقد كانت مؤسسة منظمة بكل معنى الكلمة ، إذ كانت لها إدارتها وميزانيتها ، وقد اختار الباي لإدارتها أو نظارتها شخصًا أجنبيًا مستعربًا خدم الدولة التونسية في مدرسة باردو العسكرية ، وهو الذي أقنع الصادق باي بإنشاء المطبعة الرسمية التيبوغرافية ، فقد وجه رسالة إليه أو إلى أحد رجال دولته ولعله خير الدين باشا الذي يقول بعضهم إنه منشئ هذه المطبعة . وكما فعل السفير الغمراوي في إقناع السلطان بجدوى المطبعة مستشهداً بمثال نسخة القاموس المحيط التي طبعت في بولاق ضرب كارليتي المثل بمقامات الحريري التي قال : إنه طبع منها

عشرة آلاف نسخة نفدت كلها (ولعله يشير إلى طبعة سلفستر دوساسي) ، كما أن كارليتي لم يقتصر في رسالته على تبيين المنفعة الأدبية ولكنه ذكر أيضاً منفعتها المادية وما تدره من ربح ، وفي الملحق صورة الصفحة الأولى من هذه الرسالة (النموذج رقم ٧) .

إن هذه الفوارق الواضحة بين التجربة المغربية والتجربة التونسية في الطباعة هو أن هذه بدأت مقترنة بالصحافة ، فعندما أنشئت المطبعة الرسمية التونسية أنشئ إلى جانبها في الوقت نفسه جريدة الرائد التونسية وكانت دارهما واحدة وإدارتهما واحدة (النموذج رقم ٨) .

كما أن الصادق باي ورجال دولته ومنهم خير الدين كانوا عارفين بمقتضيات العصر ومتطلباته ، وكانت رياح التجديد تهب على تونس من جهات متعددة ، من جهة الباب العالي ومن مصر والشام ومن أوربا .

والواقع أن البلدان العربية التي كانت تابعة للخلافة العثمانية عرفت بعض المعطيات الجديدة قبل أن تقع في قبضة الاستعمار .

أقول هذا الكلام بمناسبة حالة كارليتي ، وهي حالة لم تكن ممكنة الوقوع في ذلك التاريخ .

قامت هذه المطبعة التونسية الرسمية بدور مهم في تطوير تونس من الناحية العلمية والحضارية ، وقد أعطت منذ تأسيسها سنة ١٨٦٠م إلى سنة ١٨٨٣م ثماراً طيبة تمثلها لائحة الكتب التي أخرجتها .

وإذا قارنا بين لائحة المطبوعات التونسية ولائحة المطبوعات المغربية خلال القرن التاسع عشر فسنجدهما يتشابهان فيما يرجع إلى طبع الكتب التعليمية ، لأن برامج القرويين والزيتونة كانت متقاربة ، وهما تختلفان في العناوين الأخرى ، فعناوين اللائحة التونسية فيها نفحة أدبية وعليها مسحة عصرية ، أما اللائحة المغربية فقد

غلب عليها الطابع التقليدي الأصيل ، وثمة شيئان بارزان فيهما معًا :

أولهما أنهما تمثلان النتاج المحلي أو الوطني ، فلولا المطبعة الحجرية الفاسية ما طبعت تآليف علماء فاس وما عرفوا ، ولولا المطبعة الرسمية في تونس ما ذكر أعلامها .

أما الشيء الثاني فهو أن المطبعتين قامتا معًا بدور حاسم في تيسير الكتب لطلبة العلم في عصر صعب فيه التواصل بين البلدان الإسلامية ، وبدا هذا الجانب الوظيفي للمطبعتين عند إنشاء النظام في كل من الزيتونة والقرويين .

وبعد . . فقد فرضت الحماية الفرنسية على تونس سنة ١٨٨١ ، وعلى المغرب في سنة ١٩١٢ . أما الجزائر فقد احتلتها فرنسا سنة ١٨٣٠ ، وسلكت فيها سياستها المعروفة طوال القرن التاسع عشر ، ولذلك لم يكن فيها مكان ولا إمكان لطباعة عربية خلال هذا القرن ، والأستاذ ابن شنب عالم الجزائر المعروف وضع قوائم للمطبوعات العربية في القرن الماضي وأوائل هذا القرن ، ولكنه لم يجد ما يذكره للجزائر في هذا الباب والسبب واضح ، وقد كان يقال إن أوّل ما طبع بالعربية في شمال إفريقية هو صحيفة المبشر التي صدرت في الجزائر سنة ١٨٤٧ ولكن ظهر بعد ذلك ما هو أقدم من هذا التاريخ ، فثمة كتاب عنوانه كتاب «الأخبار المبينة ، لاستيلاء الترك على قسنطينة» وهو مطبوع في سنة ١٢٤٢هـ .

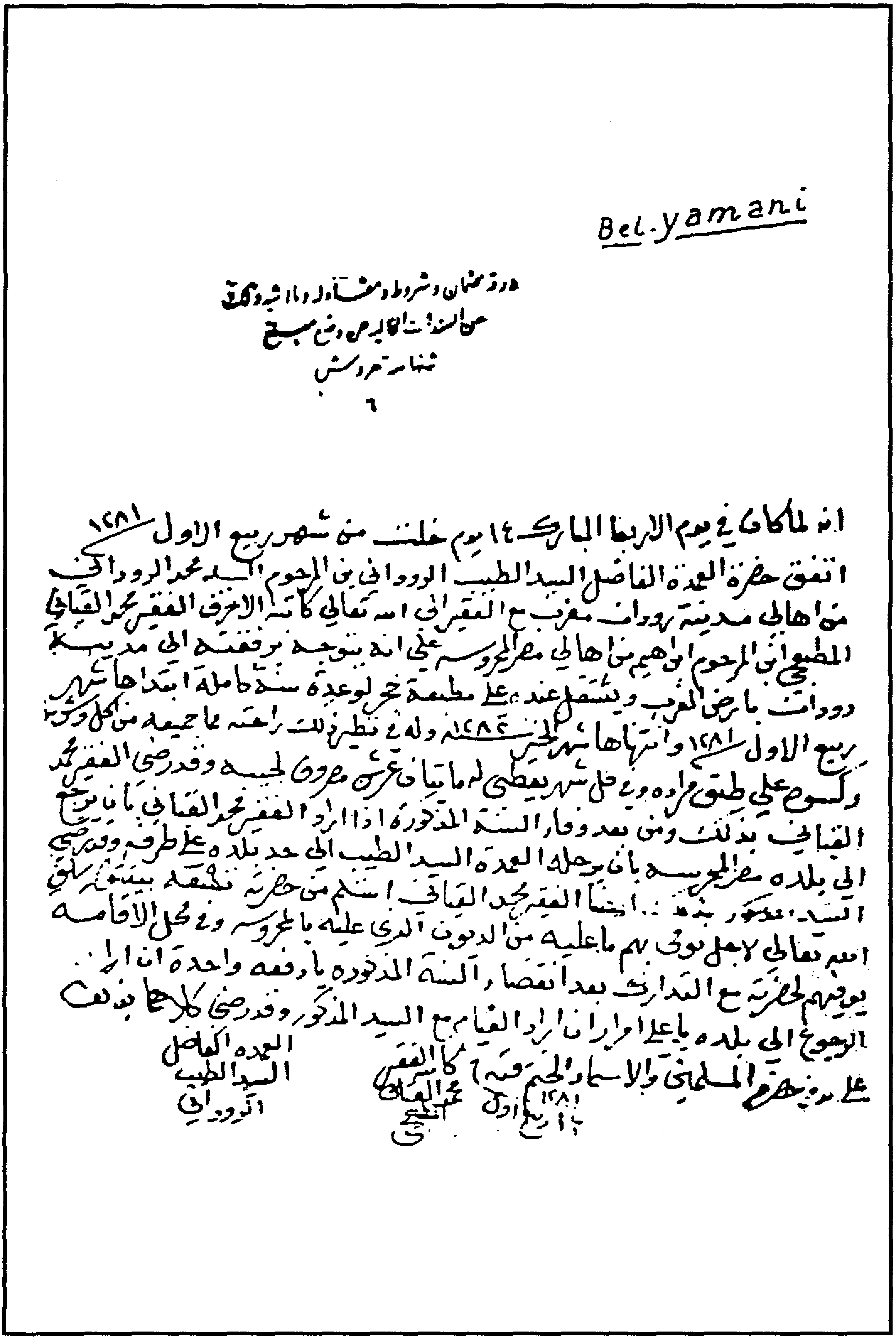
Bel-yamani

٦

انه لما كان في يوم الاربعا المبارك ١٤ يوم خلت من شهر ربيع الاول ١٢٨١
اتفق حضرة العمدة الفاضل السيد الطيب الروداني بن المرحوم السيد محمد الروداني
من اهالي مدينة رودانة مغرب مع الفقير الى الله تعالى كاتبه الاحرف الفقير محمد القباني
المصري ابن المرحوم ابراهيم من اهالي مصر المحروسة على انه يتوجه برفقته الى مدينة
رودانة بارض المغرب ويشتغل عنده في مطبعة حجر لمدة سنة كاملة ابتداها شهر
ربيع الاول ١٢٨١ وانتهاها شهر الحجة ١٢٨٢ وله في نظير ذلك راتبه ما جميعه من الكل [illegible]
وكسوة على طبق مراده وفي كل شهر يعطى له ما يبان عشرين دورو لجيبه وقد رضي الفقير محمد
القباني بذلك ومن بعد وفاء السنة المذكورة اذا اراد الفقير محمد القباني بان يرجع
الى بلاده مصر المحروسة بان يرحله العمدة السيد الطيب الى حد بلاده على طرفه وقد رضي
السيد المذكور بذلك .. ايضا الفقير محمد القباني استلم من حضرته نفقة [illegible]
الله تعالى لاجل يوفي بهم ما عليه من الديون الذي عليه بالمحروسة وفي محل الاقامة
يوفيهم لحضرته مع التدارك بعد انقضاء السنة المذكورة بدفعه واحدة ان اراد
الرجوع الى بلده واما اذا اراد القيام مع السيد المذكور وقد رضي كلاهما بذلك
على موجبهم المسلمين والاسلام والحمد لله

العمدة الفاضل
السيد الطيب
الروداني

كاتبه الفقير
محمد القباني
المصري
١٤ ربيع اول ١٢٨١

شكل رقم (١)

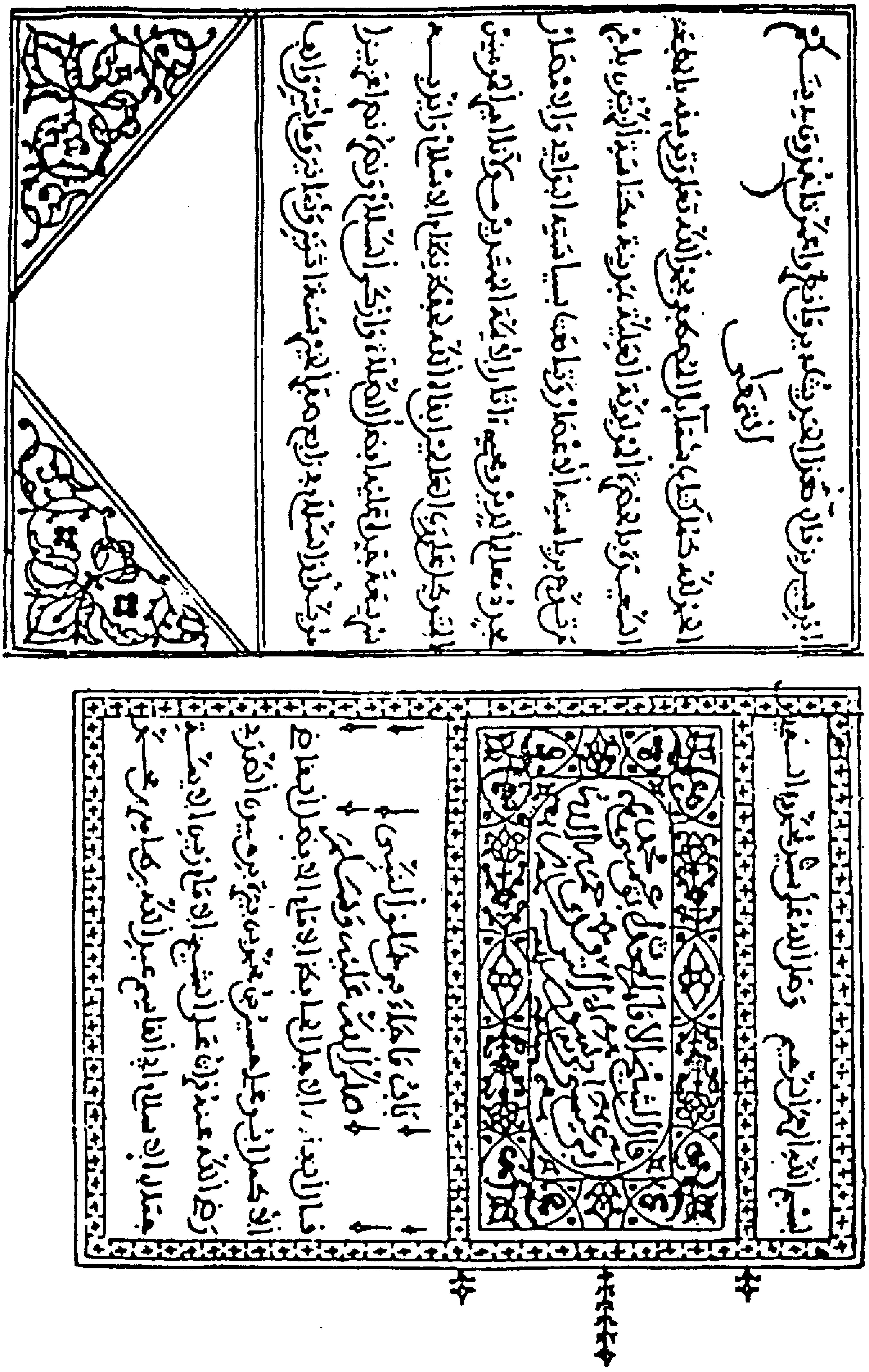

الصفحتان: الأولى والأخيرة من أول كتاب نشر بالطبعة الحجرية: «الشمائل الترمذية».

شكل رقم (٢)

بسم الله الرحمن الرحيم
وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم

لما من الله علينا بان امتثلنا امر مولانا امير المومنين اعز الله بعنايته
الدين وخلد ملكه وذكره الجميل الى ابد الابدين مع اولياء [illegible]
السلطان الاجل الاعظم الاسعد سيدي محمد بن مولانا عبد الرحمن بن هشام
نعمه الله للتوجه لتعليم صناعة الطباعة البهية بمطبعة الكتب
[illegible] المحمية فتعلمنا والحمد لله واجازنا الاشياخ بها بعد ان
احكمنا ما هنالك [illegible]
لطبع الكتب معلم الطالب الناسخ المعلم السيد الطيب بن السيد محمد الازرق
[illegible] المراكشي
[illegible]

اجازة عبد القادر الشفشاوني لطيمين — مديرية الوثائق الملكية .

شكل رقم (٣)

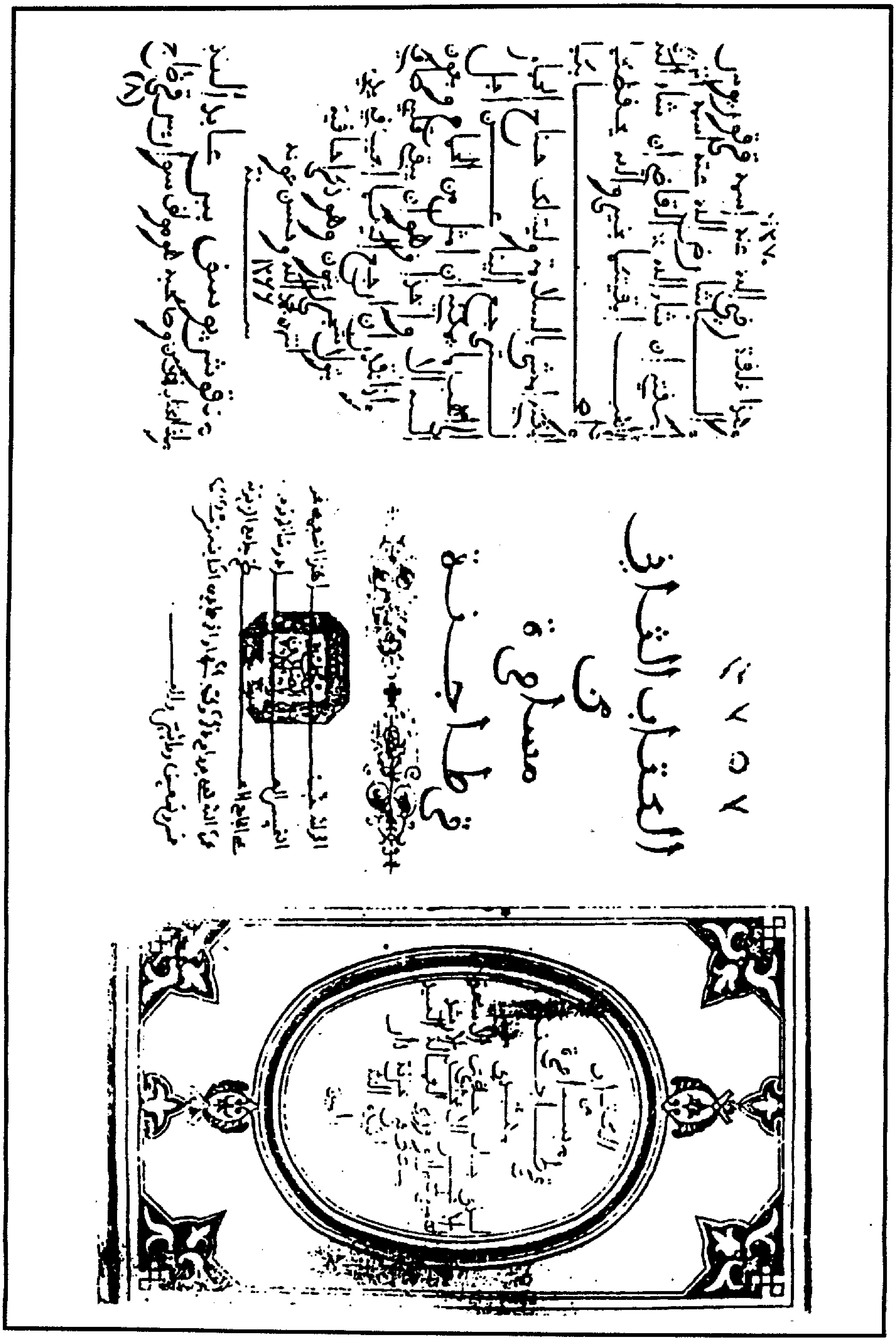

شكل رقم (٤)

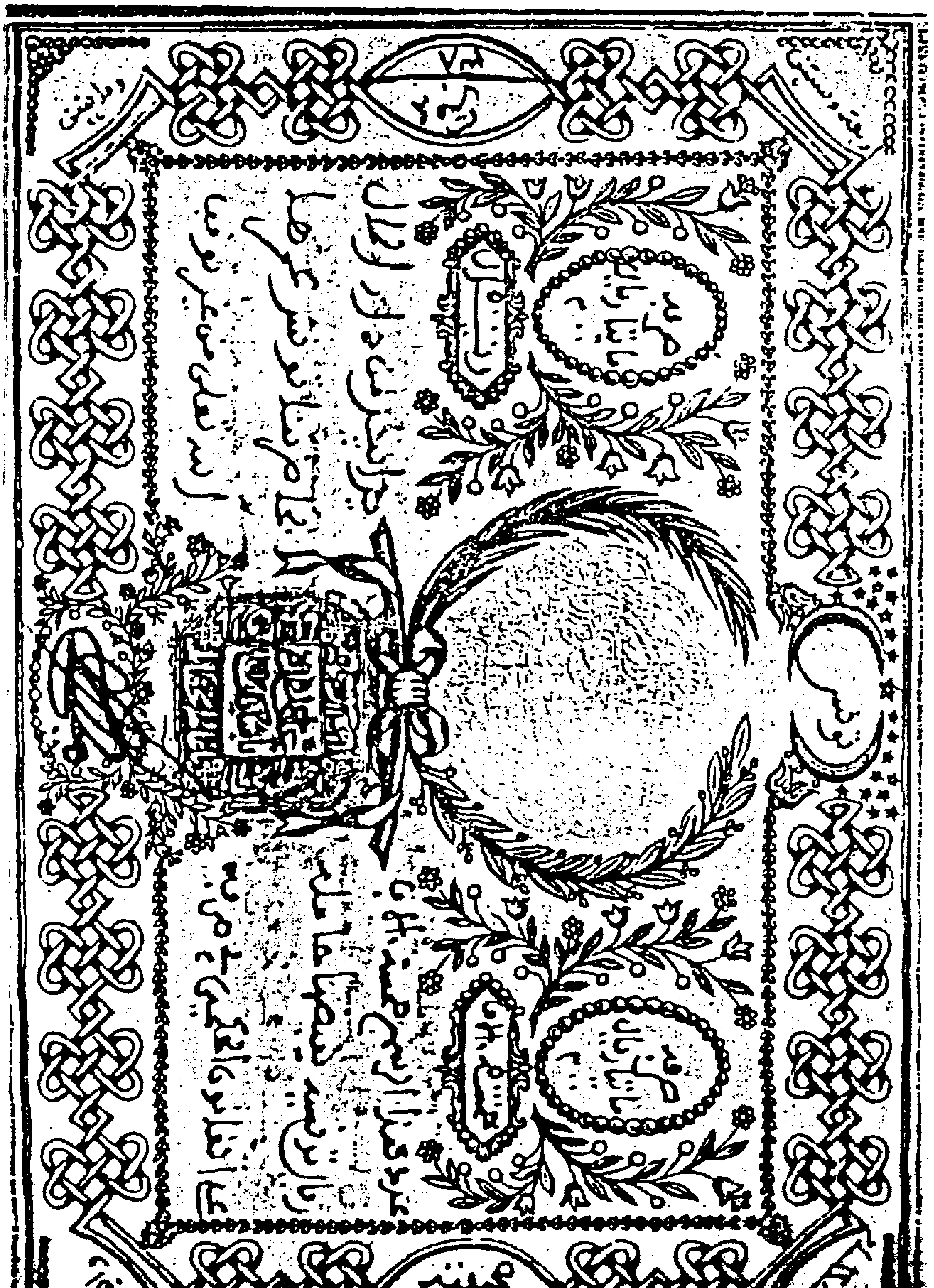

شكل رقم (٥)

فيه وابني واستجلب من لدي من هؤلاء الثقات والجماعات الكتاب ان يكونوا معي
في اجراء هذه المصلحة يدا واحدة بقلوب سليمة متعاضدة واقول لهم ولا تنقضوا
الايمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ان الله يعلم ما تفعلون اللهم من
اعاننا على مصالح عباده لم يكن له معينا واورده من توفيقك عذبا معينا اللهم اجعل
لنا من عنايتك واعانتك مددا وهب لنا من لدنك رحمة وهيء لنا من امرنا رشدا منك
الاعانة على ما وليت ولك الشكر على ما اوليت المهدي من شريف واليه كله بمهلة
نضبت هذه مقدمة انتجتها الاستشارة وردت اما العمل العملي ناجحة طالعة باعتنا
اللهم ببركة القرآن واسرار الفاتحة والسلام من الفقير الى ربه تعالى عبده المشير
محمد باشا باي صاحب المملكة التونسية في ٢٠ محرم الحرام فاتح سنة ١٢٧٤ اربعة وسبعين
ومائتين والف ونظمه :: صح من كاتبه المشير محمد باشا باي والشيخ ما نقول وكيل

هذا شرح قواعد عهد الامان

الموعود به في نصه لبيان معناه

وهو منحصر في اربعة اركان

الركن الاول في امنة الدين

لما كان كل امر بالمعروف او نهي عن منكر يجب عليه ان يفعل ما امر به ويجتنب ما نهي عنه
للقاعدة التي اجمع عليها اهل الملل وارباب العقول وهي ان يحب الانسان لغيره ما
يحب لنفسه ويكره لغيره ما يكره لنفسه ولتكون افراده محترمة ومحافظة بمقتضى
التزمت على عهد الله وميثاقه لسائر رعايانا على اختلاف الاديان ان نؤكد لهم التأكيد
القوي فيما يجب لهم من الامن والامان في الدين وهو في حق المسلمين لا يجبر احد منهم
على تقليد غير امامه المفتي بمذهبه في عقيدته السنية وعبادة ته البدنية

شكل رقم (٦)

رسالة في منفعة إقامة مطبعة للكتب العربية بمحروسة تونس

اني عبدكم رايت في كازيتت باريز منذ زمان قليل يذكر ان مقامات الحريري
مع شرحها التي طبعوا منذ في باريز عشرة الاف نسخة قد انباعت كلها
في ممالك اروبا اعني في بلدان النصارى فقط وان مرادهم يجددوا طبعة
اخرى ... لينبهوا بذلك على الناس الذين يدرسوا في الكتب العربية اذا
حاجتهم بالمقامات يبعثوا الى باريز يشتروها كما هي عادتهم يعملوا اذا ارادوا
يطبعوا كتابا ... فبقيت متفكرا في ذلك وكان السبب الذي خطر
ببالي ان نعملوا هنا مطبعة للكتب العربية لان في ذلك يكون صلاح عظيم
للدولة بحيث يزداد في مدخولها قدر مليون ريالات في العام لا نقول اكثر
وتعيش جماعة من الناس في خدمتها وبيان ذلك اننا نطبعوا الكتب
العربية المعتبرة القليلة الوجود ثمن غير شك انها تنباع في جميع بلدان
الاسلام قاطبة في الغرب الجواني من فاس وغيرها وفي الايالات الثلاث
وفي بر مصر وبر الشام من بغداد ودمشق وحلب والبصرة وبلتيها وفي
الحجاز واليمن وفي الممالك العثمانية كلها وحتى في بلدان العجم وهي الفرس
وزد على هذا كله ممالك اروبا باجمعها والمثل في ذلك اذا جددنا طبع قانون
ابن سينا في الطب وانه اذا وجد مطبوعا ينباع بماية ريال فلما اذا كان خط
يد فاكثر من ذلك بكثير لانه يلزم شهور كثيرة في نسخه لكبره فنحن اذا
طبعنا منه مثلا الفين نسخة او الف فاننا نقدروا نبيعوا الواحد بثلاثين
ريال لا نقول اكثر وما اظن تتكلف النسخة اكثر من عشر ريالات بالمصروف
كله بالحق بغير تسبغير لان المطابع لا يسفروا الكتب الا تبقيط الكراريس
فقط لئلا يتفرقوا ويجلدوها بكاغد غليظ والذي يشتري كتابا يسفره على
حسب ارادته فيكون في طبع ابن سينا عشرين الف ريال فايدة فان كنا ما
بعنا منه الا خمساية فقط فقد خلصنا في المصروف وربحنا خمسة الاف
ريال ويبقى عندنا خمساية نسخة كلها فايدة فاما نرسلها للبلدان نفرقوا
منها على المدن ماية في كل واحدة او خمسين تنباع هنالك احسن بيع
او اننا نبيعها هنا فنقتصروا من ثمنها خمس ريالات او عشرة في النسخة
ويشتريها ناس كثير يرفعوها للبلدان الاجنبية للمكسب لان طبع

شكل رقم (٧)

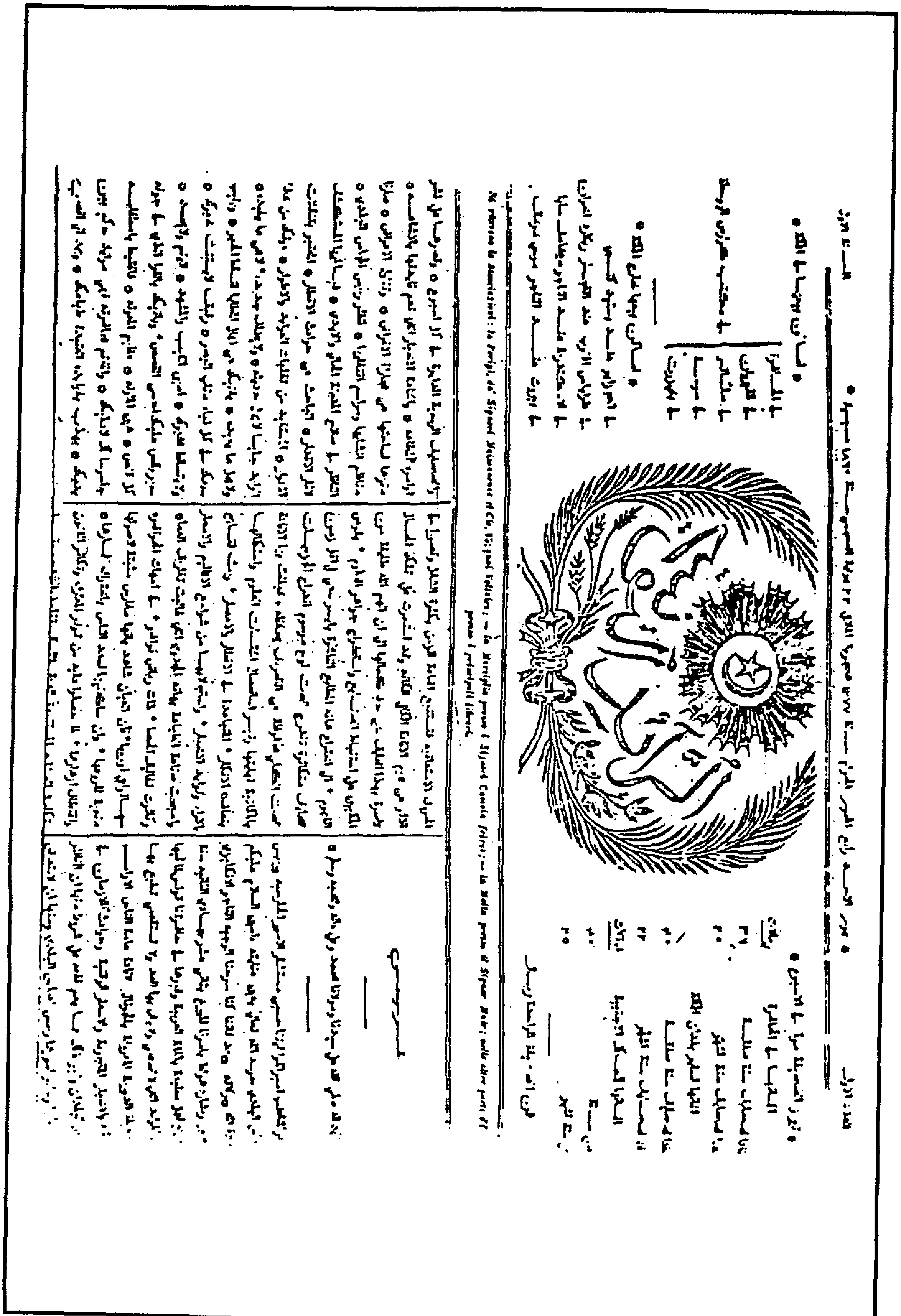
العدد الاول

يوم الاحد رابع المحرم الحرام سنة ١٢٧٧ هجرية الموافق ٢٢ من شهر جويلية سنة ١٨٦٠ مسيحية

Si ricevono le Associazioni: in Parigi, da' Signori Maisonneuve et Cie, 15, quai Voltaire; — in Marsiglia presso i Signori Camoin frères; — in Malta presso il Signor Muir; nelle altre parti presso i principali librari.

الحمد لله وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

شكل رقم (٨)

تاريخ الطباعة العربية في بلاد إيران

الأستاذ الدكتور مهدي محقق

مهدي محقق

مدير معهد الدراسات الإسلامية – طهران (فرع جامعة مك جيل بكندا).

– من مواليد مدينة مشهد بإيران، ١٩٣٠م.

– دكتوراه في اللغة الفارسية وآدابها، من طهران.

– دكتوراه في الإلهيات والمعارف الإسلامية من جامعة طهران.

الوظائف

– أستاذ زائر في جامعة لندن ١٩٦٢ – ١٩٦٤.

– أستاذ الفلسفة الإسلامية في معهد الدراسات الإسلامية بجامعة مك جيل بكندا.

– أستاذ ممتاز للفلسفة الإسلامية في المعهد العالي العالمي للفكر والحضارة الإسلاميّة في ماليزيا.

– عضو عامل في مجمع اللغة الفارسية وآدابها بطهران.

– عضو مجامع اللغة العربية والعلمية والدولية في عدد من البلدان.

من نتاجه

– وجوه القرآن لحبيش التفليسي.

– الشكوك على جالينوس للرازي.

– اشترنامة لفريد الدين العطار.

– شرح المقدمات الخمس والعشرين لابن ميمون

– مفتاح الطب ومنهاج الطلاب لابن هندو.

قال اللّه تبارك وتعالى في محكم كتابه الكريم ومبرم خطابه العظيم : ﴿هو الذي بَعَثَ في الأمّيّين رَسُولاً منهُم يَتْلُوا عليهم آياته ويزكّيهم ويعلمُهُمُ الكتابَ والحكْمَةَ وإن كانُوا من قَبْلُ لفي ضَلَال مُبِيْن﴾ (سورة الجمعة ٦٢/ ٢) قبل الشروع في المقصود يَجب أن أشكر أولياء مركز جمعة الماجد لبذل جهودهم في إحياء التراث الإسلامي القيم وتشكيل هذه الندوة التي تكون ملتقى لأرباب الفضل وأصحاب العلم للتشارك والتعاون العلمي ، وأرجو من الله أن يطول عمر بانيه الأعز الأجل الأكرم الشيخ جمعة الماجد المكرّم حفظه الله تعالى وجزاه عن العلم خير الجزاء .

جزيت جزاء المحسنين عن الهدى　　　وتمّت لك النّعمى وطال لك العمر

أوّل مطبعة أنشئت في إيران لطبع الكتب العربية والفارسيّة كانت المطبعة التي أسست في منطقة جلفا بمدينة أصفهان على يد القسّيسين الأرمنيين حوالي سنة ١٠٢٥ إلى ١٠٣٥ وكانت تسمّى «بصمه خانه» استعير اللفظ من العثمانيين ، وهم أخذوه من المغول ، لأنهم كانوا يسمّون تماثيل ملوكهم باسم «باصمه» . والمشهور أنّ أول كتاب طبع في هذه المطبعة كان زبور داود المعروف بـ «ساغموس» . وقد استمر عمل المطبعة مدة سنة وخمسة أشهر بدون توقّف حتى صدر هذا الكتاب عام ١٦٣٨م . وهو يقع في حوالي ٥٧٠ صفحة . وفي مكتبة بودليان بجامعة أكسفورد الآن نسخة من هذا الكتاب . وبعد أن توقّف عمل هذه المطبعة فترة طويلة – أكثر من قرن ونصف قرن – عادت إلى العمل وطبعت فيها كتب أكثرها حول المسيحية وتاريخها وأدعية مذهب أصحابها ، بلغت حوالي ٥٠٠ عنوان .

وأوّل مطبعة ظهرت في إيران بعد مطبعة كنيسة اليسوعيين في جلفا هي المطبعة التي انشئت في تبريز سنة ١٢٣٣ في عهد فتحعلي شاه القاجاري ، بهمة وليّ عهده عبّاس ميرزا الذي أرسل نفراً إلى أوربا لتعلم فنّ الطباعة ، وهم جاؤوا بأجهزة الطبع بالرصاص Typography وبالحجر Lithography ومن جملتهم زين العابدين التبريزي

الذي نشر كتاب «فتح نامه» لميراز عيسى القائم مقام الفراهاني ، وهو أوّل كتاب نشر بالحروف العربيّة في إيران سنة ١٢٣٣ . وبعد ذلك نشر ميرزا أبو القاسم بن ميرزا عيسى كتاب «الجهاديّة» بالفارسية . ويقولون إن فتعلي شاه أحضر زين العابدين التبريزي من تبريز إلى طهران سنة ١٢٤٠ فطبع القرآن الكريم تحت إشراف معتمد الدولة . ويسمّى هذا القرآن بـ «القرآن المعتمدي» والمطبعة بـ«المطبعة المعتمدية» وفي ذلك الوقت طبعت في تلك المطبعة الكتب التالية : «محرق القلوب» ، «عين الحيوة» ، «حياة القلوب» ، «مجالس المتقين» ، «روضة المجاهدين» .

وفي عام ١٢٤٤ أنشئت أوّل مطبعة في أصفهان ، وعرف من مطبوعاتها «الرسالة الحسينية» . وفي سنة ١٢٤٦ أنشئت أول مطبعة حجرية في تبريز ، وطبع فيها أيضاً القرآن الكريم وكتب أخرى بالفارسية والعربية ، كما أسّست أول مطبعة حجرية في طهران سنة ١٢٩٥ ، وكذا مطبعة دار الفنون الحجرية سنة ١٢٤٨ تحت نظارة عليقي ميرزا اعتضاد السلطنة . وفي أصفهان أنشئت المطبعة الحجرية سنة ١٢٨٧ المسمّاة بـ « مطبعة حبل المتين» . وبعد ذلك شاع تأسيس المطابع الحجرية في سائر البلاد ، ونظرًا لاتحاد الحروف العربية والفارسية صار من السهل للمطابع الإيرانية طبع الكتب العربية ، وكانت وجهة نظر تلك المطابع طبع كتب التراث الإسلامية عمومًا ، وتراث الشيعة الإمامية خصوصًا . وفي الوقت نفسه اتجه الناشرون لطبع الكتب الدراسية في العلوم العقلية والنقلية للعلماء المسلمين لعموم أهل السنة والجماعة والشيعة الإمامية ، وطبعت هذه الكتب الحجرية ، ولهذا النوع من الطبع ميزات وعيوب .

ميزات هذه المطبوعات الحجرية

أولاً : كان المحققون يبحثون عن أقدم النسخ وأصحها للطبع . وقدم النسخة وصحتها كانت تؤيد من قبل علماء الفن ، وكانت لأصحاب المطابع عناية بتصحيح بعض الأغلاط في النسخة المهيأة للطبع .

ثانيًا : الحواشي التوضيحية للكتاب وتعاليق العلماء عليه كانت تطبع حوالي المتن وأطراف الكتاب ، وكان هذا الأمر يسهل دراسة الكتاب للمعلمين والمتعلمين .

ثالثًا : كان للذين يستنسخون المخطوطات للطبع دراية خاصة بهذا الفن ، فكان هذا الأمر يزيد من الاعتماد بالنصوص المطبوعة ، ونحن نرى اسمي «عبدالرحيم» و «محمد كاظم» يردان في الكتب التي كانت تطبع ، أكثر من أسماء النساخ الآخرين .

ومن عيوب هذه المطبوعات

أولاً : أن النصوص كانت مبنية على نسخة مخطوطة واحدة ، وفي أكثر الموارد كان قدم النسخة وصحتها أمرًا مشكوكًا فيه ، ولا نجد في الكتاب دليلاً على قدم النسخة وصحتها .

ثانياً : حينما كانوا يقابلون النسخة بالنسخ المخطوطة الأخرى ويثبتون الاختلاف لا نجد إشارة إلى مشخصات تلك النسخ ، كما لا ندري أي الاستعمال كان لديهم راجحًا أو مرجوحًا .

ثالثاً : من أهم العيوب والنقائص أنَّ الكتب كانت تطبع بدون ذكر أحوال المؤلف وفهارس الأعلام والكتب والأماكن ، ودون الإشارة إلى بيان أهمية الكتاب وتحليل إجمالي لمطالبه .

رابعاً : كان نسّاخ هذه الكتب يستعلمون رموزاً وكلمات اختصارية لبعض التعابير ، وكان المعلمون يشرحونها للطلاب ، فوضعوا اصطلاح : «ممـ» مثلاً للممنوع و «هف» لهذا خلف و «لانم» للانسلّم و «الخ» لإلى آخره . . كما نرى في كتب المنطق نظير هذه الرموز كقولهم مثلاً «مغ كب» للأول ، و «خين كب» للثاني ، و «مغكاين» للثالث ، ويريدون أن شرط إنتاج الشكل الأول للقياس كون الصغرى موجبة والكبرى كلية ، وللشكل الثاني اختلاف المقدمتين في الكم والكيف وكون الكبرى كليًا ، وفي الثالث كون الصغرى موجبة وإحدى المقدمتين كلية .

ونذكر الآن عناوين بعض الكتب التي نشرت في فترة إنشاء المطابع بإيران أي من سنة ١٢٤٠هـ/ ١٨٢٤م . إلى سنة ١٣١٧هـ/ ١٩٠٠م . وهكذا نشير إلى الكتب التي كانت تطبع للتدريس في المدارس الدينية في العلوم المختلفة على ترتيب برامج الدراسة . ويجب أن أذكر أنه نشر كتاب في طهران قبل سنتين باسم «معجم المطبوعات العربية في إيران» لعبدالجبار الرفاعي ، يذكر حوالي أربعمائة كتاب طبعت في الفترة التي نحن في صدد بيان المطبوعات العربية فيها ، أي خلال سبع وسبعين سنة فقط ، ولا يتسع الوقت لنذكر أسماء هذه الكتب كلها ، ولكن بمصداق «ما لا يدرك كله لا يترك كله» و«الميسور لا يسقط بالمعسور» ، نذكر أسماء الكتب التي تداولتها أيدي المعلمين والمتعلمين وأسماء مؤلفيها على أساس مراتب تلك الكتب في التدريس في الحوزات العلمية الإيرانية .

علم الصرف :

كان الطلاب يبتدئون دراستهم بكتاب يسمى «جامع المقدمات» طبع سنة ١٢٨٥ يشتمل على اثني عشر كتاباً من جملة ذلك «التصريف» للزنجاني ، و«شرح التصريف» للتفتازاني ، و«العوامل اللفظية والمعنوية» لملا محسن فيض ، و«شرح الأنموذج» للزمخشري ، و«الصمدية» للبهاء الدين العاملي ، وكذا كتاب «آداب المتعلمين» في الأخلاق لنصير الدين الطوسي .

والكتب المهمة التي طبعت في الفترة الأولى هي هذه الكتب الثلاثة «شرح شافية ابن الحاجب» لنظام الأعرج النيسابوري ، طهران ١٢٩٥ . . «شرح شافية ابن الحاجب» لأحمد بن الحسن الجاربردي ، طهران ١٢٧٠ . . «شرح شافية ابن الحاجب» لرضى الدين الإسترابادي ، طهران ١٢٨٠ . .

علم النحو :

«البهجة المرضية في شرح الألفية» لجلال الدين عبدالرحمن السيوطي ، طهران

١٢٩٤ . . «مغني اللبيب عن كتب الأعاريب» لابن هشام الأنصاري ، طهران ١٢٩٤ . . «الفوائد الضيائية» لنور الدين عبدالرحمن الجامي ، طهران ١٢٩٥ . . «شرح كافية ابن الحاجب» لرضي الدين محمد الاسترآبادي ، طهران ١٢٧١ . . «شرح قطر الندى وبل الصدى» لابن هشام الأنصاري ، طهران ١٢٧٣ . . «الألفية في النحو» لابن مالك الأندلسي ، طهران ١٢٧٩ . . وكتب محمد باقر الشريف الأردكاني كتاب «جامع الشواهد» لإيضاح الاستشهادات التي ذكرت في الكتب النحوية والصرفية ، وطبع سنة ١٢٧٤ في طهران .

علوم البلاغة :

نعني بها علم المعاني والبيان والبديع .

«تلخيص المفتاح» للخطيب القزويني مع شرحه المسمى «المطول» لسعد الدين التفتازاني ، طهران ١٢٦٦ . . «أنوار الربيع في علم البديع» للسيد علي خان المدني الدشتكي ، طهران ١٣٠٤ .

علم اللغة :

«مجمع البحرين ومطلع النيرين» لفخر الدين الطريحي ، ١٢٦٣ . . «القاموس المحيط» لمحمد بن يعقوب الفيروز آبادي ، طهران ١٢٦٤ . . «فروق اللغات» لنور الدين بن نعمة الجزايري ، طهران ١٢٦٥ . . «تاج اللغة وصحاح العربية» لإسماعيل ابن حماد الجوهري ، تبريز ١٢٧٠ .

الأدب العربي (النثر) :

«المقامات» لأبي محمد القاسم بن علي الحريري ، تبريز ١٢٤٨ . . «المقامات» لجلال الدين عبدالرحمن السيوطي ، طهران ١٢٨٦ . . «المقامات» لبديع الزمان الهمداني ، طهران ١٢٩٦ .

الأدب العربي (النظم) :

قصيدة «البردة» مع شرحها بالفارسية ، طهران ١٢٦٣ «الديوان المنسوب إلى علي ابن أبي طالب عليه السلام» ، طهران ١٢٦٥ . . «شرح ديوان امرئ القيس» لعاصم بن أيوب البطليوسي ، تبريز ١٢٦٧ . . «شرح المعلقات السبع» للحسين بن أحمد الزوزني ، طهران ١٢٧٢ . . «سقط الزند» للمعري مع شرحه لقاسم بن الحسين الخوارزمي ، تبريز ١٢٧٦ .

علم المنطق :

«تحرير القواعد المنطقية في شرح الرسالة الشمسية» لقطب الدين الرازي ، طهران ١٢٦٧ . . «الحاشية» لملا عبدالله اليزدي على «تهذيب المنطق» للتفتازاني ، طهران ١٢٦٨ . . «لوامع الأسرار في شرح مطالع الأنوار» لقطب الدين الرازي ، طهران ١٢٩٣ . . «الجوهر النضيد في شرح منطق التجريد» للعلامة الحلي حسن بن يوسف ، طهران ١٣١١ . . «اللآلئ المنتظمة مع شرحها» للحاج ملا هادي السبزواري ، طهران ١٣١٥ .

علم أصول الفقه :

«القوانين المحكمة في الأصول» لأبي القاسم بن محمد حسن القمي ، طهران ١٢٥٦ . . «معالم الدين وملاذ المجتهدين» للحسن بن الشهيد الثاني ، طهران ١٢٦٦ . . «فرائد الأصول» للشيخ المرتضى الأنصاري ، طهران ١٢٦٨ . . «كفاية الأصول» لمحمد الكاظم الخراساني ، طهران ١٣٠٣ .

علم الفقه :

«جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام» لمحمد حسن النجفي ، طهران ١٢٦٢ . . «الروضة البهية في شرح اللمعة الدمشقية» لزين الدين بن علي الشهيد الثاني ، طهران ١٢٦٥ . . «شرائع الإسلام في مسائل الحلال والحرام» لجعفر بن

حسن المحقق الحلي ، طهران ١٢٦٧ . . «مسالك الأفهام في شرح شرائع الإسلام» لزين الدين بن علي الشهيد الثاني ، طهران ١٢٦٧ . . «جامع المقاصد» لعلي بن محمد الكركي . . طهران ١٢٧٢ . . «قواعد الأحكام في معرفة الحلال والحرام» للحسن بن يوسف ابن المطهر الحلي ، طهران ١٢٧٢ . .

علم الفلسفة :

«غرر الفرائد مع شرحها» للحاج ملا هادي السبزواري ، طهران ١٢٦١ . . «الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية» لصدر الدين الشيرازي ، طهران ١٢٨٢ . . «الشواهد الربوبية في المناهج السلوكية» لصدر الدين الشيرازي ، طهران ١٢٨٦ . . «شرح الإشارات والتنبيهات» لنصير الدين الطوسي و«التعليقات» لفخر الدين الرازي ، طهران ١٢٨١ . . «القبسات» لمير محمد باقر الحسيني المعروف بميرداماد ، طهران ١٣١٥ .

علم الكلام :

«شوارق الإلهام في شرح تجريد الكلام» لعبدالرزاق اللاهيجي ، طهران ١٢٦٦ . . «شرح تجريد الاعتقاد» لعلي بن محمد القوشجي ، طهران ١٣٧٢ . . «النافع يوم الحشر في شرح الباب الحادي عشر» لمقداد بن عبدالله السيوري ، طهران ١٢٧٢ . . «منهاج الكرامة في إثبات الإمامة» للحسن بن يوسف المطهر الحلي ، تبريز ١٢٩٢ . . «الشافي في الإمامة وإبطال الحجج العامة في الرد على قسم الإمامة من كتاب المغني للقاضي عبدالجبار الهمداني» للشريف المرتضى مع كتاب «تلخيص الشافي» لأبي جعفر محمد بن حسن الطوسي ، طهران ١٣٠١ .

تفسير القرآن :

«مجمع البيان في تفسير القرآن» للشيخ الطبرسي ، طهران ١٣٦٢ . . «الصافي في التفسير» لمحمد بن المرتضى المعروف بالفيض الكاشاني ، طهران ١٢٦٦ . .

«تفسير الجلالين» لجلال الدين المحلى وجلال الدين السيوطي ، طهران ١٢٦٦ . . «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» لعبد الله بن عمر البيضاوي ، طهران ١٣٧٢ . . «أسرار الآيات وأنوار البينات» لصدر الدين الشيرازي ، طهران ١٣٠٢ .

مجامع الحديث :

«بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار» لمحمد باقر المجلسي ، طهران ١٢٧١ . . «الكافي في الحديث» لمحمد بن يعقوب الكليني ، طهران ١٣١٧ . . «تهذيب الأحكام» لمحمد بن حسن الطوسي ، طهران ١٣١٧ .

نهج البلاغة وشروحه :

«نهج البلاغة» لعلي بن أبي طالب عليه السلام ، تبريز ١٢٤٧ . . «شرح نهج البلاغة» لابن أبي الحديد المدائني ، طهران ١٣٧١ . . «شرح نهج البلاغة» لميثم بن علي البحراني ، طهران ١٢٧٦ . . «الدرة النجفية» في شرح نهج البلاغة لإبراهيم بن حسين الخوئي ، طهران ١٢٩٢ .

التراجم :

«وفيات الأعيان» لأحمد بن محمد ابن خلكان ، طهران ١٢٨٤ . . «روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات» لمحمد باقر الخوانساري ، طهران ١٣١٣ .

الأدعية والزيارات :

«شرح الزيارة الجامعة الكبيرة» لأحمد بن زين الدين الأحسائي ، طهران ١٢٦٧ . . «رياض السالكين في شرح الصحيفة السجادية» لصدر الدين الدشتكي المدني ، طهران ١٢٧١ . . «عدة الداعي ونجاح الساعي» لأحمد بن محمد بن فهد الحلي ، طهران ١٢٧٤ . . «إقبال الأعمال» لرضى الدين ابن طاووس ، طهران ١٣١٢ .

علم الطب :

«شرح موجز القانون» لنفيس بن عوض الكرماني ، طهران ١٣٧٢ . . «شرح الأسباب والعلامات» لنفيس بن عوض الكرماني ، طهران ١٣٧٢ . . «طب النبي صلى الله عليه وسلم» لأبي العباس النسفي السمرقندي ، طهران ١٢٨١ . . «القانون في الطب» لأبي علي بن سينا ، طهران ١٢٨٤ . . «شرح فصول بقراط» لابن النفيس القرشي ، طهران ١٢٩٨ . . «الألفية الطبية» لمحمد طاهر المشهدي ، مشهد ١٣١٧ .

الرياضيات والنجوم :

«خلاصة الحساب» للشيخ بهاء الدين العاملي ، طهران ١٢٦٧ . . «تحرير إقليدس» لنصير الدين الطوسي ، طهران ١٢٤٨ . . «شرح الملخص» في الهيئة لقاضي زاده الرومي ، طهران ١٢٦٨ . . «تشريح الأفلاك» لبهاء الدين العاملي ، طهران ١٢٧٥ . . «تقويم المحسنين في معرفة الساعات والشهور والسنين» لمحمد ابن مرتضى المشهور بالفيض الكاشاني ، تبريز ١٣٠٥ .

ونتيجة كلامنا نرى أن صناعة الطبع دخلت في بلاد إيران على يد القسيسين المسيحيين لأهداف تبليغية وتبشيرية ، ولكن الإيرانيين استفادوا منها لطبع الآثار الإسلامية القيمة ونشر تراثهم العلمية الفائقة ، ولقد صدق الله العلي العظيم حين قال : ﴿يُرِيدُونَ أن يُطفئوا نور الله بأفواههم وَيَأبى الله إلا أن يتم نُورَهُ ولو كَرِهَ الكافرون﴾(سورة التوبة ٩/ ٣٢) .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . .

الطباعة في شبه الجزيرة العربية في القرن التاسع عشر الميلادي

الأستاذ الدكتور يحيى محمود بن جنيد الساعاتي

يحيى محمود بن جنيد «الساعاتي»

أمين مكتبة الملك فهد الوطنية

- من مواليد مكة المكرمة ١٩٤٦.
- دكتوراه في المكتبات من كلية الآداب بجامعة القاهرة،

الوظائف

- عمل في مكتبة جامعة الملك سعود.
- محاضر في علم المكتبات بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.
- أستاذ المكتبات والمعلومات في كلية العلوم الاجتماعية بجامعة الإمام محمد بن سعود (حالياً).
- رئيس تحرير مجلة عالم الكتب (حاليا).

من نتاجه

- أبو محمد البيطار. الرياض، مطابع الجزيرة، ١٣٩٢هـ = ١٩٧١م.
- الوقف وبنية المكتبة العربية. الرياض، مركز الملك فيصل، ١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م.
- الأدب العربي في المملكة العربية السعودية (ببليوغرافيا). الرياض، دار العلوم ١٣٩٩هـ = ١٩٧٩م.
- الطباعة العربية في أوروبا (غير منشور).

كان الحجاز واليمن ولايتين عثمانيتين في فترة ظهور الطباعة فيهما ، وكانت سيطرة العثمانيين على الحجاز ثابتة متواصلة دون انقطاع منذ حلولهم فيه في عام ٩٢٣هـ = ١٥١٧م ، في حين راوحت سيطرتهم على اليمن بين مد وجزر إلى أن تم لهم الاستيلاء عليه مرة ثانية في عام ١٢٨٩هـ = ١٨٧٢م عقب افتتاح قناة السويس عندما رغبت الدولة العثمانية في نشر نفوذها في جنوب غرب شبه الجزيرة العربية للحد من النفوذ البريطاني فيها ، ويشير أحد الباحثين إلى أن افتتاح القناة شجع الدولة العثمانية على إعادة النظر في سياستها العربية بقصد تقوية نفوذها في الجزيرة العربية ، فأرسل الباب العالي رؤوف باشا على رأس قوة حربية لضم اليمن إلى الدولة . . . ، وكان وصول العثمانيين (إلى صنعاء) في السادس عشر من شهر صفر سنة ١٢٨٩هـ ، الموافق ٢٦ أبريل سنة ١٨٧٢م .[١]

وكانت الأوضاع الثقافية والفكرية فيهما متفاوتة من حيث النشاط والقوة ، ففي الحجاز كانت هناك حركة نشطة ، تمثلت في وجود حلقات للدرس العلمي في المسجد الحرام ،[٢] ومدارس نظامية رسمية أسسها العثمانيون ، من بينها المدرسة الرشيدية ، إضافة إلى مدارس وكتاتيب أهلية أسسها أشخاص من أبناء المنطقة ،[٣] وظهر في الحجاز في الفترة المحددة لهذه الدراسة مجموعة من العلماء والأعلام الذين وضعوا مؤلفات في اللغة والدين والأدب ، نشروا بعضها في مناطق مجاورة ، وعلى وجه الخصوص في مصر .

أما اليمن ، فكان الوضع الثقافي والفكري فيه متردياً بصفة عامة ، كما يشير إلى ذلك عبد الواسع بن يحيى الواسعي بقوله : «في أيام الأتراك كانت المعارف والعلوم في غاية الانحطاط مع الفتن . . .» ،[٤] ومع ذلك لم يخل اليمن من أعلام من العلماء الذين أسهموا بتأليف كتب في معارف شتى ، أدركوا الفترة التي تركز هذه الدراسة على موضوع الطباعة خلالها ، من بينهم محمد بن أحمد الأهدل (ت ١٢٩٨هـ) ومحمد بن حسن فرج (ت ١٣٠٦هـ) ،[٥] وأحمد بن محمد الجراخي (ت

١٣١٦هـ) .[٦] وعبد الله بن محمد العنسي (ت ١٣٠١هـ) ،(٧) والحرازي صاحب رياض الصالحين .

أما فيما يخص موضوع هذه الدراسة ، وهو ظهور الطباعة وتطورها في شبه الجزيرة العربية في القرن التاسع عشر الميلادي ؛ فإن المعلومات المدونة المتوافرة لا تزال غير وافية ، ولا تقدم صورة واقعية عنها . ورغم الملاحظة السابقة ، إلا أننا يمكن أن نؤكد على وجود معلومات كافية موجزة مفيدة عن الطباعة والنشر في المنطقتين المدروستين ، من بينها ما كتبه الفيكونت فيليب دي طرازي ، وخليل صابات ، ومحمد ماهر حمادة ، ودليل الصحافة . وفيما يخص اليمن تأتي دراسة عبد الله الزين على شيء من التفصيل والتوضيح الذي لا نجده في غيرها ؛ أما الحجاز ، فقد أورد معلومات طيبة عن وضع الطباعة فيه كل من رشدي ملحس ، ومحمد الشامخ ، وأحمد بن محمد الضبيب ، ويحيى ساعاتي .

وتهدف هذه الدراسة إلى تتبع وضع الطباعة في المنطقتين بشكل موحد ، بحيث يتم التعرض لنشوء الطباعة فيهما ، والحديث عن الوضع الإدارى والفني الخاص بهما ، وكذلك الإشارة إلى ما طبع فيهما بشيء من التفصيل ، اعتماداً على الدراسات السابقة التي أشرت إلى أسماء مُعديها ، وكذلك اعتماداً على الفهارس والببليوغرافيات التي ضمت إشارات عن بعض ما طبع فيهما ، وبالاطلاع على بعض الأعمال المنشورة نفسها التي قدر لمُعد البحث الوقوف عليها مباشرة .

نشأة الطباعة وتطورها في شبه الجزيرة العربية

اليمن

يعود تاريخ ظهور الطباعة في شبه الجزيرة العربية إلى سبعينات القرن التاسع عشر الميلادي ، عندما أسس العثمانيون مطبعة في صنعاء عقب استيلائهم على اليمن مرة ثانية في عام ١٢٨٩هـ = ١٨٧٢م . ورغم اتفاق المصادر على أسبقية ظهورها في هذا

الجزء من شبه الجزيرة العربية إلا أننا نجد اختلافاً واضحاً بين الدارسين في تحديد تاريخ تأسيسها .

والمتداول بين أوائل الذين عرضوا لتاريخ هذه المطبعة وأقدمهم جرجي زيدان عند حديثه عن جريدة صنعاء(٨) أن تأسيسها كان عام ١٨٧٧م .

ثم تلاه الفيكونت فيليب دي طرازي عند حديثه عن الجريدة نفسها ،(٩) وربط الاثنان التاريخ بجريدة صنعاء دون أن يخصا به ظهور المطبعة في اليمن ، ودون أن يوردا أية معلومات تتعلق بمطبوعات ظهرت في اليمن قبل عام ١٨٧٧م = ١٢٩٤هـ .

غير أن خليل صابات يُعد أول من نص صراحة على أن عام ١٨٧٧م = ١٢٩٤هـ هو العام الذي عرفت فيه اليمن بداية الطباعة بقوله : على الرغم من تأخر هذه البلاد ثقافياً واجتماعياً فقد عرفت الطباعة منذ سنة ١٨٧٧م ، أي قبل أن تعرفها العربية السعودية بحوالي خمس سنوات ، وقد أمر بإنشاء أول مطبعة السلطان عبد الحميد الثاني في مدينة صنعاء عاصمة البلاد .(١٠)

ويؤكد عليه أيضاً محمد الشامخ الذي يشير إلى أن شبه الجزيرة العربية «لم تعرف الطباعة إلا في عام ١٨٧٧م ، وذلك عندما أسست الحكومة العثمانية المطبعة الرسمية في صنعاء باليمن» .(١١)

كما أن الشامخ يشير إلى ذلك التاريخ في كتاب آخر له موضحاً أن السلطات العثمانية أصدرت صحيفة صنعاء في عام ١٨٧٧م .(١٢)

ووردت إشارة إلى أن بدايتها في عام ١٨٧٧م في موسوعة المكتبات والمعلومات .(١٣) وسار على المنوال نفسه محمد ماهر حمادة الذي يقول : الأتراك هم الذين أدخلوا الطباعة إلى الجزيرة العربية . وأول قطر عربي في شبه الجزيرة تدخله الطباعة هو اليمن ، وكانت متأخرة في جميع المرافق . . . وتكاد تكون الأمية

تامة في البلاد ، ومع ذلك أصدر السلطان عبد الحميد أوامره بتأسيس أول مطبعة في صنعاء سنة ١٨٧٧م .(١٤)

ويذهب بنا الظن أن القائلين بهذا الرأي اعتمدوا جميعهم على ما أورده جرجي زيدان وفيليب دي طرازي ، عندما جعلا هذا التاريخ بداية لتأسيس جريدة صنعاء . وخالف ثلاثة من الباحثين الرأي السابق فذهبوا إلى أن جريدة صنعاء تأسست في عام ١٢٩٧هـ = ١٨٧٩م . أولهم أديب مروة ، الذي يقول : «أما في اليمن فلم تصدر قبل الحرب العالمية الأولى سوى صحيفة واحدة هي جريدة صنعاء التي صدرت عام ١٨٧٩م . . .» .(١٥) وتبعه محمد سعيد العامودي ، الذي أورد التاريخ ذاته ،(١٦) ثم محمد بن ناصر بن عباس قائلاً : «أما في شبه الجزيرة العربية ، فإن أول جريدة صدرت كانت جريدة صنعاء ، وكان صدورها في عام ١٢٩٧هـ = ١٨٧٩م» .(١٧)

ولم نقف في المصادر التي اطلعنا عليها على معلومة تساند الأخذ بهذا التاريخ ، ولا نعرف المصدر الذي اعتمد عليه في إثباته ، إلا أن يكون ناتجاً لرؤية عدد أو أعداد من جريدة صنعاء يعود تاريخها إلى ذلك العام .

وهناك رأي انفرد به مصدر واحد ، جعل بداية ظهور جريدة صنعاء في عام ١٢٩٢هـ = ١٨٧٥م ،(١٨) وهو رأي غير مقنع ، نظراً لعدم وقوف هذا المصدر على الأعداد الأولى من جريدة صنعاء .

وذهب بعض الباحثين العرب ، وأغلبهم من اليمنيين ، إلى أن التاريخ الحقيقي لبداية ظهور الطباعة في اليمن هو عام ١٨٧٢م = ١٢٨٩هـ أي العام نفسه الذي عاد فيه العثمانيون إلى اليمن مرة أخرى . فيذكر أحدهم : «أن الأتراك بعد جلائهم من اليمن عام ١٩١٨م تركوا خلفهم مطبعة كانوا قد أدخلوها إلى اليمن عام ١٨٧٢م ، وهي المطبعة التي كانت تسمى مطبعة الولاية» .(١٩)

وثبت هذا التاريخ في مصدر آخر ورد فيه أن اليمن ومعها شبه الجزيرة العربية عرفت

«أول مطبعة في صنعاء عام ١٨٧٢م ، أي قبل إنشاء مطبعة الحجاز بخمسة أعوام . . .» .[٢٠]

ويشير إلى التاريخ نفسه أحد الباحثين اليمنيين قائلاً : «أدخلت أول مطبعة سنة ١٨٧٢م في بداية العهد العثماني الثاني للاستخدام الرسمي ، وكانت أول مطبعة تنشأ في الجزيرة العربية ، وكانت مطبعة صنعاء . . .» .[٢١]

كما يرد هذا التحديد لبداية ظهور الطباعة في اليمن في الموسوعة اليمنية وفقاً للنص التالي : «لم تعرف اليمن الصحافة المطبوعة إلا عام ١٨٧٢م حين حمل الأتراك في غزوتهم الثانية لليمن مطبعة الولاية ، وهي أول مطبعة تعرفها الجزيرة العربية» .[٢٢]

ووفقاً لما ورد في المصادر السابقة ، فإن تاريخ ظهور الطباعة في شبه الجزيرة العربية يعود إلى عام ١٨٧٢م ، وهو تاريخ يخالف المتواتر في المصادر العربية والأجنبية الأخرى ، التي جعلته في عام ١٨٧٧م على وجه التحديد ، مع وجود آراء تجعله عام ١٨٧٩م ، و١٨٧٥م ، والملاحظ أن التواريخ الثلاثة الأخيرة تربط ظهور المطبعة بظهور جريدة صنعاء .

الحجاز

وعلى خلاف مطبعة ولاية اليمن التي تضاربت الآراء حول تحديد تاريخ إنشائها فإن تاريخ إنشاء المطبعة الثانية في شبه الجزيرة العربية في القرن التاسع عشرالميلادي جاء واضحاً ومُحدداً دون أدنى خلاف عليها ، فحسب ما تورده المصادر العربية والأجنبية التي وقفنا عليه فإن عام ١٣٠٠هـ[٢٣] هو العام الذي شهدت فيه مكة المكرمة تأسيس أول مطبعة فيها ، ويقابل ذلك ميلادياً ١٨٨٢م أو ١٨٨٣م ، ولعل الاختلاف في تحديد التاريخ الميلادي يعود إلى أن ١٣٠٠هـ يقابل ١٢ نوفمبر ١٨٨٢م ، وأن ١٣٠١هـ يقابل ٢ نوفمبر ١٨٨٣م ،[٢٤] والملاحظ أن جل الباحثين

العرب جعلوا الموافق لـ ١٣٠٠هـ ، هو (١٨٨٣م) في حين جعلها بعضهم ومن بينهم دائرة معارف المكتبات والمعلومات موافقاً عام ١٨٨٢م .[٢٥]

ونظراً لعدم تحديد الشهر الذي أنشئت فيه المطبعة ، فإن كلا التاريخين الميلاديين يمكن الأخذ بهما .

أسباب ظهور الطباعة في اليمن قبل الحجاز

ومن المرجح أن ظهور الطباعة في اليمن قبل الحجاز يعود إلى أسباب ، منها :

(١) العزلة الجغرافية لليمن وبعد موقعه عن مركز الخلافة ، مما تطلب من الدولة العثمانية المبادرة إلى إنشاء مطبعة فيه لخدمة أغراضها الرسمية بالدرجة الأولى ، ويؤكد على هذه الحقيقة عدم قيام هذه المطبعة بطباعة أي كتاب عربي والاكتفاء بنشر الجريدة الرسمية والتقويم السنوي للولاية باللغة التركية .

(٢) قرب الحجاز من مركز الخلافة ، وسهولة اتصال أهله بالمناطق المجاورة التي كانت تضم مطابع متطورة قياساً بالمتوافر منها في ذلك الزمن ، يدل على ذلك ما نجده من عناوين نشرت لأعلام من الحجاز في مطابع خارج شبه الجزيرة العربية ، منها على سبيل المثال مجموعة مؤلفات لأحمد بن محمد بن رمضان أبي الفوز المرزوقي الحسيني ، طبعت في مطبعة شاهين بالقاهرة عام ١٢٧٧هـ = ١٨٦٠م ، وهي «تحصيل نيل المرام لبيان منظومة العوام» و«عصمة الأنبياء» و«عقيدة العوام» .

وأعيد نشر «تحصيل نيل المرام» و«عصمة الأنبياء» مرة أخرى عام ١٢٩٨هـ = ١٨٨٠م في مطبعة شرف بالقاهرة .[٢٦]

كما نشر له كتاب «بلوغ المرام لبيان ألفاظ مولد سيد الأنام» بمطبعة بولاق بالقاهرة عام ١٢٨٦هـ = ١٨٦٩م و ١٢٩١هـ = ١٨٧٤م .(٢٧)

ونشر لمحمد بن سالم بن سعيد بابصيل ، وهو من تلاميذ أحمد زيني دحلان في مطبعة بولاق بالقاهرة عام ١٢٩٤هـ = ١٨٧٧م كتاب «إسعاد الرفيق وبغية الصديق بسجل سلم التوفيق إلى محبة الله على التحقيق» .[٢٨]

وطبع محمد سعيد بن محمد سالم بابصيل مجموعة أعمال بالقاهرة ، هي «رسالة في التحذير من عقوق الوالدين» بمطبعة بولاق عام ١٢٩٤هـ ، و«رسالة فيما يتعلق بالأعضاء السبعة» بمطبعة بولاق عام ١٢٩٤هـ = ١٨٧٧م . و«رسالة في البعث والنشور في أحوال الموتى والقبور») في مطبعة شرف عام ١٢٩٨هـ = ١٨٨٠م .[٢٩]

ونشر لأحمد زيني دحلان في عام ١٢٩٨هـ = ١٨٨٠م بمطبعة شرف بالقاهرة كتاب «فتح الجواد المنان على العقيدة المسماة بفيض الرحمن» و«رسالة في معنى قوله تعالى ما أصابك من حسنة فمن الله» .[٣٠]

وفي عام ١٢٩٩هـ = ١٨٨١م طبع لأبي بكر عثمان بن محمد شطا كتاب «قصة المعراج» في إحدى مطابع القاهرة .[٣١]

وأشار المستشرق الهولندي سنوك هرخورنية ، الذي زار الحجاز متخفياً عام ١٣٠٢هـ = ١٨٨٤م إلى استعانة علماء الحجاز بالمطابع المصرية لنشر مؤلفاتهم ، وذلك قبل تأسيس المطبعة الميرية .[٣٢]

(٣) الوضع الثقافي في اليمن كان متأخراً قياساً بما كان عليه في الحجاز ، يؤكد ذلك استمرار علماء الحجاز في طباعة أعمالهم خارج منطقتهم عقب تأسيس المطبعة الميرية في مكة ، مما يدل على وجود نشاط ثقافي تجاوز إمكانات المطبعة المحلية على نشر مخرجاته من كتب ورسائل مؤلفة ، وهو الأمر الذي دفع ببعضهم إلى نشر أعمالهم في مطابع

خارج شبه الجزيرة العربية ، تجاوزت المنطقة العربية لتصل إلى الهند وأندونيسيا ، من بينها : كتاب «إعانة الطالبين في حل ألفاظ فتح المعين» لأبي بكر شطا ، بمطبعة بولاق بالقاهرة عام ١٣٠٠هـ = ١٨٨٣م ، ثم عام ١٣٠٧هـ(٣٣) = ١٨٨٩م . و«الدرر البهية فيما يلزم المكلف من العلوم الشرعية» ، لأبي بكر شطا أيضاً ، عن مطبعة محمد أبي زيد بالقاهرة عام ١٣١٢هـ(٣٤) = ١٨٩٤م .

وكتاب «نشر الهذيان من تاريخ جرجي زيدان» لأمين حسن الحلواني ، الذي طبع في لكناو بالهند عام ١٣٠٧هـ(٣٥) = ١٨٨٩م .

و«مختصر تاريخ الشيخ عثمان بن سند البصري المسمى بمطابع السعود بطيب أخبار الوالي داود» وطبع في بمبي عام ١٣٠٤هـ .[٣٦]

وكتاب «القول المجدي في الرد على عبد الله بن عبد الرحمن السندي» لمحمد سعيد بن محمد سالم بابصيل ، وطبع في باتافيا بأندونيسيا عام ١٣٠٩هـ(٣٧) = ١٨٩١م .

ومجموعة من أعمال أحمد الخطيب بن عبد اللطيف المنكاباوي الجاوي منها «الداعي المسموع في الرد على من يورث الأخوة وأولاد الإخوان مع وجود الأصول والفروع» بالمطبعة الميمنية بالقاهرة عام ١٣٠٩هـ= ١٨٩١م[٣٨] .

الوضع الإدادي والفني

مطبعة صنعاء

تنسب بعض المصادر الفضل في إنشاء المطبعة التي أسسها العثمانيون في اليمن إلى السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦ - ١٩٠٩م) ، وممن أشار إلى ذلك خليل صابات[٣٩]) ومحمد ماهر حمادة ،[٤٠] وقد عرفت هذه المطبعة باسم مطبعة صنعاء[٤١]) ومطبعة الولاية ،[٤٢] أو مطبعة ولاية اليمن ، ويتبين من طريقة الإشارة إلى

مسمى هذه المطبعة كما وردت على سالنامات اليمن عدم الاستقرار على مسمى واحد لها ، فقد أشير إليها تحت مسمى مطبعة صنعاء في الأعداد (٣ ، و٤ ، و٥ ، و٦ ، و٧ ، و٨ ،) بينما ذكرت بمسمى مطبعة ولاية اليمن في العددين الأول والثاني ، وبمسمى مطبعة الولاية في العدد التاسع .[٤٣]

وكانت مطبعة متواضعة جداً من الناحية الفنية ، يدل على ذلك النمط الطباعي الذي جاءت عليه سالنامة اليمن المنشورة عام ١٢٩٨هـ[٤٤]، فورقها خفيف الوزن يميل إلى الصفرة ، لعله من أرخص أنواع الورق الذي كان يستخدم في تلك الفترة وما قبلها ، وبمقارنته بورق الطباعة الذي طبعت عليه بعض الكتب في إستانبول في فترات سابقة مثل كتب متفرقة ، أو مطبوعات البحرية ، يلاحظ سوء نوعيته ، كما أن طريقة الصف والبنط الطباعي يقدمان دليلاً على رداءة العمل الفني في هذه المطبعة ، في حين أنه كان متقدماً في مناطق أخرى من الدولة العثمانية ، حيث ظهرت كتب متقنة الصف ، ذات أبناط طباعية جيدة ، ووصفت هذه المطبعة بأنها «مطبعة هزيلة» ،[٤٥] وأنها كانت «صغيرة يدوية ، لا تطبع أكثر من صفحتين صغيرتين في حجم خمسين سنتيمتراً طولاً واثنين وثلاثين عرضاً ، وحروف تجمع وترتب باليد عن طريق العمال» .[٤٦]

وكانت تضم عند تأسيسها جهازاً إدارياً وفنياً ، يتكون من العثمانيين ، يرأسهم حسين حسني أفندي ، الذي عد المسؤول الأول عنها إدارياً وفنياً ، عمل معه محمد لطفي أفندي مسؤولاً مالياً ، وحسين أغا مسؤولاً فنياً ، ومحمد أفندي مترجماً ، إضافة إلى خمسة من الفنيين .[٤٧]

والمعتقد أن المسؤول عن المطبعة في عام ١٨٨١م كان حميد وهبي الذي كان بمنزلة رئيس تحرير لجريدة صنعاء ، ومشرفاً على تحرير سالنامة اليمن في بداية ظهورها ، ونستدل على ذلك مما ورد على غلاف العدد الأول من سالنامة اليمن

الصادر عام ١٨٨١م ، حيث ورد النص التالي «محرري صنعاء غزته سي محرري ويدنجي اردوي ، وهمايون تحريرات باش كاتبي حميد وهبي» .[٤٨] .

المطبعة الميرية

أما مطبعة ولاية الحجاز فيعود الفضل في إنشائها إلى الوالي العثماني الوزير عثمان نوري باشا[٤٩] الذي عرف بمشاريعه الإصلاحية في الحجاز . وقد بنى لها مقراً مستقلاً في مكة المكرمة ، حدد الكردي موقعه خلف الحميدية ،[٥٠] التي كانت بمنزلة المركز الإداري لوالي الحجاز ، وذكر باحث آخر أنها كانت تقع بجوار المالية سابقاً ،[٥١] ولا شك أن إيجاد مقر مستقل لها يدل على اهتمام وعناية فائقتين بها ، وأنها كانت مطبعة متكاملة إدارياً وفنياً .

وعرفت هذه المطبعة باسم المطبعة الميرية ، ويشار إليها بهذا الاسم في جميع الأعمال العربية التي طبعت فيها ، كما أطلق عليها مسمى مطبعة ولاية الحجاز ومطبعة الولاية في السالنامات التي طبعت فيها ، وكذلك المطبوعات التركية التي كانت تنشرها .

وكانت في باديء أمرها يدوية ، وصفها محمد سعيد عبد المقصود بأنها عبارة عن (مكنة بدال صغيرة) ، وأضاف بأن الحكومة التركية قد زودتها في عام ١٣٠٢هـ = ١٨٨٤ أو ١٨٨٥م بآلة طباعة متوسطة ، من النوع المعروف في المطابع بالفرنساوي مقاس ٨٢ في ٥٧ سم ، وبعدها بعدة سنوات استحضرت مكنة حجرية مقاس ٥٠ في ٧٠ . وقد أشار رشدي ملحس في عام ١٣٤٧هـ = ١٩٢٨م إلى الإصلاح الذي أدخل على هذه المطبعة في عام ١٣٠٢هـ ، فقال بأنه قد جلبت لها حينئذ ماكنة كبيرة وأدوات أخرى . . .[٥٢]

وورد في العدد الثاني من سالنامة الحجاز حديث عن الوضع الفني الذي كانت عليه خلال السنوات الثلاث الأولى لقيامها ، فذكر أنها كانت تضم آلة طبع وكمية من

الحروف ، واثنين من الموظفين . ونتيجة تراكم المؤلفات التي كانت ترسل إلى الخارج للطباعة ، فقد زودت بآلة طبع ذات عجلة واحدة ، أحضرت من فيينا مع كمية وافية من الحروف ، وزودت بحروف ملائمة لطباعة الكتب الجاوية ، كما طلب لها آلة طبع خاصة لطبع الرسائل المتنوعة المشكلة ، ودرب أبناء البلد خلال هذه المدة القصيرة على تعلم صف الحروف وتجليد الكتب .(٥٣)

ويبدو من إشارات الباحثين الذين تعرضوا لوصف هذه المطبعة أنها حظيت بعناية طيبة من قبل الحكومة العثمانية بهدف تطويرها وجعلها مناسبة لطباعة الكتب العربية والتركية والجاوية .(٥٤)

وعمل فيها من بداية تأسيسها مجموعة من الإداريين والفنيين ، بلغ عددهم أحد عشر موظفاً في عام ١٣٠١هـ = ١٨٨٣م ، توزعوا على النحو الآتي :

عبد الغني أفندي - مديراً إدارياً

علي أفندي - مديراً فنياً

وثلاثة من الكتبة والإداريين المساعدين هم عبد الحميد أغا ، ومحمد أفندي ، وخير أفندي .

وستة فنيين للصف هم حافظ أفندي ، وأحمد أفندي ، وطه أفندي ، وعمر أفندي ، ومحمد رجب أفندي ، وعبد الرحمن أفندي .(٥٥)

وارتفع العدد في عام ١٣٠٥هـ = ١٨٨٧م إلى ٢٨ موظفاً ، توزعت أعمالهم على النحو الآتي :

المسؤول الإداري : علي أفندي

ثلاثة من المصححين للكتب العربية هم جعفر أفندي بن قاسم ، وعبد الحميد فردوس أفندي ، ورفيق محمد أفندي .

واثنان لتصحيح الكتب الجاوية ، هما أحمد فطاني أفندي ، ورفيق الشيخ داود أفندي .

وخمسة عشر فنياً للصف ، هم عبد الرحمن أفندي ، وطه أفندي ، وعمر فوزي أفندي ، ومحمد رجب أفندي ، ومصطفى شمس الدين أفندي ، ومحمد رشدي أفندي ، وأحمد مظهر أفندي ، ومحمد جميل أفندي ، وأحمد مكي أفندي ، وأسعد إبراهيم أفندي ، وإبراهيم حفظي أفندي ، ونصيب صدقي أفندي ، وعباس فوزي أفندي ، وعبد اللطيف أفندي ، وعلي زين العابدين أفندي .

وخمسة من المساعدين الإداريين والكتبة ، هم بكر خوجه ، وعبد الحميد أغا ، ومحمد رشدي أفندي ، وحاجي عطا ، وإمام حاجي مصطفى . ومجلدان هما صالح أفندي ، ورفيق حاج سعيد .[٥٦]

وتولى إبراهيم أدهم إدارة هذه المطبعة منذ عام ١٣٠٦هـ = ١٨٨٨م إلى عام ١٣٠٩هـ = ١٨٩١م ، وعمل فيها قبل عام ١٣٠٦هـ جملة من الموظفين ، هم جعفر أفندي بن قاسم ، ومحمد سعيد أفندي ، لتصحيح الكتب العربية ، وأحمد نظامي ، وداود فطاني لتصحيح الكتب الملاوية ، وفي الصف عمر فوزي أفندي ، وعباس أفندي ، وإبراهيم حفظي أفندي ، ومحمد رشدي ، وعبد الرحمن صحاف أفندي ، وعلي زين العابدين أفندي ، ومحمد كمال أفندي ، وأحمد مظهر .

وللأمور الإدارية والفنية نصيب صدقي أفندي ، وسليمان أفندي ، وعبد الحميد أغا ، وحاج مصطفى أفندي ، وعباس أفندي ، والماس آغا والمجلد صالح أفندي .[٥٧]

وبلغ العدد في عام ١٣٠٩هـ = ١٨٩١م اثنين وعشرين موظفاً هم :

إبراهيم أفندي – مديراً

جعفر أفندي ، ومحمد سعيد أفندي ، لتصحيح الكتب العربية

أحمد فطاني أفندي ، وداود فطاني أفندي ، لتصحيح الكتب الجاوية

ولأعمال الصف وجمع الحروف والبصمة والتجليد :

عمر فوزي أفندي ، وعباس أفندي ، ومحمد رجب أفندي ، ومحمد رشدي أفندي ، وعبد الرحمن صحاف أفندي ، وصدقي أفندي ، وشاملي سعيد أفندي ، ومحمد حلبي أفندي ، وعبد اللطيف أفندي ، وأحمد مظهر أفندي ، وأحمد سزايىء أفندي ، وأحمد علام أفندي ، وصالح شعيب .

وللخدمات العامة الماس آغا ، وشاملي محمد ، واضروملي يوسف آغا ، وقزنلي يوسف آغا .[٥٨] .

وتوحي الأسماء السابقة بوجود مجموعة من أهل الحجاز أنفسهم استعانت بهم هذه المطبعة في عملها الفني والتحريري ، مما يدل على اعتمادها على أفراد من أبناء مكة نفسها ممن جرى تدريبهم وتأهيلهم على مثل هذه الأعمال ، كما اعتنت المطبعة منذ نشأتها بأعمال التصحيح بالعربية وغيرها ، ويُعد عبد الحميد فردوس من أشهر المصححين الذين اشتغلوا فيها ، وكان مُصححاً محترفاً ، فرغم تحوله إلى العمل في القضاء فيما بعد عضواً بالمحكمة المستعجلة في مكة عام ١٣٣٦هـ ، ثم رئيساً لمحكمة التعزيزات إلا أنه عاد إلى الاشتغال بالتصحيح مرة أخرى في مطبعة الحكومة[٥٩] مما يعني حنينه إلى هذا العمل الذي يحتاج إلى الصبر والجلد والتمكن في اللغة .

المطبوعات

مطبعة صنعاء

اقتصر نشاط مطبعة ولاية اليمن على طباعة عناوين محددة جداً تصب في المجال الرسمي بالدرجة الأولى ، وكان أول عمل صدر عنها كما يرى بعض الباحثين اليمنيين والعرب نشرة صغيرة عنوانها : يمن ،[٦٠] (الشكل رقم ١) كانت موجهة

للعاملين في الإدارة العثمانية بولاية اليمن من عسكريين ومدنيين ، وأن العدد الأول منها صدر في عام ١٨٧٢م المقابل لعام ١٢٨٨هجرية شمسية ، و١٢٨٩هجرية قمرية .

وكانت في البداية تعدُّ صحيفة الولاية ، صدرت في أربع صفحات بحجم متوسط دون ذكر مكان الصدور ومسؤول التحرير ، وهي تعدُّ أول ثمرة من ثمار المطبعة اليدوية التي أدخلها العثمانيون إلى اليمن . واهتمت هذه الصحيفة (يمن) بنشر القوانين وأهم أخبار العاصمة المركزية ، كما اهتمت بالشؤون العسكرية ، وكانت دون شك توزع بشكل محدود على أفراد الحاميات العثمانية والمسؤولين الإداريين ، وقد صدر منها بعض أعداد ثم توقفت .[٦١] وأشير إليها في مصدر آخر على أنها نشرة يمنية كانت باللغة التركية ، وأنها حكومية ، أصدرتها السلطات العثمانية عام ١٨٧٢م في صنعاء ، وأنها ظهرت في أربع صفحات متوسطة الحجم ، وعملت على نشر القوانين وأهم أخبار الآستانة ، وتوقفت بعد صدور أعداد قليلة .[٦٢] وعرفت في مصدر ثالث بأنها «نشرة دورية . . . خصصت لنشر قرارات وتعليمات الولاة الأتراك» .[٦٣] ولا تقدم لنا المصادر السابقة أية معلومات عن الأعداد التي صدرت من هذه المطبوعة أو تاريخ توقفها ، مما يدفع إلى الظن أنها توقفت عقب صدورها بوقت قصير ، وأن تأثيرها كان محدوداً ، لم يتخط حدود الإدارة العثمانية ، كما أن عدم وجود أية إشارة تخص مكان طباعتها وقصر فترة صدورها يدفع بنا إلى الافتراض أنها لم تطبع في اليمن ، وأنها كانت تطبع خارجه في إستانبول أو غيرها ، ثم تحمل إلى صنعاء لتوزع فيها على الهيئة الإدارية والعسكرية ، وإن صح مثل هذا الافتراض ، فهو يُرجح رأي الذين جعلوا بداية ظهور الطباعة في اليمن عام ١٨٧٧م = ١٢٩٤هـ .

وكان المطبوع الثاني من حيث الترتيب الزمني في تاريخ الطباعة في شبه الجزيرة العربية هي صحيفة صنعاء (الشكل رقم ٢) التي يعرض لنشأتها أحد الباحثين قائلاً بعد خطاب العرش الذي ألقاه السلطان عبد الحميد الثاني في مارس ١٨٧٧م ربيع

الأول سنة ١٢٩٤هـ ، الذي أبدى فيه استعداده لإلغاء الرقابة على الصحافة وتشجيع نشوء الصحافة وحرية استمرارها ، فقد أمر بإصدار صحيفة صنعاء كصحيفة رسمية لولاية اليمن أسوة بغيرها في الولايات .وقد ظهرت صحيفة أسبوعية سنة ١٢٩٧هـ ، الموافق ١٨٧٨م ، كانت تصدر كل يوم ثلاثاء ، وكانت أول صحيفة تصدر في شبه الجزيرة العربية بناء على رغبة السلطان عبد الحميد الثاني بهدف خدمة المصالح الحكومية . وقد وضع على رأس الصفحة الأولى على الجانب الأيمن ما يأتي : مدير المطبعة ومحررها شوقي أفندي يلزم المراجعة لدائرة مكتوبي الولاية . بخصوص الاشتراك وأمور تحريرها في داخل الولاية ثمنها عن سنة ثلاثة ريالات ، وعن ستة أشهر ريال ونصف ، وريال عن ثلاثة أشهر ، قيمة النسخة الواحدة أربعة بارة . وكتب في الجانب الأيسر ، وتخرج يوم الثلاثاء من كل أسبوع . والأوراق التي تعطى من الخارج إن كانت تشتمل على المعارف والأدبيات العائد نفعها للعموم تُقبل مجاناً وتُطبع ، والإعلانات يؤخذ عليها أجرة .[٦٤] ولعل ما يورده عبد الله الزين هو أدق ما وقفنا عليه من معلومات عن هذه الصحيفة التي تضاربت المعلومات حول تحديد تاريخ تأسيسها الذي جعل عند أغلب الباحثين عام ١٨٧٧م .[٦٥] وفي الفهرس الموحد للصحف والمجلات المطبوعة بالحروف العربية في مكتبات إستانبول ، أشير إلى أنها كانت تصدر أسبوعياً كل يوم ثلاثاء ، ثم أصبحت تصدر يوم الخميس ، وأن العدد الأول منها صدر عام ١٢٩٢هـ = ١٨٧٥م .[٦٦] وحدد بعض الباحثين تاريخ صدورها بعام ١٨٧٩م ،[٦٧] وهو يوافق عام (١٢٩٧هـ) .

ونخرج مما سبق إلى أن هناك أربعة تواريخ مختلفة تتعلق بفترة ظهور هذه الصحيفة ، وهي ١٨٧٥ ، و١٨٧٧ ، ١٨٧٨ ، و١٨٧٩م ؛ ولعل أكثر هذه التواريخ غرابة هو عام ١٨٧٥م ، رغم وروده في فهرس رسمي صادر عن هيئة إقليمية إسلامية ، تزاول نشاطها في تركيا .

وكانت هذه الصحيفة تخدم أفكار الدولة العثمانية ومصالحها ، وتطبع بالعربية والتركية في أربع صفحات كبيرة ، ثم صدرت «في ثماني صفحات صغيرة بحرف جلي أكثر إتقاناً ، أما عبارتها فكانت ركيكة ، تدل على قصر باع كتَّابها في صناعة الإنشاء ، ثم تحسنت قليلاً في السنين الأخيرة[٦٨] ويذكر مروة أنها كانت جريدة رسمية ، يشرف عليها المتصرف العثماني وتنطق بلسان الدولة العثمانية .[٦٩] وكما فصّل في الحديث عن نشأتها ، والظروف التي أحاطت بتلك النشأة فصل الزين في الحديث عن هذه الصحيفة ، ووصفها بدقة قائلاً : وكانت تطبع في مطبعة الولاية باللغة التركية ، وابتداء من العدد ٢٤٨ صدرت باللغتين العربية والتركية وكان رئيس تحريرها وقت صدورها رجب أفندي ، وفي باديء الأمر ظهرت في أربع صفحات من حجم ٤٦ في ٣١سم ، ثم طبعت بعد ذلك في ثمان صفحات ذات قطع متوسط ، وكانت تهتم بنشر القوانين والمراسيم التي تصدر في عاصمة الولاية تحت عنوان باب حوادث الولاية ، وتشتمل أيضاً على التعيينات السامية ، وتحركات كبار القادة ، ثم باب التوجهات ، وهي عبارة عن نشرة أخبار التعيينات والتنقلات والوظيفية . . . وباب محكمة استئناف الولاية ، وفي هذا الباب تنشر قرارات المحاكم . . . وكانت توزع على الإدارات والمصالح والقوات المسلحة ، ونظراً لما كان يعتمل في نفوس اليمنيين من نفور تجاه العثمانيين لم يكن يقرأ هذه الصحيفة غير الأتراك المتعاطفين ، وكانت تعدّ أداة الدعاية العثمانية في اليمن .

وكان أسلوب هذه الصحيفة في بداية أمرها أسلوباً شائعاً ودارجاً ، مما يبين عدم كفاية محرريها ، وضعف قدراتهم ، ولكن ما لبث أن تحسن تحريرها وعرضها نوعاً ما . . . وابتداء من أوائل سنة ١٣٠٢هـ غيرت يوم صدورها إلى يوم الخميس بدلاً من الثلاثاء دون أي تغيير في سياسة الصحيفة المستمدة من الوالي ، إلا أن أسلوبها تحسن نوعاً ما ، يضاف إلى هذا أنها أصبحت تنشر بعض الأخبار الرياضية . . .[٧٠]

وفي عام ١٨٨١م = ١٢٩٨هـ ظهرت سالنامة اليمن التي كانت بمنزلة الكتاب السنوي الرسمي لولاية اليمن العثمانية . وطبع العدد الأول (الشكل رقم٣) بطريقة بدائية على ورق أوروبي سيىء ، وكتب على صفحة الغلاف ما يلي :

برنجي دفعه

يمن سالنامه سي

سنة هجرية

١٢٩٨

محرري

صنعا غزته سي محرري ويدغجي أردوي

همايون تحريرات باش كاتبي

حميد وهبي .[٧١]

وكما يظهر من العنوان فقد أشرف على تحريرها المحررون في جريدة صنعاء برئاسة حميد وهبي ، وتظهر المقدمة أن الهدف من ظهور السالنامة كان العمل على رقي اليمن وتقدمها ، وجاء العدد الأول في ١١٢ صفحة ، إضافة إلى بعض الرسوم وخريطة واحدة .

ويوضح الزين الذي يطلق عليها اسم المجلة السنوية ، أنها كانت تهتم بنشر الأنباء والإحصاءات الخاصة بالحياة في الولاية .[٧٢] وقد ظهر العددان الأولان منها تحت إدارة حميد وهبي ، ثم أسندت مهمة الإشراف إلى حسين حسني وحسن حلمي . . . وقد تضمن العدد الثالث الصادر في ١٨٨٧م مقالاً رئيسياً ، استمرت المجلة في الصدور باللغة التركية إلى غاية العدد السابع ، وتأخر صدور العدد الثامن ، إذ عمد مدير المطبعة الجديد مصطفى حلمي الذي كان يعدّ رئيس التحرير إلى التأخير

للتمكن من إصدار العدد باللغتين العربية والتركية . . . ويمكن القول إن التوزيع كان محدوداً في ولاية اليمن ، فلم يكن يشمل سوى فئة محدودة من الأشخاص كالعسكريين والموظفين الأتراك في اليمن .(٧٣) ورغم أن أحد الباحثين يشير إلى أن ما صدر منها هو أحد عشر عدداً للسنوات ١٢٩٨ ، ١٢٩٩ ، ١٣٠٢ ، ١٣٠٤ ، ١٣٠٥ حتى ١٣٠٨ ، ١٣١١ ، ١٣١٣ ، ١٣١٤هـ ،(٧٤) إلا أن المرجع اعتماداً على سرد دقيق موثق لما صدر منها أنها اقتصرت على تسعة أعداد صدرت في الأعـــوام ١٢٩٨ (١٨٨١م) ، و١٢٩٩ (١٨٨٢م) ، و١٣٠٤ (١٨٨٧م) ، و١٣٠٥ (١٨٨٨م) ، و١٣٠٦ (١٨٨٩م) ، و١٣٠٧ (١٨٩٠م) ، و١٣٠٨ (١٨٩١م) ، و١٣١١ (١٨٩٣م) ، و١٣١٣ (١٨٩٥م) .(٧٥) وفيما عدا هذه الأعمال الثلاثة التي وقفنا على معلومات عنها ، لا نجد أي مطبوع آخر أشير إلى صدوره عن مطبعة ولاية اليمن في أي مصدر من المصادر التي تناولت هذا الموضوع غير كتاب إيساغوجي لأثير الدين الأبهري ، نشر باللغة التركية عام ١٣٠٩هـ (١٨٩٢م) بترجمة إبراهيم خليل بن حافظ عبد الحميد(٧٦) مما يعني أن تلك المطبعة لم تنشر أي عمل عربي على شكل كتاب ، ولعل الأمية التي كانت متفشية في اليمن هي السبب في ذلك ، إضافة إلى شعور المسؤولين في الإدارة العثمانية بأن الكتاب المطبوع لا يمكنه مزاحمة الكتاب المخطوط الذي كان شائع الاستخدام في تلك الفترة بين المتنورين من اليمنيين ، ويدل الاقتصار على طباعة الأعمال السابقة على أن الهدف منها كان إيصال المعلومات إلى العاملين في الإدارة العثمانية في صنعاء بالدرجة الأولى .

المطبعة الميرية

أما المطبعة الميرية في مكة المكرمة فقد توجهت منذ بداية ظهورها نحو طباعة الكتب باللغات العربية والتركية الجاوية (الملاوية) ، وقد ساعد الوضع الثقافي في مكة الذي كان نشطاً في تلك الفترة على هذا التوجه ، إذ كانت مكة في ذلك الوقت تضم علماء سبق لهم نشر أعمالهم خارج حدودها .

ويتبين لنا من خلال اعلان ورد على ظهر الغلاف الأخير من سالنامة الحجاز لعام ١٣٠١هـ (الشكل رقم ٤) أن نشر الكتب واكب ظهور هذه المطبعة في عام ١٣٠٠هـ ، إذ أشير إلى ستة عناوين نشرتها المطبعة ، مما يدل على ظهورها قبل نشر السالنامة ، وجاءت صيغة الاعلان على النحو التالي :

أسماء الكتب المطبوعة الجديدة :

- كتب تسهيل المنافع في الطب والحكمة والمشتمل على شفاء الأسقام وكتاب الرحمة للشيخ الإمام العالم العلامة إبراهيم بن عبد الرحمن بن أبي بكر الأزرقي ، وعلى هامشه كتاب الطب النبوي للإمام الهمام المحدث الحافظ أبي بكر عبد الله بن أحمد بن عثمان الذهبي ، يحتوي على ٢٧٢ صحيفة .
- كتاب تنبيه الغافلين وبهامشه بستان العارفين لأبي الليث السمرقندي ، يحتوي على ٣٢٨ صحيفة .
- الرسالة المسماة فتح القدير باختصار متعلقات نسك الأجير .
- الرسالة المسماة تحفة الصبيان في الفقه على مذهب النعمان وبهامشها كفاية الغلام للنابلسي .
- كتاب رجوع الشيخ إلى صباه في القوة على الباه لابن كمال باشا ، يحتوي على ١١٠ صحيفة .
- كتاب عمدة السالك وعدة المناسك تأليف الإمام العالم العلامة شهاب الدين ابن عباس بن النقيب المصري الشافعي ، يحتوي على ١١٠ صحيفة .[٧٧] .

ويبدو أن هذه العناوين جميعها طبعت في عام ١٣٠٠هـ ، أي مع بداية نشاط المطبعة ، وارتفع عدد المطبوعات كما ظهر في إعلان ورد على الصفحات ٢٠٢ ، و٢٠٣ ، و٢٠٤ من سالنامة الحجاز لعام ١٣٠٣هـ إلى ٣٣ كتاباً عربياً ، و١٢ كتاباً ، جاوياً شمل العناوين التي وردت في سالنامة الحجاز لعام ١٣٠١هـ ، وعناوين

جديدة ظهرت عقب ذلك ، بينها :

- فيض الرحمن في المعاني والبيان .
- فتح البرية شرح نظم الآجرومية .
- الفواكة الجنية في النحو .
- جواهر القرآن .
- شرح المولد للبرزنجي .

ومن الكتب الجاوية الملاوية :

- فروع المسائل في الفتوى على المذهب الشافعي .
- الدر النفيس في التصوف .
- الدر الثمين في أصول الدين .
- كشف الغمة في ذكر الموت وأحوال الآخرة .(٧٨) إضافة إلى العددين الأول والثاني من سالنامة ولاية الحجاز ، وكان الأول بالتركية ، والثاني بالتركية والعربية .

ومما طبع في سنوات تالية :

- حاشية على تحفة المحتاج ، لعبد الحميد الشرواني ، عام ١٣٠٤هـ .
- الحرز الثمين للحصن الحصين ، لملا علي القاري ، عام ١٣٠٤هـ .
- حاشية القليوبي على شرح الجلال المحلي على المنهاج المسمى بكنز الراغبين ، لشهاب الدين أحمد بن أحمد بن سلامة القليوبي ، عام ١٣٠٥هـ .
- الفتوحات المكية ، لمحيي الدين أبي بكر محمد بن علي بن عربي ، في عام ١٣٠٦هـ .

- ديوان ابن المقرب العيوني ، عام ١٣٠٧هـ .
- رشحات عين الحياة ، لعلي بن الحسن الواعظ الكاشفي ، ترجمة محمد مراد المنزلوي ، عام ١٣٠٧هـ .
- فتاوى سليمان بن محمد الكردي ، وعلى هامشه فتاوى محمد صالح الريس الزبيري ، عام ١٣٠٧هـ .
- رسالة في أذكار الحج المأثورة وآداب السفر والزيارة ، لمحمد سعيد بابصيل ، عام ١٣١٠هـ .
- خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام من زمن النبي عليه السلام ، إلى وقتنا هذا باهتمام ، لأحمد زيني دحلان ، عام ١٣١١هـ .
- الخريدة البهية في إعراب ألفاظ الآجرومية ، لعبد الله بن عثمان العجيمي المكي ، عام ١٣١٣هـ .
- العقد الثمين في فضل البلد الأمين ، لأحمد الحضراوي ، عام ١٣١٤هـ .
- رسالة القول المتناسق في حكم الصلاة خلف الفاسق ، لأحمد عمر بركات الشامي ، عام ١٣١٦هـ .

ويتضح لنا من الكتب المطبوعة في المطبعة ، أن الطباعة فيها كانت لا تختلف كثيراً من الناحية الفنية عن الطباعة في مطبعة بولاق على وجه الخصوص وإن كان هناك اتجاه واضح نحو طباعة مجموعة كتب في مجلد واحد ، بحيث يأتي أهمها متناً وتأتي البقية على الهوامش . ومن نماذج ذلك كتاب الغنية لطالبي طريق الحق لعبد القادر الجيلاني ، حيث طبع على هامشه كتاب سر الأسرار لمحيي الدين محمد عبد القادر الجيلي ،[٧٩] وكتاب الدر الغالي شرح إرشاد المتحلي لعثمان وهبي القونيوي ، وطبع على هامشه شرح الحصن الحصين للملا علي القاري[٨٠] وكتاب معرب المكتوبات الشريفة لمحمد مراد المنزلوي ، وطبع على هامشه كتاب الرحمة الهابطة

في تحقيق الرابطة لحسين الدوسري ،[٨١] وقد استخدمت هذه المطبعة ورقاً جيداً مقارنة بالورق المستخدم في مطبعة صنعاء ، كما أن الحروف كانت أكثر دقة واعتني في طباعتها بالناحية الفنية ، من خلال الاهتمام بإضفاء جوانب جمالية على بعض المطبوعات .

وتميزت مطبوعات الميرية باحتوائها على حشد من المعلومات المدونة على الغلاف تستغرق أحياناً الصفحة بأكملها ، ولا يُعد منهجها هذا نشازاً عما كان سائداً في المطابع العربية الأخرى في مصر على وجه الخصوص ، ولإعطاء صورة توضيحية لما كانت عليه أغلفة بعض ما نشرته هذه المطبعة نستعرض جملة من العناوين ، من بينها كتاب : الدرر البهية[٨٢] (الشكل رقم٥) الذي توزعت المعلومات المتعلقة به على ثماني مساحات ، اشتملت الأولى على خمسة أسطر ، خاصة بالعنوان واسم المؤلف وجاءت كما يلي :

هذه الرسالة المسماة بالدرر البهية فيما يلزم

المكلف من العلوم الشرعية جمع الراجي

العفو من ربه ذي العطا أبي بكر بن

محمد شطا يغفر الله له وللمسلمين

آمين ، بجاه الأمين

وعلى المساحة الثانية نجد سطراً واحداً احتوى على ما يأتي :

ولبعضهم قائلاً في هذه الرسالة ، بلغه الله مقاصده بصاحب الرسالة .

وعلى الثالثة ثلاثة أبيات من الشعر ، هي :

إن رمت تحظى بالعلوم وتعتبر

لاسيما الشرعي منها المفتخر

فعليك بالدرر البهية إنها
تغني اللبيب إذا تفكر واعتبر
فاغن بها عن غيرها تنل العلا
وتحوز فضلاً ليس تحوية الفكر

واحتوت المساحة الرابعة سطراً واحداً كتب عليه رقم الطبعة ، وهي الثالثة . وعقبها مساحة خامسة بيضاء ؛ وعلى السادسة دوّن في سطر واحد ما يأتي «طبع في المطبعة الميرية الكائنة بمكة المحمية» . ثم مساحة بيضاء . وعقبها الثامنة . ودوّن عليها تاريخ الطباعة ، وهو عام ١٣١١هـ .

وتوزعت المعلومات في صفحة العنوان الخاصة بكتاب سبل السلام . . .[٨٣] (الشكل رقم ٦) داخل خمس مساحات ، فجاء عنوان الكتاب واسم مؤلفه على المساحة الأولى في أربعة أسطر كما يلي :

هذه الرسالة المسماة بسبل السلام لمن دخل
البيت والمقام تأليف العلامة
الشيخ محمد المنصوري مفتي
المالكية بمكة المحمية .

واحتوت المساحة الثانية سطراً واحداً نصه :

«وبهامشه ترجمة الرسالة المذكورة بالتركي»

وجاء النص التركي على المساحة الثالثة موزعاً على أربعة أسطر كما يأتي :

مكة المكرمة ده مالكي مفتيسي شيخ محمد منصوري أفنديك بيت الله الحرام
ومقام إبراهيم عليه السلام دخولنه ترتب إيدن فضلني بيانانه دائر تأليف
كرده سي بولنان (سبل السلام لمن دخل البيت والمقام) نام

رسالة نافعة ترجمة سي كنا رنده مطبوعدر .

وحدد رقم الطبعة على المساحة الرابعة ، وهي : الطبعة الأولى .

أما المساحة الأخيرة فجعلت لاسم المطبعة في سطر وتاريخ الطباعة في سطر على النحو الآتي :

بالمطبعة الميرية الكائنة بمكة المحمية

سنة ١٣١٢هـ .

وملئت صفحة العنوان الخاصة بكتاب صلح الجماعتين . . .[٨٤] (الشكل رقم ٧) بحشد من المعلومات توزعت علي سبع مساحات ، الأولى منها خصصت للعنوان والمؤلف جاءت في عشرة أسطر وضعها كالتالي :

هذا الكتاب المسمى

(بصلح الجماعتين ، بجواز تعدد الجمعتين)

تأليف صاحب التحقيق والتدقيق والناهج في نصرة الحق أقوم طريق جامع

أشتات الفضائل وملحق الأواخر بالأوائل المدرس والإمام .

بالمقام الشافعي بالمسجد الحرام ، الآخذ من الكمالات بأوفر

نصيب الشيخ أحمد الخطيب ابن الشيخ

عبد اللطيف الخطيب ابن الشيخ عبد الله

المنكاباوي الجاوي متع الله المسلمين

ببقائه وأسبغ عليه وافر

نعمائه آمين .

وعلى الثانية ذكرت عناوين ثلاث رسائل مطبوعة على هامش الكتاب ، توزعت المعلومات عنها على خمسة أسطر نصها كما يلي :

ويهامشه ثلاث رسائل (إحداها) تتعلق بشروط الجمعة وجواز تعددها بقدر الحاجة في بلدة واحدة (والثانية) تتعلق بجواز العمل بالقول القديم للإمام الشافعي رضي الله عنه في صحة الجمعة بأربعة وكلاهما للعلامة المرحوم السيد أبي بكر ابن السيد محمد شطا نفع الله بهما (والثالثة) هي نور اللمعة في خصائص الجمعة لخاتمة المحدثين جلال الدين عبد الرحمن السيوطي نفعنا الله والمسلمين بعلومهما آمين .

ودون على الثالثة ما نصه :

وقد قرظه بعض الفضلاء المحققين من علماء الشافعية فقال وعلى المساحة الرابعة سبعة أبيات من الشعر ، مذيلة بتاريخ الطباعة وفقاً لحساب الجمّل هي :

صلح الجماعتين جاء جيـــــدا — في بابه وقد هدانا رشـــــــدا
ألفه الخطيب أحمد الـــــــذي — أصبح في العلم إماما مفـــردا
فجاء فيه بالبراهين التــــــــي — أوضح فيها عن محجة الهـــدا
فخذ بما جاء واترك غيــــــره — فالحق فيه قد بدا مؤيـــــــدا
وليس بعد الحق شك لامـــرئ — ومن يشك فيه جار واعتـــــدا
وذاك فضل الله يؤتي من يشا — فلا تقل كيف أصاب الجيـــدا
ومذ حلا بالطبع تاريخ لـــــه — صلح الجماعتين بالرشد بـــدا

سنـــــة ١٣١٢، ٣٥، ١٢٨، ٦٠٥، ٥٣٧، ٧

ثم تاريخ الطباعة وفقاً لحساب الجمل ، وهو «سنة ١٣١٢ ، ٣٥ ، ١٢٨ ، ٦٠٥ ، ٥٣٧ ، ٧»

وتضمنت المساحة الخامسة ما يشير إلى حق الملكية في سطرين ، هما :

قد طبع هذا الكتاب على ذمة المكرم محمد ماجد الكردي نجل المكرم الشيخ محمد صالح بن فيض الله الكردي المكي[٨٥]

وعقبها سطر واحد في المساحة السادسة : الطبعة الأولى

ثم في المساحة السابعة والأخيرة : طبع في المطبعة الميرية الكائنة بمكة المحمية سنة ١٣١٢ هجرية .

وتوزعت المعلومات في صفحة كتاب لآلئ الطل الندية على الباكورة الجنية في عمل الجيبية . . .[٨٦] (الشكل رقم ٨) على خمس مساحات ، الأولى خصصت للعنوان والمؤلف في خمسة أسطر ، والثانية إشارة إلى كتابين طبعاً على هامشه ، وفي الثالثة رقم الطبعة ، وجعلت الأخيرة للإشارة إلى اسم المطبعة وسنة الطبع ١٣١٣هـ ، ولعل المعلومة الجديدة الجديرة بأن يُشار إليها هنا هي التي وردت على المساحة الثالثة وجعلت على أربعة أسطر ، وتتعلق بحق الملكية ونصها :

لا يسوغ لأحد طبع هذا الكتاب بغير إذن مؤلفه ورضاه وبغير المطبعة الميرية الكائنة بمكة

المحمية ومن تجاسر على طبعه يحاكم

ويجازي بمقتضى القوانين الجارية في المطبوعات

وتقام عليه الدعوى

ومثل هذا النص ، وما ورد في الكتاب السابق يدلان على الاهتمام بحق الملكية وخضوع هذا الحق لنظام خاص بها ، لعله نظام المطبوعات الذي كان يعمل به في مختلف الولايات العثمانية .[٨٧] ووفقاً لما استطعنا أن نقف عليه من معلومات حول الكتب المطبوعة في الميرية بمكة المكرمة خلال القرن التاسع عشر الميلادي فإن عددها يصل إلى ١٤٦ عنواناً ، وهو رقم تقديري ، اعتمد فيه على جهد شخصي ، نظراً لعدم وجود مصدر يعتمد عليه في حصر الأعمال التي ظهرت خلال تلك الفترة على وجه الدقة .

وتعد سالنامة الحجاز ، أو التقويم السنوي لولاية الحجاز من أبرز الأعمال التي صدرت في تلك الفترة لاحتوائها على معلومات تخص الدولة العثمانية على وجه

العموم ، وولاية الحجاز على وجه الخصوص ، وقد صدر من هذا التقويم أو السالنامة خمسة أعداد ، الأول في ١٣٠١ (الشكل رقم ٩) ، وجاء في ١٨٢ صفحة ، والثاني في عام ١٣٠٣هـ ، وجاء في ٢٠٤ صفحات بالتركية العثمانية و١٩٢ صفحة باللغة العربية في مجلد واحد ، والثالث في عام ١٣٠٥هـ ، وجاء من ٢٥٢ صفحة ، والرابع عام ١٣٠٦هـ في ٣٠٦ صفحات ، والخامس وهو الأخير في عام ١٣٠٩هـ ، وجاء في ٣٠٩ صفحات .[٨٨] وتحفل هذه السالنامات بمعلومات أساسية عن ولاية الحجاز ، ولها أهمية خاصة في التاريخ لهذه المنطقة في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي وأوائل القرن الرابع عشر الهجري (الشكل رقم ١٠) .[٨٩]

الاتجاهات المكانية والزمانية والموضوعية واللغوية للطباعة في شبه الجزيرة

قام الباحث لغرض تحليل الاتجاهات المكانية والزمانية والموضوعية واللغوية إلى وضع قائمة بالكتب التي نشرت في الفترة من عام ١٢٩٨ إلى عام ١٣١٧هـ (١٨٨٠ إلى ١٨٩٩م) توصل إلى ناتجها من مجموعة من المصادر ، وهي :

- بواكير الطباعة والمطبوعات في بلاد الحرمين الشريفين لأحمد الضبيب
- دليل المؤلفات المطبوعة بالحروف القديمة (العربية) لسيف الدين أوزاكه
ESKI HARFLERLE BASILMIS TURKCE ESERLER KATALOGU
- سالنامة ولاية الحجاز لعام ١٣٠١هـ .
- سالنامة ولاية الحجاز لعام ١٣٠٣هـ .
- الفهرس الموحد للتقاويم العثمانية السالنامات والنوسالات الموجودة في مكتبات استانبول .
- الفهرس الموحد للصحف والمجلات المطبوعة بالحروف العربية في مكتبات استانبول ١٨٢٨ - ١٩٢٨م .

- مكتبة مكة المكرمة لعبد الوهاب أبو سليمان .

وتمكن من خلال البحث فيها وكذلك الاطلاع على مجموعة من العناوين المطبوعة في الميرية اطلاعاً مباشراً من رصد ١٥٦ عنواناً ، واستبعد من القائمة يمن وصحيفة صنعاء لعدم اقتناعه بأن العنوان الأول هو نشرة أو صحيفة فقد جاء في ترويسته أنه إعلان ، إضافة إلى أنه يشك في أن يكون هذا الإعلان قد طبع في صنعاء نفسها عام ١٨٧٢ ؛ أما الصحيفة فقد وجد صعوبة في حصر أعدادها ، إضافة إلى عدم مناسبة ذكرها بين مجموعة من المنفردات .

وعمد الباحث إلى تحليل محتوى القائمة في الجدول الخاص بالاتجاهات الزمانية والمكانية والموضوعية واللغوية ، وخرج منه بالنتائج التالية :

أولاً : فيما يخص الاتجاهات المكانية

يوضح الجدول أن مجموع ما تم طبعه في مكة بلغ ١٤٦ عنواناً ، تشكل نسبة ٩٤٪ من مجموع ما صدر من مطبوعات في شبه الجزيرة العربية في القرن التاسع عشر ، وأن المتبقي وهو ١٠ عناوين ، طبعت في صنعاء ، نسبتها ٦٪ من المجموع العام ، وتدل هذه النتيجة على نشاط علمي ملموس في منطقة الحجاز في مقابل ضعف هذا النشاط وضآلته في اليمن خلال الفترة المدروسة .

ثانياً : فيما يخص الاتجاهات الزمانية

يوضح الجدول أن الفترة من عام ١٣٠٠ إلى ١٣٠٣هـ شهدت نشاطاً جيداً في مجال الطباعة ، إذ بلغ عدد ما طبع فيها ٥٩ عنواناً ، تمثل نسبة ٣٧٪ ، ونظراً لوجود ٣٠ عنواناً طبعت خلال ١٣٠١ إلى ١٣٠٣هـ ، لم يستطع الباحث تحديد أعوام طباعتها على وجه الدقة ، فإن من الصعب الحكم على العام الأكثر طباعة فيه من بينها ، ويلغ عدد ما طبع في عامي ١٣١٣و ١٣١٦هـ أحد عشر عنواناً ، بنسبة ٧٪ في كل عام منهما ، ثم في عامي ١٣١١ و١٣١٢هـ عشرة عناوين ، تشكل نسبة ٦٪ في

كل عام منهما ؛ فأعوام ١٣٠٤ و١٣٠٥ و١٣٠٦ و١٣١٤هـ ثمانية عناوين ، نسبتها ٥٪ ، في كل عام فعام ١٣٠٧هـ سبعة عناوين ، تمثل نسبة ٤٪ ، ثم عام ١٣١٧ خمسة عناوين نسبتها ٣٪ ، فعام ١٣١٥هـ بأربعة عناوين ، نسبتها ٥ ,٢٪ ، فعام ١٣٠٩هـ ثلاثة عناوين ، نسبته ٢٪ ، فعام ١٣١٠هـ عنوانين ، تمثل نسبة ١٪ ، فأعوام ١٢٩٨ ، و١٢٩٩ ، ١٣٠٨هـ عنواناً واحداً ، بنسبة ٥ ,٠٪ .

ثالثاً : فيما يخص الاتجاهات الموضوعية

ويظهر من الجدول أن موضوعات الدين قد استحوذت على أكثر من نصف ما طبع خلال الفترة ، إذ بلغ عددها ١٠٥ عنوان ، تمثل نسبة ٦٧٪ ، ثم اللغة والأدب بـ ١٧ عنواناً ، نسبتها ١١٪ ، و١٥ عنواناً في المعارف العامة ، نسبتها ١٠٪ ، أربعة عشر عنواناً منها تخص سالنامات اليمن والحجاز ، تسعة لليمن ، وخمسة للحجاز ، ثم التاريخ ١٠ عناوين ، نسبتها ٦٪ ، والعلوم ٦ عناوين تمثل ٤٪ ، و٣ عناوين في المنطق ، نسبتها ٢٪ . وتوضح هذه الاتجاهات غلبة موضوعات الدين واللغة والأدب التي تشكل في مجموعها ١٢٢ عنواناً .

رابعاً : فيما يخص الاتجاهات اللغوية

يوضح لنا الجدول أن مجموع ما طبع باللغة العربية خلال الفترة المحددة ١٢٦ عنوان ، تشكل نسبته ٨١٪ ، ثم ما طبع بالتركية ، وعدده ١٨ عنواناً ، تمثل نسبة ١١٪ ، ثم ما طبع بالجاوية الملاوية ، وعدده ١٢ عنواناً ، نسبتها ٨٪ إلى المجموع العام ، ومما تجدر الإشارة إليه أنه لم يطبع بالعربية أي عنوان في صنعاء ، كما أن ما طبع بالجاوية الملاوية كان عن المطبعة الميرية في مكة ، وظهور هذا العدد من الكتب بهذه اللغة في مكة سببه وجود جالية تنطق بالجاوية كانت تعيش فيها ، وكان من بين أفراد هذه الجالية علماء يجيدون العربية ، وهم الذين أقدموا على ترجمة بعض المؤلفات العربية وتأليف أخرى بهذه اللغة . أما العناوين التركية فعشرة منها

طبعت في صنعاء ، وثمانية في مكة .

الخلاصة والنتائج

نخلص من هذه الدراسة إلى مجموعة من النتائج هي :

- أن الطباعة في شبه الجزيرة العربية وفقاً لاجتهادات بعض الباحثين ، وأغلبهم من اليمنيين ، بدأت عام ١٨٧٢م اعتماداً على التاريخ المثبت على نشرة يمن التي لم يشر أي واحد من الذين تحدثوا عن وجودها إلى ما يثبت أنها طبعت في صنعاء وهو ما يدفع إلى التردد في اعتبارها مطبوعة يمنية ، خاصة أنها لم تستمر طويلاً ، ولم يشر إليها نهائياً في الفهرس الموحد للصحف والمجلات المطبوعة بالحروف العربية في مكتبات إستانبول ، ولا في فهرس المطبوعات التركية بالحروف القديمة ، ولا يعرف متى كان توقفها ، كما لم يقدم لنا أي واحد من الذين تعرضوا لها ما يثبت أن أعداداً منها قد صدرت فعلياً ، ويبدو لنا من خلال صورة العدد الذي نشره الزين في كتابه أن هذه النشرة هي عبارة عن إعلان صدر مرة واحدة فقط ، لعله طبع خارج اليمن .

- أن عام ١٨٧٧م هو العام الذي رجحه أغلب الباحثين الذين تعرضوا لهذا الموضوع مع ربط هذه البداية بظهور جريدة صنعاء .

- أن الطباعة في اليمن خلال القرن التاسع عشر الميلادي اقتصرت على إصدار جريدة صنعاء وتسعة أعداد من سالنامة ولاية اليمن ، وكتاب واحد مترجم إلى التركية ، وهو ما يعني أن تركيز مطبعة الولاية في صنعاء كان على الأعمال الموجهة إلى العاملين في الإدارة العثمانية ، دون أدنى اهتمام بتطوير ثقافة السكان المحليين ، وبالتالي لم يصدر عنها أي كتاب عربي في الفترة المحددة لهذه الدراسة .

- أن الوضع الفني لمطبعة الولاية في صنعاء كان متواضعاً جداً من حيث التجهيزات الآلية ومهارة الفنيين العاملين فيها ونوعية الورق الذي استخدم في نشر ما كانت تقوم بطباعته ، ولم تحظ بأدنى اهتمام من المجتمع اليمني في تلك الفترة .

- أن أسبقية اليمن على الحجاز في ظهور الطباعة يعود إلى بعده عن مركز الدولة وصعوبة إيصال التعليمات إلى الرسميين العثمانيين في تلك الولاية التي كانت تعاني أيضاً من عزلة جغرافية قياساً بالحجاز ، مما دفع بالعثمانيين إلى الإسراع في تأسيس مطبعة خاصة فيه عقب الاستيلاء عليه في المرة الثانية .

- هناك اتفاق بين الباحثين على أن المطبعة الميرية في مكة بدأت فعلياً في عام ١٣٠٠هـ .

- أن الميرية قياساً إلى مطبعة الولاية في صنعاء كانت متطورة من حيث التجهيزات ومهارة الفنيين العاملين فيها ، وأنها حظيت بوضع إداري جيد ، واستخدمت نوعاً جيداً من الورق .

- أن الميرية عنيت منذ البداية بطباعة الكتب ، فأصدرت في عام ١٣٠٠هـ (١٨٨٣م) ستة كتب بعضها كبير الحجم ، وأخرى صغيرة الحجم ، هي عبارة عن رسائل جاءت في بضع صفحات .

- أن النشاط الطباعي للمطبعة الميرية كان كبيراً في سنواتها الأولى ، إذ وصل عدد ما أصدرته إلى عام ١٣٠٣هـ (١٨٨٥م) قرابة ٥٩ عنواناً ، وأنها كانت تنشر كتباً في اللغات العربية والتركية والجاوية الملاوية .

- أن الميرية على خلاف مطبعة الولاية في صنعاء كانت أقل اهتماماً بإصدار الأعمال الدورية ، إذ لم يصدر عنها خلال فترة الدراسة غير خمسة أعداد من سالنامة ولاية الحجاز .

- أن ما طبع في الميرية يمثل ٩٤٪ من مجموع ما طبع في شبه الجزيرة العربية في الفترة المحددة لهذه الدراسة ، في حين كان نصيب مطبعة صنعاء ٦٪ فقط .

- أن الاتجاهات الموضوعية للنشر في المطبعة الميرية غلب عليها الاتجاه الديني فجاءت الكتب التي لها صلة بموضوعات الدين الإسلامي في المركز الأول ، وتلتها

موضوعات اللغة والأدب فالمعارف العامة ، ثم التاريخ فالعلوم ، وأخيراً المنطق .

- أن جملة من علماء الحرمين الشريفين طبعوا بعض مؤلفاتهم خارج شبه الجزيرة العربية منذ عام ١٢٧٧هـ (١٨٦٠م) ، واستمروا على هذا النهج رغم قيام المطبعة الميرية ، يوضح ذلك أعمال مجموعة منهم نشرت في القاهرة وبيروت وإستانبول ، مما يدفع إلى الظن أن الطاقة الاستيعابية للمطبعة الميرية لم تكن متناسبة مع الحركة الفكرية التي شهدتها منطقة الحجاز في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي .

- أن الميرية كانت تعنى بحق الملكية الفكرية ، وهو ما ظهر واضحاً على بعض مطبوعاتها التي نص فيها على إثبات الحق لمؤلفيها ، والتحذير من التعدي على هذا الحق .

- أن المعلومات المتوافرة عن الطباعة في شبه الجزيرة العربية لا تزال غير متكاملة نظراً لعدم وجود ضبط ببليوغرافي دقيق لما طبع في شبه الجزيرة العربية خلال القرن التاسع عشر الميلادي .

الحواشي

(١) نبيل عبد الحي رضوان ، الدولة العثمانية وغربي الجزيرة العربية بعد افتتاح قناة السويس (١٢٨٦-١٣٢٦هـ = ١٨٦٩-١٩٠٨م) - جدة : تهامة ، ١٤٠٣هـ = ١٩٨٣م (رسائل جامعية ، ١١) ص ٩٧-٩٨ .

(٢) عمر عبد الجبار ، سير وتراجم بعض علمائنا في القرن الرابع عشر للهجرة - جدة ، تهامة ، ١٤٠٣هـ = ١٩٨٢م (الكتاب العربي السعودي ، ٦٧) .

(٣) إبراهيم فوزان الفوزان ، إقليم الحجاز وعوامل نهضته الحديثة - الرياض : المؤلف ، ١٤٠١هـ = ١٩٨١م ، ص ٢٨٠ .

(٤) تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن في حوادث وتاريخ اليمن - ط ٣ - صنعاء : الدار اليمنية للنشر والتوزيع ، ١٤٠٢هـ = ١٩٨٢م ، ص ٢٩ .

(٥) عبد الله محمد الحبشي ، مصادر الفكر العربي الإسلامي في اليمن - صنعاء : مركز الدراسات اليمنية ، د . ت ، ص ٣٢ .

(٦) السابق ، ص ٣٣ .

(٧) السابق ، ص ٤٥٩ .

(٨) الجرائد العربية في العالم ، الهلال ع١ (١٨٩٢م) ص ١٤ . عن : محمد عبد الرحمن الشامخ / نشأة الصحافة في المملكة - الرياض : دار العلوم ، ١٤٠٢هـ = ١٩٨٢م ، ص ٤٣ .

(٩) تاريخ الصحافة العربية . . . - بيروت : المطبعة الأدبية ، ١٩١٣م ، ١/٢٠٦ .

(١٠) تاريخ الطباعة في الشرق العربي - ط ٢ - القاهرة : دار المعارف ، ١٩٥٦م ، ص ٣٢٧ .

(١١) ظهور الطباعة في بلاد الحرمين الشريفين ، الدارة س ٤ ، ع ٤ (محرم ١٣٩٩هـ = ديسمبر ١٩٧٨م) ص٣٨ .

(١٢) نشأة الصحافة في المملكة . . . ص ١١ .

(13) ENCYCLOPEDIA OF LIBRARY AND INFORMATION SCIENCE - NEW YORK: MARCEL DEKER, 1968 - 24/71.

(١٤) الكتاب العربي مخطوطاً ومطبوعاً . . . - الرياض : دار العلوم ١٤٠٤هـ = ١٩٨٤م ، ص ٢٨٦ .

(١٥) الصحافة العربية ، نشأتها وتطورها ، سجل حافل لتاريخ فن الصحافة العربية قديماً وحديثاً - الرياض : دار مكتبة الحياة ، ١٩٦١م ، ص ٢١٩ .

(١٦) محمد سعيد العامودي ، من تاريخنا - ط ٣ - الرياض : مؤسسة دار الأصالة ١٤٠١هـ = ١٩٨١م ، ص٢١٥ .

(١٧) موجز تاريخ الصحافة في المملكة العربية السعودية - الرياض : المؤلف ، ١٣٩١هـ = ١٩٧١م ، ص٢٥ .

(١٨) الفهرس الموحد للصحف والمجلات المطبوعة بالحروف العربية في مكتبات استانبول ١٨٢٨ - ١٩٢٨م - استانبول : منظمة المؤتمر الإسلامي ، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة والإسلامية ، ١٤٠٦هـ ، ص٣٤٧ ، وصيغة النص كما وردت فيه : جريدة صنعاء الجريدة الرسمية للولاية ، كانت أسبوعية تصدر يوم الثلاثاء ، ثم أصبحت تصدر يوم الخميس ، وكانت تصدر

باللغة العربية والتركية وتطبع في مطبعة الولاية ، صدر العدد الأول منها عام ١٢٩٢هـ والعدد الأخير ١٠٢ في عام ١٣٣٠هـ .

(١٩) علوي عبد الله طاهر ، الصحافة اليمنية قبل ثورة ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢م - الكويت : مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ، ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م (منشورات مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ، ١٧) ، ص١٣ .

(٢٠) دليل الصحافة العربية ، أشرف على وضعه ناجي نعمان - ط ٣ - جونيه : دار نعمان للثقافة ، ١٩٨٨م ، ص ٥٦٤ ، يبدو أن المعلومة عندما أثبتت هذا كان التاريخ المقصود هو عام ١٨٧٧م ، وليس ١٨٧٢م ، وأن النقل كان عن صابات ثم عدل التاريخ دون تعديل الفارق الزمني .

(٢١) عبد الله يحيى الزين ، اليمن ووسائله الإعلامية ١٢٨٩ - ١٣٩٤هـ = ١٨٧٢ - ١٩٧٤م - القاهرة ، المؤلف (مطابع الطوبجي التجارية) ، ١٩٨٥م ، ص ٢٣ .

(٢٢) الموسوعة اليمنية - صنعاء : مؤسسة العفيف الثقافية ، ١٤١٢هـ = ١٩٩٢م ، ٢/ ٥٦٠ .

(٢٣) عبد الله الماجد ، «الصحافة في جزيرة العرب» العرب س ٤ ، ج ٥ (ذو القعدة ١٣٨٩هـ = شباط «فبراير» ١٩٧٠م) ص ٤٥٠ . الشامخ ، نشأة الصحافة في المملكة ، ص ١٢ . أحمد بن محمد الضبيب ، بواكير الطباعة والمطبوعات في المملكة العربية السعودية - الرياض : مكتبة الملك فهد ، ١٤٠٨هـ (السلسلة الأولى) ص ٧ . محمد ماهر حمادة ، الكتاب العربي مخطوطاً ومطبوعاً ، ص ٢٨٧ ، إبراهيم أحمد حسن كيفي ، مكة المكرمة - الرياض : الرئاسة العامة لرعاية الشباب ، ١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م (هذه بلادنا ، ١٩) ، ص ٨٩ .

(٢٤) جدول مقارنة السنة الهجرية بالسنة الميلادية في الترجمانة الكبرى في أخبار المعمورة براً وبحراً لأبي القاسم الزياني ، تحقيق عبد الكريم الفيلالي - (الرباط) ١٣٨٧هـ = ١٩٦٧م ، ص ٦٥٩ .

(25) ENCYELOPEDIA OF LIBRARY AND INFORMATION SCIENCE24/71

(٢٦) يوسف إليان سركيس / معجم المطبوعات العربية والمعربة - القاهرة : مكتبة الثقافة الدينية ، (د .ت) ٢/ ١٧٣٢ .

(٢٧) السابق ، ٢/ ١٧٣٢ .

(٢٨) السابق ، ١/ ٥٠٥ .

(٢٩) السابق ، ١/ ٥٠٥ .

(٣٠) السابق ، ٢/ ١٩٦٥ .

(٣١) السابق ، ١/ ٥٧٧ .

(٣٢) الشامخ / نشأة الصحافة في المملكة ، ص ١٥ .

(٣٣) سركيس ، ١/ ٥٧٧ .

(٣٤) السابق ، ١/ ٥٧٧ .

(٣٥) السابق ، ٢/ ١٧٢٠ .

(٣٦) السابق ، ٢/ ١٧٢٠ .

(٣٧) السابق ، ١/ ٥٠٥ .

(٣٨) السابق ، ١/ ٨٢٨ .

(٣٩) تاريخ الطباعة العربية في الشرق العربي ، ص ٢٣٧ .

(٤٠) الكتاب العربي مخطوطاً ومطبوعاً ، ص ٢٨٦ .

(٤١) الزين ، ص ٢٣ .

(٤٢) الموسوعة اليمنية ، ٢/ ٥٦٠ والفهرس الموحد للصحف والمجلات . . . ، ص ٣٤٧ طاهر ، ص ١٣ .

(٤٣) الفهرس الموحد للتقاويم العثمانية السالنامات والنوسالات الموجودة في مكتبات إستانبول - إستانبول : منظمة المؤتمر الإسلامي ، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون ، الثقافة الإسلامية ، ص ٩٠ - ٩١ .

(٤٤) يمن سالنامة سي (برنجي دفعه) - صنعاء (يمن ولايتي مطبعة سي)١٢٩٨هـ .

(٤٥) الماجد ، ص ٤٥٠ .

(٤٦) طاهر ، ص ١٣ .

(٤٧) الزين ، ص ٢٣ .

(٤٨) يمن سالنامة سي (برنجي دفعه) ، الغلاف .

(٤٩) عثمان نوري باشا وكان والياً على الحجاز في عام ١٢٩٩هـ ، وآمر القوة العسكرية وشيخاً للحرم المكي ، عرف بإصلاحاته الكثيرة ، من بينها إيصال العين العزيزية إلى جدة ، وإنشاء دار الحكومة والشرطة أمام باب المسجد في أجياد ، سماها (الحميدية) ، كما أسس داراً للصحة في أجياد ، وداراً لضيافة الحجاج في جرول ، انظر (أحمد السباعي / تاريخ مكة . . . - مكة المكرمة : مكتبة الثقافة ، ١٣٧٢هـ ، ص ٤٢٣ . وعبد القدوس الأنصاري / موسوعة تاريخ مدينة جدة - ط ٢ - جدة : المؤلف ، ١٤٠١هـ = ١٩٨٠م ، ص ٣٢٦ .

(٥٠) محمد طاهر كردي / كتاب التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم - مكة المكرمة : مكتبة النهضة الحديثة ، ١٤١٢هـ = ١٩٩٢م ، ٥/ ٣٩٨ .

(٥١) كيفي ، ص ٨٩ .

(٥٢) الشامخ ، نشأة الصحافة في المملكة . . . ص ١٢ .

(٥٣) السابق ص ١٣ .

(٥٤) السابق ، ص ١٢ - ١٣ .

(٥٥) حجاز ولايتي سالنامة سي - برنجه دفعه - (مكة) : حجاز ولايتي مطبعة سي ، ١٣٠١هـ ، ص ٨٩ .

(٥٦) حجاز ولايتي سالنامة سي - مكة المكرمة : (حجاز ولايتي مطبعة سي) ، ١٣٠٥هـ ، ص ١٢٠ - ١٢١ .

(٥٧) حجاز ولايتي سالنامة سي - مكة المكرمة : (حجاز ولايتي مطبعة سي) ، ١٣٠٦هـ ، ص ١٥٤ - ١٥٥ .

(٥٨) حجاز ولايتي سالنامة سي - مكة المكرمة : (حجاز ولايتي مطبعة سي) ، ١٣٠٩هـ ، ص ١٥٧ ، ونستخلص مما كتبه عبد الحميد فردوس في خاتمة كتاب الدرر المكنونات النفيسة (انظر الحاشية رقم ٨١) أن مدير المطبعة في عام ١٣١٧هـ ، كان شويكي زادة عبد الغني أفندي .

(٥٩) عبد الحميد فردوس بن محمد عبد الغني الحنفي المكي (١٢٧٥ - ١٣٥٢هـ) درس بالحرم المكي وأفتى . . توظف غير مرة مصححاً بالمطبعة الأميرية بمكة (عبد الله أبو الخير / المختصر من كتاب نشر النور والزهر في تراجم أفاضل مكة في القرن الرابع عشر اختصار وترتيب محمد سعيد العامودي وأحمد علي - الطائف : نادي الطائف الأدبي ١٣٩٨هـ = ١٩٧٨م . ١/ ١٩٣ . ومن الأعمال التي أشرف على تصحيحها كتاب الدرر المكنونات النفيسة لمحمد مراد المنزلوي القزاني المطبوع في عام ١٣١٧هـ بالمطبعة الميرية في مكة المكرمة ، وقد أشار إلى ذلك في نهاية الجزء الثاني منه ص ١٨٧ قائلاً : يقول الراجي من قربه نيل الأماني

عبد الحميد فردوس المكي الخالدي الأفغاني مصحح الكتب العربية بالمطبعة الميرية غفر الله له ولوالديه ولمحبيه وللمسلمين ، الحمد لله الذي نور قلوب العارفين بنور اليقين وشرح صدور الواصلين بالمشاهدة فكانوا هداة الدين فأعربوا عن الحقائق الإلهية بلسان الحق المبين . . . وبعد فقد تم بحمد الله الوهاب ، طبع الكتاب المستطاب الموسوم بالدرر المكنونات النفيسة . . . للعالم الفاضل الكامل . . . الشيخ محمد مراد القزاني المكي فلله در مؤلفه فقد أفاد وأجاد . . . ولم نألُ جهداً في التصحيح ثم نرفعه لملاحظة المؤلف فيطبع بعد ذلك ، وذلك في المطبعة الميرية الكائنة بمكة المحمية في ظل الله في الأرض وخليفته في الطول والعرض . . . مولانا السلطان الغازي (عبد الحميد) خان الثاني . . . بنظر وإدارة مديرها . . . شويكي زاده عبد الغني أفندي والتصحيح بمصاحبة العالم الفاضل الشيخ عبد الله زبير (انظر الحاشية ٨١) و(الشكل رقم ١١) .

(٦٠) طاهر ، ص ١٣ . الموسوعة اليمنية ٢/ ٥٦٠ . دليل الصحافة العربية ، ص ٤٠٢ ، الزين ، ص ٢٥ .

(٦١) الزين ، ص ٢٥ – ٢٧ .

(٦٢) دليل الصحافة العربية ، ص ٤٠٢ .

(٦٣) الموسوعة اليمنية ، ٢/ ٥٦٠ .

(٦٤) الزين ص ٧٢ – ٢٩ .

(٦٥) صابات ، ص ٣٢٧ . دي طرازي ، ١/ ٢٠٦ . محمد عبد الرحمن الشامخ ، الصحافة في الحجاز ١٩٠٨ – ١٩٤١م ، دراسة ونصوص – بيروت : دار الأمانة ، ١٣٩١هـ = ١٩٧١م ، ص ٢٩ . حمادة ، ص ٢٨٦ .

(٦٦) ص ٣٤٧ ، وجاءت المعلومة موضحة أنها كانت تطبع في مطبعة الولاية ومقاسها و٢٨ X ٥و٤٠ X ٦٠ و٥و٢٨ X ٥و٣٩ وأن بداية صدورها في عام ١٢٩٢هـ ورغم إيراد هذا التاريخ إلا أنه لم يشر إلى أية مكتبة في تركيا تملك الأعداد الأولى من هذه الجريدة ، فأقدم ما أشير إليه هو العدد ١٠٢ الصادر في ٢٦ نيسان ١٢٩٩/ ١٣٠٠هـ .

(٦٧) العامودي ، ص ٢١٥ . مروة . ص ٢١٩ . الموسوعة اليمنية ، ٢/ ٥٦٠ . الماجد ، ص ٢١٩ أشار إلى التاريخ الهجري وهو ١٢٩٧م .

(٦٨) دي طرازي ، ١/ ٢٠٦ .

(٦٩) الصحافة العربية ، نشأتها وتطورها . . . ، ص ٢١٩ .

(٧٠) اليمن ووسائلة الإعلامية . . . ، ص ٢٩ – ٣١ .

(٧١) استقيت المعلومات من النسخة المحفوظة في مكتبة الملك فهد الوطنية .

(٧٢) اليمن ووسائله الاعلامية . . . ، ص٣٥ .

(٧٣) السابق ، ص ٣٥ – ٣٧ .

(٧٤) محمد حرب «السالنامات العثمانية وأهميتها في بحوث الخليج والجزيرة العربية» مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ، س ٩ ع ٣٣ (يناير ١٩٨٣م/ ربيع الأول ١٤٠٣هـ) ص ١٥٢ .

(75) M. SEYFETIN OZEGE / ESKI HARFLERLE BASILMIS TURKCE ESERLER KATALOGU. ISTANBUL, 1971. 5/2045-2046.

الفهرس الموحد للتقاويم العثمانية ، ص٩٠ – ٩١ .

(76) OZEGE, 5/2269.

(٧٧) حجاز ولايتي سالنامة سي – مكة المكرمة : حجاز ولايتي مطبعه سي ، ١٣٠١هـ ، ظهر الغلاف الأخير .

(٧٨) حجاز ولايتي سالنامة سي - مكة المكرمة : حجاز ولايتي مطبعه سي ، ١٣٠٣هـ .

(٧٩) عبد القادر الجيلاني ، كتاب الغنية لطالبي طريق الحق عز وجل في معرفة الآداب الشرعية ومعرفة الصانع عز وجل بالآيات والعلامات ثم الاتعاظ بالقرآن والألفاظ النبوية ومعرفة أخلاق الصالحين . . . وبهامشه كتاب سر الأسرار ومظهر الأنوار لمحيي الدين أبي محمد عبد القادر الجيلي الحسني الحسيني - مكة : المطبعة الميرية ، ١٣١٤هـ .

(٨٠) عثمان وهبي القونيوي ، الدر الغالي شرح إرشاد المتحلي من سنن النبي العالي وبهامشه شرح الحصن الحصين لملا علي بن سلطان محمد الهروي القاري - مكة : المطبعة الميرية ، ١٣٠٥هـ .

(٨١) محمد مراد المنزلوي ، معرب المكتوبات الشريفة الموسوم بالدرر المكنونات النفيسة - مكة : المطبعة الميرية ، ١٣١٦ - ١٣١٧هـ .

(٨٢) أبو بكر بن محمد شطا ، الدرر البهية فيما يلزم المكلف في العلوم الشرعية - ط ٣ - مكة : المطبعة الميرية ، ١٣١١هـ .

(٨٣) محمد المنصوري ، سبل السلام لمن دخل البيت والمقام - مكة : المطبعة الميرية ، ١٣١٢هـ .

(٨٤) أحمد الخطيب بن عبد اللطيف المنكاباوي الجاوي ، صلح الجماعتين بجواز تعدد الجمعتين - مكة : المطبعة الميرية ، ١٣١٢هـ .

(٨٥) ورد نص مشابه لهذا في نهاية ديوان ابن المقرب (الشكل رقم ١٢) وهو : على ذمة ملتزمه المكرم الشيخ عبد الله بن سعيد باخطمة المتصف بأوصاف جميلة جمة من معتبري تجار أهل مكة المكرمة . . . (محمد بن علي بن المقرب العيوني ، ديوان . . . محمد بن علي بن المقرب . . . الأحسائي - مكة : المطبعة الميرية ، ١٣٠٧هـ ، ص ١٤٠) ونستفيد من النصين وجود ناشرين كانوا يتولون تكاليف طباعة بعض الكتب على نفقتهم الخاصة ، ومن ثم تسويقها .

(٨٦) محمد يوسف الخياط ، لآلىء الطل الندية على الباكورة الجنية في عمل الجيبية - مكة : المطبعة الميرية ، ١٣١٣هـ وردت صور العناوين الخاصة بالهوامش ٨٢ إلى ٨٥ في كتاب : عبد الوهاب أبو سليمان ، مكتبة مكة المكرمة ، دراسة موجزة لموقعها وأدواتها ومجموعاتها - الرياض ، مكتبة الملك فهد الوطنية ، ١٤١٦هـ = ١٩٩٥م (مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية ، السلسلة الأولى ، ٢٠) ص ٥٥ - ٥٨ .

(٨٧) يشير عبد الله يحيى الزين في كتابه : اليمن ووسائله الإعلامية ص ٣٧ - ٣٨ ، إلى صدور مجموعة من القوانين المنظمة للطباعة في العصر العثماني ، من أهمها قانون ١٢٨١هـ/ ١٨٦٥م وقانون ١٣٠٥هـ/ ١٨٨٨م وقانون ١٣١٢هـ/ ١٨٩٤م . . . وقد وردت الإشارة إلى حق الملكية أيضاً على كتاب معرب المكتوبات الشريفة الموسوم بالدرر المكنونات النفيسة (الشكل رقم ١٣) ونصه : حقوق الطبع محفوظة للمعرب وأولاده انظر الحاشية رقم ٨١ .

(٨٨) سهيل صابان «سالنامة الحجاز ١٣٠١ - ١٣٠٩» مجلة مكتبة الملك فهد الوطنية ، مج ١ ، ع ١ (المحرم - جمادى الآخرة ١٤١٦هـ) ص ١٩٤ .

(٨٩) الشامخ ، «ظهور الطباعة في بلاد الحرمين الشريفين» ، ص ٤٢ .

شكل رقم (١)

(صفحة من: يمن الصادرة عام ١٨٧٢م.)

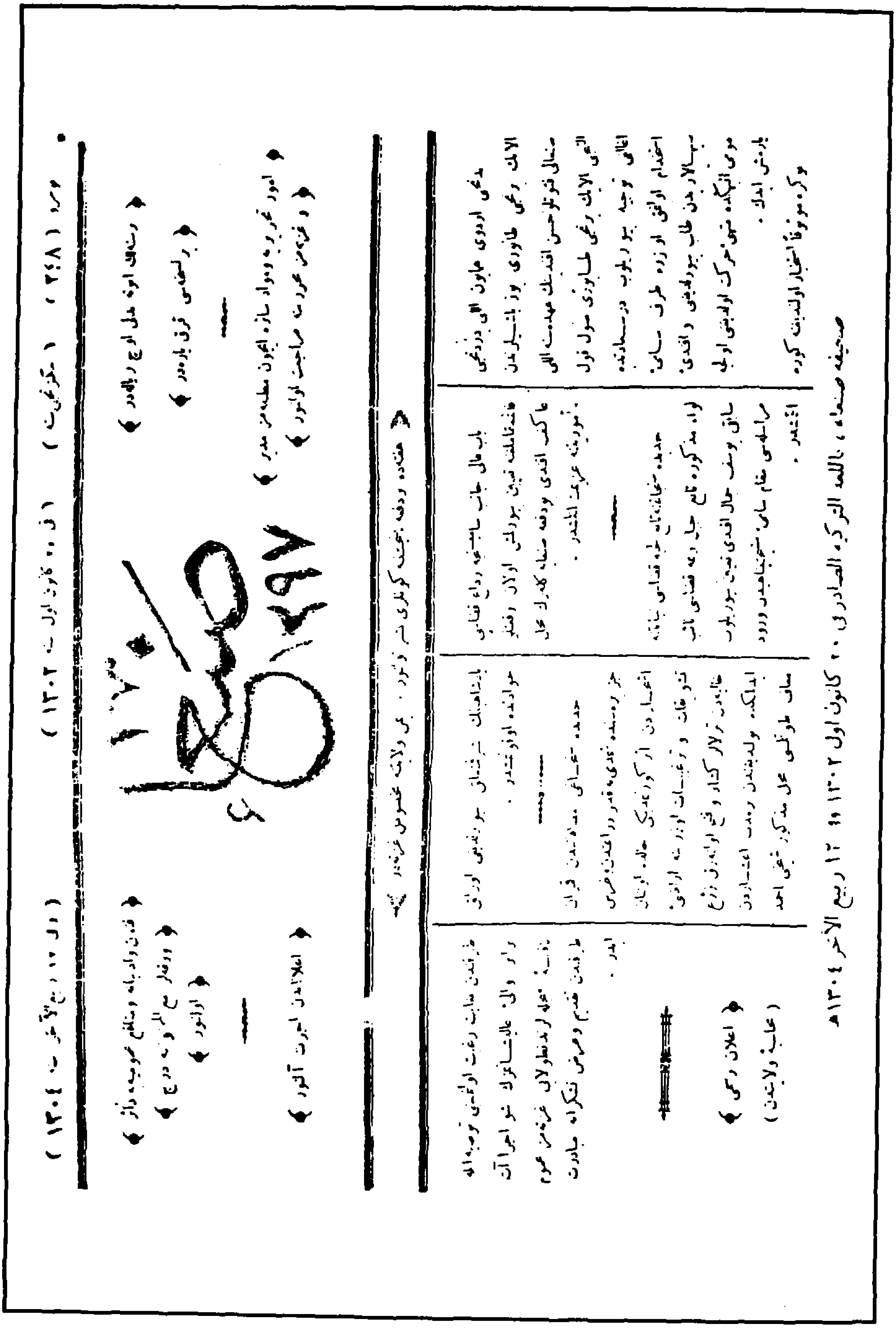
صنعا

صحيفه صنعاء ، باللغة التركية الصادرة في ٢٠ كانون اول ١٣٠٢ و ١٢ ربيع الآخر ١٣٠٤هـ

شكل رقم (٢)
(الصفحة الأولى من أحد أعداد صحيفة صنعاء)

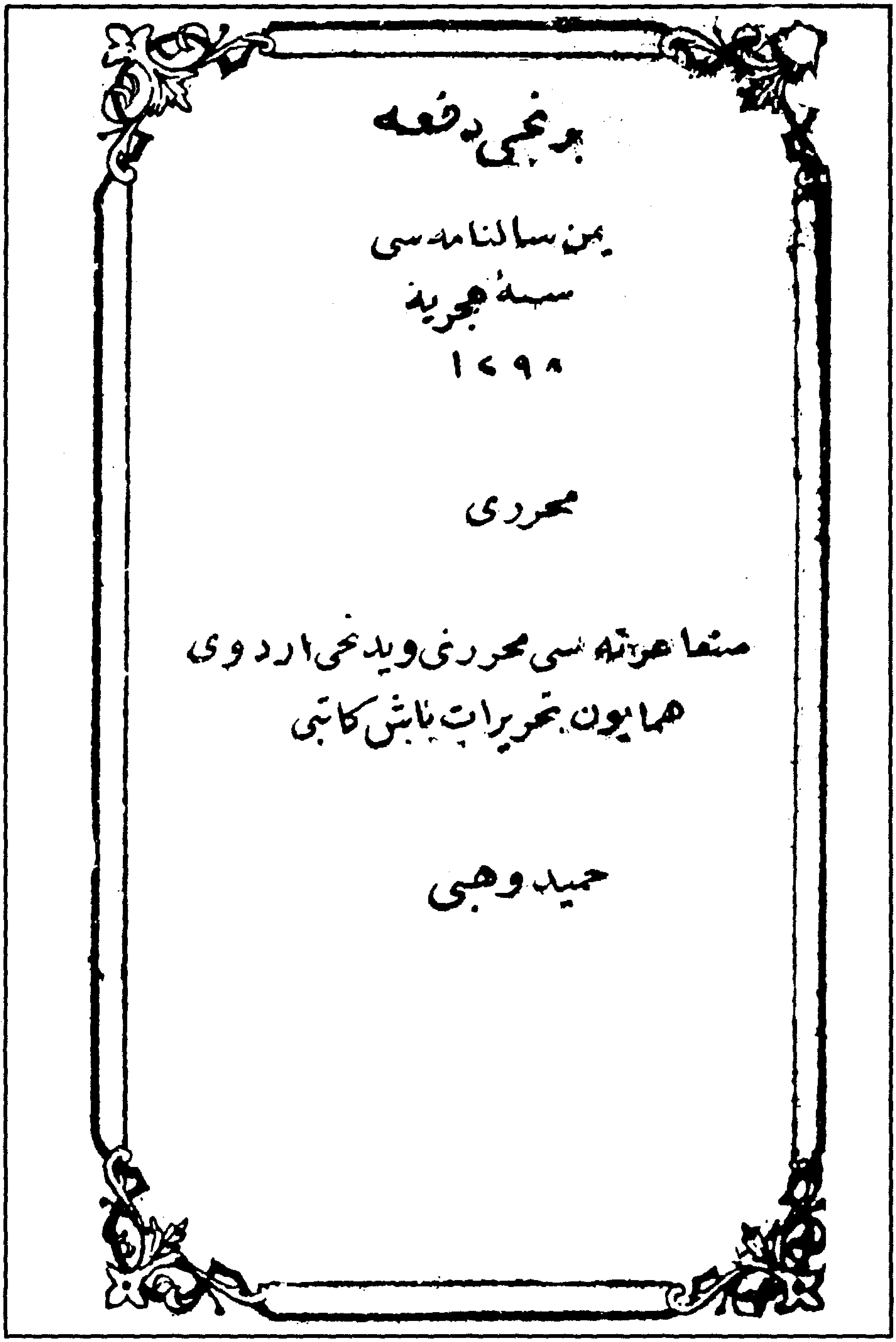

برنجی دفعه

يمن سالنامه سی

سنه هجریه

١٢٩٨

محرری

صنعا غزته سی محرری ویدنجی اردوی

همایون تحریرات باش کاتبی

حمید وهبی

شكل رقم (٣)

(غلاف سالنامة ولاية اليمن لعام ١٢٩٨ هـ)

(اسماء الكتب المطبوعة الجديدة)

كتاب تسهيل المنافع فى الطب والحكمة المشتمل على شفاء الاجسام
وكتاب الرحمة للشيخ الامام العلم العلامة ابراهيم ابن عبد الرحمن
ابن بكر الازرق وعلى هامشه كتاب الطب النبوى للامام الهمام
المحدث الحافظ ابى بكر عبد الله محمد ابن احمد ابن عثمان الذهبي
يحتوى على « ٢٧٢ » صحيفه

كتاب تنبيه الغافلين وبهامشه بستان العارفين لابي الليث
السمرقندي يحتوى على « ٣٢٨ » صحيفه

الرسالة المسماة فتح القدير باختصار متعلقات نسك الحجيج

الرسالة المسماة تحفة الصبيان فى الفقه على مذهب النعمان وبهامشه
كفاية الغلام للنابلسي

كتاب رجوع الشيخ الى صباه فى القوة على الباه لابن كمال باشا
يحتوى على « ١١٠ » صحيفه

كتاب عمدة السالك وعدة الناسك تأليف الامام العالم العلامة
شهاب الدين ابن عباس احمد ابن النقيب المصرى الشافعي
يحتوى على « ١١٠ » صحيفه

شكل رقم (٤)

(اعلان عن مطبوعات الميرية في الغلاف الأخير لسالنامة ولاية الحجاز عام ١٣٠١ هـ)

هـذه الرسالة المسماة بالدرر البهيه * فيما يلزم
المكلف من العلوم الشرعيه * جمع الراجى
العفو من ربه ذى العطا * أبى بكر بن
محمد شطا * غفر الله له وللمسلمين *
آمين * بجاه الامين *

ولبعضهم قائلا فى هذه الرساله * بلغه الله مقاصده بصاحب الرساله

ان رمت تحظى بالعلوم وتعتبر ☼ لاسيما الشرعى منها المفتخر
فعليك بالدرر البهية انها ☼ تغنى اللبيب اذا تفكر واعتبر
فاغن بها عن غيرها تنل العلا ☼ وتحوز فضلا ليس تحويه الفكر

(الطبعة الثالثة)

(طبع فى المطبعة الميرية الكائنة بمكة المحمية)

(سنة ١٣١١ هجرية)

شكل رقم (٥)
غلاف كتاب الدرر البهية

هذه الرسالة المسماة بسبل السلام لمن دخل
البيت والمقام تأليف العلامة
الشيخ محمد المنصوري مفتي
المالكية بمكة المحميه

وبهامشه ترجمة الرسالة المذكورة بالتركي

مكه مكرمه ده مالكي مفتيسي شيخ محمد منصوري افنديك بيت الله الحرام
ومقام ابراهيم عليه السلامه دخوله ترتب ايدن فضلني بيانه دائر تاليف
كرده سي بولنان (سبل السلام لمن دخل البيت والمقام) نام
رساله نافعه ترجمه سي كنارنده مطبو عدر

﴿ الطبعة الاولى ﴾

بالمطبعة الميريه الكائنه بمكة المحميه

سنة ١٣١٢

شكل رقم (٦)

غلاف كتاب سبل السلام

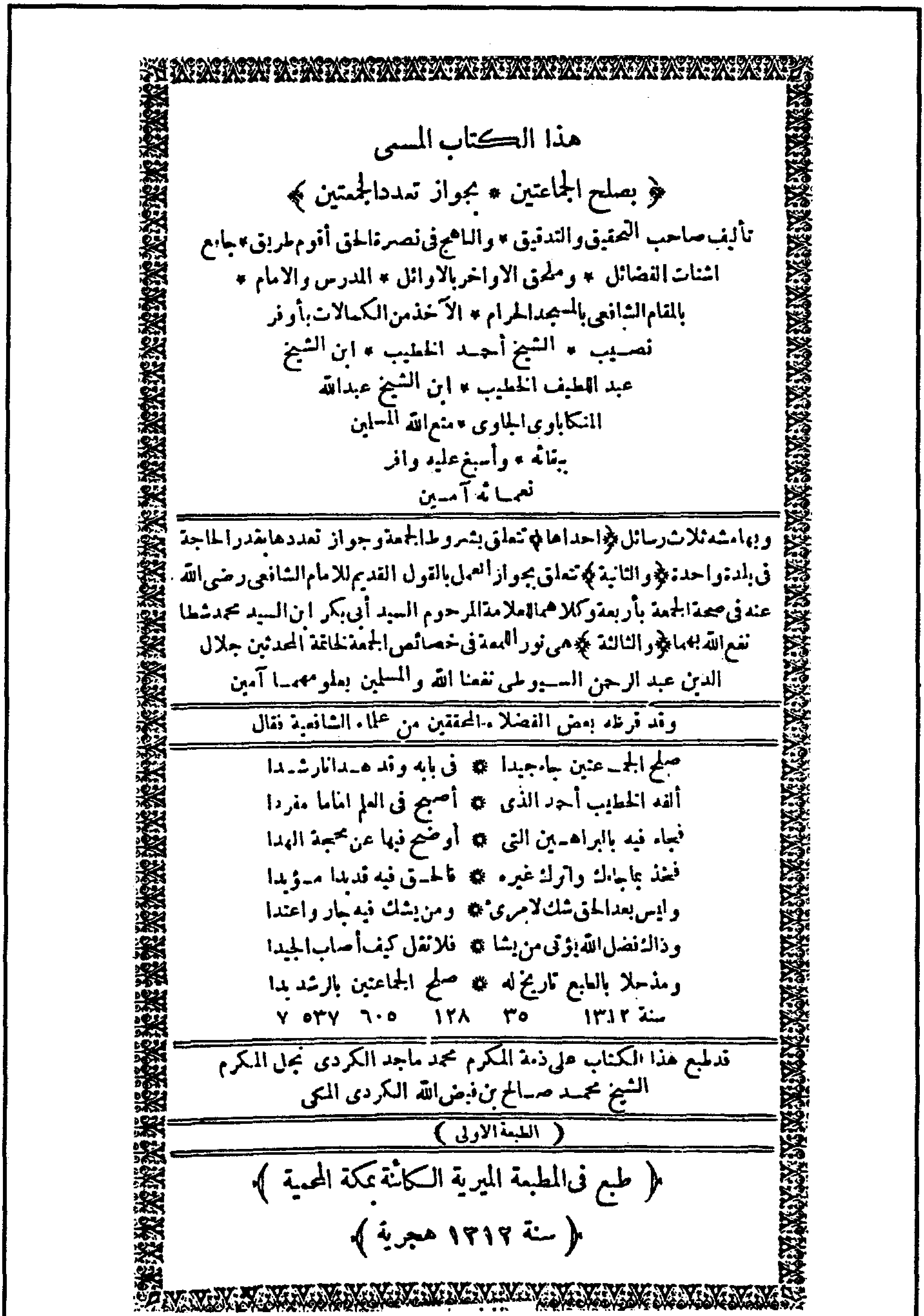

هذا الكتاب المسمى

﴿ بصلح الجماعتين * بجواز تعدد الجمعتين ﴾

تأليف صاحب التحقيق والتدقيق * والناهج في نصرة الحق أقوم طريق * جامع اشتات الفضائل * وملحق الاواخر بالاوائل * المدرس والامام * بالمقام الشافعي بالمسجد الحرام * الآخذ من الكمالات بأوفر نصيب * الشيخ أحمد الخطيب * ابن الشيخ عبد اللطيف الخطيب * ابن الشيخ عبد الله المنكاباوي الجاوي * متع الله المسلمين ببقائه * وأسبغ عليه وافر نعمائه آمين

وبهامشه ثلاث رسائل ﴿ احداها ﴾ تتعلق بشروط الجمعة وجواز تعددها بقدر الحاجة في بلدة واحدة ﴿ والثانية ﴾ تتعلق بجواز العمل بالقول القديم للامام الشافعي رضي الله عنه في صحة الجمعة بأربعة وكلاهما للعلامة المرحوم السيد أبي بكر ابن السيد محمد شطا نفع الله بهما ﴿ والثالثة ﴾ هي نور اللمعة في خصائص الجمعة لخاتمة المحدثين جلال الدين عبد الرحمن السيوطي نفعنا الله والمسلمين بعلومهما آمين

وقد قرظه بعض الفضلاء المحققين من علماء الشافعية فقال

صلح الجماعتين جاء جيدا * في بابه وقد هدانا رشدا

ألفه الخطيب أحمد الذي * أصبح في العلم اماما مفردا

فجاء فيه بالبراهين التي * أوضح فيها عن محجة الهدا

فخذ بما جاءك واترك غيره * فالحق فيه قد بدا مؤيدا

وليس بعد الحق شك لامرئ * ومن يشك فيه جار واعتدا

وذاك فضل الله يؤتي من يشا * فلا تقل كيف أصاب الجيدا

ومذ حلا بالطبع تاريخ له * صلح الجماعتين بالرشد بدا

سنة ١٣١٢ ٣٥ ١٢٨ ٦٠٥ ٥٣٧ ٧

قد طبع هذا الكتاب على ذمة المكرم محمد ماجد الكردي نجل المكرم الشيخ محمد صالح بن فيض الله الكردي المكي

(الطبعة الاولى)

﴿ طبع في المطبعة الميرية الكائنة بمكة المحمية ﴾

﴿ سنة ١٣١٢ هجرية ﴾

شكل رقم (٧)

غلاف كتاب صلح الجماعتين

هذا الشرح المسمى بلا لى الطل الندية على الباكورة الجنية * في عمل الجيبيه * لممهد معانيه ومشيد مبانيه العلامة الاديب الاريب * والفهامة الذي له من المعرفة أوفر نصيب * الشيخ محمد بن يوسف الخياط * دامت معاليه محروسة عن الانحطاط * امين

وفي هامشه بعض تقريرات لمؤلف المومى اليه وكتاب وسيلة الطلاب * في علم الفلك بطريق الحساب * للعلامة يحيي بن محمد الحطاب * رحمه الله تعالى آمين

لا يسوغ لأحد طبع هذا الكتاب بغير اذن مؤلفه ورضاه وبغير المطبعة الميريه الكائنة بمكة المحميه ومن تجاسر على طبعه يحاكم ويجازى بمقتضى القوانين الجارية في المطبوعات وتقام عليه الدعوى

﴿ الطبعة الاولى ﴾

﴿ طبع في المطبعة الميرية الكائنة بمكة المحمية ﴾

﴿ سنة ١٣١٣ هجرية ﴾

شكل رقم (٨)

غلاف كتاب لآلىء الطل الندية

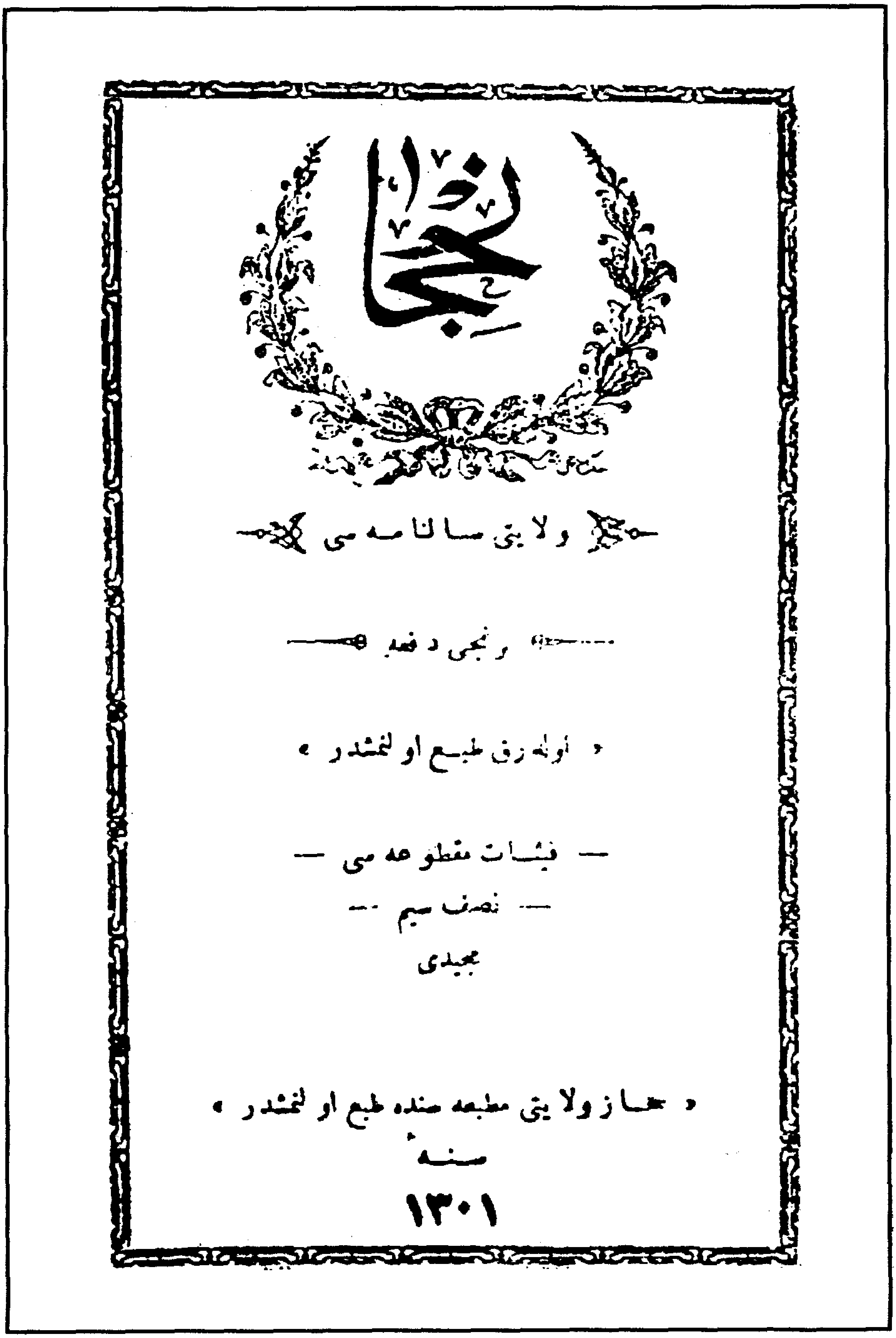
حجاز
ولايتى سالنامه سى
برنجى دفعه
« اوله رق طبع اولنمشدر »
— فيئات مقطوعه سى —
— نصف سيم —
مجيدى
« حجاز ولايتى مطبعه سنده طبع اولنمشدر »
سنه
١٣٠١

شكل رقم (٩)

غلاف سالنامة ولاية الحجاز لعام ١٣٠١هـ

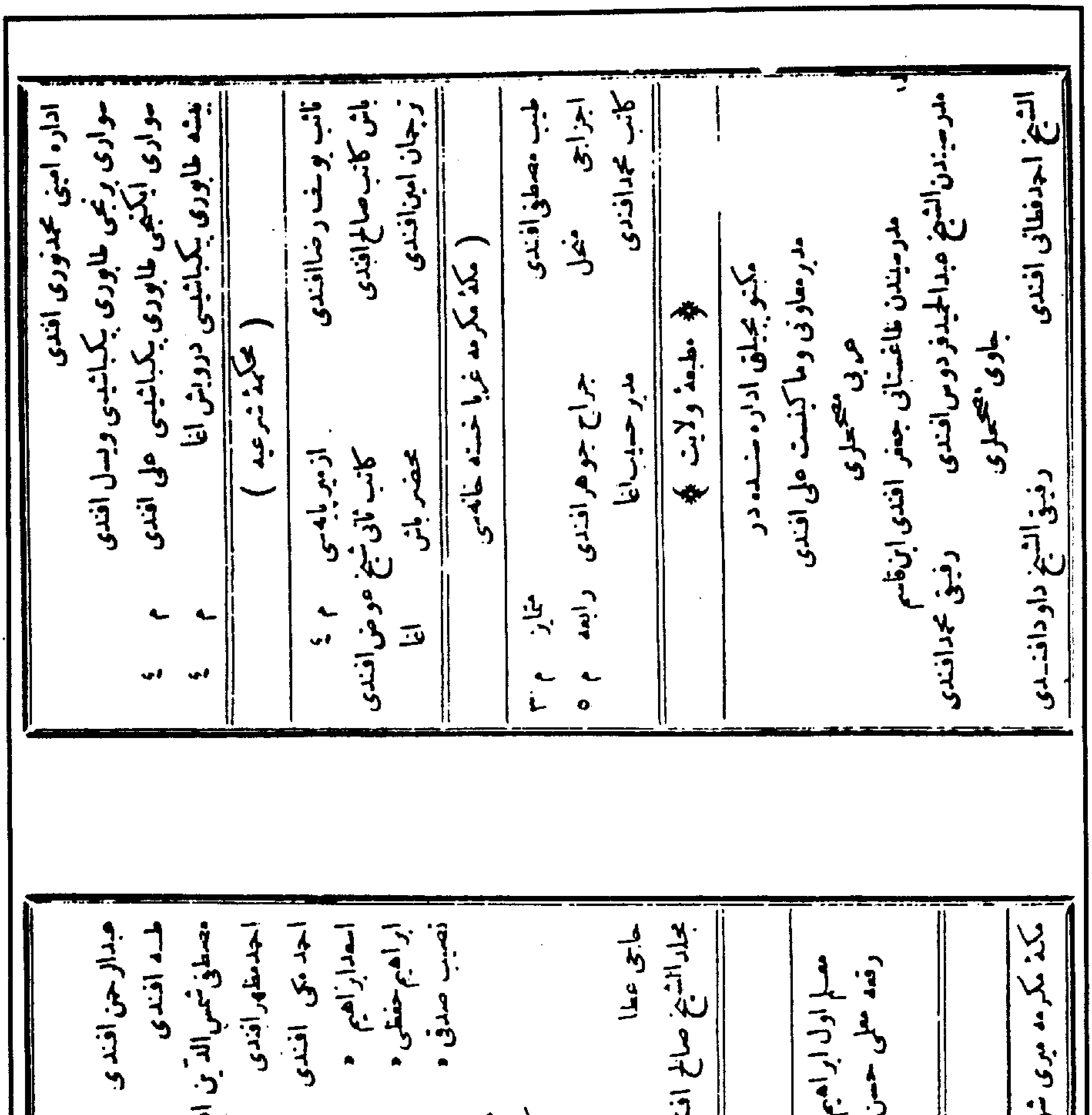

اداره امینی محمد نوری افندی
سواری برنجی طابوری بکباشیسی ویسل افندی
سواری ایکنجی طابوری بکباشیسی علی افندی م ٤
پیشه طابوری بکباشیسی درویش اغا م ٤

(محکمۂ شرعیه)

نائب یوسف رضا افندی ازمیر پایه‌سی م ٤
باش کاتب صالح افندی کاتب ثانی شیخ عوض افندی
ترجمان امین افندی محضر باش اغا

(مکۂ مکرمه غربا خسته خانه‌سی)

طبیب مصطفی افندی ممتاز م ٣
اجزاجی مخل جراح جوهر افندی رابعه م ٥
کاتب محمد افندی مدیر حبیب اغا

✽ مطبعۂ ولایت ✽

مکتوبجیلق اداره سنده در
مدیر معاونی وماکینست علی افندی
عربی محررلری
مدرسیندن طاغستانی جعفر افندی ابن قاسم
مدرسیندن الشیخ عبد الحمید فردوس افندی رفیق محمد افندی
جاوی محررلری
الشیخ احمد فطانی افندی رفیق الشیخ داود افندی

مرتبین

عبد الرحمن افندی عمر فوزی افندی
طه افندی محمد رجب افندی
مصطفی شمس الدین افندی محمد رشدی افندی
احمد مظهر افندی محمد جمیل افندی
احمد مکی افندی عباس فوزی افندی
اسعد ابراهیم « عبد اللطیف «
ابراهیم حفظی « الشیخ علی زین العابدین «
نصیب صدقی « ملا م بکر خوجه

مردا حی عبد الحمید ع
کاتب محمد رشدی افندی
چرخ جوران خدمه

حاجی عطا امام حاجی مصطفی
مجلد الشیخ صالح افندی رفیق حاج سید

(مکتب رشدیه)

معلم اول ابراهیم افندی معلم ثانی عمر افندی
رفعه معلی حسن مکی افندی ثالثه عدد شاکردان ٦٠

(بعض مأمورین)

مکۂ مکرمه میری شونه امینی رشید افندی

شكل رقم (١٠)

صفحتان من سالنامة ولاية الحجاز لعام ١٣٠٥هـ

يقول الراجي من ربه نيل الاماني * عبد الحميد فردوس المكي الخالدي الافغاني مصحح الكتب العربية * بالمطبعة الميرية * غفر الله له ولوالديه ولمحبيه وللمسلمين

الحمد لله الذي نور قلوب العارفين بنور اليقين * وشرح صدور الواصلين بالمشاهدة فكانوا هداة الدين * فأعربوا عن الحقائق الالهية بلسان الحق المبين * والصلاة والسلام على سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين * ترجمان لسان القدم * ومنبع الحكمة والحكم * من أوتى فصل الخطاب وجوامع الكلم * وعلى آله وأصحابه هداة الامم * والتابعين لهم باحسان الى يوم الدين * وبعد فقد تم بحمد الله الوهاب * طبع الكتاب المستطاب * الموسوم بالدرر المكنونات النفيسه * في تعريب المكتوبات الشريفه * للامام الكامل المكمل ذي الجناحين * المرشد المجدد للالف الثاني بلا ريب ولا مين * العلامة الاستاذ الشيخ الرباني * والهيكل الصمداني * سيدي ومولاي الشيخ احمد السرهندي * الافغاني * النقشبندي * نفع الله به آمين والتعريب للعالم الفاضل الكامل الجامع بين علمي الظاهر والباطن العلامة الشيخ محمد مراد القزاني المكي فلله در مؤلفه فقد أفاد وأجاد * بلغه الله وايانا المراد * وشكر سعيه ونفع به كما نفع بأصله انه سميع قريب مجيب * ولم نألوا جهدا في التصحيح ثم ترفعه لملاحظة المؤلف فيطبع بعد ذلك وذلك في المطبعة الميرية * الكائنة بمكة المحمية * في ظل ظل الله في الارض * وخليفته في الطول والعرض * ملك البرين وخاقان البحرين والممالك التي لا تحصى * خادم الحرمين الشريفين والمسجد الاقصى * مولانا السلطان المظفر المعان المحفوظ بالقرآن والسبع المثاني * مولانا السلطان الغازي (عبد الحميد) خان الثاني * اللهم انصره نصرا تعز به الدين * وتنجز وعد وكان حقا علينا نصر المؤمنين * ووفقه ووزراءه وقضاته وعماله لما تحب وترضى في كل وقت وحين * بنظر وادارة مديرها من المكارم بدى * شويكي زاده عبد الغني افندي * والتصحيح بمصاحبة العالم الفاضل الشيخ عبد الله زبير وكان تمام الطبع * وختام الترتيب والوضع * في اليوم السابع عشر من شهر ربيع الاول من عام السابع عشر والثلاثمائة والالف * من هجرة من خلقه الله على أكمل وصف * صلى الله عليه وعلى آله * وكل ناسج على منواله * ما طاف بالبيت العتيق طائف * ووقف بعرفة واقف * ولما بدا بدر تمامه * وفاح مسك ختامه * قلت مؤرخا

درر زهت بالطبع باصباح * ام غادة جليت بافراح
ام روضة مأنوسة جمعت * للروح والريحان والراح
ام ذا كتاب عربت وعلت * ألفاظه بالطبق باصاحي
سر الطريقة والحقيقة قد * أبداه فيه لنا بايضاح
للفاضل الشيخ الذكي مرا * د من أمد بفيض فتاح
فالله يعلي قدره أبدا * بالانبيا والسيد الماحي
من غير كاف ثم أرخه * تعريب مكتوب بافصاح

١٨٢ ٤٤٨ ٦٨٢ ٥ ١٣١٧

شكل رقم (١١)

الصفحة الأخيرة من الجزء الثاني لكتاب معرب المكتوبات الشريفة

الحمد لله الكريم الوهاب * لمن اراد جزيل الثواب * وجليل العقل الذي يميز به الخطأ عن
الصواب * والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي اوتي جوامع الكلم وفصل الخطاب *
وعلى آله وأصحابه خير الآل والاصحاب * وبعد فقد تم ولله الحمد طبع ديوان أبي عبد الله
محمد بن علي بن المقرب الغائص من البلاغة افخرها ومن الطرافة ازهاها وأنضرها في ظل ظل الله
في الارض * وخليفته في الطول والعرض * المختتم طاعته على سبيل الفرض * سلطان البرين
والبحرين * خادم الحرمين الشريفين * مولانا السلطان الغازي (عبد الحميد خان *) ابن
المرحوم السلطان عبد المجيد خان * ابن المرحوم السلطان محمود خان * ادام الله دولته
وشوكته على ممر الزمان * ووفقه ووزرائه وعلمائه لنصرة شريعة سيد الانس
والجان * آمين وذلك بالمطبعة العامرة الميرية * الكائنة بمكة المشرفة
البهية * على ذمة ملتزمه المكرم الشيخ عبد الله بن سعيد باخطمه
المتصف باوصاف جميلة بهجة * من معتبري تجار أهل مكة المكرمة *
وقد وافق تمام طبعه وختام وضعه اواسط شهر ربيع
الثاني من شهور سنة سبع وثلاثمائة وألف * من
هجرة من له تمام العز والشرف * صلى الله
عليه وعلى آله وصحبه وسلم ما طبعت
كتب الطرف * ونشرت
صحف التحف *
آمين

شكل رقم (١٢)

الصفحة الأخيرة من ديوان ابن مقرب العيوني

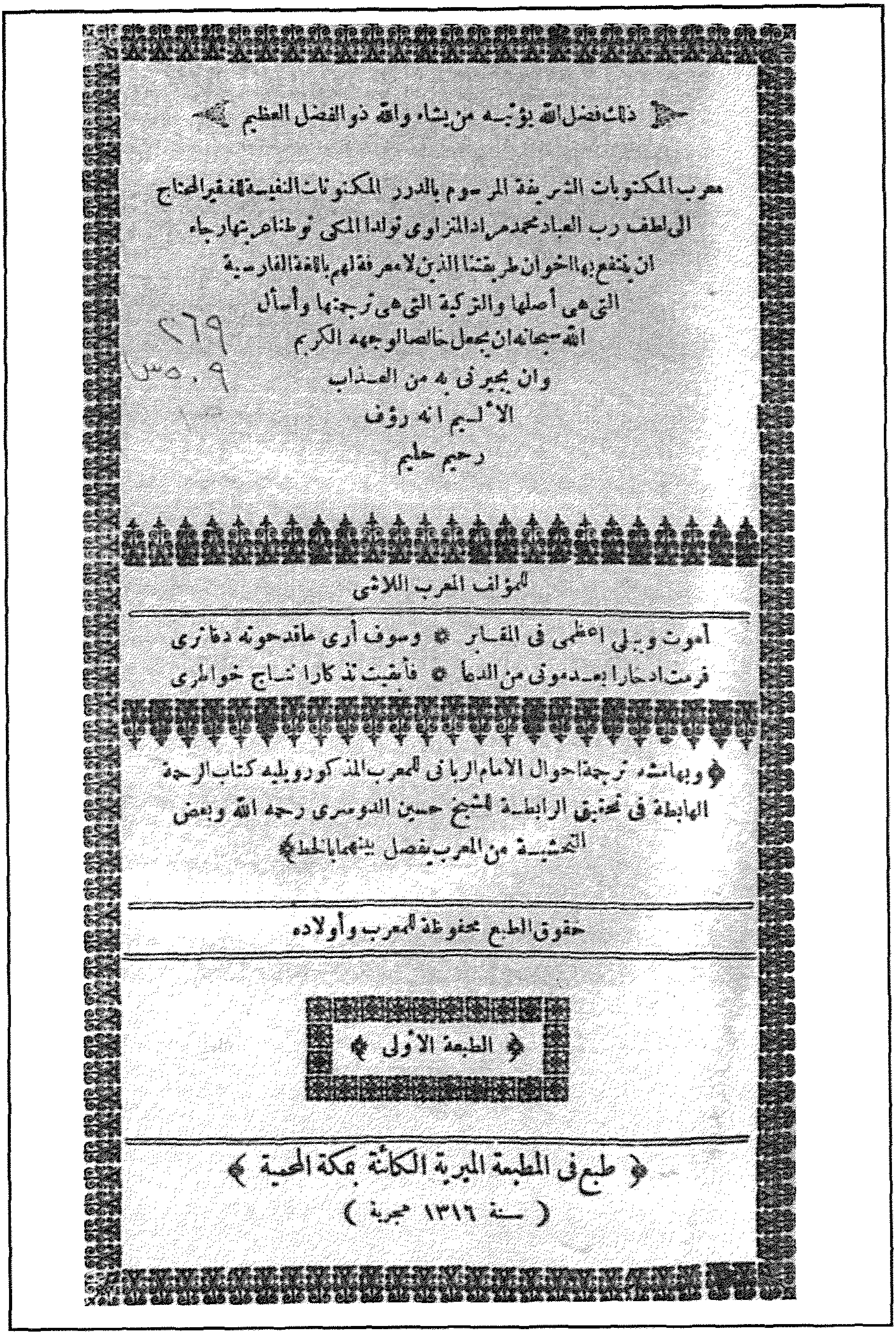

ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم

معرب المكتوبات الشريفة المرسوم بالدرر المكنونات النفيسة لفقير المحتاج
الى لطف رب العباد محمد مراد المنزلوى تولدا المكى توطنا عربتها رجاء
ان ينتفع بها اخوان طريقتنا الذين لا معرفة لهم باللغة الفارسية
التى هى أصلها والتركية التى هى ترجمتها وأسأل
الله سبحانه ان يجعل خالصا لوجهه الكريم
وان يجيرنى به من العذاب
الأليم انه رؤف
رحيم حليم

٢٦٩
٩٠٥ س

للمؤلف المعرب اللاشى

أموت ويبلى اعظمى فى المقابر ✿ وسوف أرى ماقدحوته دفاترى
فرمت ادخارا يمدونى من الدعا ✿ فأبقيت تذكارا نتاج خواطرى

وبهامشه ترجمة احوال الامام الربانى للمعرب المذكور ويليه كتاب الرحمة
الهابطة فى تحقيق الرابطة للشيخ حسين الدوسرى رحمه الله وبعض
التحشية من المعرب يفصل بينهما بالخط

حقوق الطبع محفوظة للمعرب وأولاده

الطبعة الأولى

طبع فى المطبعة الميرية الكائنة بمكة المحمية
(سنة ١٣١٦ هجرية)

شكل رقم (١٣)

غلاف الجزء الأول من كتاب معرب المكتوبات الشريفة

الطباعة العربية في بلاد ما وراء النهر وروسيا

الأستاذ الدكتور أنس خالدوف

أنس خالدوف

باحث في معهد الدراسات الشرقية - سان بطرسبرغ

- من مواليد تترستان، ١٩٢٩م.
- دكتوراه في الأدب العربي،

الوظائف

- رئيس دائرة الشرق الأدبي في معهد الدراسات الشرقية، بسان بطرسبرغ.

من نتاجه

- فهرس المخطوطات العربية في معهد الدراسات الشرقية بسان بطرسبرغ.
- المنازل والديار لابن منقذ.
- مقالات عن تاريخ الثقافة العربية.
- كتاب الأوراق (خلافة الواثق والمتوكل ... المهتدي) للصولي (لم ينشر).

نشأت الطباعة في بلاد ما وراء النهر بعد أن احتلها الروس أي في الربع الأخير من القرن التاسع عشر ولا بد لنا حين نتناول بالحديث تاريخ الطباعة في تلك المنطقة أن نبدأ بالموضوع من روسيا ومسلميها .

استعمل الروس الحروف الطباعية منذ أيام القيصر بطرس الأول العظيم الذي أمر باستيراد آلات الطباعة وأجهزتها من أوربا وكانت بمختلف اللغات . وأول ما نعرف من الطباعة العربية في روسيا بيان القيصر بطرس الذي صدر في ١١ فبراير (شباط) من عام ١٧١١ وكان القصد منه تسويغ الحملة العسكرية على تركيا . وقد أعلن البيان بعدة لغات ومنها لغة تتار القريم وبرجاس . وطبع على لوحات نحاسية . ويدل خطه ولغته على أن المترجم قازاني الأصل وكذلك كاتب اللوحات .

سار القيصر بطرس سنة ١٧٢٢ في حملة إلى إيران وأخذ معه مطبعة متنقلة ، دبّرها له وأدارها ديمتري كانتمير أحد الأدباء الروس المقربين إلى القيصر ، كان مسلماً ينتمي لأسرة شريفة تسكن بلاد القريم ، وانتقل إلى الخدمة الروسية في مولدافيا . وقد صاغ هذا الأديب الحروف العربية في أثناء مسيرة الحملة ولكنها لم تستعمل سوى مرة واحدة ، طبع بها البيان الصادر في ١٥ يوليو (تموز) ١٧٢٢ في مدينة استرخان مترجماً إلى اللغة التتارية .

وفي السنة التالية ١٧٢٣ ألغيت تلك المطبعة المتنقلة وحملت أجهزتها وحروفها العربية إلى موسكو وأعطيت لمطبعة سينود ، أي الإدارة العليا للكنيسة الروسية الأرثوذكسية ، ومنها دفع قسم من الحروف العربية بعد مدّة إلى مطبعة أكاديمية العلوم في بطرسبرغ ، وذلك حوالي سنة ١٧٢٨ ، وإلى مطبعة جامعة موسكو حوالي سنة ١٧٧٤ . ولم تستعمل هذه الحروف العربية في القرن الثامن عشر كله إلا لطبع لوحات وأطباق رسمية فاخرة تقدم عند تتويج القياصرة أو عند قدوم الوفود الدبلوماسية من الخارج أو في الاحتفالات وكذلك لطبع بيانات القيصر . والمثال

على ذلك هنا البيان الموجه إلى مسلمي باشغرد والتتار الذين ثاروا مع بوكاجوف في ادعائه بالملك الروسي . وبيان التعريفة الجمركية لسنة ١٧٨٢ وكتاب فيه كلمات وعبارات مفردة تساعد على دراسة التركية والتتارية التي ترجم بعضها من الفرنسية مثل كتاب لسعيد خَلْفن .

وأول كتاب كامل طبع باللغة العربية في روسيا هو القرآن الكريم صدر زمن الملكة كاترينا الثانية التي أذنت بتأسيس المطابع الخاصة . وكان من رواد المطبعيين الناجحين شنور البطرسبورغي الذي تعاقد مع وزارة الخارجية في ٢٧ أغسطس سنة ١٧٨٥ لنشر كتب باللغات الشرقية . وقد سميت مطبعته بالمطبعة الآسيوية . وكان من أعمالها طبع قوانين الدولة باللغة التتارية إلى جانب طبع المصاحف الشريفة . ومن أجل ذلك سرحت الدولة أربعة جنود من التتر المسلمين عينتهم لديه من أجل التنضيد ، وكان يصحح التجارب الطباعية شخص يدعى عثمان إسماعيل ، صاغ حروفاً عربية من جديد ، طبع بها القرآن الكريم في مطبعة شنور المذكورة في بطرسبرغ سنة ١٧٨٧ بأمر الملكة كاترينا الثانية كما ذكرنا . وقد ذكرت دواعي إصدار هذا المصحف في الطبعة الأولى فقط ثم أعيدت طباعته مراراً من غير إشارة إلى زمان أو مكان ومن غير ذكر عدد النسخ وأسماء الأشخاص المسؤولين . وقد اتضح للباحثين أن هذا المصحف طبع في سنة ١٧٨٩ أو ١٧٩٠ وفي سنة ١٧٩٣ و١٧٩٦ وفي زمن الملك بافل الأول سنة ١٧٩٨ في مطبعة السناة أي المجلس الأعلى بعد أن ألغيت مطبعة شنور سنة ١٧٩٧ .

من المعروف أن نسخ الكتب باليد كان عند كثير من المسلمين عملاً مألوفاً وعادياً ومحترماً ، وكان لبعض الناس حرفة مربحة أو هواية . وصار جمع الكتب وحفظها ونسخها واستنساخها ودراستها والاستمتاع بها مزية من مزايا الحضارة الإسلامية وخاصة في بيئات المثقفين ، ولذا فقد أحس المسلم أن تكثير عدد الكتب بواسطة

المطبعة - ككل اختراع تقني يأتي إليهم من الأجانب - مأثمة خطيرة وبدعة مكروهة تضر بسلامة المفاهيم الإسلامية . وقد كان المسلمون مستعدين للانتفاع بكل ما يتجه الأجنبي من بضائع وأمتعة استهلاكية لكنهم ترددوا في اقتباس العلوم والخبرات المناسبة . أما المسلمون الذين خضعوا لقيصر روسيا وصاروا من رعاياه فقد كانوا مجبرين على تنفيذ أوامر السلطة ، رغم أنهم كانوا يحاولون الدفاع عن تقاليدهم وقيمهم الموروثة .

وقد فكر بعض مسلمي قازان الذين تأثروا بالقرآن الكريم المطبوع في بطرسبرغ بما حمل إليهم تجار المطبوعات الأتراك ، فكروا بإدخال المطبعة إلى بلدهم . وفي سنة ١٧٩٧ تقدم أحد صغار الضباط (ملازم ثان) ويدعى أبا الغازي بُراشف ، تقدم إلى القيصر يستأذنه في تأسيس مطبعة بقازان لنشر الكتب بالتتارية والفارسية والعربية ، فرد عليه القيصر بالرفض ، لكنه كرر طلبه مرات بمساندة مواطنيه حتى استطاع أن يحصل على الإذن سنة ١٨٠٠ ، فأسس بناء على ذلك «المطبعة التتارية» وكانت تابعة للجمنازية الروسية رقم واحد في قازان .

وقد اشترطت عليه السلطات شروطاً قاسية ، أهمها أن يطبع الكتب الدينية لا غير ، وكانت هذه تحت مراقبة شديدة . كما اشترط عليه أن يكون أكثر دخله من بيع الكتب للإدارة الحكومية .

أصدر أبو الغازي براشف منذ سنة ١٨٠١ عدداً يسيراً من الكتب بالتتارية مثل «كتاب أسطواني» لمحمد الأسطواني الدمشقي (١٦٠٢ - ١٦٦٢) و«ثبات العاجزين» لصفي الله يار و«فوز النجاة» . وأصدر كذلك كتباً بالتتارية والعربية مثل «التهجي» أو «ألف با» و«شرائط الإيمان» وطبع القرآن الكريم وسوراً منه . . وهكذا انتقلت طباعة الكتب العربية الإسلامية من بطرسبرغ إلى قازان فصارت هذه الأخيرة وهي المركز الإسلامي القديم الشهير مقر الطباعة الروسية مدة قرن أو أكثر .

وفي سنة ١٨٠٥ أسست الجامعة الإمبراطورية في قازان ، فجعلت هذه المطبعة تابعة لها منذ سنة ١٨٠٩ . وإذا كانت مدينة قازان مركزاً للطباعة الإسلامية في روسيا على مدى القرن التاسع عشر فمطبعة الجامعة فيها أصدرت معظم الكتب الإسلامية ، وقد سميت هذه المطبعة في المصادر بتسميات مختلفة منها «مطبعة الجامعة» أو «دار الفنون» ، أو «مطبعة الخزانة» أو «المطبعة الجامعية» أو «المطبعة الإمبراطورية» .

وأنشئت في قازان مطابع خاصة نشرت كتباً بالعربية ، فمنها :

(١) مطبعة لودفيغ شيفيتش النقاش الهولندي الأصل الذي توطن قازان ، وأصدر بطلب من المسلمين خمسة وأربعين كتاباً بين سنتي ١٨٤١ و١٨٤٨ . ثم باع مطبعته إلى كوكوفن وصارت تسمى باسمه . ثم استعارها منه في الستينات جيركوف فبقيت في ملك أسرته ، وسميت باسمه ، وظلت تطبع الكتب الإسلامية الكثيرة حتى بداية القرن العشرين .

(٢) ومن تلك المطابع الخاصة مطبعة شاهي يحين الحجرية ، أصدرت أربعة كتب سنة ١٨٤٤ ، ثم تملكها محمد ولي يحين ، فطبع عليها ١٩ منشوراً بين سنتي ١٨٥٩ و١٨٦٩ . وانتقلت بعد ذلك إلى إبراهيم عبد الله فتابعت أعمالها حتى انقطعت نشراتها سنة ١٨٨٢ ، وآلت بعدئذ إلى ابنه عبد القاسم (كذا) .

(٣) ومنها مطبعة رحيمجان سعيدوف التي أصدرت كتباً بين عامي ١٨٤٥ و١٨٥٠ .

(٤) ومطبعة تلّي أصدرت كتاباً عربياً واحداً فقط .

(٥) ومطبعة بيبروف الحجرية التي تأسست منذ عام ١٨٧٩ وأصدرت لوحات أو ورقات كبيرة الحجم ذات رسوم ونصوص من بينها مشاهد

استانبول ومكة المكرمة والمدينة المنورة والقاهرة وفلك نوح وشجرة الحياة وبعض مساجد روسيا .

(٦) ومطبعة ويجيسلاف . استمرت من ١٨٨٢ إلي ١٨٩٤ ثم انتقلت إلى دومبروفسكي .

وفي الربع الأخير من القرن التاسع عشر بدأت مطبعتا ويجيسلاف وجيركوف تنافسان مطبعة الجامعة بكمية الكتب وعدد النسخ .

لقد كانت المنشورات القازانية تدر أرباحاً كبيرة على تجارها كما ذكر إبرار كريمولّن في عدد من بحوثه عن الكتب التتارية وتاريخ طباعتها . وقد ذكر الباحث المشار إليه أن أكثر الدخل الحاصل من تجارة الكتب الإسلامية يؤول للمؤسسات الحكومية أو للأشخاص غير المسلمين ، ولم يسمع بتمليك المطابع للمسلمين إلا نادراً ، مع أن أغلبية من طلب نشر الكتب واهتم بها كانوا من المسلمين ، وهم الذين أخرجوها على نفقاتهم ، كما كان عمال المطابع والمشترون للكتب والقراء من المسلمين . وأما انخفاض أسعار الكتب القازانية فيعود إلى رخص أثمان الورق المحلي وتدني كلفة إنتاج الكتب . . وعلى كل حال فإن من العجيب أن الدولة المسيحية في أقصى الشمال كانت في القرن التاسع عشر تحضر إلى المناطق الإسلامية كثيراً من الكتب العربية وتساهم في السوق بتجارة الكتب المنشورة في تركيا والهند وغيرهما وتنجح في ذلك . . . حتى صارت الطباعة الإسلامية والعربية في روسيا ظاهرة بارزة من ظواهر الحياة الثقافية في العالم الإسلامي كله .

كان طبع الكتب الإسلامية في روسيا منذ الربع الأخير من القرن الثامن عشر حتى بداية القرن العشرين يجري تحت رقابة صارمة متعنتة لاتنقطع من جهة رقباء الروس الذين كانوا بصورة طبيعية يتعصبون لمملكتهم وكنيستهم ودينهم ، هذا إلى جانب كون مدينة قازان مركزاً للدعاية المسيحية الروسية الأرثوذكسية وحركة التعميد

والتنصير بالقهر والإجبار .

إنّ تعارض المسلمين التتار والمسيحيين الروس مهد السبيل لازدياد نشر الكتب لهما ، وبرزت كتب الجدال خاصة . وكان الدعاة المسيحيون ينافسون ناشري الكتب الإسلامية ويكيدون لهم ، ويبلغون عنهم كبار موظفي الدولة بما في ذلك القيصر نفسه ، في حين كان المسيحيون ينالون مساعدات من السلطات وسكان المنطقة الروس في كل وقت وبكل نوع وطريق . ومع هذا فلم ينشر من كتبهم كميات تقارب الكتب الإسلامية ، وذلك لأن حب الكتب عند مسلمي روسيا صار فيما يبدو دافعاً وطنياً وتعصباً دينياً مرده معارضتهم لاضطهاد الحكومة وظلمها .

وقد انتشرت طباعة الكتب العربية في غير قازان ، فبطرسبرغ لم تقتصر على نشر المصاحف والكتب المقصودة للتجارة . فاستعملت الحروف العربية في أكاديمية العلوم لطبع الكلمات المفردة والجمل والعبارات التي تتضمنها بحوث المستشرقين عن المخطوطات والمسكوكات والوثائق والدراسات التاريخية الأدبية . ونشرت رسائل وكتب كاملة مثل «مختارات من الأدب العربي» وهي التي ألقاها على طلاب العربية في الجامعة فلاديمير كيركاس وفيكتور روزن ، ونشرت سنة ١٨٧٦ ، وكذلك كتاب «أخبار عن دولة التتار» جمعها وحققها وترجمها إلى الروسية تيزنهاوزن وغيرها من الأعمال القيمة كما أرسلت بعض النصوص العربية من بطرسبرغ إلى قازان لطبعها هناك .

وفي الوقت نفسه نشرت المطبعة التابعة لأكاديمية العلوم بعضاً من الكتب الإسلامية في سنوات ١٨٨١ ، و١٨٨٣ و١٨٨٤ بطلب من تجار الكتب التتار .

وفي سنة ١٨٩٤ أسس إلياس ميرزا البوراغاني - وهو من تتار القريم- مطبعته التي أخرجت في سبع سنوات حوالي ٢٦٧ ألف نسخة من الكتب على المطبعة الحجرية وبطريقة التنضيد ، كان ثلثها تقريباً باللغة العربية .

وفي موسكو نشرت مطبعة الجامعة كتابين أو ثلاثة كتب خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر .

وكان في تفليس مطبعة لوالي القوقاز الروسي منذ سنة ١٨٢٨ ، فيها حروف عربية لكنها لم تطبع كتاباً واحداً بالعربية .

وقام في كل من أورنبورغ وباكو وغيرهما مطابع تأسست منذ سنة ١٨٣١م .

كما كان لدى دعاة المسيحية الذين جاؤوا من اسكوتلندا وسويسرا مطبعة عربية ، وقد نشطوا منذ بداية القرن التاسع عشر في مناطق القوقاز ومدينة استرخان ، ونشروا عدداً من كتبهم بالعربية ، لكن نشاطهم انتهى سريعاً إلى الإخفاق . وقد ذكرنا أن كتب دعاة الأرثوذكسية كانت تطبع بالعربية في قازان .

وطباعة الكتب الإسلامية في بلاد ما وراء النهر (بالمعنى الجغرافي) لم تظهر إلا في العشر الأخير من القرن التاسع عشر ، وخاصة بعد التغيرات التي جرت في روسيا بعد ثورة ١٩٠٥ .

والذي رأيناه في بلاد روسيا نراه هنا ، فملكية المطابع ودور النشر إما لإدارات الدولة أو لأشخاص من الروس مثل لاخطين وكنيناسكي في طشقند وبوتسف في بخارى . أما عمال المطابع والمصححون فكانوا من التتار الذين جاؤوا من قازان وما حولها . وبمرور الزمن دخل في مجال الطباعة أهل المنطقة المحليون فتعودوها واستحبوها واجتهد ناشرو الكتب الإسلامية في داغستان وأذربيجان ومناطق ما وراء النهر الأخرى في الربع الأول من القرن العشرين .

أما الكتب العربية التي طبعت في روسيا حتى أواخر القرن التاسع عشر فحدد موضوعاتها طلب المشترين من جهة وقيود المراقبة من جهة أخرى . فكان من بين ذلك القران الكريم وأجزاء منه وسور وآيات وكتب علوم القرآن الكريم وكتب هجاء الحروف العربية ومجموعات الأدعية والأحاديث الشريفة والتمائم والطلاسم

واللوحات وأطباق الرسوم مع الأدعية والأذكار وأسماء الله الحسنى وذكر خواصها وأسماء الخلفاء الراشدين . ثم صدرت مع الزمن زيادة على ذلك كتب مدرسية في النحو والصرف والتجويد والقراءات والمنطق والبلاغة وأصول الفقه الحنفي وفروعه والعقائد والزهد والتصوف والتفسير والحديث الشريف والسير والتاريخ والرجال وكثير من هذه الكتب خرجت بالشروح والتعليقات . وقد صدر بعضها مرات وبعشرات الآلاف من النسخ .

وقد ساعدت الكتب العربية التي طبعت في روسيا حتى سنة ١٩١٧ على رفع مستوى المعرفة باللغة العربية الفصحى عند المسلمين فيها وعلى ازدياد الدارسين لها ، وكانت وسيلة لدعم المعارف والعلوم والقيم الأخلاقية والدينية الموروثة وحفظها . وربطت المسلمين الذين يسكنون بعيداً أو قريباً في روسيا مع إخوانهم ، وحسنت مفهوم الوحدة الثقافية الإسلامية ، وجمعتهم على مشكلاتهم وقضاياهم في ماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم جميعاً . كما انعكس في الكتاب العربي المطبوع في روسيا جوانب من الفكر التجديدي والإصلاحي للمسلمين ، وبدت فيه جهود الباحثين في الأدب العربي ومقاصد دعاة المسيحية وغاياتهم . فأين تلك الكتب الإسلامية العربية المطبوعة في روسيا منذ بداية الطباعة حتى القرن العشرين ؟ .

لقد ضاع معظمها ، وتعرضت للإهمال والاستعمال والحرق والغرق والإتلاف ، خاصة أنها لم تكن جيدة الورق ولا الحبر ولا التجليد .

وبقي منها القليل موزعاً على مكتبات العالم ، وأكثر نماذجها في مكتبتي سانت بطرسبرغ الوطنية ومعهد الدراسات الشرقية التابع لأكاديمية العلوم وفي مكتبة الجامعة ومكتبة أكاديمية العلوم في تتارستان وفي مكتبات طشقند وأوفا وباكو وربما في غيرها من المكتبات الأخرى .

أثر المستشرقين في خدمة التراث العربي الإسلامي

الدكتور علي إبراهيم النملة

علي إبراهيم النملة

عضو مجلس الشورى بالمملكة العربية السعودية.

- من مواليد القصيم بالسعودية، ١٩٥٢م.
- دكتوراه في المعلومات من جامعة كيس وسترن رزرف بالولايات المتحدة،

الوظائف

- وكيل كلية العلوم الاجتماعية بالرياض.
- باحث في معهد العلوم العربية والإسلامية بفرانكفورت.
- مستشار مدير جامعة الإمام محمد بن سعود.
- مشارك في وضع أنظمة مكتبة الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ومكتبة الملك فهد الوطنية، ونظام الإعارة بين المكتبات في مكتب التربية لدول الخليج.
- أستاذ مشارك بكلية العلوم الاجتماعية بالرياض.

من نتاجه

- مراكز الترجمة القديمة عند المسلمين، الرياض، مكتبة الملك فهد.
- التنصير : مفهومه وأهدافه، دار الصحوة.
- الاستشراق والمستشرقون في الأدبيات العربية، الرياض، مركز الملك فيصل.
- مصادر المعلومات عن الاستشراق والمستشرقين : استقراء المواقف، الرياض، مكتبة الملك فهد.
- التنصير في الأدبيات العربية، الرياض، جامعة الإمام محمد ابن سعود.
- الوراقة وأشهر أعلام الوراقين، الرياض، مكتبة الملك فهد.

الاستشراق عندي ظاهرة محددة بدراسة علوم المسلمين من غير المسلمين ، بغض النظر عن الوجهة التي ينطلق منها المستشرق ، سواء أتى من الغرب أم من الشرق ، بل إني أزعم أن العرب غير المسلمين الذين يدرسون الإسلام يدخلون في مفهوم الاستشراق ؛ ذلك أن هذا المصطلح قد أخذ مفهوماً اصطلاحياً ارتبط بالكتابة عن الإسلام والمسلمين من منطلقات لم تكن - بالضرورة - إيجابية مع الإسلام والمسلمين مهما حاول المفكرون العرب وبعض المفكرين المسلمين الدفاع عن هذه الظاهرة ، وحاولوا إعطاءها قدراً علمياً يتضح كثيراً عند الحديث عن خدمة تراث المسلمين من حيث حفظه ونشره وتحقيقه ودراسته وترجمته .

وهذه النظرة السلبية لظاهرة الاستشراق حجبت عن العيون والأذهان الجوانب الإيجابية للاستشراق في خدمة التراث ، وأصبح من المتعذر على بعض المتابعين أن يقبل أي معلومة - ولو صحيحة - مادامت صادرة من مستشرق أو منقولة عن مستشرق دون أن ترتفع الحواجب معربة عن الشك في هذه المعلومة ، ولو كانت صحيحة . وكأني ببعض المتابعين العرب لإسهامات المستشرقين يتمثّلون القول المأثور عن المصطفى محمد - صلى الله عليه وسلم- «كذب المنجمون ولو صدقوا» ، (أو صدفوا) ، ولكن بتعديل طفيف : «كذب المستشرقون ولو صدقوا» ، أو صدفوا .

وغني عن البيان أن هذا الموقف غير معلن صراحة ، ذلك أنه لا يتوافق مع النظرة الإسلامية للحكمة بغضّ النظر عن مصدرها البشري والجغرافي والزماني ، فالحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها ، بل إن العدل في الحكم على الأشياء والأشخاص مطلب شرعي بنص الآية الثامنة من سورة المائدة (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون) .

وهذا يعني بالضرورة أن الاستشراق قد أسهم إسهاماً جيداً في خدمة التراث مهما حاول بعض الباحثين والمفكرين التقليل من هذه الإسهامات ، ولاسيما فيما يتعلق بحفظ المخطوطات وتصنيفها وتحقيقها ونشرها وبعض الدراسات والترجمات حولها[١] .

كما أنه يعني بالضرورة أن الاستشراق قد أسهم إسهاماً غير جيد في التصدي للتراث ، ولاسيما فيما يتعلق بالدراسات التراثية التي تعنى بدراسة القرآن الكريم وسنة المصطفى محمد صلى الله عليه وسلم وسيرته عليه السلام[٢] ، والفقه الإسلامي والعقيدة الإسلامية ، والرموز الإسلامية التي كان لها أثر واضح في مسيرة التاريخ . يقول أحد المهتمين بالدراسات الاستشراقية : « . . يظهر واضحاً أن الاستشراق أظهر منذ البداية خلطاً عجيباً من الدوافع التنصيرية الدينية والسياسية والفكرية والاهتمام العلمي المحض . ومع هذا فإن الاستشراق لم يستطع أن يتخلى عن هذا الخلط العجيب المتناقض حتى يومنا هذا ، مع إصرار الاستشراق اليوم على اتخاذه الموضوعية دليلاً في دراساته عن الإسلام أو النتاج الفكري عند المسلمين . . »[٣] .

مفهوم التراث

لن أدخل في التعريفات اللغوية والاصطلاحية للتراث ، إذ إني أرغب في تجاوز هذه المرحلة المطروقة[٤] إلى تحديد دقيق للمفهوم العام للتراث العربي الإسلامي ، كما يظهر لي ؛ فالتراث العربي الإسلامي إطلاق غير دقيق في نظري ، ذلك أنه مما ينبغي أن ينسب أي إنتاج علمي فكري وثقافي إلى أهله الذين يصبغونه بالصبغة الإسلامية ، ولا يعني هذا نسبته إلى الإسلام ، ذلك أن الإسلام يعني الكمال ، ولذا فإننا نستبعد أن يكون القرآن الكريم وسنة المصطفى محمد صلى الله عليه وسلم وسيرته الصحيحة الثابتة سنداً ومتناً من التراث ، ذلك أننا نعد هذه المصادر كاملة بكمال الدين ، وإنما النقص يعتري المطبقين لهذا الدين الكامل ، والمتوقع أن يعتريهم النقص ، فينعكس

هذا على أدائهم ، بما في ذلك الإنتاج العلمي والفكري والثقافي ، الذي تعارفنا على تسمية القديم منه تراثاً عربياً إسلامياً .

وقد أخذ التراث العربي الإسلامي هذا الإطلاق ، أو هذه التسمية من وجهتين ؛ فهو تراث عربي لأنه كتب بالعربية ابتداءً أو نقلاً عن السريانية والفارسية والهندية واليونانية وغيرها ، فلغة هذا التراث عربية بالدرجة الأولى ، ومع هذا فإن هناك تراثاً كتب باللغات الإسلامية الأخرى كالفارسية والأردية والتركية ، ولغات آسيوية وأفريقية أخرى .

وهو تراث إسلامي لأنه يعبر عن الفكر الإسلامي ، وينطلق من المنطلقات الإسلامية ، ويخدم الثقافة الإسلامية ، وقام أو نشأ بين المسلمين(٥) . ولذا نجد من يقرر أن التراث العربي المخطوط كله إسلامي باستثناء النزر اليسير ، وليس كل التراث الإسلامي عربياً من حيث اللغة ؛ إذ إن هناك لغات غير عربية تحفل بالتراث الإسلامي(٦) .

ولا يعني هذا بالضرورة أن هذا التراث يتماشى مع التعاليم الإسلامية من حيث الالتزام بالمبادىء والمثل والقيم الإسلامية ، بل إن من تراث المسلمين ما يتنافى مع هذه المثل ، وكأنك حين تقرؤه تشعر أن هذه المخالفات فيه مقصودة ، وغني عن القول تأثير الثقافات الأخرى الدخيلة في الثقافة الإسلامية ، وانعكاس ذلك على التراث العربي الإسلامي(٧) .

ولذا فإنه ليس من الموضوعية التعصُّب للتراث بعدم الاعتراف أو الالتفات إلى وجود الغث في التراث لمجرد ظهور دعوات تهدف إلى إسقاط التراث من الحياة الثقافية والعلمية للأمة في ذلك الصراع المفتعل بين الأصالة والمعاصرة ، وكأنهما لا يمكن أن يجتمعا في غمد واحد ، لأننا نعلم بالضرورة أن التراث باق معنا ، وعليه نستند في نهضتنا العلمية والفكرية والثقافية مهما طال بنا الزمن ، ومهما استفدنا من

الأفكار والثقافات والعلوم الأخرى ، ولا تنافي بين الأمرين بحال . ونحن لا نتعصّب للتراث لأنه تراث ، ولا نقف في وجه المعاصرة لأنها معاصرة(٨) .

المستشرقون والتراث

وللمستشرقين أثر واضح في خدمة التراث العربي الإسلامي منذ أن استقام عود الاستشراق وتكوّنت لديه العراقة ، وتحول من مجرد أداة هدم إلى ظاهرة لها كيانها ومدارسها وفئاتها ومنطلقاتها وأهدافها(٩) ، هذا في الوقت الذي تأخر فيه العرب والمسلمون عن خدمة التراث خدمة علمية ومادية ، حتى خُشي على ضياعه بينهم ، عندما أصبح في كثير من دور الكتب قطعاً متحفية تباع خفية لمن يدفع أكثر ، أو يبسط بها في الأسواق العامة ، وعلى قارعة الطريق(١٠) . هذا على أحسن الأحوال .

ومن أسوأ الأحوال أن تمزّق أوراق المخطوطة وتكون وعاءً لنقل المادة المشتراة من الحلوى والبقول «الحب» وغيرها !(١١) مما أدى ببعض المهتمين إلى تبرير سرقة بعض المستشرقين للمخطوطات مادام السارق يحترم المخطوطات ويحرص على صيانتها ويقدر قيمتها العلمية في خدمة الحضارة الإنسانية(١٢) . ومن ثم إمكانية الحصول على مصورات منها ، إن لم يمكن الحصول على الأصول ، ولن يمكن ذلك ؛ لأن القوم يقدرون قيمتها العلمية أحياناً والمُتحفيَّة أحياناً أخرى ، ولا ينتظر منهم أن يفرطوا بها . هذا في الوقت الذي يتعذر فيه الحصول على المخطوطة أو صورة منها في كثير من المكتبات العربية ، إلا أن تظهر كلها لمن يجيز لنفسه أن يرشو أحد القائمين على القسم أو على المكتبة فيحصل عليها كما هي(١٣) ، ولا يعلم مصيرها بعد ذلك ، إذ إنها مسجلة في فهارس المكتبة ، وليست موجودة على الرفوف ، وليست في سجلات الإعارة ، مع أن المخطوطات لا تعار ، فتدخل في قائمة المفقودات ، هذه القائمة التي تطول مع الزمن إن لم يتدارك هذا الوضع .

ولا ينكر المتابعون فضل المستشرقين في إثارة التراث وخدمته حتى للباحثين

العرب والمسلمين مع التفاتتهم العملية للتراث . وفي هذا يؤكد محمد كرد علي على أنه «لولا عناية المستعربين بإحياء آثارنا لما انتهت إلينا تلك الدرر الثمينة التي أخذناها من طبقات الصحابة ، وطبقات الحفاظ ، ومعجم ما استعجم ، وفتوح البلدان ، وفهرست ابن النديم ، ومفاتيح العلوم ، وطبقات الأطباء ، وأخبار الحكماء ، والمقدسي ، والإسطخري ، وابن حوقل ، والهمذاني ، وشيخ الربوة ، وابن جبير ، وابن بطوطة ، إلى عشرات من كتب الجغرافية والرحلات التي فتحت أمامنا معرفة بلادنا في الماضي ، وبها وقفنا على درجة حضارتها . ولولا إحياؤهم تاريخ ابن جرير وابن الأثير وأبي الفداء واليعقوبي والدينوري والمسعودي وابن أبي شامة وابن الطقطقي وحمزة الأصفهاني وأمثالهم ، لجهلنا تاريخنا الصحيح ، وأصبحنا في عماية من أمرنا ، ولو جئنا نعدد حسنات دواوين الشعر أو كتب الأدب والعلم التي أحيوها لطال بنا المطال»[١٤] .

بل إن من المستشرقين من وقف نفسه على خدمة التراث العربي الإسلامي ونأى بنفسه عن الولوج في أي مشروع يراد منه الإساءة للإسلام وأهله بأي شكل من أشكال الإساءة[١٥] ، وإن لم تخل خدماته من الإساءة التي يتوقع منها أن تكون غير مقصودة ، وإنما أدى إليها سوء فهم أو سوء سيطرة على اللغة ، أو سوء اتكاء على الأتراب والرواد المستشرقين السابقين . ولمحمود محمد الطناحي عشر ملحوظات على منهج المستشرقين في نشر التراث العربي ، تعبر عن وجهة نظره هو وحده ، ولم يتأثر فيها بأحد «مادحاً كان أم ذاماً ، راضياً أم ساخطاً ، فإن الحقيقة العلمية أعلى من المدح أو الذم ، أو الرضى والسخط»[١٦] . ومجمل هذه الملحوظات أن المستشرقين اتخذوا ثلاثة اتجاهات في نشاطهم :

نشر النصوص ، والتعريف بالمخطوطات ، ودراسة الفنون وأعلام التراث ، وارتباط حركة نشر النصوص بالجامعات والمعاهد العلمية ، وأن فنون التراث لم تحظ منهم بقدر متساو من النشر ، واتجاه المستشرقين أول الأمر إلى أصول العلوم والفنون ،

واهتمامهم باستقصاء مخطوطات الكتاب المراد تحقيقه ، وكثرة استعانتهم بأهل اللسان العربي في تحرير النصوص ، وحرصهم على تأدية النص أداءً صحيحاً ، وحرصهم على تكشيف الكتاب المحقّق ، واهتمامهم بعلاقة الكتاب المحقّق بالكتب السابقة عليه في موضوعه ، والكتب اللاحقة المتأثرة به ، ووقوعهم في أوهام غليظة ، ولاسيما فيما يتعلق بألفاظ اللغة العربية وتراكيبها ودلالاتها ، ومصطلحات العلوم العربية وفنونها .

ولا يدخل في هذا البحث ترجمات معاني القرآن الكريم ، لأن هذا الموضوع يحتاج إلى تحليل منفرد ، يبين فيه اعتماد ترجمات معاني القرآن الكريم بعضها على بعض من لغة إلى أخرى غير لغة القرآن الكريم[١٧] ، وأثر ذلك على المعنى المراد في دراسة لغوية بلاغية أسلوبية موضوعية[١٨] .

ويمكن حصر إسهامات المستشرقين في خدمة التراث في خمسة مجالات ، هي في النهاية المجالات المهمة التي يمكن أن يخدم التراث من خلالها ، وهي :

أولاً : البحث عن المخطوطات ، والرحلة إليها ، وجمعها ، ونقلها ، وحفظها ، وصيانتها .

ثانياً : فهرسة المخطوطات[١٩] ، وتوثيقها وضبطها وراقياً (وعائياً أو ببليوغرافياً) ، وربما تكشيفها وتلخيصها .

ثالثاً : تحقيق كتب التراث[٢٠] .

رابعاً : الدراسات حول التراث ، مع العناية بالمعاجم .

خامساً : ترجمة التراث إلى اللغات الأوروبية .

هذا بالإضافة إلى نسخ بعض المخطوطات وتحريرها ، أو تصويرها ، أو نشر اقتباسات من بعضها[٢١] ، فاستحدثوا لذلك وظائف النساخ ، واستعملوا لها بعض

الناسخين والمحررين العرب ممن يتمتعون بحسن الخط من أمثال ميشيل صباغ المصري ، والشيخ حسن زيدان ، ورزق الله حسون ، ومحمد عياد الطنطاوي ، وحسن تق العدل ، وإبراهيم عبد الفتاح طوقان ، وغيرهم ، بل لقد استحدثوا وظيفة «قارىء نصوص» يقف إلى جانب الأساتذة والمحاضرين[٢٢] .

كما استعانوا في ذلك بالعلماء العرب والمسلمين فلازموهم وأخذوا منهم واستفادوا ، وأفادوهم ، ومنهم ، على سبيل التمثيل لا الحصر ، أحمد تيمور باشا ، وأحمد زكي باشا ، ومحمد محمود بن التلاميد التركزي الشنقيطي ، والشيخ طاهر الجزائري ، وحسن حسني عبد الوهاب ، وابن أبي شنب ، وعبد الحي الكتاني ، ومحمد رشاد عبد المطلب ، وفؤاد سيد ، وكوركيس عواد ، وقاسم الرجب ، وأحمد عبيد ، وحمد الجاسر ، والقاضي إسماعيل الأكوع ، وإحسان عباس ، ومحمد يوسف نجم ، وصلاح الدين المنجد ، وإبراهيم شبّوخ ، ومحمد المنوني ، ومحمد إبراهيم الكتاني ، والعابد الفاسي ، والفقيه التطواني ، ومحمود محمد الطناحي[٢٣] . والذي أظنه أن كل فريق قد تأثر بالآخر ، فاستفاد بعضهم من بعض ، ولم تكن الإفادة والتأثير من جانب واحد ، كأن يكون جانب المستشرقين هو المفيد المؤثر ، والجانب العربي هو المستفيد المتأثر ، أو العكس[٢٤] .

ومما أعان على هذه الاهتمامات بالمخطوط العربي وجوده في المناطق التي يكثر بها المستشرقون ، ولاسيما في أوروبا الغربية . فقد توافرت المخطوطات في المكتبات الأوروبية «عبر قرون من الجمع والعناية بالحصول عليها من مواطنها الأصلية في البلاد العربية والإسلامية التي كانت شعوبها تغُطّ في الجهل وعدم الاكتراث بها»[٢٥] . وفي هذا يقول أحد الباحثين في التاريخ : «لقد أعان رجال الاستشراق على أصالة بحوثهم أنهم وقع لهم من كنوز التراث الشرقي والعربي وذخائر أفكاره مالم يقع لأهله وأصحابه . فقد جاء حين على المخطوطات العربية كانت مجهولة القدر عند أصحابها الذين هم أولى الناس بها ، وأحقهم بصيانتها

وحفظها ، فانتقلت إلى خزائن الغربيين - فيما انتقل إليهم من التراث الشرقي والعربي - ومن هنا انكبُّوا عليها ، وعكفوا على دراستها ، وأطالوا البحث فيها ، حتى استقام لهم من ذلك دراسات سبقونا إليها ، وكنا نحن أحق بهذا السبق»[٢٦] .

ومما يؤيد وجود هذه المخطوطات بين أيدي المستشرقين أنه في نظرة سريعة إلى القائمة التي ذكرها «إدوارد فان دايك» في مطلع كتابه «اكتفاء القنوع بما هو مطبوع» نلحظ أن ٧٥٪ من المخطوطات تكاد تنحصر في المكتبات الأوروبية في كل من برلين والأسكوريال وفلورنزا وغوته وكوبنهاغن ولايبزغ ولايدن ولندن ولوند وأوبسالا وأكسفورد وباريس ورومة وبطرسبرغ وفيينا ، و٢٥٪ منها في العواصم العربية والإسلامية ، ولاسيما القسطنطينية (إسطنبول) وبغداد ودمشق وتونس والقاهرة[٢٧] .

وتعود هذه المعلومات إلى بداية القرن الرابع عشر الهجري ١٣١٣ هـ ، نهاية القرن التاسع عشر الميلادي ١٨٩٦ م ، ولا أشك بأن هذا الحصر المكاني تقريبي ، إذ إن هناك أماكن أخرى غير ما ذكر فان دايك ، سواء في الغرب أم في الشرق ، كما هو معلوم من وجود المخطوطات في عاصمتي العالم الإسلامي مكة المكرمة والمدينة المنورة ، ويذكر الآن أن عدد المخطوطات العربية يصل إلى ثلاثة ملايين مخطوطة أو يزيد ، وهي موزعة بين أكثر من ألفي مكتبة في العالم[٢٨] .

والذين يتحفظون على إسهامات المستشرقين في أي مجال من مجالات الدراسات الإسلامية ، بما فيها التراث ، يتوقفون كثيراً عند الأعمال التي تبرز فيها شخصية الباحث المستشرق ، مما يتيح له أن يقحم منهجه وآراءه حول الأفكار المدروسة ، وهذا واضح في المجالين الأخيرين من المجالات التي خدم المستشرقون فيها التراث ، وهما مجالا التحقيق والدراسة . إذ إنه يعتريهما سوء الفهم الناتج عن محدودية الحصيلة اللغوية لدى أولئك الذين تصدوا للتحقيق والدراسة ، مما حدا ببنت الشاطىء عائشة عبد الرحمن إلى الوقوف على بعض التحريفات في دراسة

المستشرقين لرسالة الغفران ، ومنهم نيكلسون ، ودعوة العرب والمسلمين للتنبُّه إلى «واجبهم في حمل الأمانة - أي أمانة تحقيق التراث - بعد أن وكلوها إلى المستشرقين ، وأنا أدعو علماء العربية إلى نشر تراث لهم هم أولى به وأقدر على فهمه»[٢٩] .

على أن هناك من يطعن في نوايا المستشرقين بجمعهم المخطوطات وصيانتها وفهرستها ، وربما قيل : إن الاستشراق لم يقم بوضع «الفهارس إلا ليهيىء لنفسه وسائل جمع المادة العلمية التي يتظاهر بها دارساً جاداً موضوعياً يستقرىء المسائل في دقة وشمول»[٣٠] .

وربما قيل أيضاً : إنهم إنما قاموا بتلك الجهود في مجال المخطوطات ليستولوا عليها ، ويحجبوها عن العرب والمسلمين ، ويجعلوها رهينة عندهم ، و«أن تلك الجهود الإيجابية التي بذلها المستشرقون في ميدان توثيق التراث العربي المخطوط على الرغم من أنها قد أدت بالفعل إلى توثيق كميات هائلة من مخطوطاتنا العربية وضبطها في أرجاء مختلفة من الأرض ، إلا أنها - في الوقت نفسه - قد أسهمت بدور مهم ورئيسي في تحقيق أهداف الحركة الاستشراقية بصفة خاصة ، حيث أمكن من خلال تلك الأدوات البيبليوغرافية تعرّف طبيعة حجم الموروثات العربية المكتوبةتعريفاً دقيقاً ، وبالتالي تحليل مضامينها الفكرية والمادية عن طريق النقد والدراسة ، وانتقاء الأعمال التي تستفيد منها الحركة في تحقيق أهدافها الدينية أو العسكرية أو السياسية أو الأيديولوجية للتحقيق والنشر[٣١] .

ويؤيد هذا أن بعض المستشرقين قد أكدوا في اهتمامهم بالتراث على الحركات التي تمردت على التوجُّه السائد في المجتمع العربي المسلم ، وعدّوا المنشقين «أصحاب فكر ثوري تحرري عقلي»[٣٢] فأعطوا هذه الحركات أهمية لم تكن تنالها لو لم يهتموا بها هذا الاهتمام الذي قاد بعض مفكرينا من العرب إلى التفكير بأن هذه الحركات هي التي استخدمت العقل ووظفته في أمور لا مجال فيها لإعمال العقل

كالعبادات التوقيفية وأمور العقيدة والتوحيد وأصول الدين(٣٣) ، وذلك مثل الفرق التي ظهرت في العصرين الأموي والعباسي من تاريخ الإسلام فقيل عنها إنها الفرق الإسلامية كالمعتزلة والصوفية المغرقة والمتكلمة والمتفلسفة وأهل الباطن(٣٤) ، بل ربما أعطيت أهمية لأولئك الذين تمردوا على الدين وارتدوا عنه من أمثال مسيلمة ومن شاكله من مدَّعي النبوة(٣٥) .

وفي دراسة كمية قام بها عبد العظيم الديب أثبت أن نسبة المنشور في مجال التصوف والفلسفة وعلم الكلام يصل إلى ٤٣٪ من جملة منشورات المستشرقين التراثية . أما بقية النسبة فموزعة على بقية العلوم الأخرى كالتاريخ والتراجم ٣٠٪ ، والتفسير واللغة والنحو والأدب والبلاغة والرحلات والجغرافيا والشعر والطرائف والفقه والعلوم ، ولم يزد كل فن من هذه الفنون عن ٤,٣٪ من النسبة الكلية(٣٦) .

وربما أخفى المستشرقون شيئاً من هذه المخطوطات التي يحتفظون بها إذا ما كان لها علاقة بالحديث عنهم من حيث انتماءاتهم العقدية(٣٧) . وربما عمدوا إلى إحراقها جميعاً كما حدث في الأندلس(٣٨) . يذكر أنه قد أحرق مليون (١,٠٠٠,٠٠٠) كتاب في ميدان غرناطة ، وفي يوم واحد . وكما حدث في الشرق الإسلامي قبل ذلك إبان الحروب الصليبية ، فيذكر أن مجموع ما أتلف من مخطوطات عربية في ميدان طرابلس الشام وحدها كان حوالي ثلاثة ملايين (٣,٠٠٠,٠٠٠) مجلدة(٣٩) .

وهذا الإجراء في التعامل مع التراث قد يرضي بعض المتحمسين لهذا الأسلوب في حرق المخطوطات العربية الإسلامية ، لأنه «كان يتمنى أن تحرق هذه المخطوطات ، ولا تقع في أيدي المستشرقين ، لأنهم استخدموها ضد العرب والمسلمين !»(٤٠) ومثل هذا قول أحد الباحثين : «ومن أعجب العجب أن تجد أمة - مثل أمتنا - تشكر وتمجد وتعظم أمر سارقي وثائقها ، لمجرد أنهم احتفظوا بها ، أو قدّموا إليها صورة منها ، وعهدي بالدول الواعية ، أنها تفضّل حرق وثائقها من أن تقع في يد أعدائها»(٤١) .

وهذا الموقف ينبىء عن الرفض المطلق لجهود المستشرقين ، والتقليل من الجوانب الحسنة التي أسهموا بها(٤٢) ، الأمر الذي لا يرضي الطرف الآخر الذي يثني على جهود المستشرقين ، وينسب إليهم الفضل في تعرّف التراث أولاً ، ثم خدمته ثانياً على المنهج الذي خدمه به المستشرقون(٤٣) ، وينحي باللائمة على كل من ينتقد الاستشراق ، مدّعياً أن المستشرقين هم الذين أنقذوا أمتنا من جهالتها ، وأخرجوها من ضلالتها ! ثم يطالب بتحويل كل من ينتقدهم إلى مصحات العلاج النفسي(٤٤) !

وعلى أي حال فقد تبين لي من دراسة ظاهرة الاستشراق بكتابات عربية أن كثيراً ممن كتب عن الاستشراق قد تمثل بالقول العربي المأثور : «ويلي عليك وويلي منك يا رجل» ففي الوقت الذي يرغب فيه الدارسون الإنصاف والميل إلى الثناء على المستشرقين وجهودهم في خدمة التراث نجدهم يحترزون بأسلوب مباشر أو غير مباشر ، فيذكرون الجانب السلبي الذي يؤخذ على الاستشراق في تعامله مع التراث وغيره(٤٥) .

إلا أن ذكر جوانب القصور والتقصير لدى المستشرقين يختلف في التعبير من باحث لآخر ، فالذين يميلون إلى الاعتراف بفضل المستشرقين على التراث تكون لغتهم اعتذارية - دفاعية - تبريرية عند حديثهم عن جوانب التقصير والقصور . والذين يميلون إلى التقليل من شأن المستشرقين في خدمة التراث تكون لغتهم هجومية عند الحديث عن الهنات والأخطاء التي وقع بها المستشرقون في خدمتهم للتراث العربي الإسلامي . ويصعب جداً ، لدى هؤلاء الدارسين بنوعيهم ، تناسي أهداف المستشرقين التي كانت مبعث انطلاقاتهم الأولى في اهتمامهم بالثقافة العربية الإسلامية بعامة ، وبالتراث العربي الإسلامي بخاصة ، وفي الوقت نفسه اقتضت الموضوعية والعدل عدم إغفال بعض الجهود التي بذلها بعض المستشرقين في هذا المجال(٤٦) .

ويمكن أن يصنف اهتمام المستشرقين بالتراث العربي الإسلامي من حيث المقاصد ، من خلال تصنيف المستشرقين إلى أربع طوائف :

الطائفة الأولى :

قصدت التعرف على أثر الفكر والتراث العربي والإسلامي في الحضارة العربية ،

الطائفة الثانية :

اهتمت بالتراث العربي الإسلامي لتتعرف مدى تأثير الحضارة الأوروبية فيه ،

الطائفة الثالثة :

وقفت موقف العداء للتراث وأهله وحاربته محاربة علنية وسرية ،

الطائفة الرابعة :

كانت منصفة إلى حدٍ ما ، لأنها تؤمن أن صناعة الفكر الحضاري مهمة الإنسانية جمعاء(٤٧) .

أما من حيث المنهجية التي اتبعها المستشرقون في دراسة التراث فلم تقتصر على المنهج التاريخي ، بل شملت المنهج التحليلي ، والمنهج الإسقاطي ، ومنهج الأثر والتأثُّر ، ومنهج المطابقة والمقابلة . وقد تجتمع هذه المناهج في دراسة واحدة ، أو عند مستشرق بعينه ، وقد تفترق ، وهي نفسها قد «استخدمها الأوروبيون في مجال الدراسات الإنسانية بصورة عامة ، ولأنها تستند إلى المذهب الوضعي الذي طبقه المستشرقون على الدراسات الإسلامية في القرن التاسع عشر والعشرين ، ولم يحيدوا عنه إلى الآن بالرغم من نبذ هذا المذهب في الوقت الحاضر للدراسات الإنسانية»(٤٨) .

ولم تخل هذه المناهج مجتمعة من المآخذ ، فيما عدا منهج المطابقة والمقابلة الذي برع فيه المستشرقون وأجادوا ، لمعرفتهم بالعديد من اللغات واطلاعهم على

العديد من المخطوطات ، واكتشافهم للمئات من النقوش والآثار .

على أنه يصعب التعميم هنا من حيث المنهج أو المناهج ، إذ ربما كان لكل مستشرق منهجه في دراسة جزئية يسيرة من جزئيات التراث العربي الإسلامي . وقد أحسن مكتب التربية العربي لدول الخليج حينما استكتب مجموعة من العلماء العرب المسلمين حول مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية ، وأصدر هذه الأبحاث في جزأين بالتضامن مع المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم .

ومن الباحثين من ركّز في دراسته على مستشرق بعينه ، وبين منهجه في دراسة موضوع من موضوعات التراث[٤٩] . هذا ويؤكد ؛ صلاح الدين المنجِّد على سبق المستشرقين الألمان في خدمة التراث غيرهم من المستشرقين الآخرين[٥٠] .

ولم يخل منهج المستشرقين من الخلط والخطأ في نقل النصوص ودراستها ، مما يستحق التنبيه إليه لما فيه من قلب للحقائق ، يكاد يكون متعمّداً في غالب الأحيان . وقد تعرضت لهذا الجانب من المنهج في وقفة سابقة[٥١] .

التفات المسلمين

ومع بروز عصر صحوة النهضة العربية الإسلامية والتفات المسلمين إلى البحث العلمي والتحقيق[٥٢] ، وقيام مراكز البحوث المستقلة والتابعة للمؤسسات العلمية ، خفت الوهج الاستشراقي ، وعاد العرب يغوصون في المتاحف والمكتبات الأجنبية يستجدون صورة لمخطوطة غير آملين في الأصل ، إذ لا يتوقع تنازل المتاحف والمكتبات الأجنبية عن الأصول ما لم تقدم لها الإغراءات المادية العالية .

وعلى أي حال يمكن أن يقال إن الالتفات العربي الإسلامي للتراث يتطور من حيث الاهتمام الذي كاد يكون محصوراً بغير المسلمين . وتذكر هنا جهود كثير من المؤسسات البحثية في تعرّف أماكن المخطوطات في الحواضر الغربية[٥٣] ، ثم جمع شتاتها ومتابعتها من خلال فهارس المخطوطات التي كان معظمها من إسهامات

المستشرقين أنفسهم .

ولو أخذنا المملكة العربية السعودية مثالاً على الالتفات نحو التراث من حيث تجميعه فقط لرأينا أن إحصاءات المخطوطات تشير إلى أن ثلاثة أرباع التراث (٧٥٪) العربي المخطوط الموجود بالمكتبات السعودية قد تمّ جمعه مع بداية التسعينات الهجرية ، السبعينات الميلادية ، إذ تشير الإحصائية إلى أن الموجود يصل إلى ثمانين ألف مخطوطة (٨٠,٠٠٠) ، ستون ألفاً (٦٠,٠٠٠) منها جمعت بعد ذلك التاريخ[٥٤] . هذا بالإضافة إلى أساليب الالتفات الأخرى كالفهرسة وإعداد الكوادر العلمية واهتمام الجامعات بالتحقيق وتوجيه الدارسين إليه ، وإنشاء شعب المخطوطات في أقسام المكتبات والمعلومات[٥٥] . وكذلك تخصيص أستاذ كرسي لمادة تحقيق التراث في الجامعات العربية ، وإنشاء فروع لمعهد المخطوطات ، يودع فيها نسخ من الرقوق المصورة (المايكروفلم) المحفوظة في مقر المعهد[٥٦] .

بل إن من أساليب الالتفات إلى التراث استنهاض الهمم ، والدعوة إلى إعادة التراث إلى مقراته الأولى في العواصم الإسلامية مع العناية به والرقابة عليه ، الأمر الذي حدا ببعض العلماء المسلمين إلى ربط مفهوم التراث بالضروريات الخمس : الدين والنفس والعقل والعرض والمال ؛ «فأولى الضروريات المحافظة على الدين ، وهذا التراث من لباب الديانة . والثانية : المحافظة على النفس ، وهذا التراث نتاج عقول المسلمين ونسل قلوبهم . . والثالثة : المحافظة على العقل ، وهذا التراث غذاء عقولها . والرابعة : المحافظة على العرض ، وهذا التراث عرض الأمة . والرابعة : المحافظة على المال ، وهذا التراث كنزٌ لها ، وما حق التأليف عن الذهن ببعيد . فحقيق أن يكون أهل الإسلام لهذا التراث كالجسد الواحد ، إذا نيل من كتاب واحد هرعوا لكف العدوان ، وصد المعتدين»[٥٧] .

وتذكر هنا جهود معهد المخطوطات العربية التابع لجامعة الدول العربية ، رغم عدم استقراره مكاناً وإدارةً ، الذي يتابع المخطوط العربي ، ويسهم في إخراجه رغم إمكاناته المحدودة[٥٨] . كما أن دراسة للمراجع التي اهتمت برصد المخطوطات العربية المنشورة يبين حجم اهتمام الباحثين المسلمين والمؤسسات البحثية بالتراث من خلال تعرّف نسبة ما ينشر من المخطوطات لدى المؤسسات العربية في مقابل ما ينشر لدى المؤسسات الاستشراقية . والملحوظ أن نسبة المنشور عربياً تزداد في وقت تتناقص فيه نسبة المنشور استشراقياً[٥٩] . وتكاد تصل نسبة ما ينشره المستشرقون إلى ٨,٥٪ من مجموع المنشور ، وهي في تنازل مطرد[٦٠] .

ولا يعني هذا التنازل تنازل الاهتمام بالتراث من الباحثين العرب والمسلمين ، بل ربما قيل إن هذا الاهتمام في تزايد مطرد أيضاً ، بعد أن كان الأمر مقصوراً على الأماني والآمال وتنظيرات ودعوات في الأحاديث العامة والخاصة وخطب المناسبات[٦١] .

وعندما شعر المستشرقون المهتمون بجانب التراث بهذا التحول الطبيعي سارعوا إلى محاولة رسم معالم لهذا الاهتمام بالصورة التي تبقي على بصمات الاستشراق . فهذا فرانسيسكو غابرييلي يتمنى أن «يجيء اليوم الذي يكثر فيه عدد الباحثين العرب والمسلمين الذين يقبلون بمنهجية البحث العلمي ويمارسونها مثل المستشرقين ، بل أفضل من المستشرقين . عندئذ يستطيعون أن يتحملوا مسؤولية تراثهم الخاص ودراسة ماضيهم بطريقة علمية لا إيديولوجية عاطفية فقط»[٦٢] .

وهذا اتهام للعرب والمسلمين بتغليبهم العاطفة والإيديولوجية على المنهجية العلمية . ولا أظن أن تغليب الإيديولوجية يعدّ عيباً ، ذلك أن الانتماء إلى هذا التراث عامل مهم في إبرازه ، ولاسيما أننا نعتقد أن مما يخلفه المرء وراءه في هذه الدنيا علم ينتفع به . أما تغليب العاطفة على المنهجية العلمية فموضوع يحتاج إلى نظر . وعلى أي حال فنحن لسنا بحاجة إلى الوقوف مع النصوص الاستشراقية وتحليلها تحليلاً

دفاعياً قائماً على سوء الظن بها وبمن قالها .

ومثل «غابرييلي» في الشعور بتوجه المسلمين لخدمة التراث والرغبة في تبني المنهجية الاستشراقية في النظر إليه ما يصرح به كلود كاهين من أن «دخول الزملاء المسلمين إلى ساحة البحث العلمي مؤخراً سوف يتيح إعادة التوازن [في] دراسة المجتمعات المعنية من الداخل لا من الخارج فقط . ونأمل أن يتم ذلك بروح من التعاون والأخوة الصادقة بينهم وبيننا ، بين باحثيهم ومستشرقينا»(٦٣) .

ومع هذا يعترف بعض المستشرقين أنهم لا يستطيعون مساعدة تلاميذهم العرب في مسألة المنهج ، ذلك لتقدُّم العرب في المنهج على غيرهم ممن أتى بعدهم . ويقول أحدهم في هذا : «ما الذي يمكننا بعد أن نعلمه لتلاميذنا العرب في منهج الإنتاج العلمي؟ إنهم يلمون بذلك أحسن منا»(٦٤) .

وإزاء هذا التوجه العربي الإسلامي للتراث العربي الإسلامي بدأ جمع من المستشرقين المؤثرين في المسيرة الاستشراقية يتلمسون طريقاً جديداً للاستشراق ، إذ يبدو أنهم بدأوا يشعرون بمزاحمة القادم المتجدد لهم ، فدعوا إلى الاهتمام بالعالم العربي والإسلامي الحديث ، لما لهذا العالم اليوم من حيوية في الإسهام بأحداث اليوم ، ولا سيما أن ما يطلق عليه منطقة الشرق الأوسط تقع في مقدمة هذه الحيوية ، هذا بالإضافة إلى الأحداث التي تمر بالمسلمين في الشرق وفي الغرب .

ويبدو هذا من حديث مكسيم رودنسون ، ولا سيما كلامه عن مستقبل الاستشراق والدراسات العربية والإسلامية في أوروبا(٦٥) . على أن لا يقتصر بحث المستشرقين في هذا التوجه على الجوانب السياسية ، بل هم مطالبون من رواد الاستشراق الحديث أن يغوصوا في المجتمعات العربية الإسلامية يدرسونها ويخرجون منها بانطباعات ذاتية يجعلون منها أحكاماً تعميمية لا على المسلمين أنفسهم فحسب ، بل على الإسلام نفسه الذي يدينون به(٦٦) . ويبرز هذا بوضوح من خلال تكرار زيارات

المستشرقين للمنطقة ورحلاتهم الخاصة ، ثم وصفهم للمجتمع الذي عاشوا فيه أو مروا عليه(٦٧) .

الخلاصة والنتيجة

ومن هذا نخلص إلى أن ظاهرة الاستشراق التي صاحبت الاهتمام بالتراث العربي الإسلامي قد انطلقت من دوافع مختلفة ، وهدفت إلى تحقيق غايات متفرقة ، يصعب تطبيقها جميعها ، أو معظمها ، على مستشرق بعينه ، وفي الوقت الذي نريد أن نقرَّ فيه بوجود فئات جعلت العلم غايتها ، هناك فئات لم تراع العلمية ، وإنما سعت إلى تشويه التراث سعياً إلى تشويه المصادر التي انبثق عنها هذا التراث .

ويمكن القول إن اهتمام المستشرقين بالتراث قد سبق اهتمام المسلمين المعاصرين لهم ، وذلك لعدة عوامل ، من أهمها وجود هذا التراث بين ظهراني المستشرقين ، وبالتالي بعده عن المسلمين ، هذا البعد الذي ربما ثبت أنه بعدٌ محمود ، نظراً لسوء التعامل مع التراث المخطوط بين العرب والمسلمين في الفترات المتأخرة المظلمة من تاريخ العرب والمسلمين .

كما نخلص إلى أنه ، ومن باب «ربَّ ضارة نافعة» ، قد استفاد التراث العربي الإسلامي في غربته عن دياره وأهله بحفظه مادياً وصيانته وترميمه ، ثم استفاد علمياً من حيث تحقيقه ونشره وترجمته ، وإعداد الدراسات حوله ، وإن لم تخل هذه الجهود من الملحوظات الجوهرية والمنهجية التي أدى إليها فقدان عامل الانتماء الثقافي لهذا التراث .

كما ظهر أن العرب والمسلمين لا يزالون غير متفقين على موقف إزاء إسهامات المستشرقين ، ولكنهم يكادون يجمعون على فضل المستشرقين في حفظ التراث ، وتختلف نسبة هذا الفضل بحسب الموقف من ظاهرة الاستشراق نفسها .

وقد أسهم المستشرقون في خدمة التراث العربي من حيث فهرسته وتحديد أماكن وجوده في المكتبات والمتاحف الغربية ، فسهّلت الفهرسة الوصول إلى هذه الكنوز بذاتها أو بالتصوير .

ويمكن القول إن اهتمام المستشرقين بالتراث بدأ يخفت لعدة أسباب ، من أهمها التفات كثير من المستشرقين إلى الواقع وما يحمل من مادة علمية تفيد في الدراسات التحليلية التي تفيد الدول في اتخاذ قراراتها تجاه هذا العالم الإسلامي المتجدّد . وهذا يعني بالتالي التفات المستشرقين عن التراث . ومنها كذلك التفات المسلمين إلى تراثهم ، ومزاحمتهم للمستشرقين في خدمة التراث ، في الوقت الذي بدأوا يملكون فيه مقومات المزاحمة كالعودة إلى عامل الانتماء الثقافي ، وقوة اللغة المتوافقة مع لغة التراث ، والدعوات المتواصلة لإنقاذ التراث من سجون الغرب ، أي المتاحف والمكتبات الغربية التي عرفت باقتنائها المئات من التراث العربي المخطوط ، وكثرة المؤسسات البحثية والعلمية الرسمية والشخصية التي تهتم بالتراث وتخدمه .(٦٨)

ومع هذا الخفوت في الاهتمام لا تزال بقية من المستشرقين باقية تهتم بالتراث ، غير آبهة بهذه التطورات الحديثة التي جدّت على المجتمع المسلم ، وجذبت معها عدداً لا بأس به من المستشرقين الذين آثروا ملاحقة الأحداث القائمة والكتابة فيها والدراسة عنها ، على حساب الاهتمام بالأصيل من إنتاج الأمة .

كما يمكن الخروج بنتيجة مؤداها أن بعض المستشرقين في تعاملهم مع التراث كانوا انتقائيين ، بمعنى أنهم حرصوا من التراث على ما أثار جدلاً . أو لم يسر بالضرورة مع المسار الصحيح للإسلام . ويصدق هذا في مجالات العقائد التي دخلت على الإسلام بحكم اختلاط المسلمين بأصحاب العقائد الأقدم منه ممن دخلوا تحت ظل الإسلام ، بل ربما ممن دخلوا في الإسلام ، ولكنهم لم يستطيعوا التخلص من خلفياتهم العقدية ، وبحكم نقل العلوم الإغريقية والرومانية والهندية

والفارسية القديمة ، والتأثر بها . والدراسات الكمية تعين على تأييد هذه النتيجة .

ومع هذا لا تزال جهود المستشرقين في خدمة التراث تحتاج إلى دراسات موضوعية مستفيضة تكون متخصصة بفئة من المستشرقين بعينها ، أو بجانب موضوعي من جوانب المعرفة ، أو بزمن من الأزمان التي مرّت على الاستشراق في رحلته مع التراث . ولا تكفي - في نظري - الدراسات السريعة التي تسعى إلى تعميم النتائج ، مدفوعة بدافع الحماس مع المستشرقين ، أو ضدّهم .

وربما امتدت الدعوة إلى دراسات متخصصة بأعلام المستشرقين الذين كان لهم باع طويل في خدمة التراث ، ولا سيما أولئك الذين عاشوا في القرن التاسع عشر الميلادي وما قبله ،[٦٩] فيؤخذ مستشرق واحد أفاض في خدمة التراث ويدرس من جوانب متعددة ، تذكر فيها جهوده ، كما تذكر فيها المآخذ عليه ، وبهذا يمكن تجميع نتائج الدراسات للخروج بحكم تعميمي على المستشرقين في موقفهم من التراث .

الحواشـــي

(١) يقول مصطفى هدارة « . . . غير أن الصفوة من الدارسين الذين يتابعون فكر المستشرقين وكتاباتهم يجدون في ثنايا ذلك بعض الجهود الجيدة ، وربما المنصفة ، فمجهودات بعضهم في تحقيق التراث الإسلامي والعربي يعد أمراً حميداً . . . » انظر : «الاستشراق : سلبياته غالبة وقليل من المستشرقين فيهم خير لا يجحد» - حوار أحمد فضل شبلول - مجلة الأدب الإسلامي مج ٢ ع ٥ (رجب - شعبان - رمضان ١٤١٥ هـ/ كانون الأول (ديسمبر) - كانون الثاني (يناير) - شباط (فبراير) ١٩٩٥م) - ص ٢٢ - ٢٣ .

(٢) سيأتي تحديد للتراث يخرج الكتاب والسنة من المفهوم والمصطلح .

(٣) قاسم السامرائي . الفهرس الوصفي للمنشورات الاستشراقية المحفوظة في مركز البحوث / جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض : مركز البحوث ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م - ص ٧ .

(٤) انظر في التحديد اللغوي والاصطلاحي لكلمة «تراث» كلاً من أكرم ضياء العمري التراث والمعاصرة - الدوحة : رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية ، ١٤٠٥هـ - ص ٢٥ - ٣٠ . (سلسلة كتاب الأمة/ ١٠) . ، ومحمود علي مكي . «التراث والمعاصرة» في : المخطوطات العربية في الغرب الإسلامي : وضعية المجموعات وآفاق المعرفة - الدار البيضاء : مؤسسة الملك عبد العزيز ، [١٩٩٠م] - ص ٢٧٥ - ٢٨٣ . وكذلك محمد عابد الجابري . التراث والحداثة : دراسات ومناقشات - بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٩١م - ص ٢١ - ٢٥ . وغيرها .

(٥) في محاولة التعريف الدقيق للتراث انظر التفصيل الذي أورده عبد الوهاب أبو النور في : «مقترحات لجمع وخدمة التراث العربي» - الثقافة العربية ع٤ (١٩٧٦م) - ص ١٩٦ - ٢٢٧ .

(٦) عبد الستار الحلوجي . «نحو خطة عربية لتجميع تراثنا المخطوط» - في : دراسات في الكتب والمكتبات - جدة : مكتبة مصباح ، ١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م . ص ١٦٩ - ١٨١ . ونشرت المقالة هذه في : المورد مج٥ ع١ (١٣٩٦هـ = ١٩٧٦م) - ص ١٣٣ - ١٣٩ .

(٧) محمد رجب البيومي . «ظاهرة الأدب المكشوف في كتب التراث» - مجلة الأدب الإسلامي مج٢ ع٥ (رجب - شعبان - رمضان ١٤١٥هـ/ كانون الأول (ديسمبر) - كانون الثاني (يناير) - شباط (فبراير) ١٩٩٥م) - ص ٢٥ - ٣٤ .

(٨) أكرم ضياء العمري . التراث والمعاصرة - مرجع سابق - ص ١٢٢ - ١٢٧ . ومحمود علي مكي . «التراث والمعاصرة» في : المخطوطات العربية في الغرب الإسلامي : وضعية المجموعات وآفاق المعرفة - مرجع سابق - ص ٢٨١ - ٢٨٣ .

(٩) ركزت الدراسة الأولية لظاهرة الاستشراق على التعريف والنشأة والأهداف والمنطلقات والمدارس والفئات . وكانت هذه البدايات بحق تعدُّ المدخل لدراسة الاستشراق دراسة علمية وثقافية . والغالب على هذه الدراسات المبدئية التعميم في الأحكام ، ومحاولة الخروج بتصوُّر عام عن الاستشراق . وتمثل هذه الانطلاقة مرحلة من مراحل الدراسات العربية للاستشراق . انظر : علي ابن إبراهيم النملة . الاستشراق في الأدبيات العربية - الرياض : مركز الملك فيصل للدراسات والبحوث الإسلامية ، ١٤١٤هـ = ١٩٩٣م - ٣٩٠ص .

(١٠) يكرر الأستاذ حمد الجاسر أسفه لوقوفه على مخطوطات تباع على قارعة الطريق في إحدى مدن المملكة العربية السعودية على الساحل الشرقي ! !

(١١) روى لنا أستاذنا فوزي فيض الله في التسعينات الهجرية / السبعينات الميلادية وجود ظاهرة استخدام ورق المخطوطات عند باعة الحب ، يلفونها على شكل «محقان» مغلق من جهته التحتية ، ويوضع بها ما يشتريه المارة من الحب للتسلية به ، ومن ثمّ ترمى هذه الورقة في الطريق !! وانظر إشارة لذلك في : ميشال جحا . «موقف العرب من المستعربين» - الاستشراق ع ١ (١٩٨٧م ؟) - بغداد : دار الشؤون الثقافية العامة ، ١٩٧٨م ؟ - ص ٣٩ .

(١٢) محمد حسين زيدان . الدارة (ربيع الأول ١٤٠٩هـ/ آب - تشرين الأول ١٩٨٩م) - ص ٥ .

(١٣) زهير شاويش . «هوامش من دفتر المخطوطات» - رسالة الخليج العربي مج٣ ع٩ (١٤٠٣هـ = ١٩٨٣م) - ص ٢٦٥ - ٢٧٥ .

(١٤) انظر : محمد كرد علي . «أثر المستعربين من علماء المشرقيات في الحضارة العربية» - مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق مج ٧ (١٩٢٧م) - ص ٤٥٥ .

(١٥) محمود حمدي زقزوق . «في مواجهة الاستشراق» - المسلم المعاصر مج ١٧ ع ٦٥-٦٦ (محرم - جمادى الآخرة ١٤١٣هـ/ أغسطس - يناير ٩٢ - ١٩٩٣م) - ١١ - ٤٠ .

(١٦) محمود محمد الطناحي . مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي مع محاضرة عن التصحيف والتحريف - القاهرة : مكتبة الخانجي ، ١٤٠٥هـ = ١٩٨٤م - ص ٢١٦ - ٢٣٠ .

(١٧) ظهر عن مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية سفر عظيم عن ترجمات معاني القرآن الكريم . وهو قائمة وراقية (ببليوغرافية) بعنوان : البيليوغرافيا العالمية لترجمات معاني القرآن الكريم : الترجمات المطبوعة : ١٥١٥ - ١٩٨٠م - من إعداد عصمت بينارق وخالد أرن ، وإشراف وتقديم أكمل الدين إحسان أوغلي - استانبول : المركز ، ١٤٠٦هـ = ١٩٨٦م - ٨٨٠ + ٣٤ص .

(١٨) انظر في هذا الصدد مناقشة ترجمات معاني القرآن الكريم : عبد النبي ذاكر . «إشكالية نقل المعنى في ترجمات القرآن الكريم» - المنهل مج ٥٣ ع ٤٩١ (الربيعان ١٤١٢هـ/ سبتمبر - أكتوبر ١٩٩١م) - ص٨٥ - ٩٥ .

(١٩) لا مقارنة بين الجهد الذي يبذل في فهرسة المخطوطة وفهرسة المطبوعة ، كما أن فهرسة المخطوطة أوسع من حيث البيانات عنها في المطبوعة ، ولذا فإن فهرسة المخطوطات تحتاج إلى سعة علم واطلاع يفوق النظرة «الفنية» لهذا الوعاء من أوعية المعلومات . انظر : عبد الستار الحلوجي . «فهارس المخطوطات» . في : دراسات في الكتب والمكتبات - مرجع سابق ص ١٥٥ - ١٦٨ . وعابد بن سليمان المشوخي . فهرسة المخطوطات العربية - الرياض : مكتبة الملك فهد الوطنية .

(٢٠) سامي الصقار . «دور المستشرقين في خدمة التراث» - المنهل مج ٥٠ ، ع ٤٧١ (رمضان وشوال ١٤٠٩هـ/ أبريل ومايو ١٩٨٩م) - ص ١٤٢ - ١٦٧ .

(٢١) محمود المقداد . تاريخ الدراسات العربية في فرنسا - الكويت : المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م - ص ٧٦ . (سلسلة عالم المعرفة / ١٦٧) . ويذكر المؤلف أنه قد أعانهم على النسخ بعض العرب ممن يتسمون بحسن الخط من أمثال ميشيل صباغ المصري الذي «ارتبط اسمه بمدرسة اللغات الشرقية الحية في باريس منذ سنة ١٨١٠ إلى سنة وفاته ١٨١٦ بصفة (ناسخ للمخطوطات العربية المستعارة من المكتبات الأخرى من خارج فرنسا)» - ص ٩٠ .

(٢٢) محمود محمد الطناحي . مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي مع محاضرة عن التصحيف والتحريف - مرجع سابق - ص ٢١٥ - ٢٢٢ .

(٢٣) محمود محمد الطناحي . مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي مع محاضرة عن التصحيف والتحريف - المرجع السابق - ص ٢٢٣ - ٢٢٤ .

(٢٤) يفيد حديث رمضان عبد التواب أن المستشرقين قد أفادوا وأثروا بالعرب، وليس العكس. وهذا خلاف ما يقرره محمود الطناحي. انظر: رمضان عبد التواب. مناهج تحقيق التراث بين القدامى والمحدثين - القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٤٠٦هـ = ١٩٨٦م - ص ٥٨.

(٢٥) يحيى محمود ساعاتي. «الطباعة العربية في القرن التاسع عشر: دراسة للاتجاهات العددية والموضوعية» - عالم الكتب مج ١٥ ع ٥ (الربيعان ١٤١٥هـ/ سبتمبر/ أكتوبر ١٩٩٤م) - ص ٥٠٠ - ٥٠٧.

(٢٦) علي حسني الخربوطلي. المستشرقون والتاريخ الإسلامي - القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٨م - ص ١٢٥. (سلسلة تاريخ المصريين/ ١٥).

(٢٧) إدوارد فنديك. كتاب اكتفاء القنوع بما هو مطبوع من أشهر التآليف العربية في المطابع الشرقية والغربية - القاهرة: مطبعة التأليف «الهلال»، ١٨٩٦م = ١٣١٣هـ - ص ٤-٥. (ظهر على غلاف الكتاب دار صادر ببيروت !!).

(٢٨) بكر بن عبد الله أبو زيد. الرقابة على التراث: دعوة إلى حمايته من الجناية عليه - الرياض: دار العاصمة، ١٤١٢هـ - ص ٥.

(٢٩) أنور الجندي. «التراث الإسلامي والمستشرقون» - الهلال مج ٨٤، ع ١ (المحرم ١٣٩٦هـ/ يناير ١٩٧٦م) - ص ٦٠ - ٦٧، نقلاً عن: بنت الشاطئ. «رسالة الغفران كما يقرؤها المستشرق نيكلسون، ترجمة عادل زعيتر» - الكتاب مج ١ ع ٩ (يوليو ١٩٤٦م) - ص ٤٤٦ - ٤٥٥.

(٣٠) محمد الدسوقي. «الفكر الاستشراقي في ميزان النقد العلمي» - في: دراسات استشراقية وحضارية: كتاب دوري محكم - المدينة المنورة: مركز الدراسات الاستشراقية والحضارية، كلية الدعوة، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٤١٣هـ = ١٩٩٣م - ص ٨٧ - ١٣٥. والنص من ص ٩٧.

(٣١) عباس صالح طاشقندي. «الاستشراق ودوره في توثيق التراث» - عالم الكتب مج ٥ ع ١ (رجب ١٤٠٤هـ/ أبريل ١٩٨٤م) - ص ٥ - ١٤.

(٣٢) محمود حمدي زقزوق. «في مواجهة الاستشراق» - المسلم المعاصر - مرجع سابق - ص ٣٣.

(٣٣) يرى بعض المستشرقين، وتبعهم في هذا بعض المفكرين العرب، أن الحياة العقلية العربية مدينة للمعتزلة الذين غلبوا العقل على النقل، كما يرون أن انتصار الأشاعرة على المعتزلة قد أسهم في تجميد الفكر الديني، فاقتصرت الإسهامات الفكرية والعلمية على الشروح والاختصارات والتعليقات والتهذيبات والتهميشات، وذلك بعد القرن الرابع الهجري، وهو القرن الذي شهد انتشار الاعتزال ودعمه من السلطان. انظر: عبد الوهاب أبو النور. «مقترحات لجمع وخدمة التراث العربي» - الثقافة العربية - مرجع سابق - ص ٢٠٤.

(٣٤) يقول عبد الرحمن بن خلدون عن العلوم النقلية إنها «مستندة إلى الخبر عن الواضع الشرعي ولا مجال فيها للعقل إلا في إلحاق الفروع من مسائلها بالأصول، لأن الجزئيات الحادثة المتعاقبة لا تندرج تحت النقل الكلي بمجرد وضعه فتحتاج إلى الإلحاق بوجه قياسي، إلا أن هذا القياس يتفرع عن الخبر بثبوت الحكم في الأصل، وهو نقلي، فرجع هذا القياس إلى النقل لتفرعه عنه، وأصل هذه العلوم النقلية كلها هي الشرعيات من الكتاب والسنة . . .» نقلاً عن: عبد الوهاب أبو النور. «مقترحات لجمع وخدمة التراث» - الثقافة العربية - مرجع سابق - ص ٢١٣. وزدت عليه السطر الأخير رجوعاً إلى المقدمة - ط٤ - بيروت: دار مكتبة الهلال، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م. - ص ٤٣٥.

(٣٥) أنور الجندي. «التراث الإسلامي والمستشرقون» - الهلال مرجع سابق. وانظر له أيضاً: «الاستشراق: مجافاته لتاريخ الأمة الإسلامية وثقافتها» - المنهل مج ٥٠ ع ٤٧١ (رمضان وشوال ١٤٠٩هـ/ أبريل ومايو ١٩٨٩م) - ص ٢٥٩ - ٢٦٢.

(٣٦) عبد العظيم الديب . المستشرقون والتراث - المحرق : مكتبة ابن تيمية ، ١٤٠٦هـ = ١٩٨٦م - ص ١٥ . وقد اعتمد الباحث على كتابي صلاح الدين المنجد وعبد الجبار عبد الرحمن ، ويؤكد على الحاجة «إلى دراسة استقصائية شاملة ، لا تقوم على (العينات) كالتي قمنا بها» . ص ٤٣ .

(٣٧) عبد النبي اصطيف . «مقدمات في الاستعراب الجديد(١) : نحن والاستشراق : ملاحظات نحو مواجهة إيجابية(١)» - المستقبل العربي مج٦ ع٥٧ (١/ ١٤٠٣هـ/ ١٠/ ١٩٨٢م) - ص ٦٤٨ - ٦٦٥ .

(٣٨) عبد الكريم الحبيب . «علاقة الأوربيين بالتراث العربي : الأدب والفلسفة» - عالم الكتب مج ١٥ ع ٥ (الربيعان ١٤١٥هـ/ سبتمبر - أكتوبر ١٩٩٤م) - ص ٥٢٦ - ٥٣٢ .

(٣٩) مصطفى السباعي . من روائع حضارتنا - ط٤ - بيروت : المكتب الإسلامي ، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م - ص١٦٢ . وينسب السباعي الأرقام إلى «بعض المؤرخين» ، ولكنه مع الأسف الشديد لم يرجع هذه المعلومة المهمة إلى مصدر يعين الباحث على التثبت من الأرقام ، إذ تظهر عليها المبالغة التي لا يمكن الجزم بها أو الجزم بصحة الأرقام ما لم يتم التحقق من المعلومة . ولا يعني هذا التشكيك فيمن أوردها ، وإنما هو المنهج العلمي الذي يفرض التوثيق ولا سيما إذا كان هناك شعور بالمبالغة في المنقول .

(٤٠) محمود حمدي زقزوق . «في مواجهة الاستشراق» - المسلم المعاصر - مرجع سابق - ص ١٣ .

(٤١) عبد العظيم الديب . المستشرقون والتراث - مرجع سابق - ص ٤٤ .

(٤٢) في النظر إلى مواقف العرب والمسلمين من ظاهرة الاستشراق انظر : علي بن إبراهيم النملة . مصادر المعلومات عن الاستشراق والمستشرقين : استقراء للمواقف - الرياض : مكتبة الملك فهد الوطنية ، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م - ٥٥ص .

(٤٣) انظر إلى الدفاع عن جهود المستشرقين في خدمة التراث عند : نجيب العقيقي . المستشرقون - ٣مج - ط٤ - القاهرة : دار المعارف ، [١٩٨١م] - ٣ : ٥٩٨ - ٦٢٥ . وعلى الرغم من انتماء العقيقي للاستشراق ، وعده نفسه من المستشرقين ، إلا أنه بذل جهداً متميّزاً يذكر له ، ويفرض الوقوف عند آرائه وقفات تأمل ، ذلك أن «لهجتها» توحي بالحسرة على الوقوف السلبي من جهود المستشرقين وخدمتهم للتراث العربي الإسلامي .

(٤٤) نقلاً عن : عبد العظيم محمود الديب . المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ الإسلامي - الدوحة : رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية ، ١٤١١هـ - ص٣٥ . (سلسلة كتاب الأمة/ ٢٧) .

(٤٥) يستعرض سامي الصقار جملة من الأقوال التي تثني على جهود المستشرقين ، وجملة أخرى من الأقوال التي لا تثني على دوافعهم وأهدافهم للباحثين أنفسهم . انظر : سامي الصقار . «دور المستشرقين في خدمة التراث الإسلامي» - المنهل - مرجع سابق - ص ١٤٢ - ١٥٢ .

(٤٦) عبد الله بن عبد الرحيم عسيلان . تحقيق المخطوطات بين الواقع والنهج الأمثل - الرياض : مكتبة الملك فهد الوطنية ، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م - ص ١١٠ - ١١٦ .

(٤٧) عبد الكريم الحبيب . «علاقة الأوربيين بالتراث العربي» - عالم الكتب - مرجع سابق - ص ٥٢٦ - ٥٢٧ .

(٤٨) سامي سالم الحاج . الظاهرة الاستشراقية وأثرها على الدراسات الإسلامية - ٢ج - مالطا : مركز دراسات العالم الإسلامي ، ١٩٩١م - ص ١٩٩ .

(٤٩) مكتب التربية العربي لدول الخليج . مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية - ٢ مج - الرياض - : المكتب ، ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م .

(٥٠) صلاح الدين المنجد . «جهود المستشرقين في تحقيق التراث العربي» - المنهل مج ٥٠ ع ٤٧١ (رمضان - شوال

١٤٠٩هـ/ أبريل - مايو ١٩٨٩م - ص ٢١٠ - ٢١٧ . وانظر له أيضاً : «الاستشراق الألماني في ماضيه ومستقبله» - الهلال مج ٨٢ ع١١ (١٠-١٣٩٤هـ/ ١١-١٩٧٤م) - ص ٢٢-٢٧ ، وله أيضاً : المستشرقون الألمان : تراجمهم وما أسهموا به في الدراسات العربية - ج١ - بيروت : دار الكتاب الجديد ، ١٩٨٢م - ١٩٢ص .

(٥١) علي بن إبراهيم النملة . «أعمال المستشرقين مصدراً من مصادر المعلومات عن الإسلام والمسلمين» - مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ع ٧ (ربيع الآخر ١٤١٣هـ/ أكتوبر ١٩٩٢م) - ص ٥١٩ - ٥٦٤ .

(٥٢) تعود «حركة» التفات المسلمين إلى التراث والبحث إلى عوامل عدة ، كل قد يعيدها إلى ما يميل إليه من اتجاه ، ومن هذه العوامل الكتابة عن الاستشراق واهتمامه بالتراث ، ومنها انقشاع الحركة الاستعمارية ، ومنها محاولة العرب أنفسهم الوقوف على أقدامهم بالرجوع إلى ماضيهم من منطلق ديني «الصحوة الإسلامية» ، أو قومي «القومية العربية» ، ومنها أيضاً وجود الباحثين والمؤسسات العلمية والبحثية ، ومنها النقاش القائم بين التراث والمعاصرة «الحداثة» ، وغيرها من العوامل . انظر : محسن جاسم الموسوي . الاستشراق في الفكر العربي - بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٩٣م - ص ٤٥ - ٦٠ .

(٥٣) سيد حامد النساج . رحلة التراث - ط٢ - القاهرة : دار المعارف ، ١٩٨٥م - ص ٥٢ .

(٥٤) يحيى محمود ساعاتي . «التراث المخطوط في المملكة العربية السعودية» - في : المحاضرات والأمسيات الشعرية ، المهرجان الوطني للتراث والثقافة التاسع ، ١٤١٤هـ - الرياض : الحرس الوطني ، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م - ص ١٣٧ - ١٦٩ .

(٥٥) يحيى محمود ساعاتي . «وضعية المخطوطات في المملكة العربية السعودية» - في : المخطوطات العربية الإسلامية : المخطوطات العربية الإسلامية : وضعية المجموعات وآفاق البحث - مرجع سابق - ص٢٣ - ٤٧ .

(٥٦) معهد المخطوطات العربية ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، جامعة الدول العربية . أسس تحقيق التراث العربي ومناهجه : نص التقرير الذي وضعته لجنة مختصة - ط٢ - القاهرة : المكتب السلفي لتحقيق التراث ، ١٤٠٧هـ - ص ١٦ و٢٩ .

(٥٧) بكر بن عبد الله أبو زيد . الرقابة على التراث - مرجع سابق - ص ٧-٨ .

(٥٨) محمود المقداد . تاريخ الدراسات العربية في فرنسا - مرجع سابق - ٦٩ - ٧٠ .

(٥٩) صلاح الدين المنجد . معجم المخطوطات العربية - ٥مج - بيروت : دار الكتاب الجديد ، ١٣٩٨هـ - وعبد الجبار عبد الرحمن . ذخائر التراث العربي - ٢ مج - البصرة : جامعة البصرة ، ١٩٨١م .

(٦٠) ويشير الجزء الخامس من كتاب صلاح الدين المنجد معجم المخطوطات العربية إلى انعدام إسهامات المستشرقين في تحقيق التراث ونشره . ويغطي هذا الجزء الفترة من ١٩٨٠ - ١٩٨٥م . ويمكن افتراض الشيء نفسه إذا ما استمر الأستاذ البحاثة في حصر التراث المنشور لعشر السنين الباقية ١٩٨٦-١٩٩٥م ، مع عدم إغفال وجود حالات متفرقة للمستشرقين فيها إسهام ، إذ نعلم الآن أن بعض كتب التراث لاتزال قيد التحقيق في بعض المؤسسات الاستشراقية ، مثل كتاب الوافي بالوفيات للصفدي الذي لمّا يكتمل تحقيقه ونشره .

(٦١) يقول سيد حامد النساج : «وسوف يظل كل حديث لنا «عن» التراث أو «حوله» بمثابة أحاديث وخطب المناسبات إذا لم يصحبه اهتمام حقيقي وفعلي ، مصحوب بعمل إيجابي جاد «في» التراث ، وليس «عنه» أو «حوله» . انظر : سيد حامد النساج . رحلة التراث العربي - مرجع سابق - ص١٠ .

(٦٢) انظر : هاشم صالح ، مترجم ومعد . الاستشراق بين دعاته ومعارضيه - لندن : دار الساقي ، ١٩٩٤م - ص ١٩ .

(٦٣) انظر : هاشم صالح . الاستشراق بين دعاته ومعارضيه - المرجع السابق - ص٣٣ .

(٦٤) جونتر شوديل . «التبادل الثقافي الألماني مع العالم العربي : كيف بدأنا من الصفر» - الهلال مج ٨٢ ع ١١ (شوال ١٣٩٤هـ = ١٩٧٤م) - ص٣٢-٣٩ .

(٦٥) انظر : مكسيم رودنسون . «الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا» في : هاشم صالح . الاستشراق بين دعاته ومعارضيه - مرجع سابق - ص ٤٣-٨٣ .

(٦٦) انظر : آلان روسيّون . «المناقشة الدائرة حول الاستشراق في الساحة الثقافية العربية : حيرة العلوم الاجتماعية» - في : هاشم صالح . الاستشراق بين دعاته ومعارضيه - مرجع سابق - ص ١٨٥-٢٢٩ .

(٦٧) انظر : علي بن إبراهيم النملة . رحلات المستشرقين مصدراً من مصادر المعلومات عن العرب والمسلمين» - مجلة مكتبة الملك فهد الوطنية . مج ١ ع ١ . (محرم ١٤١٦هـ/ يونيو ١٩٩٥م) .

(٦٨) ربما انبرى أحد الباحثين ودرس المراكز العلمية الرسمية والشخصية التي تعنى بالتراث وتعتني به ، ويبين مدى إسهامها في إحياء التراث تحقيقاً وفهرسة وتكشيفاً ودراسة وتحليلاً ، على غرار ما يقوم به الأستاذ الدكتور قاسم السامرائي في دراساته التراثية لمقتنيات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض . وأقصد بالمراكز الشخصية تلك التي تقوم على جهود الأشخاص المهتمين مثل مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية بالرياض ، ومركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بدبي ، وغيرهما .

(٦٩) باستقراء سريع يتبين أن جهود المستشرقين في خدمة التراث قد تكثفت في القرن التاسع عشر الميلادي ، بحيث يشكّل هذا القرن قمة الهرم . وهذا يعني أن الفترة السابقة عليه كانت فترة صعود واللاحقة له أضحت فترة هبوط . والدراسة المستقصية قد تؤيد هذا الاستقراء السريع أو تنفيه . وربما تصدى أحد الباحثين لدراسة إسهامات المستشرقين من جانب واحد «متغيّر» ، أو عدة متغيرات ومن حدود زمانية يتوسطها القرن التاسع عشر الميلادي للاختبار هذا الافتراض .

قائمة بالمراجع الأساس

إدوارد فنديك

كتاب اكتفاء القنوع بما هو مطبوع من أشهر التآليف العربية في المطابع الشرقية والغربية - القاهرة : مطبعة التأليف «الهلال» ، ١٨٩٦م = ١٣١٣هـ - ٦٧٧ص .

أكرم ضياء العمري

التراث والمعاصرة - الدوحة : رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية ، ١٤٠٥هـ - (سلسلة كتاب الأمة / ١٠) .

الان روسيّون

«المناقشة الدائرة حول الاستشراق في الساحة الثقافية العربية : حيرة العلوم الاجتماعية» - في : هاشم صالح . الاستشراق بين دعاته ومعارضيه - لندن : دار الساقي ، ١٩٩٤م - ص ١٨٥ - ٢٢٩ .

أنور الجندي

«الاستشراق : مجافاته لتاريخ الأمة الإسلامية وثقافتها» . - المنهل مج ٥٠ ، ع ٤٧١ (رمضان وشوال ١٤٠٩هـ/ أبريل ومايو ١٩٨٩م) - ص ٢٥٩ - ٢٦٢ .

أنور الجندي .

«التراث الإسلامي والمستشرقون» - الهلال مج ٨٤ ، ع ١ (المحرم ١٣٩٦هـ/ يناير ١٩٧٦م) - ص ٦٠ - ٦٧ .

بكر بن عبد الله أبو زيد

الرقابة على التراث : دعوة إلى حمايته من الجناية عليه - الرياض : دار العاصمة ، ١٤١٢هـ .

جونتر شوديل

«التبادل الثقافي الألماني مع العالم العربي : كيف بدأنا من الصفر» - الهلال مج ٨٢ ع ١١ (شوال ١٣٩٤هـ = ١٩٧٤م) - ص ٣٢ - ٣٩ .

رمضان عبد التواب

مناهج تحقيق التراث بين القدامي والمحدثين - القاهرة : مكتبة الخانجي، ١٤٠٦هـ = ١٩٨٦ - ٤٣٦ص .

زهير شاويش

«هوامش من دفتر المخطوطات» - رسالة الخليج العربي مج ٣ ع٩ (١٤٠٣هـ = ١٩٨٣م) - ص٢٦٥ - ٢٧٥ .

سامي سالم الحاج

الظاهرة الاستشراقية وأثرها على الدراسات الإسلامية - ٢ج - مالطا : مركز دراسات العالم الإسلامي ، ١٩٩١م .

سامي الصقار

«دور المستشرقين في خدمة التراث» - المنهل مج ٥٠ ، ع ٤٧١ (رمضان وشوال ١٤٠٩هـ/ أبريل ومايو ١٩٨٩م) - ص ١٤٢ - ١٦٧ .

سيد حامد النساج

رحلة التراث - ط٢ - القاهرة : دار المعارف ، ١٩٨٥م .

صلاح الدين المنجد

«جهود المستشرقين في تحقيق التراث العربي» - المنهل مج ٥٠ ع ٤٧١ (رمضان - شوال ١٤٠٩هـ/ أبريل - مايو ١٩٨٩م .

صلاح الدين المنجد

المستشرقون الألمان : تراجمهم وما أسهموا به في الدراسات العربية - ج١ - بيروت : دار الكتاب الجديد ، ١٩٨٢م - ١٩٢ص .

صلاح الدين المنجد

معجم المخطوطات العربية - ٥ مج - بيروت : دار الكتاب الجديد ، ١٣٩٨هـ = ١٩٧٨م - ١٤٠٢هـ = ١٩٨٢م .

عباس صالح طاشقندي

«الاستشراق ودوره في توثيق وتحقيق التراث» - عالم الكتب مج ٥ ع١ (رجب ١٤٠٤هـ/ أبريل ١٩٨٤م) . ص٥ -١٤ .

عبد الجبار عبد الرحمن

ذخائر التراث العربي - ٢مج - البصرة : جامعة البصرة ، ١٠ - ١٤٠٣هـ = ٨١ - ١٩٨٣م .

عبد الستار الحلوجي

«فهارس المخطوطات» . في : دراسات في الكتب والمكتبات - جدة : مكتبة مصباح ، ١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م .

عبد الستار الحلوجي

«نحو خطة عربية لتجميع تراثنا المخطوط» - في : دراسات في الكتب والمكتبات - جدة : مكتبة مصباح ، ١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م - ص ١٦٩ - ١٨١ . ونشرت المقالة هذه في : المورد مج٥ ع١ (١٣٩٦هـ = ١٩٧٦م) - ص ١٣٣ - ١٣٩ .

عبد العظيم محمود الديب

المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ الإسلامي - الدوحة : رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية ، ١٤١١هـ - (سلسلة كتاب الأمة / ٢٧) .

عبد الكريم الحبيب

«الأوربيين بالتراث العربي : الأدب والفلسفة» - عالم الكتب مج ١٥ ع٥ (الربيعان ١٤١٥هـ/ سبتمبر - أكتوبر ١٩٩٤م) .

عبد الله بن عبد الرحيم عسيلان

تحقيق المخطوطات بين الواقع والنهج الأمثل - الرياض : مكتبة الملك فهد الوطنية ، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م .

عبد النبي أصطيف

«مقدمات في الاستعراب الجديد (١) : نحن والاستشراق ؛ ملاحظات نحو مواجهة إيجابية (١)» - المستقبل العربي مج٦ ع ٥٧ (١/ ١٤٠٣هـ/ ١٠/ ١٩٨٢م) - ص ٦٤٨ - ٦٦٥ .

عبد الوهاب أبو النور

«مقترحات لجمع وخدمة التراث العربي» - الثقافة العربية ع٤ (١٩٧٦م) .

علي بن إبراهيم النملة

الاستشراق في الأدبيات العربية - الرياض : مركز الملك فيصل للدراسات والبحوث الإسلامية ، ١٤١٤هـ = ١٩٩٣م - ٣٩٠ص ،

علي بن إبراهيم النملة

«أعمال المستشرقين مصدراً من مصادر المعلومات عن الإسلام والمسلمين» - مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ع٧ (ربيع الآخر ١٤١٣هـ/ أكتوبر ١٩٩٢م) - ص ٥١٩ - ٥٦٤ .

علي بن إبراهيم النملة

«رحلات المستشرقين مصدراً من مصادر المعلومات عن العرب والمسلمين» - مجلة مكتبة الملك فهد الوطنية . مج ١ .ع ١ (محرم ١٤١٦هـ/ يونيو ١٩٩٥م) - ص ٣٩ - ٨١ .

علي بن إبراهيم النملة

مصادر المعلومات عن الاستشراق والمستشرقين : استقراء للمواقف - الرياض : مكتبة الملك فهد الوطنية ، ١٤١٤هـ = ١٩٩٣م - ٥٥ص .

علي حسني الخربوطلي

المستشرقون والتاريخ الإسلامي - القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٨م - (سلسلة تاريخ المصريين/ ١٥) .

قاسم السامرائي

الفهرس الوصفي للمنشورات الاستشراقية المحفوظة في مركز البحوث ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض : مركز البحوث ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م .

محسن جاسم الموسوي

الاستشراق في الفكر العربي - بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٩٣م .

محمد الدسوقي

«الفكر الاستشراقي في ميزان النقد العلمي» - في : دراسات استشراقية وحضارية : كتاب دوري محكم - المدينة المنورة : مركز الدراسات الاستشراقية والحضارية ، كلية الدعوة ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ١٤١٣هـ = ١٩٩٣م - ص ٨٧ - ١٣٥ .

محمد رجب البيومي

«ظاهرة الأدب المكشوف في كتب التراث» - مجلة الأدب الإسلامي مج٢ ع٥ (رجب - شعبان - رمضان ١٤١٥هـ/ كانون الأول (ديسمبر) - كانون الثاني (يناير) - شباط (فبراير) ١٩٩٥م) - ٢٥ - ٣٤ .

محمد عابد الجابري

التراث والحداثة : دراسات ومناقشات - بيروت : مركز درسات الوحدة العربية ، ١٩٩١م .

محمد كرد علي . «أثر المستعربين من علماء المشرقيات في الحضارة العربية» - مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق مج ٧ (١٩٢٧م) - ص ٤٥٥ .

محمود حمدي زقزوق

«في مواجهة الاستشراق» - المسلم المعاصر مج١٧ع ٦٥-٦٦ (محر - جمادى الآخرة ١٤١٣هـ/ أغسطس يناير ٩٢ - ١٩٩٣م) - ص ١١-٤٠ .

محمود علي مكي

«التراث والمعاصرة» في : المخطوطات العربية في الغرب الإسلامي : وضعية المجموعات وآفاق المعرفة - الدار البيضاء : مؤسسة الملك عبد العزيز ،[١٩٩٠م] - ص ٢٧٥ - ٢٨٣ .

محمود محمد الطناحي

مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي مع محاضرة عن التصحيف والتحريف - القاهرة : مكتبة الخانجي ، ١٤٠٥هـ = ١٩٨٤م .

محمود المقداد

تاريخ الدراسات العربية في فرنسا - الكويت : المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، ١٤١٣هـ = ١٩٩٢م - (سلسلة عالم المعرفة/ ١٦٧) .

مصطفى هدارة

«الاستشراق : سلبياته غالبة وقليل من المستشرقين فيهم خير لا يجحد» - حوار أحمد فضل شبلول - مجلة الأدب الإسلامي مج٢ ع٥ (رجب - شعبان - رمضان ١٤١٥هـ/ كانون الأول (ديسمبر) - كانون الثاني (يناير) - شباط (فبراير) ١٩٩٥م) - ٢٢ - ٢٣ .

معهد المخطوطات العربية ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، جلمعة الدول العربية .

أسس تحقيق التراث العربي ومناهجه : نص التقرير الذي وضعته لجنة مختصة - ط ٢ - القاهرة : المكتب السلفي لتحقيق التراث ، ١٤٠٧هـ .

مكتب التربية العربي لدول الخليج

مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية - ٢ مج - الرياض : المكتب، ١٤٠٥هـ= ١٩٨٥م .

مكسيم رودنسون .

«الدراسات العربية والاسلامية في أوروبا» في : هاشم صالح . الاستشراق بين دعاته ومعارضيه - لندن : دار الساقي، ١٩٩٤م - ص ٤٣-٨٣ .

ميشال جحا

«موقف العرب من المستعربين» - الاستشراق ع ١ (١٩٨٧م ؟) - بغداد : دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٧٨م .

نجيب العقيقي

المستشرقون - ٣ مج - ط ٤ - القاهرة : دار المعارف، [١٩٨١م] .

هاشم صالح، مترجم ومعد .

الاستشراق بين دعاته ومعارضيه - لندن : دار الساقي، ١٩٩٤م .

يحيى محمود الساعاتي

«التراث المخطوط في المملكة العربية السعودية» - في : المحاضرات والأمسيات الشعرية، المهرجان الوطني للتراث والثقافة التاسع، ١٤١٤هـ - الرياض : الحرس الوطني، ١٤١٥هـ= ١٩٩٥م .

يحيى محمود الساعاتي

«الطباعة العربية في القرن التاسع عشر : دراسة للاتجاهات العددية والموضوعية» - عالم الكتب مج ١٥ ع٥ (الربيعان ١٤١٥هـ / سبتمبر/ أكتوبر ١٩٩٤م) - ص ٥٠٠ - ٥٠٧ .

يحيى محمود ساعاتي

«وضعية المخطوطات في المملكة العربية السعودية» - في : المخطوطات العربية في الغرب الإسلامي : وضعية المجموعات وآفاق البحث - الدار البيضاء : مؤسسة الملك عبد العزيز، [١٩٩٠م] .

يوسف إليان سركيس

معجم المطبوعات العربية والمعربة - ٢ مج - القاهرة : مكتبة الثقافة الدينية - د . ت .

منهج نشر التراث في أوائل القرن الرابع عشر الهجري

الأستاذ الدكتور صلاح الدين المنجد

صلاح الدين المنجد

- من مواليد دمشق، ١٩٢٢م.
- دكتوراه في القانون من جامعة السوربون،

الوظائف

- مستشار سابق في جامعة الدول العربية..
- مدير معهد المخطوطات العربية سابقاً.
- نائب رئيس جمعية الشيباني للحقوق الدولية.
- أستاذ زائر في جامعة برنستون.
- أستاذ محاضر في جامعة فرانكفورت، ومعهد الدراسات العربية العليا بالقاهرة، وكلية المعقول والمنقول بجامعة طهران، وجامعة الملك سعود وجامعة الإمام محمد بن سعود، وجامعة الملك عبد العزيز، وكلية البنات في بيروت، والجامعة الأمريكية في بيروت.

من نتاجه

- بلغت آثاره حوالي ١٥٠ عملاً ما بين نص محقق ومصنف مؤلف.

أيها السادة الكرام ،

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وبعـــد ،

فقد كلفني القائمون على هذا المؤتمر أن أتحدث عن منهج نشر التراث العربي في أوائل القرن الرابع عشر الهجري . وهذا موضوع لم يكتب فيه أحد ، ولذلك كنت مضطراً إلى الرجوع للكتب نفسها التي نشرت في أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر . وكان عملاً صعباً جداً ، إذ لا توجد هذه الكتب إلا في المكتبات العامة في العواصم الإسلامية كإستانبول والقاهرة ودمشق . وبعض المكتبات الخاصة .

ولكن الحظ حالفني لأني وجدت في مكتبتنا الخاصة التي خلفها سيدي الوالد الشيخ عبد الله المنجد ، شيخ المقرئين في الشام ، المتوفى بدمشق عام ١٩٤٠م . عليه رحمات الله تعالى ، أقول : وجدت فيها الكثير مما طبع ونشر في القرن الثالث عشر والقرن الرابع عشر . وقد كانت القسطنطينية عاصمة الخلافة الإسلامية ، وكانت القاهرة حاضنة الأزهر . وكان في كل من هاتين المدينتين مطابع رسمية وتجارية لطبع الكتب التراثية على اختلاف موضوعاتها . ومنهما كانت كتب التراث تنتشر في جميع البلاد الإسلامية .

وقد رأيت لضمان البحث أن أذكر أولاً مناهج نشر التراث العربي في أواخر القرن الثالث عشر . لأن معظمها انتقل إلى القرن الرابع عشر .

لقد كان في القاهرة والآستانة مطابع خاصة لطبع الكتب التراثية . وكان في كل مطبعة مصحح يصحح الكتاب المراد طبعه . وقد يتعدّى التصحيح المطبعي إلى التنقيح دون البحث عن نسخ مخطوطة قديمة للمقابلة بينهما والوصول إلى نص صحيح ، فمثلاً نجد في الجزء الثاني من حاشية الشهاب على البيضاوي المتوفى سنة

٦٨٥هـ . والمسماة «عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي» وقد طبعت سنة ١٢٨٣هـ ما يلي :

ثم إن التصحيح بعد التنقيح ، بمعرفة الفقير إلى الله تعالى محمد الصباغ . ثم يقول :

ولقد تكامل طبعها فتبرجت — بمعارف ثم ازدهت بمطارف
بنظارة البيك الأجلّ حسين من — فاق الورى بعوارف ومعارف
من أصبحت دار الطباعة تزدهي — بحلاه باهية بفجر مشرف
وتعاهد التصحيح باشُ مصحّحٍ — لجميعها بتدبّرٍ وتعرُّف
وهو الأديب الألمعي محمد الصباغ م — ذو الفضل المبين الأشرف

ثم يقول : إني أتوسل إلى الله تعالى بما لقيت وبما به عنيت في أعمال التصحيح وتنميق التنقيح من عرق الجبين وكدّ اليمين وإعمال الذهن حتى عاد عليلاً ، والبصر حتى رجع كليلاً . . . وذلك سنة ١٢٨٣هـ .

فنرى أن عمل (الباش مصحح) كان تصحيح الخطأ المطبعي ، وتنقيح النص . ولا نجد إشارة واضحة على أنه حافظ تماماً على الأصل . دون رجوع إلى مخطوطات من الكتاب . ما دام عمد إلى التنقيح .

ونجد في آخر الجزء الثاني من «الكشاف من حقائق غوامض التنزيل» لفخر خوارزم محمود بن عمر الزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨هـ .

«يقول مصحح دار الطباعة المصرية التي ببولاق الفقير إلى الله سبحانه محمد الصباغ : فتكلم على مؤلفه الزمخشري محمود بن عمر ، ومزايا كتابه في التفسير المسمى بالكشاف ، ثم قال : «وأتاح الله سبحانه له من أحيا بطبعه معالم رسومه حضرة حسين أفندي حسني . لا زال للمآثر الحميدة يجدّد ، وللمعارف الجليلة

يقصد . فبمثل هذا الكتاب تلبس مصر ثوب تيهها وإعجابها ، وتجر ذيل خيلائها ومهرجانها . خصوصاً بالمطبعة العامرة ببولاق مصر القاهرة ذات الشهرة والمحاسن الزاهرة .

«ثم إن تهذيبه وتصحيحه وترصيع جوهره وتنقيحه البعض بمعرفة خاتمة المحققين ، وسيد المدققين الشيخ محمد قطة العدوي . . . ، والبعض الآخر بمعرفة الفقير إلى الله سبحانه محمد الصباغ ، في أواخر جمادى الثانية سنة ١٢٨١هـ» .

فنلاحظ أن هذا الكتاب قد خضع للتهذيب والتصحيح والتنقيح . ويفهم أنه لم يحافظ على الأصل . ولم يقابل بنسخ مخطوطة أخرى من الكتاب ، ما دامت المخطوطة المعتمدة ليست النسخة التي كتبها الزمخشري أو قرئت عليه .

ومثل ذلك نجده في الجزء الثامن من حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي ، ففي آخره نجد : «يقول المتوكل على من وصف نعمه بالإسباغ الفقير إلى الله سبحانه وتعالى محمد الصباغ : أتم الله سبحانه وجوده وكرمه بطبع هذه الحاشية المسمّاة بعناية القاضي . . . محلاة بتفسير البيضاوي ، المسمى بأنوار التنزيل وأسرار التأويل» .

ثم يقول : «ثم إن التصحيح بعد التنقيح بمعرفة الفقير إلى الله تعالى محمد الصباغ أسبغ الله عليه أتم إسباغ . وطبع سنة ١٢٨٣هـ» .

فنجد هنا كلمة التنقيح . ولا ندري ماذا قصد بها : تنقيح المخطوطة من أخطاء النسخ ، أم أخطاء المحشّي .

ثم يمدح المصححُ مَن طُبعت الحاشية على نفقته فيقول :

ولقد تكامل طبعها فتبرجت ... بمعارف ثم ازدهت بمطارف
بنظارة البيك الأجلّ حسين من ... فاق الورى بعوارف ومعارف

وتعاهد التصحيح باشُ مصحح   لجميعها بتدبّرٍ وتعرُّف
وهو الأديب الألمعي محمد الصباغ م   ذو الفضل المبين الأشرف

ثم يقول : «إني أتوسل إلى الله تعالى بما لقيت ، وبما به عنيت ، في أعمال التصحيح وتنميق التنقيح من عرق الجبين ، وكدّ اليمين ، أن لا يجعل معيشي كدآً ، وأن يَهب لي من إحسانه الذي لا يحصى عداً ، وأن يرزقني حسن الختام بجاه خير الأنام» .

ومن علامات الاهتمام بصحة النص أننا نجد في بعض الكتب التي طبعت جداول تتضمن الإشارة إلى الأغلاط المطبعية ؛ ففي كتاب «سنن أبي داود» المطبوع بتصحيح نصر الهوريني نجد في آخره : « وقد تم كمل بحمد الله وتوفيقه طبع كتاب سنن أبي داود بالمطبعة الكستلية ، في غرة جمادى الآخرة من سنة ١٢٨٠هـ . من هجرة سيد البرايا عليه أفضل التحايا بتصحيح نصر الهوريني .

«ولما اطلعت بعد طبعه على بعض غلطات ، أدرجتها في جدول تابع للفهرسة ليصلح بها كل راغب نسخته . انتهى سنة ١٢٩٠هـ» .

وفي أواخر القرن الثالث عشر نجد اقتراباً في التحقيق من القواعد الصحيحة للنشر . ففي آخر الجزء الأول من كتاب «شرح الصفدي على لامية العجم» نجد ما نصه : «يقول راجي المنان أحمد بن محمود السعران . قد تم بعون الملك الوهاب طبع الجزء الأول من هذا الكتاب . ولقد بذلت في تصحيحه همتي على حسب طاقتي ، غير أن نسخه التي بيدي وإن زادت عن واحدة فهي قليلة الجدوى والفائدة ، إذ قل أن توجد بها عبارة مستقيمة ، أو جملة من علل التغيير والتبديل سليمة . وجل اعتمادي على مراجعة المظان من الكتب التي تيسرت مع حرصي على عدم تغيير عباراته وإن وافقت السداد . وإني لأرجو أن أكون صادقت الصواب» .

فهنا نجد أن المحقق رجع إلى المظان من الكتب ليصحح ما لم يستقم من عبارات المخطوط . وهذه هي الخطوة الأساسية في التحقيق العلمي للكتب . ونجد مثل هذا الاهتمام بالتأكيد من صحة النص في كتاب «الأحكام السلطانية» لأقضى القضاة علي ابن محمد بن حبيب البصري الذي طبع في النمسا . إذ يقول : «وليبسط لي مطالع هذا الكتاب عذراً ، ويسبل على ما يبدو من تصور تصحيحه ستراً . فإنه لم يتيسر لي سوى نسخة غير بريئة من التحريف ، ولا سليمة من التغيير والتصحيف ، جنت عليها يد المطابع الأجنبية ، وعدت عليها طوابع اللسن النمساوية . ومع ذلك فقد استقصيت غاية الإمكان في التصحيح ، واستقريت نصوص المتقدمين وأسفار اللغة رجاء التنقيح . ولم آل جهداً وفي الجفير نبل» .

«وكان طبعه وتمامه لعشر بقين من شهر شعبان المعظم عام ثمان وتسعين ومائتين بعد الألف . ١٢٩٨هـ» .

ونلاحظ أنه أمام عدم وجود نسخ مخطوطة يقابل عليها ، عمد مصححه إلى نصوص المتقدمين وأسفار اللغة للتأكد والتنقيح والتصحيح .

وهذا الاهتمام بإخراج نص صحيح نجده في آخر القرن الثالث عشر أيضا في كتاب «تذكرة داود الأنطاكي» المسماة «تذكرة أولى الألباب والجامع للعجب العجاب» نجد ما يلي : «تم طبع تذكرة أولي الألباب مرة ثانية محلاة الحواشي والأطراف بكتاب النزهة المبهجة في تشحيذ الأذهان وتعديل الأمزجة . وقد قوبلت بحمد الله *على الأصول الصحيحة التي نقحها جهابذة المصححين قبلنا أرباب التصحيح* ولاح بدر التمام وفاح مسك الختام أوائل ربيع الأول أحد شهور عام ١٢٩٤هـ» .

ونأتي الآن إلى طرق تحقيق المخطوطات في القرن الرابع عشر . ونستعرض الكتب التي طبعت .

لم تختلف طرق نشر النصوص في مطلع القرن الرابع عشر عما كانت عليه في

القرن الثالث عشر، ولنضرب أمثالاً على ذلك .

(١) ألف بهاء الدين محمد بن حسين العاملي، المتوفى في أصفهان سنة ١٠٠٣هـ . كتابه الشهير «الكشكول» .

وفي مطلع القرن الرابع عشر سنة ١٣٠٢ طبع هذا الكتاب في القاهرة . ونجد في آخره : «تمّ طبع كتاب الكشكول المحتوي من نتائج العقول وأفانين بديع النقول . . وكان طبعه الفائق، وتكميل شكله الرائق بالمطبعة الشرفية التي مركزها في مصر خان أبي طاقية . وفاح مسك ختامه في أواخر ذي الحجة الحرام . لعام ألف وثمانمائة واثنتين من الهجرة النبوية» .

وهكذا لا نجد ذكراً للمخطوطة التي اعتمدوا عليها في الطبع . ولا وصفها ولا تاريخها .

(٢) وطبع في أوائل القرن كتاب «شرح العزيزي على متن الجامع الصغير» الذي ألفه سنة ١٠٤٥ فنجد في آخره : «يقول مستنفح نفح العفو، عما أثقل من الذنب الظهر، خادم التصحيح الفقير علي صفر : شاركني في تهذيبه وتنقيحه من ليس له في ميدان التصحيح مساوي الشيخ سيد حماد الفيومي العجماوي وكان طبعه الفائق الشهي، وتحسين شكله الرائق البهي، على ذمة الشيخ محمد رمضان . وفاح مسك الختام ولاح بدر التمام في منتصف شهر رمضان من عام ألف وثلاثمائة وأربعة ١٣٠٤هـ» .

فلا نجد هنا ذكراً للمخطوطة التي اتخذت أساساً للطبع ولا وصفها ولا تاريخها .

وفي دار الخلافة القسطنطينة نجد ذلك أيضاً . في كتاب «شرح حديث الأربعين» ليحيى بن شرف النووي المتوفى سنة ٦٧٦هـ، والشرح لسعد الدين التفتازاني المتوفى سنة ٧٩٢هـ . طبع في دار الطباعة العامرة باستانبول عام ١٣١٦هـ فنجد في آخره : «وبعد، فيقول افقر العبيد إلى مولاه أحمد بن رفعت بن عثمان القره حصاري

مصحح دار الطباعة العامرة . قد وفق إلى طبعه أحمد شفيق أفندي الأنقروي فجاء بحمد الله مصححاً يقر عين الناظر ويسر الخاطر . وذلك بالمطبعة العامرة ، في عصر سلطاننا الأعظم عبد الحميد في عام ست عشر وثلاثمائة» .

وهكذا لا نجد ذكراً للمخطوطة التي اعتمد عليها ، ولا رجوعاً إلى كتب الحديث النبوي . بل اكتفى بالقول : جاء بحمد الله مصححاً .

ونجد في أوائل هذا القرن كتباً تراثية كثيرة طبعت في مصر والقسطنطينية ولم يذكر فيها الأصل الذي أخذت عنه .

فمجموعة رسائل الجاحظ مثلاً طبعها على نفقته الحاج محمد ساسي المغربي التونسي التاجر بالفحامين بمصر . فلا نجد ذكراً أبداً للأصل الذي أخذت منه . واكتفي بالقول : «وكان الفراغ من طبعها في شوال من شهور سنة ١٣٢٤» .

وكذلك نجد ديوان عبد الغني النابلسي المتصوف الكبير المتوفى سنة ١١٤٣هـ . فقد أعيد طبعه عام ١٣٠٦ . ويقول طابعه : «وكانت نسخه قد قلّت في أيدي طوائف الأدباء ، بل كادت أن تكون كما قيل في وجود العنقاء . فقيض الله تعالى من مصادر الخير بطلاً نبيهاً ، وشهماً وجيهاً ، أعني حضرة المحترم الأفخم الشيخ محمد رمضان ، فالتزم أن يدير رحا طبعه . ووافق تمام طبعه أواخر مبدأ أشهر الحج شوال الميمون من عام ألف وثلاثمائة وستة من هجرة سيد الكائنات» .

فهذا يدل على أنّ الطبع لم يتعد الإعادة لطبعة سابقة ، دون بحث عن نسخ مخطوطة ولا ذكر لتصحيح أو تقويم» .

قواعد التحقيق الحديثة ، الرجوع إلى المصادر

الفتاوى الغياثية الحنفية

يقول طه بن محمود قطرية رئيس التصحيح بمطبعة بولاق الأميرية : «أما بعد ، فإن من فضل الله علينا ومزيد إحسانه إلينا أن سهل السبيل إلى طبع هذا المطبوع الجليل

الذي اشتمل على كتابين لا بد منهما ، وهما «الفتاوى الغياثية» و «فتاوى زين الدين ابن نجيم» . على مذهب الإمام الأعظم ابي حنيفة .

ولما كنا جديرين بالإقبال عليهما . والرجوع في صحيح الفتوى إليهما نهض بطبعهما على نفقة الأمجد المحترم فرج الله زكي الكردي . وكيل الشركة الخيرية لنشر الكتب العالية الإسلامية . فقمنا في تصحيحهما وبذلنا في تحرير التراكيب وتنقيح الأساليب أقصى الجهود . على أن الفتاوى الغياثية لم يتيسر لنا منها إلا نسخة واحدة غير مرضية ، لما بها من التحريف والسقم ، وأصابها آفة النسخ وطغيان القلم . فطالما طال في وهنها عناؤنا ، وعظم في نجح تحريفها بلاؤنا . لو لا أن الله سهل صعبها وفرّج بفضله كربها بما تيسر لنا من كتب الفتاوى الحسان كالفتاوى الهندية وفتاوى قاضي خان . «وكان طبع هذا المطبوع بالمطبعة الأميرية في عهد الدولة الفخيمة الخديوية العباسية . وتم طبعه في أوائل أول الربيعين سنة ١٣٢٢» .

عدم وجود نسخ خطية

وأحيانا كان يصادف عدم وجود نسخ خطية للمقابلة . كما وقع عند طبع كتاب «مشكل الأثار» لأحمد بن محمد الطحاوي المتوفى سنة ٣٢١هـ . فقد طبع في حيدر آباد سنة ١٣٣٣هـ .

ونجد في آخره : «تم الكتاب قدر ما كان موجوداً عندنا ، وإن لم يتم الكتاب في الحقيقة كما يدل عليه سياق العبارة . وقد بذل المجلس جهده في تكميل الكتاب بمراسلات شتى ، وتسويد بياضاته وتصحيح أغلاطه ما أمكن . ولكن لم يظفر على نسخة أخرى ، فبقي النقص لا محالة . فالمرجو من ناظري هذا الكتاب ممن وجد نسخة أخرى صحيحة كاملة أن يكمل الكتاب» .

وفي كتاب «القصد المجرد في معرفة الاسم المفرد» لابن عطاء الله الإسكندري ، أحمد بن محمد ، المتوفى سنة ٧٠٩هـ . نجد ناشره يقول : «ظل هذا الكتاب في

طيّ الخفاء حتى عثرنا على نسخة منه فأزمعنا طبعه وأعلمنا للناس ذلك . «ولكننا وجدنا بها بضع توقيفات . فرأينا أن نصحّحها على نسخة أخرى وحاولنا عبثا ، إذ علمنا أنها النسخة الفذّة الوحيدة في جميع بلدان العالم الإسلامي وأقطاره . فاستخرنا الله في إخراجها خدمة للناس . وصدر عام ١٣٤٨هـ .

فما فعله الناشر من البحث عن نسخ أخرى هو من لب المذهب الحديث في نشر المخطوطات . محاولة البحث عن نسخ خطية أخرى من الكتاب للرجوع إليها .

ويحدثنا ناشر الفتاوى الحديثية لابن حجر الهيثمي . مع الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة للسيوطي ، فيقول : «وهذان الكتابان وإن عزت نسخهما ، وكادت يد التبديل تعدم روحهما ، ولكن قيض الله من كبرت في الخير رغبته فأحضر ما عثر عليه من صحيح النسخ وما طالت يده جلبه» .

ثم يقول : «وبذلت غاية الجهد في تصحيحه وتدبّره وتنقيحه فجاء بحمد الله تقربه عين الناظر . وذلك على ذمة حضرة ملتزميه السيد عبد الرحمن والسيد داود التكريتي من أعيان تجار دمشق . جزاهما الله على ذلك الصنيع . وذلك في شهر ذي القعدة سنة ١٣٠٧هـ» .

الرجوع إلى المصادر المعتمدة

شرح العيني للبخاري

ومن علامات التحقيق العلمي الحديث لنشر المخطوطات وتحقيقها ، الرجوع إلى جميع الكتب التي تقيد في تصحيح الكتاب المراد نشره .

ففي كتاب شرح العيني للبخاري ، المطبوع في القسطنطينية . نجد في آخره ما يلي : «يقول خادم تصحيح العلوم بدار الطباعة العامرة في دار السلطنة السنية الفاخرة العبد الفقير إلى الله تعالى عمر العامر التلوي البدلسي والحافظ عبد الصمد رفيع العلم في المكتب السلطاني : صادف طبعه في دار الطباعة في أيام السلطان الغازي

عبد الحميد خان وقد وفقنا بحمد الله لتصحيح الجزء الثامن إلى خاتمة الكتاب الجليل . والآن تم طبعه بهذا الشكل الجميل . وما من تحريف إلا أصلحته ، وسقط إلا وأثبته . وتكرار إلا حذفته . وذلك بعد المراجعة إلى الكتب الكثيرة والنسخ المعتمدة الوفيرة» .

وما ذكره هو قواعد تحقيق النصوص الحديثة ذاتها .

مجموعة رسائل الجاحظ

ولكننا إلى جانب ذلك لا نجد أحيانا ذكراً لمصحح ولا للأصل المأخوذ منه ، نضرب على ذلك مثلا ، مجموعة رسائل الجاحظ ، المطبوعة سنة ١٣٢٤هـ .

ففي أخرها نجد : «وبعد فقد تم بعون الله وتأييده وتوفيقه وتسديده طبع رسائل إمام الفصحاء وقدوة البلغاء أفضل كتَّاب عصره بلا منازع ، أبي عثمان ابن بحر بن محبوب المعروف بالجاحظ . وهي عبارة عن جملة رسائل من أمهات رسائله التي أنشأها وأعجز كل كاتب بليغ عن مضارعته . وكان بزوغ بدرها ، وتمام طبعها في مطبعة السعادة المشهورة بالإتقان والإجادة الكائنة بجوار محافظة مصر . بنفقة الأديب اللوذعي اللبيب الحاج محمد أفندي ساسي المغربي التونسي . وكان الفراغ من طبعها في شهر شوال من شهور ١٣٢٤هـ» .

وهي تبدأ بترجمة الجاحظ ، ويقول : «ومن أنفع مؤلفاته وأحسنها مجموعة رسائل غزيرة الفوائد بديعة الفرائد في مواضيع شتى نتف وملح وحكم . طبع بعضها في مدينة ليدن بالبلاد الأوروبية ، وقد وفق الآن لإعادة طبعه ثانياً ، وطبع ما لم يطبع منها ، بمطبعة التقدم الغراء حضرة الهمام الأمثل الحاج محمد أفندي الساسي المغربي (التاجر بالفحامين) صاحب الأيادي البيضاء في طبع الكتب النافعة» .

مبادئ التحقيق العلمي في القرن الرابع عشر

على أننا نجد مبادئ التحقيق العلمي للمخطوطات ، في طبعة كتاب «مجمع

الضمانات في مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان» للعلامة محمد بن غانم البغدادي . الذي طبع أول مرة في المطبعة الخيرية المنشأة بجمالية مصر سنة ١٣٠٨هـ .

ففي آخر الطبعة نجد ما يلي : «خاتمة الطبع لمنشئها الأديب الفاضل أحمد أفندي سمير يقول : كانت النسخة التي يراد الطبع عليها حسنة الخط فقط . قبيحة السقط والغلط . فكانت عقبة في تلك السبيل . وكاد الطبع يعد من المستحيل ، غير أن من طرق باب الاجتهاد دخل ، وكل من سار على الدرب وصل . فلذلك سارع أرباب المطبعة إلى استحضار مآخذ ذلك الكتاب التي اعتمد عليها المؤلف في النقل والاستصواب ، كجامع الفصولين ، والهداية ، والأشباه والنظائر ، وغيرها من الكتب التي لها نظائر . وكان متولي التصحيح حنفيّاً كثير الدرس والمطالعة ، خبيراً بمظان المراجعة ، فبذل في المقابلة جهده وأنجز من التثبت في العبارة وعده ، فصحت بعد الاعتلال وبدلت بعد العوج بالاعتدال . وقد انتهى الطبع في أوائل أيام من أعاد هرم مصر شباباً وألبسها بإمارته من الفخر جلباباً ، مرجع الآمال والأماني مولانا الخديوي المعظم عباس باشا الثاني . وتم ذلك في أوائل شعبان سنة ١٣٠٩ من هجرته عليه السلام بالمطبعة الخيرية المؤسسة في مصر القاهرة . بخط الباطنية» .

نجد أنه عندما لم يستطيعوا العثور على نسخ أخرى من الكتاب المراد طبعه رجعوا إلى الأصول التي استمد منها المؤلف كتابه . وهذا هو النهج العلمي الصحيح في النشر .

ونجد هذا المنهج أيضا في نشر كتاب «تيسير الوصول إلى جامع الوصول» لابن الديبع الشيباني المتوفى سنة ٩٤٤هـ . الذي اختصر به «جامع الأصول لأحاديث الرسول» . فنجد في آخره : «عني بتصحيحه ومقابلته على الأصول الستة والتعليق عليه محمد حامد الفقي» .

فنجد هنا التأكد من الصحة بمراجعة كتب أصول السنة .

ومما يدخل في اتباع التحقيق العلمي طبعة كتاب «القسطاس المستقيم» لحجة الإسلام أبي حامد الغزالي . فقد صححه والتزم طبعه الشيخ مصطفى القباني الدمشقي . وحدّثنا كيف حقق الكتاب فقال : «نسخت الكتاب قبل بضعة أشهر ، مؤملاً أن أفوز بثواب نشره . ولكن صدني عن الإنجاز نقص في أوله . فراجعت برامج المكتبات العمومية فلم أجد منه سوى نسخة في برلين ، ونسختين في الإسكوريال . ولكن التصحيح عليهما بعيد المنال . فعدلت لسؤال من أعرفه من أرباب المكتبات الخصوصية فلم أقف لعينه على أثر . ، ولا لذكره على خبر ، حتى أرشدني أحد الأصدقاء لنسخة عند الشيخ سليم البخاري أحد أفاضل دمشق وأعيانها . فكلمه أحد نخباء الطلبة من أقاربي بنسخها . فنسخها وراجعها . ثم جمعت بين النسختين ، وأخرجت منهما نسخة كاملة ، وأضفت لها ترجمة المؤلف ، مع كتابة ما لزم . فجاء بحمد الله نافعاً» .

وقد بدأ الكتاب بترجمة الغزالي ، وقائمة بمؤلفاته التي اطلع عليها بنفسه وعددها سبعة وخمسون . ثم قائمة بالمؤلفات التي لم يطلع عليها ، وعددها ستون كتاباً ورسالة . وختم المقدمة بقوله : هذه المصنفات متفرّقة في كافة مكتبات الشرق والغرب العمومية ، والخصوصية . ومن أراد تفصيلها فليراجع تاريخ آداب اللغة العربية لبروكلمن . ومدارس العرب لوستنفلد . وحياة الغزالي ومؤلفاته لغوش» .

وطبع كتاب «القسطاس المستقيم» بمصر ، في مطبعة الترقي ، سنة ١٣١٨هـ .

فهذا الوصف الذي ذكرناه رائع جدا . وهو الطريق الصحيح في التحقيق ، وخاصة في مرحلة جمع النسخ المخطوطة التي تعدّ أهم المراحل لاختيار النسخة التي يجب اعتمادها أساساً للنشر . وقد فصلت ذلك في كتابي «قواعد تحقيق المخطوطات» .

ومما يدخل في باب جمع النسخ المعتمدة لكتاب واحد ، كتاب «شرح الشفا

للقاضي علي القاري» . فنحن نجد في أخره : يقول العبد الفقير إلى آلاء ربه القوي الحاج أحمد طاهر القنوي مصحح الكتب الدينية بالمطبعة العثمانية (استانبول) . قد اعتني كثير من العلماء الجهابذة بشرحه مختصراً ومفصّلاً ، مطولاً ومجملاً . فمن شروحه شرح الفاضل علي القاري رحمه الله . وهو مع صغر حجمه كبير نفعه يسير ضبطه . إلا أن النسخ المتداولة مملوءة بالغلط المردود . فلذلك صرفنا نحن ولله الحمد في تصحيحه ما هو المجهود . والتزمنا تصحيحه عن نسخ عديدة ليتم المقصود . فجاء بحمد الله تعالى مطبوعاً سالماً عن الخطأ المستبين . وقد تصادف ختام طبعه بالمطبعة العثمانية الكائنة في دار الخلافة العثمانية في اليوم السابع والعشرين من الربيع الآخر سنة تسع عشرة وثلاثمئة وألف» .

ومما يدخل في باب جمع النسخ المختلفة المخطوطة لاختيار أصحابها نصاً . قصة كتاب «الأربعين في أصول الدين» للغزالي . الذي نشره محيي الدين صبري الكردي ؛ ففي خاتمة الكتاب المطبوع عام ١٣٤٤هـ . في مصر يقول : «لما كانت كتب الإمام الغزالي على الإطلاق كعلاج ناجع لدواء الأخلاق بالاتفاق . وكان بينهما «كتاب الأربعين في أصول الدين» الذي جعله قسما مستقلاً من كتابه «جواهر القرآن» - هو الآية الكبرى في البيان . . وكنا في زمن أحوج إلى تقديم الأخلاق وتربية النفوس على الوفاق . . وكان هذا الكتاب مع ما اشتمل عليه من نفائس الحكم وجوامع الكلم قد جرّ عليه الدهر ذيل النسيان . . . أتاح لي القدر أن عثرت على نسخة من أصح النسخ . . . فتاقت نفسي إلى طبعه . فوجدت مع بعض كبار مشايخ الأكراد نسخة قديمة من أصح النسخ منه ، مكتوبة في القرن السابع الإسلامي ، فاصطحبتها لأقابل ما فيها على ما في نسختي . ثم وجدت نسخة دمشقية وأخرى مصرية . فصرن أربع نسخ ، جمعتها وقابلتها حتى استخلصت من بينها نسخة خرجت أقرب إلى البرء من الخطل ، والسلامة من التحريف والزلل . وقد تم طبعها

الأول سنة ١٣٢٨ وأقبل الخاصة والعامة والوعاظ على اقتنائها» .

أيها السادة الكرام

(١) إنّ البحث في هذا الموضوع واسع جداً ، فنكتفي بما ذكرنا من مطبوعات القاهرة ودمشق والقسطنطينية في أوائل القرن الرابع عشر .

(٢) ونرى من الواجب الملح أن نقدّم إلى مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث كل شكر على هذه الندوة . ونلهج بالثناء العاطر على الشيخ جمعة الماجد ، فقد أثبت أنه ماجد فعلاً في أخلاقه وكرمه ، وماجد في إنفاقه على الأعمال الثقافية التي تقوم بها مؤسسته ، ونرجو له عمراً مديداً سعيداً .

(٣) ولا بدّ من التنوية أيضاً بالعالم الدمشقي اللامع الدكتور عبد الرحمن فرفور الذي يعود إليه الفضل في تنظيم هذا المؤتمر الرائع . ودعوته الأعلام من كل بلد للمشاركة فيه . فكان المؤتمر بحمد الله ناجحاً كل النجاح ، وفرصة سعيدة للقاء الباحثين والعلماء ، نرجو تكرارها كل عام .

والسلام عليكم جميعاً أطيب السلام .

أوائل المطبوعات العربية في مصر

الأستاذ الدكتور محمود محمد الطناحي

محمود محمد الطناحي

رئيس قسم النحو والصرف والعروض في كلية الدراسات العربية والإسلامية بجامعة القاهرة.

- من مواليد محافظة المنوفية، ١٩٣٥م
- دكتوراه في النحو من كلية دار العلوم بجامعة القاهرة

الوظائف

- معيد بمعهد الدراسات العربية بالجامعة الأمريكية في القاهرة، ١٩٦٣ - ١٩٦٥م.
- خبير معهد المخطوطات العربية ١٩٦٥ - ١٩٧٨م.
- أستاذ مشارك بقسم الدراسات العليا العربية بجامعة الملك عبد العزيز ١٩٧٨ - ١٩٨٩م.
- أستاذ مساعد ثم أستاذ بكلية الدراسات العربية والإسلامية بجامعة القاهرة (فرع الفيوم).
- خبير بمجمع اللغة العربية بالقاهرة، ١٩٩٠م.

من نتاجه

- الفصول الخمسون (في النحو) لابن معطي القاهرة، مطبعة البابي الحلبي، ١٣٩٦هـ = ١٩٧٦م.
- منال الطالب في شرح طوال الغرائب لابن الأثير مكة المكرمة، جامعة أم القرى ١٤٠٣هـ = ١٩٨٣م.
- (حصل على الجائزة الأولى في تحقيق التراث بمجمع اللغة العربية بالقاهرة)
- شرح الأبيات المشكلة الإعراب (١ - ٢) لأبي علي الفاسي القاهرة، مكتبة الخانجي ١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م.
- أمالي ابن الشجري (١ - ٣) القاهرة، مكتبة الخانجي ١٤١٣هـ = ١٩٩٢م.
- مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م.

كان إنجازاً حضاريًا كبيراً ظهور المطبعة في القرن الخامس عشر الميلادي ، على يد يوهان غوتنبرغ الألماني (١٣٩٧ - ١٤٦٨م) ، وكان ذلك هو البديل العظيم للنسخ والوراقة ، اللذين كانا السبيل الوحيد لانتقال المعرفة وذيوع العلم .

ومهما أوتيت بعض الكتب حظًا من كثرة نسخها ومخطوطاتها - مثل كتاب العين ، للخليل بن أحمد ، الذي كان منه نيف وثلاثون نسخة في خزانة العزيز بالله الفاطمي ، ومثل الجمهرة في اللغة لابن دريد ، الذي كان منه في الخزانة المذكورة مائة نسخة ، وكذلك كان في خزانة كتب الفاطميين بمصر ماتتان وألف نسخة من تاريخ الطبري[1] .

أقول : مهما كان ذلك فسيظل للمطبعة أثرها الضخم في انتشار العلم والتقاء الحضارات ، وتبادل الثقافات .

ولقد كان المهد الأول للطباعة العربية في إيطاليا ، منذ أوائل القرن السادس عشر ، كما هو معروف ، وكانت أول مطبعة عربية في مدينة فانو FANO ، وبها صدر سنة ١٥١٤م (٩٢٠هـ) أول كتاب عربي مطبوع ، وهو «صلاة السواعي ، الصلوات الليلية والنهارية» حسب طقوس كنيسة الإسكندرية الأرثوذكسية ، وجاء الكتاب في ٢١١ صفحة .

وقد تبعت إيطاليا بلدان أوربا وعواصمها ، ثم كانت الآستانة (استانبول) عاصمة الخلافة العثمانية أسبق مدن الشرق إلى الطباعة ، ويقال : إن إيران (بلاد العجم) هي السابقة ، وبعد ذلك عرفت الطباعة في لبنان وسائر بلاد الشام .

ويبدأ حديث الطباعة في مصر بدخول الحملة الفرنسية سنة ١٧٩٨م ، حين حمل نابليون معه مطبعة صغيرة لطبع منشوراته وأوامره باللغة العربية ، وكانت هذه المطبعة الصغيرة تعمل وهي على السفينة في عرض البحر ، وحين اقتحم نابليون ثغر الإسكندرية قام رجال حملته بتوزيع المنشورات السياسية التي أعدوها في البحر ،

وأطلق على هذه المطبعة اسم «المطبعة الأهلية» ، ثم نقلت إلى القاهرة ، ووضعت في بيت السناري بحي السيدة زينب ، واستمرت في عملها إلى سنة ١٨٠١م ، لمّا اندحر نابليون وخابت حملته .

وكان نابليون قد جهز مطبعته تلك بحروف عربية وتركية وفرنسية ويونانية وطبع فيها إلى جانب المنشورات والأوامر أمثال لقمان الحكيم ، ثم طبع بالعربية والتركية والفرنسية محاكمة سليمان الحلبي ، باسم «مجمع التحريرات المتعلقة إلى ما جرى بأعلام ومحاكمة سليمان الحلبي قاتل صاري عسكر العام كليبر» ، ووضع اسم المطبعة على الغلاف هكذا : مطبعة الجمهور الفرنساوي ١٧٩٩ - ١٨٠٠م (١٢١٤هـ) .

ثم طبع نابليون بعض رسائل في النصائح الطبية وغيرها ؛ استمالة لقلوب المصريين ، واجتلابًا لرضاهم ، ولم يزد في الطباعة على ذلك .

ومرت فترة من الزمان - زهاء عشرين سنة - وليس في مصر طباعة ولا مطبعة ، حتى استقر الأمر لمحمد علي باشا ، الذي تولى حكم مصر سنة ١٨٠٥م فأنشأ مطبعة على أنقاض المطبعة الأهلية الفرنسية[٢] ، وسميت بالمطبعة الأهلية أيضًا ، وذلك في سنة ١٨١٩م ، أو ١٨٢١م ، ثم نقلت هذه المطبعة إلى بولاق ، على ضفاف النيل ، فعرفت بمطبعة بولاق ، أو المطبعة الأميرية ، أو الميرية ، كما تعرف إلى يوم الناس هذا ، وسميت أيضًا : مطبعة الحاج محمد علي باشا[٣] ، وقد تسمى بالوصف ، فيقال : المطبعة العامرة[٤] ، أو الباهرة ونحو ذلك ، وعرفت أيضًا : بدار الطباعة الخديوية .

وهكذا كانت بداية الطباعة العربية في مصر : مطبعة بولاق التي أنشأها محمد علي باشا ، ثم تبعتها وجاءت بعدها بعض المطابع الملحقة بإدارات الجيش والمدارس العليا ، وبعد ذلك بدأت المطابع الأهلية .

فهذه ثلاث مراحل في بداية الطباعة العربية في مصر ، ثم على امتداد القرن التاسع عشر ، ولكل مرحلة قصة وتاريخ :

المرحلة الأولى : مطبعة بولاق

تمثل هذه المطبعة الباب الواسع الذي دخل منه العرب إلى النهضة الحديثة ، كما تمثل في الوقت نفسه البعث الحقيقي لتراث الآباء والأجداد . ولقد قلت في بعض ما كتبت : لم يظهر الوجه العربي للطباعة إلا في مطبعة بولاق بمصر ، كان إنشاء هذه المطبعة صيحة مدوية أيقظت الغافلين ، ومركز ضوء باهر هدى الحائرين ، وقد تدافعت مطبوعاتها من الكتاب العربي كأنها السيل الذي عناه حنظلة بن مصبح :

أقبل سيل جاء من أمر الله   يحرد حرد[٥] الجنة المغله

ولئن كانت الطباعة العربية قد عرفت في بلاد أخرى شرقًا وغربًا قبل مطبعة بولاق ، فإن نشاط هذه المطابع إذا قيس بنشاط مطبعة بولاق في ذلك الزمان المتقدم ، كان ضئيلاً محدودًا جاء في مقدمة معجم المطبوعات العربية والمعربة في أثناء الحديث عن مطبعة بولاق : «وقد عدد ما طبع من الكتب من ١٩ مايو سنة ١٨٧٢م (أي ١٢٨٩هـ) إلى آخر ربيع الأول سنة ١٢٩٥هـ ، فبلغت عدد النسخ ٣٦١٨١٥ ، قال صاحب التعداد المذكور : وكان قبلاً مطبوعًا لغاية معرض باريس سنة ١٨٦٧م (١٢٨٤هـ) = ٢٤٢٠٧٥ ، فيكون إجمال ما صدر من النسخ ٦٠٣٨٩٠ كتابًا لغاية سنة ١٢٩٥هـ» .

أرأيت إلى هذا العدد الذي يزيد على نصف المليون ، في هذه المدة الوجيزة لإنشاء مطبعة بولاق ، وهي مدة يسيرة لا تُعد شيئًا في تاريخ الأمم والشعوب ، مع ملاحظة ضعف الوسائل الطباعية في تلك الأيام ، والاعتماد على الجمع اليدوي (الصندوق) وهو يمثل عائقًا كبيرًا في سرعة الإنجاز .

وواضح أن المراد من العدد المذكور : النسخ لا الكتب ، فإن بعض الكتب في

طبعات بولاق يصل إلى عشرين جزءاً (أي نسخة) مثل كتاب الأغاني ، الذي طبع سنة ١٢٨٥هـ = ١٨٦٨م .

وينبغي أن يؤخذ في الاعتبار أن بعض الكتب قد نشر بهامش كتب أخرى ، وهي ظاهرة عجيبة ، سأتحدث عنها فيما بعد إن شاء الله .

وفي مجال تقييم أعمال مطبعة بولاق تبرز هذه الحقائق :

أولاً : كان إنشاء محمد علي مطبعة بولاق متزامنًا مع إرساله البعثات لتلقي العلم في أوربا . ومن أعلام هذه البعثات رفاعة الطهطاوي[٦] ، ذلك الشيخ الأزهري الذي يعد من أركان النهضة العلمية العربية في العصر الحديث ، وهو مؤسس مدرسة الألسن بالقاهرة . وسنرى في أوائل مطبوعات بولاق كثيراً من المترجمات بقلمه .

ولا يستطيع الدارس أن يغفل العلاقة بين هذه البعثات ونشاط مطبعة بولاق ، فقد عاد الدارسون المصريون من أوربا برغبة عارمة في الإصلاح والنهوض ، ولم يركنوا إلى الدعة والاكتفاء بمدح الإفرنج والطعن على أمتهم ، والانتقاص من تاريخها وذم علومها ومعارفها ، كما نرى ونسمع الآن .

ثانيًا :إذا كانت مطبعة بولاق قد أنشئت سنة ١٨٢١م ، فإن أقدم مطبوع بها هو «قاموس إيطالي وعربي» طبع سنة ١٨٢٢م ، وقد ألفه القس رافائيل زخور راهب ، وفيما تلا هذه السنة ، وفي تلك السنوات المبكرة من هذا القرن نلاحظ غلبة للكتب المترجمة في الشؤون الطبية والصحية ، والزراعة والهندسة ، وتدبير المعاش . نعم قد طبعت في هذه الفترة المبكرة بعض الكتب في العلوم النظرية ، في فقه أبي حنيفة ، وفي علمي النحو والصرف والشعر والمعارف العامة ، ولكنها

كانت محدودة بالنسبة إلى الكتب المترجمة .

على أن من أقدم ما طبعت بولاق من العلوم النظرية : مجموعة متون الصرف ، مثل الشافية لابن الحاجب ، والتصريف العزي - بعناية الشيخ حسن بن محمد العطار شيخ الأزهر ، طبعت هذه المجموعة سنة ١٢٤٠هـ = ١٨٢٤م .

ثالثًا : إن الذين قاموا على نشر كتب التراث بتلك المطبعة كانوا يستهدفون غاية ضخمة ، هي إبراز كنوز الفكر العربي والإسلامي ، فعمدوا إلى نشر الأمهات والأصول في كل علم ، ولم يطغ فن على فن ، شأن المطابع ودور النشر التجارية التي تتحسس حاجة السوق ، وتلبي رغبات عاجلة لخدمة بعض الاتجاهات والنوازع ، فهم قد نظروا إلى التراث نظرة شمولية كلية ، فنشرت مطبعة بولاق : منهاج السنة النبوية ، لشيخ الإسلام ابن تيمية ، في أربعة أجزاء ، ثم طبعت الفتوحات المكية لمحيي الدين بن عربي ، في أربعة أجزاء أيضًا ، وطبعت من تراجم المشارقة : وفيات الأعيان لابن خلكان ، ومن تراجم المغاربة قلائد العقيان للفتح بن خاقان ، ونفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقري . وطبعت تفسير الطبري والفخر الرازي والآلوسي وإسماعيل حقي البرسوي وصحيح البخاري وشرحه لابن حجر ، وللقسطلاني ، ثم طبعت ألف ليلة وليلة ، طبعتين ، ورجوع الشيخ إلى صباه في القوة على الباه لابن كمال باشا ، وهو أشهر كتاب جنس في المكتبة العربية(٧) .

فالذين وجهوا حركة الطبع والنشر في ذلك الزمان كانوا مدفوعين برغبة قوية في الإصلاح والنهوض ، ثم ملاحقة التطور الأوربي الذي

تناهت إليهم أصداؤه وثماره ، من خلال الغزو وإرسال البعثات ، وفي ذلك يقول شيخنا عبدالسلام هارون ، رحمه الله : «ولقد كانت فكرة إحياء التراث والنشاط فيه فكرة قومية ، قبل أن تكون فكرة علمية ، فإن طغيان الثقافة الأوربية والنفوذ التركي وضغطه كان يأخذ بمخنق العرب في بلادهم ، فأرادوا أن يخرجوا إلى متنفس يحسون فيه بكيانهم المستمد من كيان أسلافهم ، في الوقت الذي ألفوا فيه الغرباء من الأوربيين يتسابقون وينبشون كنوز الثقافة العربية ، فانطلقوا في هذه السبيل ، ينشرون ويحيون ،إذ كانوا يرون أنهم أحق بهذا العمل النبيل وأجدر»[٨] .

رابعا : تزامن نشاط مطبعة بولاق مع الدعوة الى العامية التي تولى كبرها نفر من الأجانب الذين حلوا بمصر ، منهم ولهلهم سبيتا ، وكارل فولرس ، وويلكوكس ، وسلدن ولمور ، وزويمر ، وقد جاهد هؤلاء في الترويج لدعوتهم الخبيثة جهاداً لاهثًا ، يصانعهم ويظاهرهم قوم أغبياء من أهل جلدتنا[٩] .

ومما لا شك فيه أن طبعات بولاق من أصول التراث العربي في ذلك الوقت كانت خير وسيلة للوقوف في وجه تلك الأفكار والدعوات ، ثم إنها من وراء ذلك قد غذت عقول أرباب العلم وأهل الأدب ، حين وضعت أمامهم زاداً شهيًا من علوم الأوائل وآدابهم ، مما أمدهم بفيض زاخر من العربية الصحيحة ، أعانهم على ما هم بسبيله من الإبداع والإحسان ، فكان البعث والتنوير الذي حمل لواءه رفاعة الطهطاوي ومحمود سامي البارودي والشيخ حسين المرصفي ومن نسج على نولهم وسار في ركابهم .

خامسًا :أقدمت مطبعة بولاق في ذلك الزمان المبكر على طبع الموسوعات الضخمة ، وبعض هذه الموسوعات جاء في ثلاثين جزءًا ، مثل تفسير الطبري ، وبعضها في عشرين جزءًا كالأغاني ولسان العرب ، أما الكتب ذات الجزءين والأربعة والسبعة وما فوق العشرة فكثيرة .

سادسًا : حرصت مطبعة بولاق في كثير من منشوراتها على طبع كتاب أو أكثر بهامش الكتاب الأصلي ، أو بآخره لصلة ذلك بالكتاب ، أو لمجرد الرغبة في نشر الكتب على أوسع نطاق ، وهذه الظاهرة لم تعرف قبل مطبعة بولاق إلا أن تكون بعض مطابع الآستانة (استانبول) . وهي تدل بوضوح على أن القوم كانوا في سباق لنشر العلم وإذاعته .

وعلى سبيل المثال فقد طبع كتاب الكامل في التاريخ ، لعز الدين بن الأثير سنة ١٢٩٠هـ = ١٨٧٣م في اثني عشر جزءًا - بتصحيح إبراهيم الدسوقي الملقب عبدالغفار - وبهامشه ثلاثة كتب :

(١) أخبار الدول وآثار الأول ، للقرماني ، من الجزء الأول إلى آخر السادس .

(٢) روضة المناظر في أخبار الأوائل والأواخر ، لابن الشحنة ، من أول السابع إلى آخر التاسع .

(٣) تاريخ العتبي ، من أول العاشر إلى آخر الثاني عشر .

ومن الطريف حقًا أن نرى خمسة كتب مطبوعة في كتاب ، وفي صفحة واحدة اجتمعت خمسة الكتب ، في الصلب والهامش ، مفصولة بجداول ، دون أن يختلط بعضها ببعض ، أو يبغي بعضها على بعض ، وذلك ككتاب شروح التلخيص في علوم البلاغة ، ويشتمل

على :

(١) شرح سعد الدين التفتازاني على تلخيص المفتاح للخطيب القزويني .

(٢) مواهب الفتّاح في شرح تلخيص المفتاح ، لابن يعقوب المغربي .

(٣) عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح ، لبهاء الدين السبكي .

(٤) الإيضاح ، للخطيب القزويني .

(٥) حاشية الدسوقي على شرح السعد .

والثلاثة الأولى طبعت في صلب الكتاب ، والاثنان الباقيان بهامشه .

وهذه الطبعة بمطبعة بولاق[١٠] ١٣١٧هـ = ١٨٩٩م ، على نفقة مصطفى أفندي المكاوي المحامي بمدينة الفيوم ، والشيخ فرج الله زكي الكردي وكيل الشركة الخيرية لنشر الكتب العالمية الإسلامية ، ومن طلبة العلم بالأزهر الشريف - وهو صاحب مطبعة كردستان العلمية - وسيأتي حديثها في المطابع الأهلية - وعبدالحميد أفندي الصمداني .

وقد شاع هذا النمط من الطبع بكثرة في المطابع الأهلية التي تلت مطبعة بولاق ، كما سيأتي بيانه .

أما طبع الكتب بآخر الكتب ، فمنها مما أخرجته مطبعة بولاق : «الرحمة الغيثية بالترجمة الليثية» ، «ترجمة الليث بن سعد» ، «وتوالي التأسيس بمعالي ابن إدريس الشافعي» وكلا الكتابين للحافظ ابن حجر العسقلاني ، وقد طبعا بآخر كتابه فتح الباري بشرح صحيح البخاري ببولاق ، ١٣٠٠هـ = ١٨٨٢م .

سابعًا : حظيت مطبعة بولاق بعناية فائقة في الإدارة والتصحيح والمراجعة ، وقد تولى إدارتها نفر من علية القوم ، كان من أبرزهم وأعلاهم حسين باشا حسني .

وخلاصة أمره أنه تعلم بمدرسة الهندسة ، ثم عين بها معلمًا للعلوم الرياضية ،من هندسة وجبر وفنون حسابية ، ثم انتقل إلى المطبعة الأميرية سنة ١٢٦٨هـ = ١٨٥١م بوظيفة كاتب ومصحح تركي بالوقائع المصرية ، وفي سنة ١٢٩١هـ = ١٨٧٤م جُعل ناظرًا على مطبعة بولاق ، وفي سنة ١٢٩٢هـ = ١٨٧٥م توجه مع الخديوي إسماعيل لمشاهدة معرض باريس ، ثم تنقل في بعض بلدان أوربا كالنمسا ولندن ، لرؤية إنتاجها من آلات الطباعة ، فاشترى جملة من تلك الآلات . وفي سنة ١٣٠٢هـ = ١٨٨٤م توجّه إلى لندن مرة ثانية ، فأحضر منها (فابريقة) مصنعًا للورق ، أقامه ببولاق على شاطئ النيل بجوار المطبعة ، وهي (الكاغدخانة) أي دار الورق ، وقد أنتجت هذه (الفابريقة) ورقًا جيدًا ، يقول علي مبارك في وصفه : «حتى جاء منها ورق عجيب الشكل كاد يعطل على ورق أوربا ، وكانت جميع مصاريفها وتكاليفها - من ثمن آلاتها وخلافها - من ربح المطبعة ، وذلك باجتهاده وحسن سعيه في إحكام إدارتها وكثرة ثروتها . . . ولم يزل رحمه الله ساعيًا في عموم نفع الناس ، ونشر العلوم ، مع إحسان الطبع وجودته على أتم ما ينبغي ، وأبهج ما تشتهيه النفوس وتبتغي ، وقد أحيا روح المطبعة الميرية ، ونشر صيتها في جميع الأقطار»[11] . توفى رحمه الله سنة ١٣٠٣هـ = ١٨٨٦م .

أما التصحيح والمراجعة في هذه المطبعة العتيقة الرائدة فشيء بديع معجب حقًا ، وإذا تركنا مشاهير المصححين بالمطبعة - إلى حين - فقد كان محررو المطبعة ومصححوها من طلبة الأزهر الذين دربوا لذلك تدريبًا خاصًا ، استغرق نحو ست سنوات ، ثم كان إسناد رئاسة تصحيح المطبعة إلى الشيخ نصر الهوريني الأزهري

الشافعي آية كبرى على هيمنة الأزهر على هذه المطبعة الكبرى وإلباسها الوجه العربي الصحيح .

وهذا الشيخ نصر الهوريني ، من علماء الأدب واللغة ، تعلم بالأزهر ، ثم أرسله محمد علي باشا إلى فرنسا إمامًا لإحدى البعثات المصرية ، فأقام هناك مدة تعلم فيها الفرنسية ، ولما عاد إلى مصر ولي رئاسة تصحيح مطبعة بولاق ، فصحح كثيراً من كتب العلم والأدب والتاريخ واللغة ، وصنف كتبًا كثيرة ، منها : «المطالع النصرية للمطابع المصرية» ، «في أصول الكتابة» (الإملاء بالمعنى الحديث) «وشرح ديباجة القاموس المحيط» ، مع فوائد شريفة في معرفة اصطلاحات القاموس ، وقد جاء ذلك كله في طبعة القاموس التي أصدرتها مطبعة بولاق سنة ١٢٧٢هـ = ١٨٥٥م . وله تآليف غيرها . ، ثم كانت له مشاركات أخرى في غير مطبوعات بولاق ، سيأتي الحديث عنها إن شاء الله . توفي سنة ١٢٩١هـ = ١٨٧٤م ، ولم يعرف له تاريخ مولد[١٢] .

ومن هذه المشيخة الجليلة ، مصححي مطبعة بولاق الشيخ محمد بن عبدالرحمن المعروف بقُطّة العدوي[١٣] ، المتوفى سنة ١٢٨١هـ = ١٨٦٤م ، وكانت له عناية بالنحو ، ومن مؤلفاته المطبوعة : «فتح الجليل بشرح شواهد ابن عقيل» ، ومن أشهر تصحيحاته «ألف ليلة وليلة» - الطبعة الثانية ١٢٧٩هـ = ١٨٦٢م ، وكانت الطبعة الأولى ببولاق أيضًا سنة ١٢٥١هـ = ١٨٣٥م بتصحيح الشاعر عبدالرحمن الصفتي الشرقاوي[١٤] .

ومنهم : إبراهيم عبدالغفار الدسوقي ، من أعوان المترجمين في أيام

محمد علي وعباس ، ولد في دسوق وتعلم بالأزهر ، وعين مصححًا في مدرسة الطب بأبي زعبل ، ثم بمدرسة المهندسخانة ، وقام بتصحيح جميع الكتب الرياضية التي ترجمت في هذه المدرسة إلى أن أغلقت ، فنقل إلى مطبعة بولاق مصححًا ، ثم كان رئيس المصححين فيها ، فهو من كبار المساعدين على الترجمة في عهد الإقبال على نقل الكتب الأفرنجية إلى العربية[١٥] . ولد سنة ١٢٢٦هـ = ١٨١١م ، وتوفى سنة ١٣٠٠هـ = ١٨٨٣م .

ومن أشهر تصحيحاته : «القانون في الطب» لابن سينا ، سنة ١٢٩٤هـ = ١٨٧٧م .

ومنهم محمد بن محمد البلبيسي الشافعي الحسيني ، وصفه علي مبارك بـ «العالم الفاضل ، الأديب الكامل ، الأستاذ الكبير ، العالم الشهير ، من كلامه يدل على كماله»[١٦] .

ومن أشهر ما صحح محمد الحسيني هذا «لسان العرب» لابن منظور ، الذي طبعته بولاق ابتداء من سنة ١٣٠٠هـ = ١٨٨٢م ، وقد جاء في عشرين جزءًا ، وهو مضبوط بالشكل الكامل ، وتصحيحه وما قيد على حواشيه يدل على علم المصحح وفضله ، وصحح أيضًا هذه الطبعة المضبوطة المتقنة من صحيح البخاري ١٣١٥هـ = ١٨٩٧م .

ثم تطالعنا أواخر طبعات بولاق بكوكبة أخرى من أماثل العلماء ، منهم نصر بن محمد العادلي ، وطه بن محمود قطرية الدمياطي ، ومحمد قاسم ، ومحمد الصباغ ، ومحمد عبدالرسول إبراهيم ، ومن أشهر ما صحح هذا الشيخ «صبح الأعشى في صناعة الإنشاء»

للقلقشندي ، الذي طبع في بولاق ١٣٣٨هـ = ١٩٢٠م ، لحساب دار الكتب المصرية ، التي لم تكن قد أنشأت مطبعتها ، وحين قامت المطبعة في الثلاثينات كان الشيخ محمد عبدالرسول هذا من عُمُدها القوية .

وقد كان هؤلاء المصححون العظام يقومون بعملهم في أمانة تامة وحرص شديد ، فندر في مطبوعات بولاق التصحيف والتحريف ، وجاءت النصوص كاملة موفورة ، لا سقط فيها ولا خلل .

وقد طارت شهرة عظيمة لهذه الطائفة من المصححين العلماء ، واقتدى الناس بهم في فن التصحيح والمراجعة . يقول محمد ذهني مصحح طبعة صحيح البخاري المطبوعة في استانبول سنة ١٣١٥هـ = ١٨٩٧م : «وشكر الله مساعي أفاضل العلماء من مصححي المطابع المصرية الأماثل الكرماء ، فإن فضيلة التقدم لهم ، وغيرهم حاذ في هذا الأمر حذوهم» .

ومن وراء هذه الطائفة الجليلة من المصححين الأثبات ، لم يكن كبار أهل العلم بمعزل عن مطبعة بولاق ، فهم في موضع المشورة والفُتيا ، يقول الشيخ نصر العادلي مصحح طبعة بولاق من تفسير الطبري ، في آخر الكتاب : «وما لم نقف عليه في مظانّه ولم نعثر به في أمكنته ، شاركنا فيه العلماء والأدباء المشتغلين بفنون اللغة العربية والأحاديث النبوية ، وكنا نستفيد منهم ، ونهتدي بنور أذهانهم وثاقب فكرهم ، وممن كانت لهم اليد الطولى والأثر الحميد الذي لا ينكر ، فضيلة المغفور له الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية ، وفضيلة الأستاذ الأكبر وعلم اللغة العربية الأشهر الشيخ حمزة فتح الله ،

وحضرة من هو بكل ثناء حري وكيل مدرسة القضاء الشرعي الأستاذ الشيخ محمد الخضري ، وحضرة الأستاذ الشيخ محمد عبدالمطلب المدرس بمدرسة القضاء أيضًا ، وكثيرٌ غيرهم ، أكثر الله أمثالهم ، ويلغهم في الدارين آمالهم»[١٧] .

وهكذا تبلغ الثقة مبلغها حين يرجع في تحرير الكتاب وتصحيحه إلى ذلك النفر الكريم من أهل العلم والبيان .

ثامنًا : مما يصل بجمال الإخراج والتأنق في الطباعة : أن بعض مطبوعات بولاق في ذلك الزمان المبكر لم تجمع بالحرف الطباعي المفرد الذي كان يجمع من الصندوق والذي كانت تجمع به الكتب كلها ، وإنما جُمعت بالكلمات (الإكلشيهات) بالخط الفارسي الجميل ، والمعروف أن (الإكلشيهات) إنما تجمع بها عناوين الكتب أو أبواب الكتاب وفصوله فقط ، أما أن تجمع مادة الكتاب كله بهذا (الإكلشيه الفارسي الجميل) فهذا هو موضع العجب والاستحسان ، ومن المؤكد أن ذلك قد أخذ وقتًا في (المَسْبَك) . وقد رأيت من ذلك ديوانين من الشعر ، طبعا ببولاق في ذلك الزمان المتقدم الأول : ديوان ابن عربي . تصحيح محمد بن إسماعيل شهاب الدين ، آخر جمادى الأولى سنة ١٢٧١هـ = فبراير ١٨٥٥م ، وكتب عنوان الديوان على الغلاف هكذا : «هذا الديوان الأكبر للشيخ محيي الدين بن عربي الحاتمي الأندلسي الطائي» ، ٤٧٧ صفحة من القطع الكبير .

والثاني : ديوان مجنون ليلى . تصحيح إبراهيم عبدالغفار الدسوقي . آخر الجُماديين ١٢٩٤هـ = يوليه ١٨٧٧م ، وأثبت عنوانه هكذا : «هذا ديوان العاشق المحب الوامق قيس بن الملوح الشهير بمجنون ليلى

العامرية . جمع الإمام أبي بكر الوالبي رحمه الله» . ٧٣ صفحة من القطع الوسط .

تاسعًا : يؤخذ على هذه المرحلة من النشر أن العلماء الذين تولوا تصحيح الكتب والإشراف على إخراجها لم يُعنوا بذكر الأصول المخطوطة التي اعتمدوا عليها في إخراج الكتب ، فنحن لا نعرف تاريخًا أو وصفًا كاملاً للنسخ المخطوطة التي طبع عليها كثير من أمهات كتب التراث في ذلك الزمان ، وقد شذ عن ذلك ما تراه في بعض المطبوعات ، من وصف موجز للأصول الخطية ، ومن ذلك ما جاء في آخر لسان العرب المطبوع سنة ١٣٠٠ - ١٣٠٨هـ = ١٨٨٢ - ١٨٩٠م حيث ذكر مصححه الشيخ محمد الحسيني أن هذه الطبعة اعتمدت على نسخة ابن منظور نفسه(١٨) ، كانت في وقف السلطان الأشرف برسباي(١٩) ، ونسخة أخرى أحضرت من مكتبة راغب باشا باستانبول .

ومنه ما ذكره الشيخ إبراهيم عبدالغفار الدسوقي مصحح ديوان مجنون ليلى ، الذي سبق حديثه في الفقرة السابقة ، فقد ذكر أن ديوان المجنون طبع عن نسخة مخطوطة تاريخها سنة ٧٩٢هـ ، من خزانة السيد عبدالخالق السادات .

ومن ذلك أيضًا ما جاء في صدر الأمّ للشافعي ، الذي صدر الجزء الأول منه ١٣٢١هـ = ١٩٠٣م ، وصدر السابع ١٣٢٥هـ = ١٩٠٧م ، «اعلم أنه قد حصلت لنا عدّة نسخ من الأم ، ومنها بعض أجزاء عتيقة بخط ابن النقيب ، منقولة من نسخة بخط سراج الدين البلقيني ، تفردت بزيادات مترجمة معزوة لبعض مؤلفات الشافعي رحمه الله ، مثل كتاب اختلاف الحديث ، وكتاب اختلاف مالك

والشافعي ونحوهما ، وربما كان في هذه الزيادات تكرار لبعض ما اتفقت عليه النسخ ، ولكنها مع ذلك لا تخلو عن فوائد من فروع وتوجيهات للإمام رحمه الله ، ولهذا أثبتنا تلك الزيادات بهامش هذا المطبوع إن اتسع لذلك ، وإلا جعلناه في الصلب بعد عبارة الأم مفصولاً بينها بجدول . والله المستعان»[٢٠] .

ومنه أيضًا ما جاء في ختام الطبعة المذكورة - في الفقرة السابعة - من تفسير الطبري ، من مراجعة التفسير «على ما في الكتبخانة الخديوية من الأصول المتعددة ، وما سقط منها أرسل إلى المكتبة الحميدية بالمدينة المنورة فقوبل هناك ، مع التدقيق والعناية» .

ومثل هذه الإشارات العامة المطلقة لا تغني شيئًا ، إذ إنها قد سكتت عن وصف النسخ المخطوطة وصفًا علميًا ، من حيث تاريخ النسخ ومكانه ، ونوع الخط والحبر ، وعدد الأوراق والأسطر ، وما قد يكون على المخطوطة من إجازات وسماعات وتملكات وبلاغات ، إلى سائر هذه الأمور التي استقر عليها علم المخطوطات والتوثيق .

على أن هذه المطبوعات التي أشير فيها إلى الأصول الخطية على وجه الإيجاز والاختصار ، تعد أحسن حالاً من تلك المطبوعات التي أبهم أمرها تمامًا ، فلم نعرف عن أي أصول خطية كان الطبع ، بل إن بعض الطابعين كان يتخلص من المخطوط نفسه بعد الفراغ من طبعه ؛ فإن العمال أحيانًا كانوا يجمعون من الكتاب المخطوط نفسه ، فيستهلك في أثناء الطبع[٢١] ، ولقد رأيت مرة عند بعض الوراقين - باعة الكتب القديمة - أوراقًا من كتاب مخطوط ، ورأيت آثار يد وأحبار عليها ، في غير مكان منها ، فتعجبت من ذلك ، ولكن عجبي زال حين أخبرني ذلك الوراق أن هذه آثار يد الجمّيع - يعني عامل

المطبعة - الذي كان يجمع من المخطوط مباشرة .

ومع كل هذا الذي قيل فقد رأينا في ذلك الزمان بواكير التحقيق العلمي وإرهاصاته ، من ذكر رموز النسخ وفروق قراءتها ، ثم الإشارة إلى الروايات المختلفة ، وذكر ذلك كله بالهامش ، وأعلى مثال ونموذج لذلك طبعة صحيح البخاري المتقنة التي أشرت إليها في الفقرة السابعة ، فقد اعتمدت هذه الطبعة على نسخة الحافظ شرف الدين أبي الحسين علي بن محمد بن أحمد اليونيني[٢٢] البعلي الحنبلي المولد سنة ٦٢١هـ ، والمتوفى مقتولاً شهيداً سنة ٧٠١هـ ، وقد حرر اليونيني في هذه النسخة روايات البخاري وذكر فروقها ، ثم صنع للرواة رموزاً ، وبذلك يكون قد سبق المحققين في هذا الزمان الذين اصطلحوا على رموز نسخ المخطوطات . وقد حافظت طبعة بولاق على رموز اليونيني وفروق رواياته ووضعت ذلك كله على حاشية الطبعة ، وجاء في صدر الجزء الأول المطبوع من صحيح البخاري : وجدت في النسخ الصحيحة المعتمدة التي صحح عليها هذا المطبوع رموز لأسماء الرواة ، منها : هـ - لأبي ذر الهروي - ص للأصيلي - س لابن عساكر - ط لأبي الوقت - هـ للكشميهني - حـ للحموي - سـ للمستملي - ك لكريمة المروزية . . . إلى رموز أخرى للمجاهيل من الرواة وإلى النسخ الأخرى ، وعلامات التضبيب (الشطب) إلى غير ذلك .

ومن وراء ذلك فإن هذه الطبعة البولاقية من صحيح البخاري تعد مثالاً لجمال الطبع ونصاعة الحرف وكمال الشكل وصحة الضبط ، مما يعجب المرءُ منه الآن ، فإن ذلك أمر قد تم منذ مائة سنة وسنة ، قبل ذلك التقدم الكبير في وسائل الطباعة ، من الجمع الآلي

والكمبيوتر وكل منجزات العصر .

ومن بواكير التحقيق العلمي في مطبوعات تلك المرحلة أيضًا : ما نراه في حواشي لسان العرب - المذكور في الفقرة السابعة - من ذكر روايات الأصول التي اعتمد عليها صاحب اللسان ، مثل الصحاح للجوهري ، والتهذيب للأزهري ، والمحكم لابن سيده ، والنهاية لابن الأثير .

ثم كان من مظاهر الدقة وأمانة الأداء ما كان يكتبه المصححون على هوامش المطبوعات ، عندما يشكل عليهم شيء ولا يطمئنون إليه ، مثل : «هكذا بالأصل وحرر» أو : «فتنبه» أو : «لا يستقيم هذا مع قوله كذا» . . . وهذه ونحوها إرهاصات علم التحقيق .

عاشراً : مما يؤخذ على هذه المرحلة من الطبع أيضًا أن القائمين على طبع كتب التراث - بوجه الخصوص - لم يعنوا بتلك الفهارس الفنية الكاشفة عن كنوز الكتاب المطبوع ، واكتفوا - في غالب الأمر - بذكر فهارس موجزة لمباحث الكتاب وأبوابه وفصوله ، غير أنه قد ظهرت في تلك الأيام بوادر لتلك الفهارس الفنية ، ومن ذلك ما تراه في طبعة مقامات الحريري ، من فهرس شامل للكلمات اللغوية التي تضمنتها المقامات ، وهذه النشرة صدرت عن مطبعة بولاق سنة ١٣١٧هـ = ١٨٩٩م .

حادي عشر : إذا كانت مطبعة بولاق حكومية ، أنشأها محمد علي باشا ، ثم رعاها من بعده أبناؤه وحفدته - فليس كل ما طبع فيها على نفقة الدولة والحكومة ، فقد رأينا جهود الأفراد والأعيان والجماعات وأموالهم وراء كثير من مطبوعات تلك المطبعة العتيقة .

وهؤلاء الأفراد إما أصحاب مكتبات وناشرو كتب ، يمولون طبع الكتاب من نفقتهم الخاصة ، ثم يكون لهم عائد من الربح ، على حسب مواضعات ذلك الزمان ، وإما أهل علم محبون له ، راغبون في نشره ، وهناك طائفة ثالثة : أهل خير وبر ، أفاء الله عليهم المال ، فأنفقوه في وجوه البر والإحسان ، ثم جعلوا منه نصيبًا مفروضًا لنشر العلم وإذاعته ، ومعظم هؤلاء من التجار

فمن الطائفة الأولى السيد عمر حسين الخشاب ، صاحب المطبعة الخيرية - من المطابع الأهلية الشهيرة ، وسيأتي حديثها - فقد أنفق السيد عمر هذا وابنه السيد محمد عمر ، على طبع تفسير الطبري ، الذي أشرت إليه من قبل في الفقرة السابعة ، ونبه على ذلك مصححه الشيخ نصر العادلي ، في خاتمة الجزء المتم الثلاثين .

ومنهم مصطفى الحلبي صاحب المطبعة الميمنية - وسيأتي الحديث عنها - فقد أنفق على طبع الكشاف للزمخشري المطبوع ببولاق سنة ١٣١٨هـ = ١٩٠٠م .

ومنهم فرج الله زكي الكردي صاحب مطبعة كردستان العلمية ، وسيأتي حديثها - فقد أنفق بالاشتراك مع مصطفى أفندي المكاوي المحامي بمدينة الفيوم ، وعبدالحميد أفندي الصمداني ، على طبع شروح التلخيص في البلاغة ، وسبق هذا في الفقرة السادسة .

وأما الطائفة الثانية - طائفة أهل العلم الذين قاموا على نشر الكتب ، وصرفوا أموالهم في طبعها وإذاعتها - فمنهم العلامة صاحب التصانيف الكثيرة «الدين الخالص» ، و«أبجد العلوم» ، و«التاج المكلل» ، وغيرها - وأحد رجال النهضة الإسلامية المجددين :

أبو الطيب صديق[٢٣] بن حسن بن علي بن لطف الله الحسيني القنوجي البخاري، المولود في قنوج[٢٤]، من بلاد الهند سنة ١٢٤٨هـ = ١٨٣٢م، والمتوفى سنة ١٣٠٧هـ = ١٨٨٩م، كان مع اشتغاله بالعلم والتصنيف ميسوراً صاحب ثروة، فقد تزوج بملكة بهوبال، ولقب : نواب عالي الجاه أمير الملك بهادر، يقول في ترجمته لنفسه، في كتاب أبجد العلوم : «وتمول وتولد واستوزر، وناب وألف وصنف، وعاد إلى العمران من بعد خراب، وكان فضل الله عليه عظيمًا جزيلاً . . . . ثم خوله سبحانه من المال الكثير، والحكم الكبير، والآل السعداء، والأخلاف الصلحاء، والنسب الحميد، والحسب المزيد، ما يقصر عن كشفه لسان اليراع»[٢٥] .

وقد كان من فضل الله وإنعامه على هذا الرجل أن وفقه لأن يطبع على ذمته ونفقته أعلى كتاب في شروح الحديث، وهو فتح الباري بشرح صحيح البخاري، للحافظ ابن حجر العسقلاني المصري الشافعي، وهو الشرح الذي قال فيه الإمام الشوكاني، وقد سئل : أما تشرح الجامع الصحيح للبخاري، كما شرحه الآخرون؟، فقال : «لا هجرة بعد الفتح»[٢٦] .

وقد جاءت هذه الطبعة في ثلاثة عشر مجلداً ضخامًا، إضافة إلى المقدمة التي جاءت في جزء مستقل، وهي المسماة : هدي الساري لفتح الباري، وقد قام على تصحيحها : المصحح العالم المعروف محمد الحسيني . وكان الفراغ من طبع هذا الأثر الجليل في شهر رمضان سنة ١٣٠١هـ = يونية ١٨٨٣م .

ومن هذه الطائفة أيضًا أحمد بك أحمد الحسيني الشافعي

المحامي ، المولود بالقاهرة سنة ١٢٧١هـ = ١٨٥٤م ، والمتوفى بها سنة ١٣٣٢هـ = ١٩١٤م . اشتغل بالمحاماة ونبغ فيها ، ثم انقطع للتأليف ، فكانت له رسائل ، معظمها في الفقه الشافعي[٢٧] .

أنفق هذا الرجل السري النبيل على طبع كتاب الأم ، للإمام محمد ابن إدريس الشافعي ، وجاء في سبعة أجزاء ، فرغ من طبع الجزء الأول سنة ١٣٢١هـ = ١٩٠٣م ، والسابع سنة ١٣٢٥هـ = ١٩٠٧م ، والكتاب بتصحيح الشيخ نصر بن محمد العادلي ، والشيخ محمد ابن محمد الحسيني .

وطبع بهامشه ثلاثة كتب :

١ - مختصر المزني ، من الجزء الأول إلى الخامس .

٢ - مسند الشافعي ، بهامش الجزء السادس .

٣ - اختلاف الحديث للشافعي ، بهامش الجزء السابع .

وقد كتب على صدر الجزء الأول من الكتاب : «طبع هذا الكتاب على نفقة حضرة العالم الفاضل الحسيب النسيب صاحب العزة السيد أحمد بك الحسيني المحامي الشهير - تنبيه : لا يجوز لأحد أن يطبع كتاب الأم من هذه النسخة ، وكل من طبعها يكون مكلفًا بإبراز أصل قديم يثبت أنه طبع منه ، وإلا يكون مسؤولا عن التعويض قانونًا . أحمد الحسيني» . وانظر ما سبق من كلام عن كتاب الأم ، في الفقرة التاسعة .

هذا وقد سمعت من مشايخنا ، من أهل العلم وعلماء المخطوطات الأستاذ السيد أحمد صقر ، والشيخ عبدالغني عبدالخالق ، والأستاذ فؤاد سيد ، والأستاذ محمد رشاد عبدالمطلب - رحمهم الله أجمعين

- سمعت منهم غير مرة أن السيد أحمد الحسيني هذا باع «عزبة» من أملاكه للإنفاق على طبع كتاب الأم ، والعزبة - بكسر العين المهملة وسكون الزاي - في اصطلاح المصريين المعاصرين تعني مساحة[٢٨] شاسعة من الأراضي الزراعية ، لا تقل عن ثلاثين فدانًا[٢٩] .

ومن أهل الفضل أيضًا محمد زهران ، الذي تكفل بنفقات طبع كتاب «الدر المنثور في طبقات ربات الخدور» ، من تأليف زينب بنت علي بن حسين بن فواز العاملي ، السورية مولدًا وموطنًا ، المصرية منشأ ومسكنًا . وقد طبع هذا الكتاب بمطبعة بولاق ، أواخر شهر رمضان ١٣١٣هـ = مارس ١٨٩٦م ، وقام على تصحيحه الشيخ محمد الحسيني ، وقد قدم محمد زهران للكتاب ، فقال بعد الثناء على مؤلفته : «أحببت أن أشاركها في ذلك الفضل فالتزمت بطبعه على نفقتي ، قيامًا بواجب الإنسانية ، ومعاونة لحضرتها على البر ، عملاً بقوله صلى الله عليه وسلم : «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا» .

ومنهم الخواجا رفائيل عبيد ، الذي أنفق على طبع «خطط المقريزي» المطبوع ببولاق سنة ١٢٧٠هـ = ١٨٥٣م ، كما صرح بذلك مصححه الشيخ عبدالرحمن قطة العدوي .

ومنهم محمد باعيسى ، رئيس تجار الحضارمة بمصر ، أنفق على طبع كتاب «الغنية لطالبي طريق الحق» . للشيخ عبدالقادر الجيلاني . بولاق ١٢٨٨هـ = ١٨٧١م ، وعلى نفقته أيضًا طبع ببولاق في السنة نفسها : «الكنز المدفون والفلك المشحون» ، المنسوب للسيوطي .

ومنهم محمد حسن عيد التاجر بمصر ، الذي أنفق على تلك الطبعة العظيمة من صحيح البخاري ، التي أشرت إليها من قبل في الفقرتين السابعة والتاسعة .

***

ولم يقف الأفراد وحدهم لطبع الكتب على نفقتهم ، فقد رأينا في ذلك الزمان قيام جماعات من أهل العلم ومحبيه ، لنشر الكتب الموسوعية ، وفي نطاق مطبعة بولاق ، وفي حدود القرن التاسع عشر جاء عملان كبيران : هما «خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب» ، لعبد القادر بن عمر البغدادي ، و«المخصص في اللغة» ، لأبي الحسن علي بن إسماعيل الأندلسي المعروف بابن سيده .

أما «خزانة الأدب» فقد تم طبعه بمطبعة بولاق في منتصف جمادى الآخرة سنة ١٢٩٩هـ = مايو ١٨٨٢م ، وجاء في أربعة أجزاء من القطع الكبير ، وبهامشه طبع كتاب «المقاصد النحوية في شرح شواهد شروح الألفية» ، وهو المعروف بشرح الشواهد الكبرى ، لبدر الدين العيني ، وقد قام بالإنفاق على طبع هذا الكتاب الجليل جماعةٌ من محبي العلم ، من أهل مكة المكرمة[٣٠] .

وهذه أسماؤهم ، كما ذكرها مصحح الطبعة الشيخ محمد قاسم ، قال رحمه الله في ختام الجزء الرابع : «هذا وكان حسن طبعه وزهر ثمر طلعه على ذمة عصابة أجلّة نبلاء ، لهم في نشر العلوم والمعارف اليد البيضاء ، فاستحقوا بذلك الثناء الجميل ، وهاك مقادير حصصهم على هذا التفصيل : فقيراط ونصف لتاج المفتين ، حضرة العلامة الشيخ عبدالرحمن سراج ، مفتي بلد الله الأمين ، وثلاثة قراريط لحضرة الفاضل الشيخ عبدالرحمن الشيبي ، عمدة الأماثل ، وقيراط ونصف للسامي الماجد حضرة الشيخ أحمد المشاط ، عين الأماجد ، وثلاثة قراريط لذي القدر السني حضرة الحاج عبدالواحد الميمني ، وثلاثة قراريط لذي المورد الهني حضرة الحاج حسين

عبدالله الميمني ، وستة قراريط لذي المشرب الأدبي حضرة الفاضل الشيخ عبدالله بن الشيخ محمد الباز الكتبي ، وستة قراريط للمستعين بربه الغني حضرة الحاج أبي طالب الميمني»

وأما «المخصص» فقد بدأ طبعه بمطبعة بولاق سنة ١٣١٦هـ = ١٨٩٨م ، وتم في سنة ١٣٢١هـ = ١٩٠٣م ، وقام على تصحيحه العلامة المعروف محمد محمود بن التلاميد التركزي الشنقيطي ، والشيخ عبدالغني محمود[٣١] . وجاء في سبعة عشر جزءاً .

وقد نهضت لطبعه جماعة من علية القوم ، يقول عنهم مصحح الكتاب الشيخ طه محمود ، في خاتمة الطبع : «ومن أجل ذلك قام بطبعه ، لتيسير تناوله وتعميم نفعه جمعية خيرية ، من فضلاء المصريين وسراتهم ذوي الهمم العلية ، وفي مقدمتهم حضرة العلامة المحقق صاحب الفضيلة الشيخ محمد عبده ، مفتي الديار المصرية ، وحضرة صاحب السعادة حسن باشا عاصم ، رئيس ديوان خديوي ، وحضرة الوجيه الفاضل صاحب العزة عبدالخالق بك ثروت ، أحد أعضاء لجنة المراقبة القضائية بالحقانية ، وحضرة السري الأمثل صاحب العزة محمد بك النجاري ، أحد قضاة المحكمة المختلطة بالإسكندرية ، وهو حفظه الله كان ذا السبق والنهضة الأولى في تحقيق هذا المشروع الجليل ، فإنه بذل همته في استكتاب هذا الكتاب من نسخة عتيقة مغربية ، رأيتها بالكتبخانة الأميرية المصرية . . . .» .

ولنقف عند رجلين من رجال هذه اللجنة ؛ عبدالخالق ثروت باشا ، ومحمد النجاري . أما عبدالخالق ثروت فكان من رجال السياسة بمصر ، ومن رجال القانون ، عين وزيراً للحقانية (العدل) ، ثم وزيراً للداخلية ، فرئيساً للوزراء سنة ١٩٢٢م ، ولد سنة ١٢٩٠هـ = ١٨٧٣م ، وتوفي فجأة بباريس سنة ١٣٤٧هـ = ١٩٢٨م ، ونقل إلى القاهرة فدفن بها .

يقول الدكتور طه حسين في وصفه : «كان عظيم مصر ، رجاحة حلم ، ونفاذ بصيرة ، وذكاء فؤاد ، وسعة حيلة ، وتفوقًا في السياسة ، فقد اجتمعت له هذه الخلال وخلال أخرى»[٣٢] .

ولم تكن مشاركته في طبع «المخصص» هي الوحيدة في مجال نشر العلم وإذاعته ، فله ثانية تحسب في موازينه ، وذلك أنه هو الذي أشار على دار الكتب المصرية بطبع كتاب «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة» ، لابن تغري بردي ، جاء في مقدمة الكتاب الذي طبعته دار الكتب المصرية : «ولما كان اهتمام علماء أوربا بنشر هذا الكتاب وطبعه بلغ شأنًا كبيرًا ؛ لأنه خاص بتاريخ مصر ، وهي أكبر دولة شرقية إسلامية ، لها من الحضارة والمدنية ما لم يبلغه سواها من الأمم الشرقية الأخرى ، كان جديرًا بحكومة الدولة المصرية أن تقوم بطبع هذا الكتاب على نفقتها ، ولذا أشار رئيس الحكومة وقتئذ ساكن الجنان المغفور له عبدالخالق ثروت باشا على دار الكتب المصرية بطبع هذا الكتاب القيم ضمن مطبوعاتها ، فلبت طلبه وباشرت طبعه»[٣٣] .

وفي قلب القاهرة شارع كبير باسمه .

وأما محمد النجاري فهو محمد بن مصطفى بن محمد الشابوري نسبته إلى (كوم النجار) بمحافظة الغربية بمصر ، تعلم بالقاهرة وفرنسا . كان قاضيًا بمحكمة الإسكندرية المختلطة ، له قاموس فرنساوي عربي مطبوع ، في أربعة أجزاء ، ضمنه كثيرًا من المصطلحات العلمية والسياسية والطبية ، طبع بمطبعة مزراحي بالإسكندرية ١٩٠٣م . قال يوسف إليان سركيس : «وبلغني أن له معجمًا عربيًا يحتوي خلاصة المعاجم الكبرى ، لم يطبع»[٣٤] .

وإنما وقفت عند هذين العلمين ؛ لأنهما من رجال الحقوق ، ولأنهما من سراة القوم ووجهاء المجتمع في ذلك الزمان ؛ رئيس وزراء وقاضٍ كبير يسعيان السعي

الحثيث لنشر كتب العربية ومصادرها الكبرى ، وفي هذا دلالة على اختلاف الأزمان وتبدل الأحوال ، فإن الاشتغال بالتراث وقضاياه في أيامنا هذه يكاد يكون مقصوراً على طائفة من الناس ، معروفة بالاسم والوصف ، في ركن قصي من الخريطة الثقافية ، مشتغلة بنبش القبور ، مهتمة بالرمائم وأكفان الموتى . هكذا يقولون .

***

ومهما يكن من شيء فقد شاعت ظاهرة طبع الكتب على نفقة محبي العلم ، بعد أن عرفت في مطبعة بولاق ، وإن كان ذلك قد جاء في مطالع القرن العشرين ، ولكن هذه من تلك .

فمن ذلك كتاب «الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد» للأدفوي ، فقد طبع على نفقة عبدالرحمن علي قريط ، من قبيلة آل علي الشرقية من بلدة «أبو كبير» من أعمال محافظة الشرقية بمصر ، طبع الكتاب بمطبعة الجمالية سنة ١٣٣٢هـ = ١٩١٤م .

ومن ذلك أيضًا كتاب الأغاني - طبعة دار الكتب المصرية - الذي صدر الجزء الأول منه سنة ١٣٤٦هـ = ١٩٢٧م ، على نفقة السيد علي راتب[٣٥] ، فقد كتب رسالة إلى مدير دار الكتب المصرية ، بتاريخ يوم الثلاثاء ٥ من شوال سنة ١٣٤٣هـ ، يعرض فيها رغبته في الإنفاق على طبع كتاب الأغاني ، ويقول في ختام رسالته : «وقد وقع اختياري للبدء في تحقيق تلك الأمنية - أمنية إحياء اللغة العربية الشريفة - على كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ، فإن أحاديثه شيقة وأسلوبه السهل الممتنع ، فالمتأدب يقرؤه للدرس ، والمتعلل يقرؤه فيلتذ وتصح لغته ، فإن اقتنعتم برأيي الذي أدليت ونفعه الذي أملت أمرتم من عندكم من المصححين بمراجعته وتصحيحه وضبطه وتفسير مغلقه كاملاً كما وضعه مصنفه ، من غير حذف ولا إبدال ، وأنا المتكفل بنفقة الطبع»[٣٦] .

أنفق السيد علي راتب أيضًا على طبع «كتاب الأفعال» لابن القوطية، بمكتبة الخانجي ١٣٧١هـ = ١٩٥٢م، وقد نوه بذلك مصحح الكتاب الأستاذ علي فودة.

ومن أمثلة طبع الكتب على نفقة محبي العلم أيضًا كتاب «الأمالي» لأبي علي القالي، الذي نهض للإنفاق على طبعه السيد إسماعيل يوسف بن صالح بن دياب التونسي، وقد أنفق هذا السري النبيل على طبع الكتاب مرتين؛ المرة الأولى بمطبعة بولاق سنة ١٣٢٢هـ = ١٩٠٤م، والمرة الثانية بمطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٣٤٤هـ = ١٩٢٦م. يقول محمد عبدالجواد الأصمعي في مقدمة طبعة دار الكتب هذه: «ولا يسعنا في الختام إلا أن نسدي الشكر الجزيل والثناء العاطر لحضرة المحترم السيد إسماعيل يوسف، ناشر كتاب الأمالي؛ لأنه قام بخدمة أدبية كبرى، بإعادة طبعه في المطبعة الأميرية بدار الكتب المصرية، الشهيرة بجمال الحروف وجودة الطبع ودقة التصحيح. ومع ما بذله حضرة الناشر المحترم، من الجهود العظيمة في نشر هذا الكتاب الجليل، بإدخال هذه التحسينات العظيمة عليه كان غير مبال بما كابده من النفقات الكبيرة التي لا تنبسط بها أيدي الكثيرين من أغنيائنا، في مثل إحياء هذه الكتب الأدبية الكثيرة الفائدة، الجمة النفع، أكثر الله من أمثاله العاملين»(٣٧).

وقد أطلت بنقل هذه المقدمات؛ لأنها تمثل تاريخًا مضيئًا لهؤلاء الرجال العظام، ينبغي أن يسجل وينوه به، لعل فيه حافزًا وعونًا لأثرياء هذا الزمان. وقد أردت أن أريك أيها القارئ الكريم كيف جمع حب الكتاب ونشره بين الهندي والحجازي، والمصري والتونسي، وهو تجمع عربي إسلامي شامخ، قبل أن تكون للعرب جامعة، وقبل أن يوجد للإسلام مؤتمر.

***

وبعد فهذه مرحلة مطبعة بولاق في طبع الكتاب العربي، وفي نشر العلم وإذاعته،

خلال القرن التاسع عشر ، وقد اندفعت مطبوعاتها في ذلك الوقت : غزارة وتنوعًا ، وشمل نشاطها ترجمة الكتب إلى العربية ، ونشر عيون التراث .

المرحلة الثانية :

مطابع إدارات الجيش والمدارس الحكومية

بدأت هذه المطابع نشاطها بعد قيام مطبعة بولاق بنحو عشرة أعوام ، وقد دارت معظم مطبوعاتها حول الشؤون العسكرية والطبية والرياضية ، والجغرافية ، مع الإلمام بشيء من العلوم النظرية . ومن أشهر هذه المطابع :

(١) مطبعة ديوان الجهادية (الحربية) ، ومن مطبوعاتها :

- «تنبيه فيما يخص الطاعون للأطباء ورؤساء المارستانات» . تأليف كلوت بك ١٨٣٥م(٣٨) .
- «القوانين الداخلية المتعلقة بمشاة عساكر الجهادية» ١٨٣٥م .

(٢) مطبعة المدفعية - أو مكتب الطوبجية بطرة . ومن مطبوعاتها :

- «الكنز المختار في كشف الأراضي والبحار» - وهو مختصر في الجغرافيا ، على السؤال والجواب . تصحيح رفاعة رافع الطهطاوي . الطبعة الثانية ١٨٣٤م .

وجاء في حاشية معجم المطبوعات العربية ص ٩٤٥ : «طبع في مالطة سنة ١٨٣٣م (١٢٤٩هـ) كتاب موسوم بالكنز المختار في اكتشاف الأرض والبحار ، صححه رفاعه بك . وقال بآخر طبعة مصر ما يأتي : «وجاءت هذه الطبعة الثانية بالنسبة للعبارة أظرف من طبعة مالطة وأجمل ، ولكن ينبغي أن نقر بأن الطبعة الأولى بمزية الضبط بالشكل أكمل وأجمل» .

- «كليلة ودمنة ١٨٣٥»(٣٩) .

(٣) مطبعة الحجر بالقلعة . ومن مطبوعاتها :

- «جامع المبادئ والغايات في أخذ المساحات» . ترجمه عن الفرنسية محمود فهمي باشا(٤٠) ١٨٥٨م .

(٤) مطبعة مكتب الحربية السلطانية .ومن مطبوعاتها :

- «مجموع في النحو والصرف» ١٨٦٢م .

(٥) مطبعة المدرسة الطبية بأبي زعبل . طبعت أكثر من كتاب . ومن أشهر مطبوعاتها :

- «العجالة الطبية فيما لابد منه لحكماء الجهادية الذين في الآليات والمارستانات ، والسفن الحربية» . تأليف كلوت بك ، وترجمة أوغسطين السكاكيني(٤١) ، وتصحيح أحمد الرشيدي ومحمد الهراوي ١٨٣٢م .

(٦) مطبعة مدرسة المهندسخانة الخديوية ، ومطبوعاتها كثيرة ، منها :

- «المنحة الزهرية(٤٢) في الأعمال الجبرية» . ترجمه عن الفرنسية محمد حسني ، المعروف بمحمد مصطفى . تصحيح إبراهيم عبدالغفار الدسوقي ١٨٥١م .

- «حسن الصنيعة في علم (أصول) الطبيعة» . ترجمه عن الفرنسية علي عزت بدوي(٤٣) المهندس المصري ١٨٥٢م .

- «الدر المنثور في الظل والمنظور» . ترجمه عن الفرنسية صالح مجدي(٤٤) . مقابلة إبراهيم رمضان(٤٥) ١٨٥٣م .

- «الدرة السنية في الحسابات الهندسية» . ترجمه عن الفرنسية صالح مجدي والسيد عمارة ١٨٥٣م .

- «الروضة السندسية في الحسابات المثلثية». ترجمه صالح مجدي وعطا حسن[٤٦]. صححه إبراهيم عبدالغفار الدسوقي ١٨٥٣م.
- «بغية الطلاب في قطع الأحجار والأخشاب». ترجمه صالح مجدي ١٨٥٤م.
- «مبادئ الهندسة». ترجمة رفاعة رافع الطهطاوي. قابله على أصله برعي أفندي. صححه إبراهيم عبدالغفار الدسوقي ١٨٥٤م.

المرحلة الثالثة المطابع الأهلية

سطع نور مطبعة بولاق وتألق، ثم مد ظلاله على الأفراد والجماعات، فنشط هؤلاء وهؤلاء لطبع الكتاب العربي، مدفوعين بالروح نفسها التي سرت في مطبعة بولاق، من حيث نشر النصوص في كل علم وفن، بالكتب الصغار والأوساط والمطولات: تحقيقًا للتراث، وترجمة لآداب الغرب وعلومه، وتأليفًا من أصحاب القرائح والمواهب، وهي الدعائم الثلاثة التي تقوم عليها نهضات الأمم: نشر التراث، والترجمة، والتأليف.

ولقد انتشرت عشرات المطابع في قلب القاهرة، وبالأخص في تلك المنطقة المتصلة بالأزهر الشريف ودار الكتب المصرية (الكتبخانة الخديوية)، وهو أمر طبيعي أن تنشأ المطابع والمكتبات حول دور العلم والفكر.

وإذا أنت وقفت في ذلك الزمان، في ميدان باب الخلق (أحمد ماهر الآن) حيث تقع دار الكتب المصرية، ونظرت عن يمينك وشمالك، ثم من قدامك ومن وراءك، ثم سرت في هذه الاتجاهات الأربع رأيت أعدادًا كبيرة من المطابع: في الأزبكية والفجالة وباب الشعرية وشارع محمد علي ودرب الجماميز والخليج الناصري (بور سعيد الآن) وشارع حسن أكبر وعابدين وشارع عبدالعزيز ودرب سعادة والحسين والأزهر والموسكي والدراسة والخرنفش والجمالية، ومن دون هذه الشوارع الكبيرة

ومن خلالها انتشرت أيضًا عشرات المطابع في حارات القاهرة المعزية وأزقتها ، مثل حارة الروم والنبوية ودرب الدليل ، تنشر صغار الكتب وكبارها .

وهذه المناطق التي انتشرت فيها تلك المطابع الأهلية - على ما وصفت لك - لا تزيد على عشرة كيلو مترات مربعة ، فمن هذه المناطق المتجاورة المحدودة من قلب القاهرة : شوارع وحارات وأزقة ، مع المنطقة الصغيرة التي تقع فيها مطبعة بولاق على ضفاف النيل : خرجت ثقافة العالم العربي والإسلامي في القرن الماضي . فأي ضوء سطع ، وأي نور أضاء ! .

***

وإذا كانت هذه الندوة تقف بتاريخ الطباعة العربية حتى نهاية القرن التاسع عشر ، فسيكون بحثنا حول تلك المطابع التي نشأت وباشرت نشاطها في ذلك الوقت ، ولما كان من العسير والشاق تحديد بدايات تلك المطابع في ذلك الزمان المحدد ، فلن يكون أمامنا إلا تاريخ الانتهاء من الطبع المذكور في أول الكتاب ، أو في آخره مع اسم المطبعة . وسوف يكون من الأوفق أن نتجاوز عن بضع سنوات من بداية القرن العشرين لكي ندخل بعض المطابع الشهيرة في ذلك الإطار الزمني الذي تدور حوله ندوتنا . فنحن إذا وجدنا كتابًا مطبوعًا في سنة ١٩٠٥م مثلاً ، فلن نستطيع أن نقطع أن هذا أول كتاب تصدره تلك المطبعة ، إلا إذا نص على ذلك .

ويلاحظ أن نهاية القرن التاسع عشر الميلادي تقابل من التاريخ الهجري سنة ١٣١٧هـ ، على ما جاء في كتاب التوفيقات الإلهامية ، لمحمد مختار باشا .

***

وقد تأخر ظهور المطابع الأهلية المصرية شيئًا ما ، فلم تظهر إلا بعد مضي نحو أربعين سنة من إنشاء مطبعة بولاق(٤٧) .

وسوف يقف البحث عند أشهر هذه المطابع ، مع ذكر أشهر مطبوعاتها ، ثم الإشارة

بعد ذلك إلى تلك المطابع الأخرى التي تأتي دونها شهرة وذيوعًا .

فأول هذه المطابع المطبعة الأهلية القبطية ، التي عُرفت فيما بعد باسم مطبعة الوطن . وقد أنشئت سنة ١٨٦٠م ، بعد أن تدرب عمالها في مطبعة بولاق ، بإذن من محمد سعيد باشا خديويَ مصر ، وقد نشرت هذه المطبعة عددًا من كتب التراث ، منها «الأحكام السلطانية» ، للماوردي ١٢٩٨هـ = ١٨٨٠م ، و«قوانين الدواوين» ، لابن مماتي ١٢٩٩هـ = ١٨٨١م ، و«حلبة الكميت» ، للنّواجي ١٢٩٩هـ = ١٨٨١م - وجاء بخاتمة الطبع أن هذا الكتاب هو الثالث من مطبوعات المطبعة - ، و«الذريعة إلى مكارم الشريعة» ، للراغب الأصبهاني ١٢٩٩هـ = ١٨٨١م(٤٨) ، و«رسالة حي ابن يقظان» ١٢٩٩هـ = ١٨٨١م ، و«حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة» ، للسيوطي ١٢٩٩هـ = ١٨٨١م ، و«أدب الكاتب» ، لابن قتيبة ١٣٠٠هـ = ١٨٨٢م و«مطالع البدور في منازل السرور» ، للغزولي ١٣٠٠هـ = ١٨٨٢م ، و«السياسة في علم الفراسة» ، لشمس الدين محمد بن أبي طالب الأنصاري الدمشقي المعروف بشيخ الربوة ١٣٠٠هـ = ١٨٨٢م .

وقد تلت مطبعة الوطن مطبعة وادي النيل ، وقد أنشأها سنة ١٨٦٦م عبدالله أبو السعود أفندي(٤٩) ، وطبع فيها صحيفة وادي النيل ، إلى جانب نشر بعض كتب التراث ، منها : «الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر» ، لعبد اللطيف بن يوسف البغدادي ١٢٨٦هـ = ١٨٦٩م ، و«الروضتين في أخبار الدولتين : النورية والصلاحية» ، لأبي شامة المقدسي ١٢٨٧هـ = ١٨٧٠م ، و«كفاية المتحفظ ونهاية المتلفظ» ، لابن الأجدابي ١٢٨٧هـ = ١٨٧٠م ، و«النعم السوابغ في شرح الكلم النوابغ» للزمخشري ، تأليف سعد الدين التفتازاني ١٢٨٧هـ = ١٨٧٠م ، ورحلة ابن بطوطة المسماة : «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» ١٢٨٨هـ = ١٨٧١م ، و«ذيل فصيح ثعلب» ، لعبداللطيف بن يوسف البغدادي ١٢٨٩هـ = ١٨٧٢م ، و«جواهر الأدب في معرفة كلام العرب» ، للإربلي .

تصحيح الشيخ علي نائل ١٢٩٤هـ = ١٨٧٧م .

ومطبعة وادي النيل هذه غير مطبعة النيل ، فإن هذه كانت تتبع جريدة النيل التي أنشأها حسن باشا حسني [٥٠] ، ومن مطبوعاتها «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» ، لابن تيمية ، بعناية الشيخ فرج الله زكي الكردي - وسيأتي حديثه في مطبعة كردستان - ١٣٢٢هـ = ١٩٠٤م .

ومن أبرز المطابع الأهلية التي سرت فيها روح مطبعة بولاق مطبعة جمعية المعارف ، وتسمى أيضًا : المطبعة الوهبية ، وكانت بباب الشعرية ، وقد عُرفت بالوهبية ، نسبة إلى صاحبها ومنشئها مصطفى وهبي بن محمد [٥١] ، وكان رئيس تصحيح التركية بمطبعة بولاق [٥٢] ، ثم كان يباشر تصحيح بعض مطبوعاته ، مثل «خلاصة الأثر» .

وقد اقترن اسم المطبعة الوهبية باسم جمعية المعارف التي كانت تطبع كتبها التي تختارها في المطبعة المذكورة [٥٣] . وجمعية المعارف هذه أسسها محمد عارف باشا أحد أعضاء مجلس الأحكام بمصر سنة ١٨٦٨م ، وانضم إلى هذه الجمعية كثيرٌ من سراة القوم ومحبي العلم ، وعددهم ٦٦١ عضواً ، ترى أسماءهم بآخر الجزء الأول من كتاب تاج العروس ، للزبيدي ، الذي طبعت منه الجمعية خمسة أجزاء (١٢٨٥ - ١٢٨٧هـ) = ١٨٦٨ - ١٨٧٠م ، ثم توقفت عن إتمام طبعه .

وقد لقيت هذه الجمعية العلمية إقبالاً كبيراً ، واستجابة سريعة من المثقفين وغيرهم - كما يقول شيخنا عبدالسلام هارون [٥٤] رحمه الله - وكان لأعضائها ميزة في أن يحصلوا على الكتب بثمن أقل مما يطلب من غيرهم .

وقد طبعت هذه الجمعية طائفة صالحة من الكتب القيمة في اللغة والتاريخ والأدب ، التي تنسب إليها ، وإلى المطبعة الوهبية ، كما ذكرت من قبل ، من أهمها خمسة الأجزاء من تاج العروس المشار إليها قريبًا ، وكذلك «طراز المجالس» و«شفاء

الغليل» ، كلاهما لشهاب الدين الخفاجي ، وقد ذكرتهما في الحواشي قريبًا . ومنها «درر النحور في مدائح الملك المنصور» - وهي القصائد الأرتقيات - لصفي الدين الحلي ١٢٨٣هـ = ١٨٦٦م ، و«خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر» ، للمحبي .

وفي السنة نفسها طبع «تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس» صلى الله عليه وسلم ، للديار بكري ١٢٨٤هـ = ١٨٦٧م ، و«تاريخ ابن الوردي» ١٢٨٥هـ = ١٨٦٨م ، و«ديوان ابن خفاجة الأندلسي» ١٢٨٦هـ = ١٨٦٩م ، و«عنوان المرقصات والمطربات» ، لابن سعيد المغربي ١٢٨٦هـ = ١٨٦٩م ، وكتاب «الفلاحة اليونانية» ، ترجمة سرجس بن هلبا الرومي ١٢٩٣هـ = ١٨٧٦م ، و«مجموع شعري» ، بعناية أمين عمر زيتونة ، تضمن ديوان النابغة الذبياني ، بشرح البطليوسي ، وديوان عروة بن الورد ، بشرح ابن السكيت ، وديوان حاتم الطائي ، وديوان علقمة الفحل ، وديوان الفرزدق . سنة ١٢٩٣هـ = ١٨٧٦م ، وقد طبع هذا المجموع بعنوان «خمسة دواوين العرب» ويحال عليه في المراجع بهذا العنوان . و«الذخائر والأعلاق في آداب النفوس ومكارم الأخلاق» ، لسلام بن عبدالله بن سلام الباهلي الأشبيلي(٥٥) ١٢٩٨هـ = ١٨٨٠م ، و«أساس البلاغة» ، للزمخشري(٥٦) ١٢٩٩هـ = ١٨٨٢م ، و«عيون الأنباء في طبقات الأطباء» ، لابن أبي أصيبعة ١٢٩٩هـ = ١٨٨٢م ، و«ثمرات الأوراق» ، لابن حجة الحموي ١٣٠٠هـ = ١٨٨٢م ، و«أسد الغابة في معرفة الصحابة» ، لعز الدين بن الأثير ١٣٠٦هـ = ١٨٨٨م ، و«محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء» ، للراغب الأصبهاني ١٣١٠هـ = ١٨٩٢م(٥٧) .

هذا إلى جانب مطبوعات أخرى طبعتها جمعية المعارف هذه ، تراها بآخر الجزء الأول من تاج العروس ، منها «الصحاح» ، للجوهري ، و«المثل السائر في أدب

الكاتب والشاعر» ، لضياء الدين بن الأثير ، و«ألف باء» للبلوي ، و«شرح القسطلاني على صحيح البخاري» ، و«المزهر» ، للسيوطي ، و«التعريفات» ، للسيد الشريف الجرجاني .

ومن أندر ما طبعته جمعية المعارف كتاب «الفتح الوهبي على تاريخ أبي نصر العتبي» وهو – كما يقول شيخنا عبدالسلام هارون[٥٨] رحمه الله – من أعجب كتب التاريخ ؛ إذ هو شرح لكتاب تاريخي ، ألفه أبو نصر العتبي[٥٩] ؛ ليسرد فيه وقائع يمين الدولة محمود بن سبكتكين الغزنوي ، فاتح الهند ، المتوفى سنة ٤٢١هـ .

وهذا الكتاب ألفه أبو نصر بأسلوب أدبي فني ، وسماه «اليميني» ، نسبة إلى يمين الدولة ، هذا . وقد تتابع على هذا الكتاب كثير من الشراح ، كان أبرزهم وأشهرهم أحمد بن علي المنيني – نسبة إلى منين من قرى دمشق – المتوفى سنة ١١٧٢هـ[٦٠] ، وسمى شرحه : «الفتح الوهبي على تاريخ أبي نصر العتبي» . طبع سنة ١٢٨٦هـ = ١٨٦٩م .

***

ومن الجمعيات التي قامت على إحياء التراث في أواخر القرن الماضي – موضوع الندوة – شركة طبع الكتب العربية ، وقد ظهرت سنة ١٨٩٨م – أي بعد تأسيس جمعية المعارف بثلاثين سنة – ومن أوائل مطبوعاتها «الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية» ، لابن الطقطقي . طبع بمطبعة الموسوعات ١٣١٧هـ = ١٨٩٩م ، ثم طبعت بعد ذلك «الإحاطة في أخبار غرناطة» ، للسان الدين بن الخطيب ١٣١٩هـ = ١٩٠١م ، و«فتوح البلدان» ، للبلاذري ١٣١٩هـ = ١٩٠١م ، بمطبعة الموسوعات ، و«قاموس الأمكنة والبقاع التي يرد ذكرها في كتب الفتوح»[٦١] ، لعلي بهجت[٦٢] .

ومن المطابع الأهلية الشهيرة في ذلك الزمان:

المطبعة الميمنية ، بحي الكحكيين ، المتفرع من شارع الغورية ، بالقرب من الجامع الأزهر . أسسها مصطفى البابي الحلبي ، وأخواه بكري وعيسى ، سنة ١٢٧٦هـ = ١٨٥٩م .

وتمتاز هذه المطبعة من سائر المطابع الأهلية ، بعنايتها الفائقة بطبع الموسوعات ، أو الكتب ذات الأجزاء الكبار ، ومن ذلك «مسند الإمام أحمد بن حنبل» ، وبهامشه كتاب «منتخب كنز العمال في سنن الأقول والأفعال» ، لعلاء الدين المتقي الهندي ، طبع في ستة أجزاء من القطع الكبير ، سنة ١٣١٣هـ = ١٨٩٥م ، و«إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين» ، للمرتضى الزبيدي ، صاحب تاج العروس ، عشرة أجزاء من القطع الكبير ١٣١١هـ = ١٨٩٣م ، و«الدر المنثور في التفسير بالمأثور» ، للسيوطي ، أربعة أجزاء ضخام ١٣١٤هـ = ١٨٩٦م ، و«تفسير الطبري» ، وبهامشه تفسير النيسابوري ، المسمى : «غرائب القرآن ورغائب الفرقان» . واحد وثلاثون جزءاً ، سنة ١٣١٨هـ = ١٩٠٠م .

أما ما طبعته الميمنية من الكتب ذات الجزء والجزأين فشيء كثير ، ومن ذلك مثلاً «ديوان عمر بن أبي ربيعة» ١٣١١هـ = ١٨٩٣م .

وفي أوائل القرن العشرين استمرت هذه المطبعة في طبع الكتب الكبار ، ومن ذلك مثلاً : «شرح نهج البلاغة» ، لابن أبي الحديد ، أربعة أجزاء ١٣٢٩هـ = ١٩١١م .

وهذه المطبعة الميمنية ، هي أصل مطبعة الحلبي ، التي اقترن اسمها بالأعمال التراثية الجليلة . وقد تفرعت بعد ذلك إلى مطبعتين كبيرتين ، الأولى مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، بجوار الأزهر الشريف ، بشارع التبليطة ، واتخذت مكان الطبع الآن عند نهاية منطقة الدّراسة ، والالتقاء بمنطقة العباسية ، بالقرب من إدارة المرور ، وخصص المكان القديم لبيع المطبوعات . والثانية مطبعة عيسى البابي الحلبي ، التي

تسمت باسم «دار إحياء الكتب العربية» ، وتوجد بشارع خان جعفر بمنطقة خان الخليلي ، خلف مسجد الحسين .

وقد أمدت هاتان المطبعتان المكتبة العربية بفيض زاخر من نفائس التراث . ولهذه المطبعة الثانية فضل عليَّ ظاهرٌ ، إذ عملت بها مصحِّحًا في شبابي ، فتعلمت الكثير ، وتعرفت كبار أهل العلم ، ثم طبعت تحقيقاتي الأولى فيها[٦٣] .

ومن تلك المطابع الأهلية ذات الأثر الواسع المطبعة الخيرية ، ومقرها حوش عطية بحي الجمالية ، وقد أنشأها عمر حسين الخشاب[٦٤] ، وولده محمد عمر الخشاب ، ومعهما محمد محمد عبدالواحد الطوبي ، الذي يتردد اسمه كثيرًا في نشر الكتب على ذمته ونفقته .

ومن أجلّ مطبوعات هذه المطبعة وأعظمها «تاج العروس في شرح القاموس» ، للمرتضى الزبيدي ، طبعته هذه المطبعة الخيرية كاملاً في عشرة أجزاء من القطع الكبير ، سنة ١٣٠٦هـ = ١٨٨٨م ، بعد طبعة جمعية المعارف التي وقفت عند نهاية الجزء الخامس ، كما سبق .

وقد وقف على طبع هذا الكتاب ، وتحمس لنشره وإذاعته علي بك جودت ، أحد نظار مطبعة بولاق[٦٥] ، والمتولي إدارة المطبوعات المصرية ، وإدارة جريدة الوقائع المصرية التركية ، ثم وقف خلفه وآزره في نشر هذا الكتاب العظيم : وزيرٌ تركيٌّ محبٌّ للعلم ، عالم بالفلك والهندسة ، هو أحمد مختار باشا الغازي[٦٦] ، المتوفى بإستانبول سنة ١٣٣٧هـ = ١٩١٨م .

ومن وراء «تاج العروس» طبعت هذه المطبعة كثيرًا من الكتب ، أذكر منها هنا ما يدخل في القرن التاسع عشر : «سراج الملوك» ، للطرطوشي ١٣٠٦هـ = ١٨٨٨م ، و«تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي ،» للسيوطي ١٣٠٧هـ = ١٨٨٩م ، و«كتاب الكامل» للمبرد ١٣٠٨هـ = ١٨٩٠ ، و«مفاتيح الغيب» ، وهو تفسير الفخر

الرازي ١٣٠٨هـ = ١٨٩٠م ، و«مجمع الأمثال» ، للميداني ، وبهامشة «جمهرة الأمثال» ، لأبي هلال العسكري ١٣١٠هـ = ١٨٩٢م ، و«النهاية في غريب الحديث والأثر» ، لمجد الدين بن الأثير ، وطبع بهامشه : «مفردات القرآن الكريم» ، للراغب الأصبهاني ، وطبع بأسفله : «الدر النثير تلخيص نهاية ابن الأثير» ، للسيوطي ١٣١٨هـ = ١٩٠٠م .

فهذه أبرز المطابع الأهلية في ذلك الوقت . ولما كان من العسير هنا حصر تلك المطابع الأهلية التي قامت بمصر في القرن التاسع عشر : فقد اجتهدت في ذكر أشهر المطابع آنئذ ، ولم أثبت منها إلا ما عرف بطبع الكتب ذات القيمة والأثر . ثم إني رأيت أنه من الأوفق ذكرها مرتبة على الألف بائية ، مع ذكر أشهر مطبوعاتها ، مع التذكير بأن نهاية القرن التاسع عشر الميلادي تقابل سنة ١٣١٧هـ .

مطبعة إبراهيم المويلحي[٦٧] : «لباب التأويل في معاني التنزيل» ، وهو تفسير الخازن ١٢٨٧هـ = ١٨٧٠م - وانظر ما سبق من حديث عن المطبعة الوهبية - جمعية المعارف ، فهناك شيء من مطبوعات المويلحي .

المطبعة الأدبية المصرية : «جمع الوسائل في شرح الشمائل» النبوية للترمذي ، تأليف ملا علي القاري ١٣١٧هـ = ١٨٩٩م ، و«الفصل في الملل والأهواء والنحل» ، لابن حزم ، وبهامشه «الملل والنحل» ، للشهرستاني ١٣١٧هـ = ١٨٩٩م ، و«فقه اللغة» ، للثعالبي ، و«نثر النظم» ، له ١٣١٨هـ = ١٩٠٠م ، و«غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائص الفاضحة» ، لجمال الدين الوطواط ١٣١٨هـ = ١٩٠٠م .

المطبعة الأزهرية : مطبوعاتها كثيرة ، منها : «الكامل في التاريخ» ، لعز الدين بن الأثير ، وبهامشه : «عجائب الآثار في التراجم والأخبار» - ١٢ مجلداً - ١٣٠١هـ = ١٨٨٣م ، و«الغيث المسجم في شرح لامية العجم» ، لصلاح الدين الصفدي ١٣٠٥هـ = ١٨٨٧م .

مطبعة الاعتماد : «عيوب الأدب والسياسة وزين الحسب والرياسة» ، لابن هذيل ١٣٠٣هـ = ١٨٨٥م . وابن هذيل هذا : هو علي بن عبدالرحمن الأندلسي ، من رجال القرن الثامن الهجري ، وهو صاحب كتاب «حلية الفرسان وشعار الشجعان» ، الذي نشره الأستاذ محمد عبدالغني حسن - رحمه الله - بدار المعارف بمصر ، سنة ١٩٥١م .

مطبعة الأفندي : وهي مطبعة حجر ، طبعت بها «حاشية الشيخ حسن بن محمد العطار ، على شرح الأزهرية ، للشيخ خالد الأزهري» ١٢٥١هـ = ١٨٣٥م ، وبهذا التاريخ تكون هذه المطبعة هي أقدم المطابع الأهلية ، وأقربها إلى بداية الطباعة في مطبعة بولاق ، وقد أشرت إلى ذلك من قبل .

المطبعة البهية : مقرها حوش قدم[٦٨] ، متفرع من شارع الغورية ، بجوار مسجد الدردير . ومن مطبوعاتها : «الكشاف» ، للزمخشري ١٣٠٨هـ = ١٨٩٠م ، و«حاشية على خلاصة الحساب» ، لبهاء الدين العاملي ، تأليف الشيخ محمد حسنين مخلوف[٦٩] ١٣١١هـ = ١٨٩٣م ، و«الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى» ، لأبي العباس أحمد بن خالد الناصري السلاوي ١٣١٢هـ = ١٨٩٤م[٧٠] ، و«معاهد التنصيص على شواهد التلخيص» - في علوم البلاغة - للعباسي ١٣١٦هـ = ١٨٩٨م ، و«شرح شواهد مغني اللبيب ، لابن هشام» ، تأليف السيوطي ١٣٢٢هـ = ١٩٠٤م .

مطبعة التأليف : وهي غير مطبعة لجنة التأليف[٧١] والترجمة والنشر ، التي أنشأها الأستاذ أحمد أمين ورفاقه ، في النصف الأول من القرن العشرين - ومن مطبوعاتها : «نهاية الأوطار في عجائب الأقطار» - مترجم - يتضمن رحلة «ستانلي» في قارة إفريقية ، وترجمته بتنقيح وهبي تادرس[٧٢] بك ، ناظر المدارس القبطية بالقاهرة ١٣٠٨هـ = ١٨٩٣م ، و«الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام» . لتقي

الدين المقريزي ١٣١٣هـ = ١٨٩٥م .

مطبعة الترقي[٧٣] : أنشأها محمد علي كامل ، وطبع بها من جمعه : «أسباب ونتائج وأخلاق ومواعظ» ١٣١٦هـ = ١٨٩٨م ، ثم طبع بها أيضًا في العام نفسه «مرآة المروءات» لأبي منصور الثعالبي ، و«أسرار البلاغة» ، للشيخ عبدالقاهر الجرجاني ١٣٢٠هـ = ١٩٠٢م ، بعناية الشيخ محمد رشيد رضا ، الذي نشر الطبعة الثانية منه بمطبعته المنار ١٣٤٤هـ = ١٩٢٥م .

مطبعة التقدم العلمية : ومقرها درب الدليل بحي الدرب الأحمر ، وما رأيت من مطبوعات هذه المطبعة إلا ما هو في أوائل القرن العشرين ، وأظن ظنًا أنها بدأت نشاطها في أواخر القرن التاسع عشر ، فإن الكتب التي أخرجتها في أوائل القرن العشرين من الكتب الكبار ، ويبعد أن تبدأ مطبعة عملها بالكتب ذات الأجزاء ، فالمظنون أن تكون بواكير أعمالها بعض الرسائل أو الكتب الصغار .

ومما نشرته هذه المطبعة : الشعر والشعراء ، »لابن قتيبة ١٣٢٢هـ = ١٩٠٤م ، وبعده «الكامل» للمبرد ١٣٢٣هـ = ١٩٠٥م ، ثم جاء العمل الضخم ، وهو «كتاب الأغاني» ، لأبي الفرج الأصبهاني ، على نفقه محمد ساسي المغربي ، وكان تاجرًا بالفحامين ، المتفرع من شارع الغورية بالقرب من الأزهر ، ثم تولى الإنفاق على طبع الكتب ، ومن ذلك مما طبعه بتلك المطبعة «الأغاني» ، سنة ١٣٢٣هـ = ١٩٠٥م ، وقد أصدره مذيلاً بالفهارس ، ومكملاً بالجزء الحادي والعشرين . وقد ظلت هذه الطبعة هي الأكثر تداولاً بأيدي الباحثين والمحققين ، حتى أكملت دار الكتب المصرية طبعتها للكتاب ، التي جاءت في ٢٤ مجلدًا وعلى نفقة محمد ساسي المغربي . أيضًا طبع بهذه المطبعة الأجزاء من ٣ إلى ٧ من كتاب «الحيوان للجاحظ» ١٣٢٥هـ = ١٩٠٧م . أما الجزءان الأول والثاني فسيأتي حديثهما عند المطبعة الحميدية .

مطبعة التمدن - أو شركة التمدن الصناعية - : «شمس المعارف الكبرى» ، للبوني ، ١٣١٨هـ = ١٩٠٠م ، و«بلوغ المرام من أدلة الأحكام» ، لابن حجر العسقلاني ١٣٢٠هـ = ١٩٠٢م .

مطبعة جمعية المعارف : هي المطبعة الوهبية ، وسبق الحديث عنها .

مطبعة حسن الطوخي : «تلخيص المفتاح» ، للقزويني ١٢٩٧هـ = ١٨٧٩م ، ومجموعة في القراءات مشتملة على سبعة فنون ١٣٠٢هـ = ١٨٨٤م .

المطبعة الحسينية : «ديوان ابن النحاس الحلبي» ١٢٩٠هـ = ١٨٧٣م ، و«شرح الآجرومية» ، للكفراوي ١٢٩٦هـ = ١٨٧٨م .

المطبعة الحسينية المصرية : أنشأها محمد عبداللطيف الخطيب[٧٤] ، سنة ١٣٢٣هـ ، كما جاء في خاتمها بآخر طبعتها من «القاموس المحيط» سنة ١٣٣٢هـ = ١٩١٣م ، تصحيح الشيخ مصطفى عناني . وكذلك بآخر «تاريخ الطبري» الآتي . وكان مقرها بجوار مسجد الحسين كما جاء في صدر كتاب «تفسير سورة الإخلاص» لشيخ الإسلام ابن تيمية ، الذي طبع بها سنة ١٣٢٣هـ ، وهي السنة التي أنشئت فيها . وكانت هذه الطبعة على نفقة محمد أمين الخانجي ، وعني بتصحيحها السيد محمد بدر الدين النعساني الحلبي ، وقد ذكرتها هنا ، مع أني لم أجد لها شيئًا مذكورًا في القرن التاسع عشر ؛ لأفرق بينها وبين «المطبعة الحسينية» السابقة . ومهما يكن من شيء فهذه المطبعة الحسينية المصرية قد اكتسبت شهرتها في العشر الأوائل من القرن العشرين ، حين طبعت كتاب «طبقات الشافعية الكبرى» لابن السبكي ، في ستة أجزاء ، سنة ١٣٢٤هـ = ١٩٠٦م ، على نفقة مولاي أحمد بن عبدالكريم القادري الحسني ، ثم طبعت بعد ذلك «تاريخ الطبري» - أحد عشر جزءًا - ١٣٢٦هـ = ١٩٠٨م .

المطبعة الحميدية المصرية : «العلوم الفاخرة في النظر في الأمور الآخرة» ، لعبد الرحمن بن محمد الثعالبي ١٣١٧هـ = ١٨٩٩م ، ومن أشهر ما أخرجت هذه المطبعة : الجزءان الأول والثاني من «الحيوان» للجاحظ ١٣٢٣هـ = ١٩٠٥ ، على نفقة محمد ساسي المغربي ، كما سبق من الحديث عن مطبعة التقدم .

المطبعة الخيرية : سبق الحديث عنها في بدء الكلام على المطابع الأهلية .

مطبعة السعادة : بجوار محافظة مصر ، بميدان باب الخلق (أحمد ماهر الآن) ومنشئها محمد إسماعيل . وقد اكتسبت هذه المطبعة شهرة عظيمة في النصف الأول من القرن العشرين ، بما أخرجته من نفائس الكتب ، ولم أظفر بشيء من مطبوعاتها في القرن التاسع عشر ، إلا ما أورده مؤلف المعجم الشامل للتراث العربي المطبوع ، فقد ذكر في ترجمة الواسطي علي بن الحسن بن أحمد أن له كتابًا اسمه «خلاصة الإكسير في سيدنا الغوث الرفاعي الكبير» . ثم ذكر أنه مطبوع بالقاهرة ، مطبعة السعادة ١٣٠٦هـ = ١٨٨٨م[٧٥] ، ولست أحُقُّ هذا ؛ لأني لم أر لهذه المطبعة شيئًا في ذلك القرن التاسع عشر ، وقد زاد من الشبهة أن يوسف سركيس حين ذكر كتاب «خلاصة الإكسير» قال : «١٣٠٦هـ»[٧٦] . فلم يذكر اسم المطبعة . ولم يتيسر لي رؤية الكتاب المطبوع نفسه .

وشيء آخر في أمر هذه المطبعة ، فقد ذكر سركيس[٧٧] أن «ديوان الشماخ» طبع بمطبعة السعادة سنة ١٣١٧هـ ، فيكون ذلك سنة ١٨٩٩م ، لكن الذي رأيته على غلاف ديوان الشماخ المطبوع بمطبعة السعادة بتصحيح أحمد بن الأمين الشنقيطي سنة ١٣٢٧هـ المقابلة لسنة ١٩٠٩م ، وكذلك ذكر محقق ديوان الشماخ[٧٨] .

ومهما يكن من أمر فقد أخرجت هذه المطبعة كثيراً من الكتب في أوائل القرن العشرين ، منها : «المعمرون» ، لأبي حاتم السجستاني ، تصحيح أحمد بن الأمين الشنقيطي ١٣٢٣هـ = ١٩٠٥م ، و«المحاسن والمساوئ» ، للبيهقي ، تصحيح

محمد بدر الدين النعساني الحلبي[٧٩] ، على نفقة محمد كامل أفندي ١٣٢٤هـ = ١٩٠٦م ، و«المقصور والممدود» ، لابن ولاد ، على نفقة محمد أمين الخانجي وأحمد ناجي الجمالي ، وبتصحيح محمد بدر الدين النعساني كذلك ١٣٢٦هـ = ١٩٠٨م .

وقد قلت : إن هذه المطبعة قد اكتسبت شهرة عظيمة بما أنتجته من نفائس الكتب ، في النصف الأول من هذا القرن العشرين ، واللهم نعم ، فقد خرج من هذه المطبعة في ذلك الوقت جملة من كتب العربية الكبار ، منها «الإصابة في تمييز الصحابة» ، لابن حجر العسقلاني – ثمانية أجزاء – ١٣٢٣هـ = ١٩٠٥م ، و«البحر المحيط» ، لأبي حيان الأندلسي النحوي – ثمانية أجزاء – ١٣٢٨هـ = ١٩١٠م ، وطبع على نفقة سلطان المغرب الأقصى ، مولاي عبدالحفيظ[٨٠] بن السلطان الحسن .

ومنها : «البداية والنهاية» ، لابن كثير (١٤ مجلداً) ١٣٤٨هـ = ١٩٢٩م . و«تاريخ بغداد» ، للخطيب البغدادي (١٤ مجلداً) ١٣٤٩هـ = ١٩٣٠م . و«حلية الأولياء وطبقات الأصفياء» ، لأبي نعيم الأصبهاني (١٠ مجلدات) ١٣٥٧هـ = ١٩٣٨م .

وكثير من مطبوعات مطبعة السعادة كان على ذمة محمد أمين الخانجي وشركاه .

مطبعة شرف : صاحبها شرف موسى[٨١] ، كما جاء في كتاب «نجاة الأرواح في أحكام النكاح» – فقه حنفي – لأحمد بن محمد التميمي الداري ١٢٩٨هـ = ١٨٨٠م . ومن مطبوعات هذه المطبعة أيضاً : «ديوان البهاء زهير» ١٣٠٠هـ = ١٨٨٢م ، و«شحن العربية ببعض اللغات الأجنبية» ، للشيخ محمد إسماعيل[٨٢] الأنصاري الطهطاوي ١٣٠١هـ = ١٨٨٣م ، و«شرح ملحة الإعراب» ، للحريري ١٣٠٢هـ = ١٨٨٤م ، و«إملاء[٨٣] ما منَّ به الرحمن في إعراب القرآن» ، للعكبري ١٣٠٣هـ = ١٨٨٥م .

المطبعة الشرفية[٨٤] : وتكتب أحيانًا على بعض الكتب : العامرة الشرفية . ومقرها خان أبي طاقية ، بحي الخرنفش بمنطقة الجمالية ، وقد أخرجت هذه المطبعة كتبًا كثيرة ، منها : «غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائص الفاضحة» ، لجمال الدين الوطواط ١٢٩٩هـ = ١٨٨١م ، و«لطائف أخبار الأول» فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول» ، ويسمى أيضًا : «أخبار الأول» ، و«تاريخ الإسحاقي» ١٣٠٠هـ = ١٨٨٢م ، و«الأذكياء» - أو «أخبار الأذكياء» - لابن الجوزي ١٣٠٤هـ = ١٨٨٦م ، و«شرح ديوان المتنبي» ، المنسوب للعكبري[٨٥] ١٣٠٨هـ = ١٨٩٠م ، ومحاضرة الأوائل ومسامرة الأواخر ، لعلاء الدين علي دده البُسْنَوي ١٣١١هـ = ١٨٩٣م ، على نفقة محمد عبدالواحد الطوبي ، و«مجموعة الرسائل الكبرى» ، لابن تيمية ١٣٢٣هـ = ١٩٠٦م ، بتصحيح حسن الفيومي إبراهيم ، وفي السنة نفسها طبع كتاب «الصداقة والصديق» ، باسم «الأدب والإنشاء في الصداقة والصديق» .

مطبعة العاصمة : مقرها حوش الشرقاوي - منطقة تقع الآن على يسارك وأنت في ميدان باب الخلق تريد شارع القلعة ، ومنشئها محمد مسعود بك الإسكندري . أديب ، من كبار المترجمين ، ومن مشهوري الصحفيين ، له مقالات ومترجمات كثيرة ، من أشهرها : حضارة العرب ، لغوستاف لوبون . أصدر جريدة الآداب وممفيس ، والنظام . توفي سنة ١٣٥٩هـ = ١٩٤٠م[٨٦] .

ومن أشهر مطبوعات هذه المطبعة : «إبطال مذهب الدهريين وبيان مفاسدهم ، وإثبات أن الدين أساس المدنية ، والكفر فساد العمران» ، لجمال الدين الأفغاني ، بالفارسية ، ترجمه الشيخ الإمام محمد عبده ، بمساعدة عارف أفندي أبي تراب الأفغاني ١٣١٢هـ = ١٨٩٤م ، و«التعريف بالمصطلح[٨٧] الشريف» . لابن فضل الله العمري ١٣١٢هـ = ١٨٩٤م .

مطبعة عبدالرازق : «تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس [صلى الله عليه وسلم» للدياربكري ١٣٠٢هـ = ١٨٨٤م ، و«الإعلام بأعلام بيت الله الحرام» ،

لقطب الدين النهروالي[88] ١٣٠٣هـ = ١٨٨٥م ، و«المستطرف من كل فن مستظرف» ، للأبشيهي ١٣٠٤هـ = ١٨٨٦م .

مطبعة عبدالغني فكري : مطبعة حجر ، وهي من أقدم المطابع الأهلية ، وقد طبع بها «ديوان ابن سهل الإسرائيلي» ، جمع الشيخ حسن بن محمد العطار ، شيخ الأزهر ١٢٧٩هـ = ١٨٦٢م . وفي العام نفسه طبع «تزيين الأسواق بتفصيل أشواق العشاق» ، لداود الأنطاكي . وفي سنة ١٢٨١هـ = ١٨٦٤م ، طبع «ديوان ابن النبيه» .

مطبعة عثمان عبدالرازق : «مختصر خليل» ، في فقه المالكية ١٣٠٤هـ = ١٨٨٦م ، و«ريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا» ، لشهاب الدين الخفاجي[89] ١٣٠٦هـ = ١٨٨٨م .

المطبعة العثمانية : صاحبها عثمان خليفة ، ومقرها حارة سوق الزلط بقسم الأزبكية ، ومن أبرز مطبوعاتها : «النهاية في غريب الحديث والأثر» ، لمجد الدين ابن الأثير ، طبعة متقنة مضبوطة بالشكل الكامل ، في أربعة أجزاء ، وطبع على هامشها : «الدر النثير تلخيص نهاية ابن الأثير» ، للسيوطي ، بتصحيح عبدالعزيز بن إسماعيل الأنصاري الطهطاوي ١٣١١هـ = ١٨٩٣م .

ومن مطبوعاتها أيضًا : «شرح مقامات الحريري» للشريشي ١٣١٤هـ = ١٨٩٦م على نفقة محمد عبدالواحد الطوبي ، وديوان الأبيوردي ١٣١٧هـ = ١٨٩٩م[90] .

المطبعة العلمية : «روح الأرواح» ، لابن الجوزي - بالتزام السيد عمر هاشم الكتبي ١٣٠٩هـ = ١٨٩١م .

و«ديوان ابن النبيه» - شرح ألفاظه عبدالله باشا فكري - ١٣١٣هـ = ١٨٩٥م ، و«البيان والتبيين» ، للجاحظ ، من سنة ١٣١١هـ - ١٣١٣هـ = ١٨٩٣م - ١٨٩٥م بعناية حسن الفاكهاني ، إلى نهاية الكراسة السابعة من الجزء الأول ، وباقي الكتاب بعناية محمد الزهري الغمراوي ، مصحح المطبعة الميمنية الشهير .

المطبعة العمومية : أنشأها إسكندر آصاف ، مدير المطبعة العمومية وجريدة المحاكم بالقاهرة[٩١] . ومن مطبوعاتها «الإعجاز والإيجاز» ، لأبي منصور الثعالبي ١٣١٥هـ = ١٨٩٧م ، و«فضائل الأتراك»[٩٢] ، للجاحظ ١٣١٦هـ =١٨٩٨م .

ومن أشهر مطبوعات هذه المطبعة «ديوان أبي نواس» ، بشرح محمود واصف ١٣١٦هـ = ١٨٩٨م ، وقد ظلت هذه النشرة أصح نشرات ديوان أبي نواس ، حتى ظهرت نشرة جمعية المستشرقين الألمانية .

مطبعة الفتوح الأدبية : هي غير المطبعة الأدبية المصرية ، السابقة في موضعها ، ومطبعة الفتوح كانت بشارع النبوية بحي الدرب الأحمر ، بجوار ضريح الجويني ، ولم يقع لي شيء من مطبوعاتها في القرن التاسع عشر ، لكنها نشرت في أوائل القرن العشرين كتابين من أصول المكتبة العربية ، هما «الشعر والشعراء» ، لابن قتيبة ١٣٣٢هـ = ١٩١٣م ، و«الكتاب الكامل» ، للمبرد ١٣٣٩هـ = ١٩٢٠م ، بتصحيح الشيخ إبراهيم بن محمد الدلجموني الأزهري ، وسيأتي حديثٌ عنه .

المطبعة الكاسْتَلِّية : وهي من المطابع القديمة ، وصاحبها الخواجا موسى كاستلي ، ولذلك يقال لها أحيانًا : الموسوية الكاستلية ، كما جاء بآخر مقامات الحريري ، المطبوعة بها سنة ١٢٧٩هـ = ١٨٦٢م ، وهذه الطبعة على نفقة الخواجا يوحنا مسرة . ويقال لها أيضًا مطبعة كاستلي ، كما جاء في كتاب العرائس في قصص الأنبياء ، للثعلبي ١٢٩٨هـ = ١٨٨٠م .

ومن مطبوعاتها : «ديوان الشاب الظريف» - وهو ابن العفيف التلمساني - ١٢٧٤هـ = ١٨٥٨م ، بتصحيح العلامة الشيخ حسين بن أحمد المرصفي ، وطبع على نفقة عبدالحميد بك نافع . وفي السنة نفسها طبع كتاب «القول الأخص في استخراج الحصص لشمال مصر المحروسة وما ساواها من البلدان» ، لمحمد بن عبدالله بن عبدالواحد الأمير الحسيني . ومن مطبوعاتها أيضًا «سنن أبي داود»

١٢٨٠هـ = ١٨٦٣م، وفي السنة نفسها «إعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بني العباس»، لمحمد دياب الإتليدي[٩٣]، و«حاشية الخضري على ابن عقيل في شرح ألفية ابن مالك» ١٢٨٢هـ = ١٨٦٥م، و«نشر العلم في شرح لامية العجم»، لجمال الدين محمد بن عمر بن مبارك الحضرمي ١٢٨٣هـ = ١٨٦٦م، و«منهاج العابدين»، لأبي حامد الغزالي ١٢٨٨هـ = ١٨٧١م، و«فرائد القلائد في مختصر شرح الشواهد»[٩٤]، لبدر الدين العيني ١٢٩٧هـ = ١٨٧٩م .

مطبعة كردستان العلمية : أنشأها فرج الله زكي الكردي، بدرب المسمط، بحي الجمالية، بالقرب من بيت القاضي، نحو سنة ١٣٢٦هـ = ١٩٠٨م، لكنه بدأ نشاطه في النشر قبل ذلك، فقد أنفق بالاشتراك على طبع شروح التلخيص في البلاغة بمطبعة بولاق سنة ١٣١٧هـ - كما أشرت إلى ذلك من قبل - ولما كانت سنة ١٣١٧هـ تقابل سنة ١٨٩٩م - وقد مر بك هذا كثيراً - فإن هذا الكتبي يكون قد بدأ نشاطه في آخر القرن الماضي - موضوع الندوة - .

وهذا فرج الله زكي الكردي كان يصف نفسه في أوائل بعض مطبوعاته بهذه الصفات : «وكيل الشركة الخيرية لنشر الكتب العالمية الإسلامية، من طلبة العلم بالأزهر الشريف»، وهو أحد أركان البهائية بمصر . ولد في بلاد الأكراد، جهة جبال العراق الشمالية، ونشأ بها، ثم هاجر إلى مصر، وأقام بالقاهرة، والتحق بالأزهر الشريف، لكنه طرد منه بعد سنوات، بسبب اعتناقه مذهب البهائية . ومن الكتب التي ألفها وطبعها لترويج مذهبه كتاب سماه «بشرى العالم بترك المحاربات واتفاق الأمم»، يتضمن البشارات الإلهية والبراهين العقلية بقرب حصول السلام بين الأنام . طبع هذا الكتاب سنة ١٣٢٩هـ = ١٩١١م .

ويقول يوسف إليان سركيس، تعليقاً على مضمون ذلك الكتاب : «لم يمض زمن طويل من ظهور هذا الكتاب حتى شبت الحرب الكونية (العالمية) فأخطأ المؤلف

مرماه ، ولا يعرف الغيب إلا المولى سبحانه وتعالى ، وكان المؤلف زعم أن انتشار البابية (وهي أصل البهائية) في الكون سيؤول إلى اتفاق الأمم»[٩٥] .

ومهما يكن من أمر ، فقد اشتغل هذا الرجل - فرج الله زكي الكردي - بتجارة الكتب ، ونشر المخطوطات العربية ، وكانت له مكتبة بالصنادقية بالأزهر ، وأخرى بحوش عطا بالجمالية ، لبيع الكتب والاتجار بها . وقد توفي سنة ١٣٥٩هـ = ١٩٤٠م تقريبًا[٩٦] .

وقد نشر بمطبعته هذه طائفة من كتب التراث ، على منهج علمي مقارب ، منها كتاب «تأويل مختلف الحديث» لابن قتيبة ١٣٢٦هـ = ١٩٠٨م ، بتصحيح علامة العراق محمود شكري الآلوسي ، صاحب بلوغ الأرب في أحوال العرب ، و«الضرائر وما يسوغ للشاعر دون الناثر» .

ومن مطبوعات كردستان أيضًا «الدرر اللوامع[٩٧] على همع الهوامع» للسيوطي ، تأليف أحمد بن الأمين الشنقيطي ، على نفقة أحمد ناجي الجمالي ، ومحمد أمين الخانجي ، سنة ١٣٢٨هـ = ١٩١٠م ، و«فتاوى ابن تيمية» ١٣٢٩هـ = ١٩١١م .

المطبعة المحروسة : انظر ما يأتي من حديث الصحف والمجلات التي كانت تنشر كتبًا .

مطبعة محمد شاهين : نشرت هذه المطبعة كثيرًا من الكتب ، منها مجموعة لأبي حامد الغزالي ، منها «الأدب في الدين» ، و«بداية الهداية» ١٢٧٧هـ = ١٨٦٠م ، و«مغازي الواقدي» ١٢٧٨هـ = ١٨٦١م ، وفي العام نفسه «المشرب الوردي في حقيقة المهدي» ، لملا علي القاري ، و«إنسان العيون في سيرة الأمين[٩٨] المأمون» ، لعلي بن برهان الدين الحلبي ١٢٨٠هـ = ١٨٦٣م ويعرف أيضًا بالسيرة الحلبية . و«طبقات الشيخ أحمد الشرنوبي» ١٢٨١هـ = ١٨٦٤م ، و«شرح ديوان امرئ القيس» ، لأبي بكر البطليوسي ١٢٨٢هـ = ١٨٦٥م .

مطبعة محمد مصطفى[99] : نشرت هذه المطبعة كتبًا ذوات عدد ، منها «صحيح البخاري» ، وبهامشه «حاشية نور الدين محمد بن عبد الهادي السندي» ، و«تقريرات من شرحي القسطلاني ، وشيخ الإسلام زكريا الأنصاري» ١٢٩٩هـ = ١٨٨١م ، و«المستطرف من كل فن مستظرف» ، للأبشيهي ١٣٠٠هـ = ١٨٨٢م ، و«عرائس المجالس في قصص الأنبياء» ، للثعالبي ١٣٠١هـ = ١٨٨٣م ، و«المصباح المنير في غريب الشرح الكبير» ، للرافعي ، تأليف الفيومي ١٣٠٢هـ = ١٨٨٤م ، و«التصريح بمضمون التوضيح» ، للشيخ خالد الأزهري ١٣٠٥هـ = ١٨٨٧م ، و«الفوائد الجليلة البهية على الشمائل المحمدية» ، للترمذي ، تأليف محمد بن قاسم جسوس ١٣٠٦هـ = ١٨٨٨م ، و«إنسان العيون» - السابق في مطبعة محمد شاهين ١٣٠٨هـ = ١٨٩٠م ، و«تاريخ الدولة العلية العثمانية»(١٠٠) ، لمحمد بن فريد ، رئيس الحزب الوطني المصري ١٣١١هـ = ١٨٩٣م ، و«معاهد التنصيص على شواهد التلخيص» ، للعباسي ، وبهامشه «بدائع البدائه» ، لعلي بن ظافر الأزدي ١٣١٦هـ = ١٨٩٨م .

مطبعة محمود الملطيلي[101] : مطبعة حجر ، من مطبوعاتها «مقطعات الأبيوردي» ١٢٧٨هـ = ١٨٦١م .

المطبعة المحمودية : «شرح ملا مسكين على كنز الدقائق»[102] - في فقه الحنفية - ١٣١٢هـ = ١٨٩٤م ، و«رسالة إمام أهل المدينة (مالك بن أنس) إلى هارون الرشيد» ١٣١٥هـ = ١٨٩٧م .

مطبعة المدارس الملكية : أو المدارس الحكومية ، ومقرها درب الجماميز (شارع بورسعيد الآن) . من أشهر مطبوعاتها «الوسيلة الأدبية إلى العلوم العربية» ، للشيخ حسين بن أحمد المرصفي ١٢٨٩هـ - ١٢٩٢هـ = ١٨٧٢م - ١٨٧٥م ، و«النهجة[103] المرضية في شرح الألفية» - ألفية ابن مالك - للسيوطي ١٢٩١هـ =

١٨٧٤م ، و«نفحة الآداب على ملحة الإعراب» ، للحريري ، تأليف الشيخ حسين والي ١٢٩٣هـ = ١٨٧٦م .

مطبعة مصطفى شاهين : «المواهب اللدنية بالمنح المحمدية» ، للقسطلاني ، شهاب الدين أحمد بن محمد ، شارح البخاري ١٢٨١هـ = ١٨٦٤م .

مطبعة المنار : مقرها درب الجماميز (شارع بورسعيد الآن) ، وهي اسم مجلة ، أنشأها العالم المصلح الكبير الشيخ محمد رشيد رضا ، سنة ١٣١٥هـ = ١٨٩٧م ، أي في آخر القرن التاسع عشر ، وقد نشر بمطبعتها كثيراً من كتبه هو وكتب غيره من أهل العلم قديمًا وحديثًا ، وجل مطبوعات هذه المطبعة في النصف الأول من القرن العشرين .

ومن أشهر ما أذاعه الشيخ رشيد رضا : «المغني» ، لابن قدامة (١٢مجلداً) ، ثم وقف على طبع هذه الكتب : «تفسير ابن كثير» ، و«البغوي» ، و«دلائل الإعجاز» ، و«أسرار البلاغة» ، كلاهما للشيخ عبدالقاهر الجرجاني ، و«شرح عقيدة السفاريني» ، لابن قدامة ، وقد طبع الشيخ حسين والي كتابه الشهير في الإملاء بهذه المطبعة ، سنة ١٣٢٢هـ = ١٩٠٤م .

مطبعة الموسوعات : مقرها باب الخلق ، وقد أنشأها إسماعيل حافظ ، الخبير بالمحاكم الأهلية .

ومن مطبوعاتها : «الفخري في الآداب السلطانية» ، لابن الطقطقي ١٣١٧هـ = ١٨٩٩م ، لحساب شركة طبع الكتب العربية ، وقد سبق حديثها ، و«تاريخ دولة آل سلجوق» ، للعماد الأصبهاني الكاتب ، اختصار الفتح بن علي بن محمد البنداري الأصفهاني ١٣١٨هـ = ١٩٠٠م ، وفي السنة نفسها طبع «إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد» ، لمحمد بن إبراهيم بن ساعد الأنصاري .

و«الإنصاف في التنبيه على الأسباب التي أوجبت الخلاف بين المسلمين في

آرائهم» ، لابن السيد البطليوسي ١٣١٩هـ = ١٩٠١م ، و«الحماسة السنية الكاملة المزية في الرحلة العلمية الشنقيطية التركزية» ، للعلامة محمد محمود بن التلاميد التركزي الشنقيطي ١٣١٩هـ = ١٩٠١م ، و«مختصر جامع بيان العلم وفضله» ، لابن عبد البر . والمختصر هو : أحمد بن عمر المحمصاني البيروتي الأزهري ١٣٢٠هـ = ١٩٠٢م ، و«فتوح البلدان» ، للبلاذري ١٣١٩هـ = ١٩٠١م ، لحساب شركة طبع الكتب العربية ، وسبق حديثها . و«تشنيف السمع بانسكاب الدمع» ، لصلاح الدين الصفدي ١٣٢١هـ = ١٩٠٣م ، وفي السنة نفسها طبع «الفتح القسي في الفتح القدسي» ، للعماد الأصفهاني الكاتب . على ذمة مصطفى فهمي الكتبي بجوار الأزهر

مطبعة الهلال : بالفجالة[١٠٤] . أسسها إبراهيم زيدان – من أبناء عمومة جورجي زيدان – سنة ١٨٩٤م . ومن مطبوعاتها «نظام التعليم» ، لبطرس حنا ، المدرس بالمدارس الأميرية ، ومحرر جريدة الراوي ١٣١٤هـ = ١٨٩٦م ، و«إلياذة هوميروس» ١٣٢٢هـ = ١٩٠٤م ، وطبع إبراهيم زيدان هذا على نفقته «الفخري في الآداب السلطانية» ، لابن الطقطقي ، بمطبعة الرحمانية ١٣٤٠هـ = ١٩٢١م .

مطبعة هندية : صاحبها أمين هندية ، ومقرها الموسكي . من مطبوعاتها «حسن التوسل» إلى صناعة الترسل ، للشهاب محمود ١٣١٥هـ = ١٨٩٧م ، و«أسباب نزول القرآن» ، للواحدي ١٣١٦هـ = ١٨٩٨م .

وكثر انتاجها في القرن العشرين ، ومن ذلك «رسالة الغفران» ، لأبي العلاء المعري ١٣٢١هـ = ١٩٠٣م ، صحح سبع عشرة ملزمة منه الشيخ إبراهيم اليازجي ، ثم توفي . و«ديوان البحتري» ١٣٢٩هـ = ١٩١١م ، بتصحيح الشيخ عبدالرحمن البرقوقي .

وسيأتي حديث آخر عن مطبعة هندية ، في الفقرة الرابعة من الملاحظات حول

تقييم أعمال المطابع الأهلية .

مطبعة والدة عباس الأول : الذي عرفته من مطبوعاتها يبدأ في السنوات الأولى من القرن العشرين ، ولعل شيئًا مطبوعًا سبق لم أعرفه . فمن ذلك «تهذيب الأخلاق» ، لابن مسكويه ١٣٢٣هـ = ١٩٠٥م ، و«ديوان مسلم بن الوليد» (صريع الغواني) ١٣٢٥هـ = ١٩٠٧م ، وبلاغات النساء ، لابن طيفور ١٣٢٦هـ = ١٩٠٨م .

فهذا ما كان من أمر أشهر المطابع المصرية في القرن التاسع عشر ، وكل ما سبق إنما كان في مدينة القاهرة ، وهي عاصمة الديار .

وقد قامت بعض المطابع في العاصمة الثانية ، الإسكندرية ، وقد كانت الاسكندرية - كما علمنا - أول من شهد المطبعة ؛ لأن نابليون إنما أدار مطبعته هذه أول مرة في عرض البحر على شواطئ الاسكندرية .

ومن أشهر مطابع الإسكندرية في ذلك القرن :

مطبعة الأهرام : ومن مطبوعاتها «ديوان أبي الحسن التهامي» ١٣١١هـ = ١٨٩٣م ، وفي السنة نفسها أصدرت المطبعة نبذة من «ديوان سليم بك تقلا» .

وهذه المطبعة هي مطبعة الجريدة - جريدة الأهرام الشهيرة التي أسسها سليم تقلا بالإسكندرية سنة ١٨٧٥م .

وسأتحدث قريبًا عن مطابع الجرائد والمجلات التي باشرت بجانب صحفها ومجلاتها نشر الكتب .

المطبعة التجارية : «المنتحل» ، لأبي منصور الثعالبي . تصحيح الشيخ أحمد أبو علي الأزهري ، أمين مكتبة البلدية بالإسكندرية ١٣٢١هـ = ١٩٠٣م .

مطبعة الحلمية : «المنحة الدهرية في تخطيط مدينة الإسكندرية» . لمحمد أفندي مسعود ، المحرر الفني بنظارة الداخلية ١٣٠٨هـ = ١٨٩٠م وانظر ما سبق عن : مطبعة العاصمة .

المطبعة الخديوية : «دعوة الأطباء» ، لابن بطلان ، ومعه «تكملة الحديث في الطب القديم والحديث» ، للدكتورة بشارة زلزل[١٠٥] ١٣١٩هـ = ١٩٠١م .

مطبعة شركة المكارم : حسن الوفا لإخوان الصفا ، وهو فهرس أو ثبت للمحدث فالح بن عبدالله الظاهري المدني[١٠٦] ١٣٢٣هـ = ١٩٠٥م

مطبعة معوض فريد[١٠٧] : المدخل[١٠٨] ، لابن الحاج الفاسي ١٢٩١هـ = ١٨٧٤م .

المطبعة الوطنية : «سبيل الرشاد إلى نفع العباد» ، للدمنهوري ١٢٨٨هـ = ١٨٧١م ، تصحيح رمضان حلاوة ، و«نسيم الصبا» ، لابن حبيب الدمشقي الحلبي . تصحيح محمود العلاف ، على نفقة معوض فريد ، وعبدالفتاح الفقي ١٢٨٩هـ = ١٨٧٢م ، و«سراج الملوك» ، للطرطوشي ، تصحيح رمضان حلاوة ، على نفقة أنطون غندور ١٢٨٩هـ = ١٨٧٢م ، والطبعة الثانية ١٢٩٩هـ = ١٨٨١م ، و«الغيث المسجم في شرح لامية العجم» ، للصفدي ، وبهامشه «سرح العيون شرح رسالة ابن زيدون» ١٢٩٠هـ = ١٨٧٣م ، و«المدخل» ، لابن الحاج ١٢٩٣هـ = ١٨٧٦م ، وفي السنة نفسها «نزهة الأبصار والأسماع في أخبار ذوات القناع» ، لبدر الدين الدماميني[١٠٩] النحوي .

مطبعة يني لاجوداكس : «كشف الأسرار عما خفي عن الأفكار» ، لشهاب الدين أحمد بن عماد الأقفهسي . تصحيح الشيخ أحمد أبو علي الأزهري ١٣١٥هـ = ١٨٩٧م .

***

وبعد : فهذه أشهر المطابع الأهلية وأبرزها بمصر - القاهرة والإسكندرية - في القرن التاسع عشر .

ولقد لاحظ القارئ الكريم أننا تسامحنا أحيانًا في بضع سنوات قليلة من بداية القرن العشرين ؛ لندخل بعض المطابع التي عرفنا مطبوعاتها في عشر السنوات الأولى من ذلك القرن ، وكان تقديرنا أن مثل هذه المطابع ، في أغلب الظن ، قد بدأت نشاطها في أواخر القرن التاسع عشر ، والشأن قريب إن شاء الله .

وهذه بعض النظرات التحليلية والملاحظات حول نشاط تلك المطابع الأهلية ، وسماتها :

أولاً : ساهمت دور الصحافة مساهمةً ظاهرة في طبع الكتب وإذاعتها ، فكثير من مطابع الجرائد والمجلات كانت تحرص بين الحين والحين ، على أن تجعل من نشاطها نصيبًا مفروضًا لطبع الكتب ، لكن ذلك لم يكن في غالب الأمر إلا في حدود الرسائل الصغيرة أو الكتب الصغار .

وليس يخفى مكان هذه المجلات والصحف على الخريطة الثقافية : المقتطف والمؤيد والهلال واللواء والمنار . وقد سبقت الإشارة إلى مطبعة الأهرام بالإسكندرية - والأهرام من أقدم الصحف العربية - .

وهذه إشارة - من باب الانتقاء وليس الحصر - لبعض الصحف والمجلات ، التي ساهمت في نشر الكتب ، مع ذكر أبرز مطبوعاتها :

الآداب : وهي مجلة أسبوعية ، أنشأها الشيخ علي يوسف[110] سنة ١٣٠٣هـ = ١٨٨٥م ، عاشت ثلاث سنوات ، ثم أصدر جريدة المؤيد ، يوميّة ، سنة ١٣٠٧هـ = ١٨٨٩م ، فصارت مطبوعات هذه المطبعة تنسب إلى الآداب مرة ، وإلى المؤيّد مرة أخرى وهذا هو الأعم الأغلب .

ومن مطبوعاتها «الإيجاز في دراية الإعجاز» ، لفخر الدين الرازي ١٣١٧هـ = ١٨٩٩م ، وفي العام نفسه أصدرت «التبر المسبوك في نصيحة الملوك» ، لأبي حامد الغزالي ، و«مصر والاحتلال الإنجليزي» ، للزعيم مصطفى باشا كامل ١٣١٣هـ =

١٨٩٥م ، و«المسألة الشرقية» ، له أيضًا ١٣١٦هـ = ١٨٩٨م .

ومما طبع منسوبًا إلى مطبعة المؤيد فقط «الحسبة في الإسلام» ، لشيخ الإسلام ابن تيمية ١٣١٨هـ = ١٩٠٠م ، وله أيضًا «رسالة إلى السلطان الملك الناصر في شأن التتار» ١٣١٩هـ = ١٩٠١م ، و«الإشارة إلى محاسن التجارة ومعرفة جيد الأعراض ورديئها ، وغشوش المدلسين فيها» ، لأبي الفضل جعفر بن علي الدمشقي ١٣١٨هـ = ١٩٠٠م .

وقد ظلت مطبعة المؤيد شطرًا كبيرًا من القرن العشرين تنشر الكتب ، وممن نشر بها كتبًا الكاتب الإسلامي الكبير محب الدين الخطيب المتوفى سنة ١٣٨٩هـ = ١٩٦٩م ، وكان قد عمل بها محررًا ، سنة ١٣٢٧هـ = ١٩٠٩م ، قبل أن ينشيء مطبعته الشهيرة السلفية .

الأعلام : وهي جريدة يومية ثم أسبوعية ، أنشأها محمد (بيرم الخامس) بن مصطفى ، وهو عالم رحالة مؤرخ ، من علماء تونس ، هجرها حين استولى عليها الفرنسيون سنة ١٢٩٨هـ ، وتوجه إلى الآستانة ، ثم انتقل إلى مصر سنة ١٣٠٢هـ ، وأنشأ هذه الجريدة[١١١] ، ثم طبع في مطبعتها كتبًا ، منها «النجم من كلام سيد العرب والعجم» ، لأبي العباس أحمد بن معد[١١٢] بن عيسى التجيبي الأندلسي الأقليشي ١٣٠٢هـ = ١٨٨٤م ، و«المضنون به على أهله» ، و«المضنون به على غير أهله» ، كلاهما لأبي حامد الغزالي ١٣٠٣هـ = ١٨٨٥م . وفي العام نفسه طبعت من كتب الغزالي أيضًا «المنقذ من الضلال» . و«شرح التنوير على سقط الزند»[١١٣] لأبي العلاء المعري ، تأليف أبي يعقوب يوسف بن طاهر الخويي ١٣٠٤هـ = ١٨٨٦م ، و«البيان في التمدن وأسباب العمران» ، لرفيق بك العظم ١٣٠٤هـ = ١٨٨٦م . وفي سنة ١٣٠٢هـ = ١٨٨٤م أصدرت هذه المطبعة مجموعة من تأليف آل بيرم التونسيين ، من علماء القرن الثالث عشر الهجري[١١٤] .

البرهان : جريدة بالإسكندرية ، نشر بمطبعتها معوض محمد فريد[١١٥] ، على نفقته كتاب لسان الحكام في تعريف الأحكام ، لابن الشحنة ، بتصحيح رمضان حلاوة ١٢٩٩هـ = ١٨٨١م .

الجامعة : وهي مجلة بالإسكندرية ، من مطبوعاتها المجلد الأول من كتاب «تنوير الأذهان في علم حياة الحيوان والإنسان وتفاوت الأمم في المدنية والعمران» ، للدكتور الطبيب بشارة زلزل[١١٦] ١٢٩٧هـ = ١٨٧٩م .

الجريدة : صحيفة كان يحررها أحمد لطفي السيد باشا - رئيس مجمع اللغة زمنًا طويلاً ، والملقب أستاذ الجليل[١٤٧] . طبع فيها «ديوان محمود سامي باشا البارودي» ١٣٢٧- ١٣٢٩هـ = ١٩٠٩ - ١٩١١م ، ثم طبعت فيها أيضًا مختاراته في الوقت نفسه .

جريدة مصر : طبع بها «منتخب كتاب بهجة المجالس وأنس المجالس» ، لابن عبدالبر ١٣٢٥هـ = ١٩٠٧م ، وقد طبع «بهجة المجالس» نفسه بالدار المصرية للتأليف والترجمة بالقاهرة ١٣٨٢هـ = ١٩٦٢م ، ولم يُشر محققه رحمه الله ، إلى ذلك المنتخب ، كأنه لم يره .

الظاهر : جريدة سياسية يومية ، أنشأها محمد بك أبو شادي[١١٨] ، وهو محام صحفي ، تعلم بالأزهر ، واشتغل بالمحاماة ، وأصدر جريدة الأيام ، أدبية أسبوعية سنة ١٩٠٥م ، ثم جريدة الظاهر ، وكان من محرريها البارزين محمد لطفي جمعة[١١٩] .

ومما نشرته مطبعة هذه الجريدة «ثمار القلوب في المضاف والمنسوب» ، لأبي منصور الثعالبي - بعناية محمد أبو شادي نفسه - ١٣٢٦هـ = ١٩٠٨م ، وطبع بها أيضًا الجزء الأول من كتاب «التصحيف والتحريف»[١٢٠] ، لأبي أحمد العسكري ١٣٢٧هـ = ١٩٠٨م .

الكوكب الشرقي : جريدة بالاسكندرية ، كان من محرريها الشيخ حمزة فتح الله ، صاحب «المواهب الفتحية» ، وقد صحح بها طبعة من «المفصل» للزمخشري - على نفقة إبراهيم شوقي وسليمان حافظ - ١٢٩١هـ = ١٨٧٤م ، وفي العام نفسه طبع بها أيضًا «جواهر الإكليل في مفاخر دولة الخديوي إسماعيل» ، لأحمد بن إسماعيل البرزنجي الحسيني الموسوي[١٢١] .

المحروسة : جريدة ، كان لها نشاط في طبع الكتب ، منه قصة «علم الدين» لعلي باشا مبارك ١٣٠٠هـ = ١٨٨٢م ، ولزوم ما لا يلزم ، لأبي العلاء المعري ، بشرح عزيز زَنّد[١٢٢] ١٣٠٩هـ = ١٨٩١م ، و«ديوان ابن المعتز» في العام نفسه ، بشرح عزيز زند أيضًا ، كما نشر بها أيضًا كتابه «القول الحقيق في رثاء وتاريخ الخديوي المغفور له محمد باشا توفيق» ١٣١٠هـ = ١٨٩٢م . ومن مطبوعاتها أيضًا «فتوح الإسلام لبلاد العجم وخراسان» ، المنسوب إلى الواقدي ١٣٠٩هـ = ١٨٩١م ، و«أعجب ما كان في الرق عند الرومان»[١٢٣] ، للزعيم مصطفى كامل باشا ١٣١٠هـ = ١٨٩٢م ، ألفه عندما كان طالبًا بمدرسة الحقوق .

المؤيد : جريدة يومية ، عظيمة الشأن ، كبيرة الأثر ، أنشأها الشيخ علي يوسف لتقف أمام توجهات المقتطف . راجع ما سبق من حديث عن مجلة الآداب .

الهلال : في يوم الخميس أول شهر صفر الخير سنة ١٣١٠هـ = ٢٥ من أغسطس سنة ١٨٩٢م ، صدر العدد الأول من مجلة الهلال ، المجلة العربية الوحيدة التي ظلت تتابع إصدار عددها الشهري ، ولم تتوقف شهرًا واحدًا منذ صدورها في ذلك التاريخ ، إلى يوم الناس هذا .

وقد صدرت مجلة الهلال من مطبعة متواضعة - شأن جمهور المطابع في تلك الأيام - في دكان صغير بشارع الفجالة في القاهرة ، ومع مرور الأيام وتعاقب الرجال العظام تحولت دار الهلال إلى صرح شامخ من صروح الفكر والعلم والثقافة ،

فبجانب مجلاتها المعروفة : الهلال والمصور والاثنين والكواكب وحواء وطبيبك الخاص . . . وسائر تلك الدوريات ، حرصت دار الهلال على نشر الكتاب ، بمختلف فنونه ومعارفه تحت دورية ثابتة ، مثل كتاب الهلال الشهري ، الذي صدر عدده الخمسمائة في شهر أغسطس ١٩٩٢ ، أو في نشرات مستقلة ، لها طابعها الخاص وحجمها المتغير .

وقد نشرت دار الهلال لرجال الفكر والأدب في مصر ، على اختلاف مدارسهم وتوجهاتهم ، كمصطفى صادق الرافعي ، ومصطفى لطفي المنفلوطي ، وعباس محمود العقاد ، وطه حسين ، وتوفيق الحكيم ، وإبراهيم عبدالقادر المازني ، وأحمد أمين ، ومحمد فريد أبو حديد ، وسلامة موسى . . . إلى سائر رجال هذا الجيل . إلى جانب نشر مؤلفات منشئ الهلال : جرجي حبيب زيدان[١٢٤] .

ثم كان لدار الهلال فضل آخر ، وهو إعادة بعض الأعمال الجيدة ، التي طبعت قديمًا في غير مطبعتها .

ولازالت دار الهلال إلى الآن تواصل نشاطها المحمود في نشر الكتب وإذاعتها .

***

هذه أبرز الصحف والمجلات التي عنيت بإصدار الكتب وإذاعتها ، بجانب نشاطها الصحفي .

وليس يخفى حسن الاختيار والانتقاء في تلك المطبوعات ؛ لأن القائمين على صحف ذلك الزمان ومجلاته ، كانوا أصحاب فكر وبيان ، وكانت لهم رؤيتهم النافذة ، وبصيرتهم الواسعة[١٢٥] .

***

ثانيًا[١٢٦] : عنيت هذه المطابع الأهلية بطبع بعض الموسوعات ، مثل «مسند الإمام أحمد بن حنبل» الذي طبعته المطبعة الميمنية في ستة أجزاء ، و «تاج العروس في

شرح القاموس» للمرتضى الزبيدي ، الذي طبعته المطبعة الخيرية ، في عشرة أجزاء ، و «الكامل» في التاريخ ، لعز الدين بن الأثير ، الذي أخرجته المطبعة الأزهرية ، في اثني عشر جزءاً ، لكن هذه المطابع الأهلية توسعت في طبع الكتب الصغيرة والرسائل ، وهذا فرق ما بينها وبين مطبعة بولاق ، فإن مطبوعات هذه - في الغالب - كانت من الكتب الطوال والأوساط .

***

ثالثًا : سرت روح مطبعة بولاق في تلك المطابع الأهلية ؛ من حيث اختيار الكتب ، في كل علم وفن ، ثم العناية بالترجمة ، وإن تأمل عنوانات الكتب التي طبعت في تلك الأيام يدل على أن الناس كانوا مشغولين بوضع أسس الحضارة والتقدم ، أو التنوير ، كما يقال في هذه الأيام .

وقد سرت روح مطبعة بولاق أيضًا في تلك المطابع ؛ من حيث العناية بالإخراج ، ثم في الشكل الطباعي (طبع الكتب بهامش الكتب) ، ثم العناية الفائقة في التصحيح ، وإذا كنا قد وقفنا في مطبعة بولاق عند هذا النفر من المصححين العلماء ، من أمثال المشايخ نصر الهوريني ، ومحمد قطة العدوي ، ومحمد محمد الحسيني ، وعبدالغفار الدسوقي الملقب عبدالغفار ، وطه محمود قطرية الدمياطي ، ومحمد قاسم ، فإننا نجد أيضًا عند هذه المطابع الأهلية نفرًا من العلماء المصححين من أمثال الشيخ محمد الزهري الغمراوي ، الذي كان يتولى التصحيح بالمطبعة الميمنية ، وكانت تتقدم اسمه في ختام المطبوعات هذه العبارة : «يقول راجي غفران المساوي مصححه محمد الزهراوي الغمراوي» ، والشيخ إبراهيم بن محمد الدلجموني الأزهري ، وقد صحح جزءاً من «البيان والتبيين» للجاحظ ، طبعة الجمالية ، كما صحح طبعة من «الكامل» للمبرد ، نشرتها مطبعة الفتوح الأدبية ، التي أشرت إليها من قبل .

وعن هذا الشيخ الدلجموني يقول شيخنا عبدالسلام هارون ، رحمه الله : «كان غفر الله له من أعلام أدباء الأزهر ، وقد تلمذت له عامًا في الأزهر سنة ١٣٤٠هـ ، ومن آثاره شرح ديوان الحماسة المنسوب للرافعي ، ونشرة من كامل المبرد»[١٢٧] .

بل إن بعض هذه المطابع الأهلية قد حظيت بتصحيح مشاهير مصححي بولاق ، ومن ذلك طبعة «شفاء الغليل فيما في كلاب العرب من الدخيل» للشهاب الخفاجي ، التي أخرجتها المطبعة الوهبية ، صححها شيخ التصحيح ببولاق نصر الهوريني ، وكذلك صحح الشيخ نصر طبعة من الإتقان في علوم القرآن ، للسيوطي ، أصدرتها المطبعة الكاستلية سنة ١٢٧٩هـ = ١٨٦٢م[١٢٨] .

وكذلك طبعة «تاج العروس» بالمطبعة الخيرية ، تولى تصحيحها الشيخ محمد قاسم ، أحد مصححي بولاق ، وكذلك صحح هذا الشيخ نشرة المطبعة الأزهرية من «الكامل» لابن الأثير - وأشرت إلى ذلك من قبل - وصحح أيضًا طبعة من «مروج الذهب» للمسعودي ، أخرجتها المطبعة الأزهرية سنة ١٣٠٣هـ = ١٨٨٥م .

ويبدو أن هذا كان أمرًا شائعًا : أن يشارك مصححو مطبعة بولاق في نشاط المطابع الأهلية ، وقد أدركت أنا شيئًا من ذلك ففي أوائل الستينات كنت أعمل مصححًا بمطبعة عيسى البابي الحلبي ، وكان يعمل معنا بالتصحيح شيخ واع مدرب ، هو الشيخ عبدالرزاق البهائي ، وكان مصححًا بمطبعة بولاق ، فكان يعمل بعض الوقت بمطبعة الحلبي ، حتى إذا أحيل إلى التقاعد انصرف كل الوقت إلى مطبعة الحلبي .

ولقد كان من سمات المطابع في القرن الماضي وشطر كبير من هذا القرن العناية الفائقة بالتصحيح والمراجعة ، فكان المصححون من العلماء[١٢٩] المتميزين ، وكانوا يقومون بما يقوم به المحققون الآن ، وإن لم يضعوا أسماءهم في صدر الكتب ، وهذا مما يؤكد الثقة بهذا العلم الذي طبع في تلك الأيام ، فقد أداه إلينا هؤلاء المصححون بكل أسباب العناية والحيطة .

وحين استقر علم تحقيق النصوص ، وتحددت طرائقه ، لم يفقد المصحح مكانه ، بل ظل له قدره ومكانته ، حيث كان عونًا وظهيراً للمحقق ، في استدراك ما فرط منه ، أو ند عنه . وقد أدركت طائفة من المحققين الكبار كانوا يرعون حق المصحح ، ويفسحون له في مجالسهم ، وذلك الذي ربط بيني وبين هؤلاء المحققين الأعلام : السيد أحمد صقر ، ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، وحسن كامل الصيرفي ، رحمهم الله أجمعين ، إذ كنت أصحح تحقيقاتهم التي كانوا يطبعونها في أوائل الستينات بمطبعة الحلبي .

ومن طريف ما أذكره الآن أني كنت أصحح بالمطبعة المذكورة كتاب «طيف الخيال» للشريف المرتضى ، وكان محققه الأستاذ حسن كامل الصيرفي ، وفي أثناء التصحيح وقفت على هذا البيت ، في حواشي ص ٥٦ ، منسوبًا لمسلم بن الوليد (صريع الغواني) :

فإذا تنبه رعته وإذا غفـــــا   سلت عليه سيوفك الأحـــلام

وقد نقله محقق «ديوان مسلم» الدكتور سامي الدهان ، عن شرح ديوان المتنبي المنسوب للعكبري ، وفي ذلك الوقت كنت أصحح بمطبعة الحلبي أيضًا كتاب «التمثيل والمحاضرة» للثعالبي ، بتحقيق أخي وعشيري الدكتور عبدالفتاح الحلو ، رحمه الله ، وفي ص ٨٤ ، وجدت ذلك البيت منسوبًا لأشجع السلمي ، وقبله بيت يخاطب فيه الشاعر هارون الرشيد :

وعلى عدوك يا ابن عـم محمد   رصدان ضوء الصبح والإظلام

فأخذت نسبة البيت هذه ، وذهبت بها إلى الأستاذ الصيرفي - فرحًا مزهوًا - فأثبتها في ص ١٤٠ من طيف الخيال ، ومنذ ذلك اليوم صارت لي مكانة عند الأستاذ الصيرفي ، فأدناني من قلبه ، وفسح لي في مجلسه ، وبسط لي علمه ، وفتح لي بيته ، وأفاض عليَّ من خلقه ، فاستفدت منه الكثير ، وعرفت في بيته أدباء وشعراء

ومحققين ، رحمه الله رحمة سابغة .

ولقد كان مصححو المطابع في أواخر القرن الماضي ، والقرن الحالي ، من طلبة الأزهر ودار العلوم ، الذين التمسوا أرزاقهم في تصحيح الكتب بالمطابع ، وكان منهم أيضًا طائفة من المعلمين ، الذين مارسوا هذه المهنة ، مع القيام بأعباء التدريس ، وأعرف أناسًا ذوي أقدار الآن عملوا زمانًا في مهنة التصحيح ، بل إن شيخًا جليلاً من شيوخ الأزهر ، عمل مصححًا بدار الكتب المصرية(١٣٠) خمس سنوات ، وهو الشيخ محمد الخضر حسين ، العالم التونسي الكبير ، وشيخ الأزهر ، في أول قيام الثورة المصرية - ١٩٥٢م .

ومما يستطرف ذكره هنا أن الشيخ الشهيد حسن البنا ، مؤسس جماعة الإخوان المسلمين كان بسبيل الاشتغال بهذه المهنة ؛ مهنة تصحيح الكتب ، ولكن حالت شواغل الدعوة دون أن يمضي في ذلك الطريق ، وحديث ذلك ذكره الدكتور سامي الدهان ، حيث أشار في مقدمة تحقيق ديوان مسلم بن الوليد (صريع الغواني) إلى الطبعة المصرية من الديوان التي أنفق عليها محمد أحمد رمضان المدني ، صاحب مكتبة المعاهد العلمية بالصنادقية بمصر ، وقد ذكر على الورقة الأولى من هذه الطبعة : «نقحه وصححه وعلق عليه الأستاذ الجليل حسن أفندي أحمد البنا ، المدرس بالمدارس الأميرية» ، ثم ذكر على الورقة الأخيرة منه : «تم طبع ديوان صريع الغواني ، وقد قام بتصحيح بعض أصوله قبل تقديمه للطبع الأستاذ الجليل حسن أفندي أحمد البنا ، المدرس بالمدارس الأميرية ، ورئيس جمعية الإخوان المسلمين ، وقد حالت أشغاله دون تصحيحه أثناء الطبع» .

ويعلق الدكتور سامي الدهان على ذلك فيقول : «ولعل الأستاذ الجليل قد شغلته الدعوة ، فانصرف عن «مسلم» إلى المسلمين ، وتعلق بشرح الدين وتقويم النفوس ، فترك تقويم الديوان لغيره ، يخرجه على هذا الشكل في مصر ، ولم نقع للمرحوم البنا

على كلمة في «مسلم» تبين رغبته فيه أو حكمه عليه ، ولكننا نرى في عمله له ، وسعيه وراء نشره حبًا بالشاعر وحدبًا عليه ، وتعلقًا بالشعر الصحيح الجزل الفصيح خدمة للناطقين بالضاد والمسلمين»[١٣١] .

***

رابعًا : اكتسبت بعض المطابع الأهلية شهرة لدى بعض المستشرقين ، الذين آثروها على غيرها من مطابع أوربا[١٣٢] ، أو سواها من البلدان ، فطبعوا بها تحقيقاتهم ، وبخاصة في مطالع القرن العشرين ، مثل مطبعة هندية بالموسكي ، فقد طبع فيها المستشرق الإنكليزي مرجليوث «معجم الأدباء» لياقوت الحموي – من تحقيقه – من سنة ١٩٠٩ – ١٩١٦م ، على نفقة تذكار لجنة جب ، وكذلك طبع بها المستشرق الألماني بولس برونله ، كتابين جليلين ، تحت عنوان : «آثار اللغة العربية» ، الكتاب الأول «شرح غريب السيرة النبوية» لابن هشام ، تأليف أبي ذر الخشني ١٣٢٩هـ = ١٩١١م ، والكتاب الثاني «نظام الغريب» ، لأبي محمد الربعي[١٣٣] ١٣٣٠هـ = ١٩١٢م .

وكذلك مطبعة الرحمانية بالخرنفش ، وصاحبها عبدالرحمن موسى شريف – طبع بها المستشرق الإنكليزي آرثر جفري كتاب المصاحف ، لأبي بكر عبدالله بن أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني ، سنة ١٣٥٥هـ = ١٩٣٦م ، على نفقة بريل بمدينة ليدن ، مع شهرة مطبعة بريل في ذلك الزمان ، وإخراجها لنفائس التراث العربي ، كما هو معروف من تاريخها[١٣٤] .

ومن ذلك أيضًا : مطبعة السعادة ، طبع بها المستشرق الألماني ج . براجستراسر[١٣٥] كتاب «طبقات القراء» لابن الجزري ، المعروف باسم «غاية النهاية» ، سنة ١٣٥١هـ = ١٩٣٢م ، بمشاركة مكتبة الخانجي .

وبجانب اكتساب المطابع المصرية هذه الشهرة ، اكتسب الطابع المصري أيضًا

تلك الشهرة ، حتى استعين به في تشغيل مطبعة ببلاد المغرب الأقصى ، في منتصف القرن التاسع عشر ، وذلك ما ذكره العلامة الشيخ محمد المنوني ، حفظه الله ، في قصة دخول المطبعة الحجرية بلاد المغرب ، قال : «وصلت المطبعة الحجرية للمغرب في شعبان سنة ١٢٨١هـ = ١٨٦٤/ ١٨٦٥م ، وكان دخولها يتسم بشكل فردي ، حيث جاء على يد قاضي تارودانت محمد الطيب بن محمد السوسي التملي الروداني ، الذي اشتراها من الشرق لما حج ، ثم أتى بها للمغرب ، ومعه طبّيع مصري ليشتغل بها»[١٣٦] . وقد أورد الأستاذ المنوني صورة العقد المبرم بين القاضي الروداني والطابع المصري ، ونحن نورد نص ذلك العقد ، لطرافته ودلالته التاريخية ، وهو : «إنه لما كان في يوم الأربعاء المبارك ١٤ يوم خلت من شهر ربيع الأول سنة ١٢٨١هـ : اتفق حضرة العمدة الفاضل السيد الطيب الروداني ، ابن المرحوم السيد محمد الروداني ، من أهل مدينة روادن «مغرب» مع الفقير إلى الله تعالى كاتب الأحرف الفقير محمد القباني المطبعي ، ابن المرحوم إبراهيم ، من أهالي مصر المحروسة ، على أنه يتوجه برفقته إلى مدينة روادن بأرض المغرب ، ويشتغل عنده على مطبعة حجرلو ، عدة سنة كاملة ، ابتداها «كذا» شهر ربيع الأول سنة ١٢٨١هـ ، وانتهاها «كذا» شهر صفر الخير سنة ١٢٨٢هـ ، وله نظير ذلك راحته مما جميعه «كذا»[١٣٧] من أكل وشرب وكسوة ، على طبق مراده ، وفي كل شهر يعطى له مئتان غرش مصروف لجيبه ، وقد رضي الفقير محمد القباني بذلك ، ومن بعد وفاء السنة المذكورة إذا أراد الفقير محمد القباني بأن يرجع إلى بلده مصر المحروسة بأن يرحله العمدة السيد الطيب إلى حد بلده على طرفه ، وقد رضي السيد المذكور بذلك» .

وكانت هذه المطبعة الذي أدارها الطابع المصري نواةً لغيرها من المطابع التي تدرب عمالها علي يد ذلك المصري ، بمدينة فاس ، ومع شيوع تلك المطابع الحجرية وقيامها بنشر الكتب وإذاعتها ، رأينا السلطان محمد الرابع يحاول تطوير

الطباعة المغربية ، وتأسيس مطبعة عصرية الحروف ، إلى جانب المطبعة الحجرية ، وقد أرسل لذلك أحد الطلبة المغاربة إلى مصر ؛ ليتدرب على الطباعة العصرية ، وهذه رسالة من إسماعيل باشا خديوي مصر ، إلى محمد الرابع سلطان المغرب ، تتضمن الترحيب بذلك المغربي الموفد ، وتاريخ هذه الرسالة شهر شوال سنة ١٢٨٣هـ الموافق شهر فبراير سنة ١٨٦٦م . تقول رسالة الخديوي إسماعيل : « . . . هذا وقد سررت بورود مشرفكم الكريم ، المتضمن لزوم المطبعة لذلك الجناب الفخيم ، وما يحتاجه المخصوص الوارد بشأنها ، من مزيد التمرين والتفهيم ؛ وذلك لما فيها من الإعانة على طلب العلم الشريف وتعليمه ، وتسهيل السبيل في نشره بين البرايا وتعميمه ، وصيانة كتبه الشريفة من تحريف الكاتبين ، وتقريب تناولها إلى أيدي الطالبين والراغبين ، وهذا دليل ظاهر ، وبرهان باهر ، على مزيد عنايتكم فيما فيه المصلحة العامة ، ورعايتكم لما يعود على الناس بالفائدة التامة ، واهتمامكم بأمر العلم الكريم وأهله ، وقيامكم بما يجب من حق فضله ، فمتع الله ببقائكم الملك والعليا ، ونفع بوجودكم وسعودكم الدين والدنيا ، وقد أرسلنا المومى إليه إلى دار الطباعة[١٣٨] ، وأكدنا على مأمورها بإراءته كل ما يلزم لهذه الصناعة ، والاعتناء بتمرينه على استعمال أدواتها ، وتوقيفه على كيفية إدارة آلاتها ، وسائر كيفياتها»[١٣٩] .

***

خامسًا : اتجه بعض أصحاب هذه المطابع الأهلية إلى طبع بعض الكتب في مطابع أخرى غير مطابعهم ، ولهذا دلالة على أن القوم كانوا في عجلة من أمرهم ، وأنهم كانوا يريدون طبع الكتب على أوسع نطاق ، وكأنهم في سباق مع الزمن ، إذ رأوا أن مطابعهم الخاصة تضيق عن استيعاب نشاطهم ، وتحقيق طموحاتهم .

فهذا مصطفى البابي الحلبي ، صاحب المطبعة الميمنية ينفق على طبع كتاب «فقه اللغة» لأبي منصور الثعالبي ، بالمطبعة العمومية سنة ١٢٩٨هـ = ١٨٨٠م ، وكذلك

ينفق على طبع «الكشاف» للزمخشري ، بمطبعة بولاق ١٣١٨هـ = ١٩٠٠م .

وكذلك عمر حسين الخشاب ، صاحب المطبعة الخيرية ، أنفق على طبع «فتاوى قاضي خان» في فقه الحنفية ، بمطبعة بولاق ١٣١٠هـ = ١٨٩٣م ، وأنفق كذلك على طبع «تفسير الطبري» ببولاق ١٣٣٠هـ = ١٩١١م .

ومحمد عبدالواحد الطوبي - شريك عمر الخشاب في المطبعة الخيرية - أنفق على طبع «محاضرة الأوائل ومسامرة الأواخر» لعلاء الدين على دده البسنوي ، بالمطبعة الشرفية ١٣١١هـ = ١٨٩٣م ، وعلى طبع «شرح مقامات الحريري» للشريشي ، بالمطبعة العثمانية ١٣١٤هـ = ١٨٩٦م .

وفرج الله زكي الكردي ، صاحب مطبعة كردستان العلمية ، أنفق - بالاشتراك - على طبع «شروح التلخيص» في البلاغة ، بمطبعة بولاق ١٣١٧هـ = ١٨٩٩م .

***

ثم أما بعد :

فهذا جانب الطباعة العربية في مصر ، حتى نهاية القرن التاسع عشر ، سقته على سبيل الوجازة والاختصار ، لكني قد حرصت على أن أبرز - من خلال الحديث عن المطابع والناشرين وعنوانات الكتب - الأفكار التي كانت توجه الطباعة والنشر ، فلم تكن القضية أن تدور ماكينات الطبع بما يملأ الأوراق ويسود الصفحات ، لقد كانت هناك - كما قلت من قبل - رغبة عارمة في الإصلاح والنهوض من عوائق التخلف ، للحاق بركب الحضارة الذي أخذت أوربا تجني ثماره ، في تلكم الأيام .

وإذا كانت مطبعة بولاق قد بدأت نشاطها نحو سنة ١٨٢٠م ، ثم تبعتها المطابع الأهلية بعد نحو أربعين عامًا ، وإذا كان القرن التاسع عشر ينتهي عند تمام سنة ١٨٩٩م ، فإن المرء يعجب لغزارة الإنتاج وفيض الكتب الذي جادت به مطبعة بولاق والمطابع الأهلية ، في كل علم وفن بالكتب الصغار والأوساط والكبار ، في الميادين

الثلاثة : الترجمة والإحياء والتأليف .

ولنا أن نقدر أن مطبعة بولاق لم يشتد عودها ، ولم يستقر الأمر لها ، في الطبع والنشر إلا في نحو سنة ١٨٥٠م ، ومعها بعد ذلك المطابع الأهلية ، وإن خمسين عامًا في تاريخ الأمم والشعوب تضيق عن استيعاب هذا العدد الضخم من الكتب العربية المطبوعة ، وإن أردت أن تعرف صدق هذا فتأمل ذلك الكتاب التجميعي العظيم «معجم المطبوعات العربية والمعربة» الذي جمعه ورتبه يوسف إليان سركيس من يوم ظهور الطباعة إلى نهاية السنة الهجرية ١٣٣٩هـ ، الموافقة لسنة ١٩١٩م ميلادية ، وسترى غلبة لطبع الكتاب العربي في مصر ، على كل ما طبع في أوربا وبلاد العجم والهند ، ومختلف البلدان العربية والإسلامية ، وقد قدمت في صدر هذا البحث إحصاء سركيس بما طبع من الكتب حتى سنة ١٢٩٥هـ = ١٨٧٨م ، وقال سركيس عقب هذا الإحصاء : «غير أن من يمعن النظر اليوم في كثرة ما صار إليه عدد المطابع والكتب المطبوعة في عاصمة القطر المصري لا يلبث أن تتولاه الدهشة والانذهال من هذه النهضة العلمية ، بانتشار المطابع والكتب إلى ما ينوف حد الإحصاء ، وقس على ذلك كثيرًا من البلاد السورية والهندية والإيرانية والمغربية»[١٤٠] .

لقد قامت هذه المرحلة من تاريخ الطباعة في مصر على أسس ثابتة ، وجَرتْ على منهج محكم راشد ، من حيث الاختيار والإعداد والطبع ، حتى إذا كان القرن العشرون كانت الثمار قد أينعت ، والأشجار قد تعدَّدت ، وقدَّت فروعها وأغصانها ، في مصر ، وفي خارج مصر .

وفي مصر بوجه الخصوص نشطت حركة النشر الواعي الدقيق ، ولم يتمّ العقْد الثالث من هذا القرن ١٩٣٠ حتى كان الأمر قد استقرّ تماما للطباعة العالية المتقنة في مصر .

ولقد كان من أبرز مظاهر النهضة الطباعية في مصر في أوائل هذا القرن العشرين أنها اجتذبت عدداً من الناشرين النابهين ، الذين استقبلتهم مصر ، وأعتدت لهم متّكأً ، فأنتجوا وملأوا الدنيا علماً ، ومنهم الناشر المغربي محمد ساسي ، وكان تاجراً بالفحّامين من حيّ الغورية بالقرب من الأزهر ، وأنفق على طبع كتب كثيرة ، من أشهرها كتاب الأغاني ، كما سبق ، ثم الناشرون الشوام العظام : محمد أمين الخانجي ، ومحب الدين الخطيب ، ومحمد منير الدمشقي ، وحسام الدين القدسي .

لقد أنشأ الأول المطبعة الجمالية ، إلى جانب نشره في مطبعة السعادة ، والثاني السّلفيّة - وشارك في تأسيسها عبد الفتاح قتلان ، وهو دمشقيٌّ أيضاً ، والثالث المُنيريّة - أما الرابع فهو قصّة وحدة ، فقد كان ينسخ ويجمع ويُصحّح بيده ، ومن دكّان له صغير بحارة الجدّاوي بدرب سعادة خلف دار الكتب المصرية خرجت كتب وموسوعات . وقد فتح هؤلاء الشوام فتحاً في تاريخ الطباعة العربية .

ثم جاءت مرحلة مطابع دار الكتب المصرية ، ولجنة التأليف والترجمة والنشر ، ودار المعارف ، والمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، وسائر دور النشر في مصر ، مما هو معروف ومذكور(١٤١) .

***

ولم يبق إلا بعض المقترحات :

أولاً : لقد حظيت المخطوطات في العقود الأخير بعناية كبيرة ، في التعريف بها وفهرستها ودراستها ، والبحث في مختلف شؤونها ، ورأيي أنْ قد آن الأوان لنبذل عناية مساوية بالمطبوعات : درْساً وإحصاءً ، وأماكن طبع ، وأسماء مطابع ، وأسماء ناشرين .

وإذا كان من أقدم المطبوعات العربية كتاب «الكافية في النحو» ، لابن الحاجب ،

الذي طبع في روما بايطاليا سنة ١٥٩٢م / و«القانون في الطب» ، لابن سينا ، الذي طبع في روما أيضاً سنة ١٥٩٣م : فإن هذه أربعمائة سنة في تاريخ الطباعة العربية ، مرّتْ بها تلك الطباعة بمراحل ، وخضعت لاتجاهات ، وهذه وتلك تحتاج إلى درْس وتحليل وإحصاء .

ولعلّ أول ما ينبغي عملُه في هذا المجال : هو إحصاءٌ دقيق بأسماء المطابع التي تولّتْ طبع الكتاب العربيّ في مختلف البلدان ثم إحصاء بمطبوعات كل مطبعة .

نعم إننا بحاجة إلى معرفة ما طبع وأماكن طبعه ، لقد صنع يوسف إليان سركيس كتابه الجيّد «معجم المطبوعات العربية والمعرّبة» من يوم ظهور الطباعة إلى نهاية السنة الهجرية ١٣٣٩هـ الموافقة للسنة الميلادية ١٩١٩م ، مع ذكر أسماء مؤلفيها ولمعة من ترجمتهم ، وقد أبلى في ذلك بلاءً حسناً ، وقد جاءت بعده جهود ، لتكمل المسيرة ، ولكنها جهود فردية ، وفيها ثغرات كثيرة ،

إن هذا الذي أقترحه الآن يحتاج إلى جهود هيئة كبرى ، تعمل وفْقَ منهج محكم دقيق ، لكثرة ما طُبع من الكتب وتعدّد جهات النشر .

إن كثيراً من المطبوعات قديماً ، تُعدّ الآن في حكم المخطوطات ، من حيث نُدرةُ وجودها وصعوبة الوصول إليها ، ومعرفة حقيقة أمرها .

لقد أشرت من قبل إلى أن كثيراً مما طُبع في مراحل الطبع الأولى ، لا تُعرف طبيعة الأصول الخطيّة التي طُبع عنها ، فالذي يريد تحقيق كتاب مخطوط الآن عليه بعد أن يجمع مخطوطاته المتاحة له من الشرق والغرب ، أن يبحث عن مطبوعاته القديمة ، إن كان قد طُبع من قبل ، فهذه المطبوعات القديمة بمثابة أصول أخرى للكتاب المراد نشرُه وتحقيقه ، فلعل هذا المطبوع قد قام على أصل مخطوط جيّد لا نعرفه .

ثانيا : لقد ثبت أن حركة نشر الكتب وطباعتها في القرن التاسع عشر ، قد وقف وراءها نفرٌ من عظماء الرجال : ناشرون ومنفقون وأصحابُ مطابع ومصحّحون ،

وهؤلاء الرجال قد بذلوا جُهداً كبيراً ، واحتملوا عناءً باهظاً ، وقد سجّلت أسماؤهم في أوائل المطبوعات وأواخرها ، حتى جاءت ظاهرة طبع الكتب بالتصوير (الأوفست) فاغتالت تاريخ هؤلاء الرجال العظام اغتيالاً ، حين أغفلت زمان الطبع ومكانه ، وتمادتْ فأسقطت أواخر المطبوعات ، التي كان يُنَصُّ فيها على اسم مُصحّح الكتاب ، واسم ناشره ، واسم من أنفق على طبعه ، وطمس خاتم المطبعة بالسّواد ، كما ترى في آخر «المخصّص» لابن سيده المطبوع بمطبعة بولاق سنة ١٣١٦هـ = ١٨٩٨م فقد أصدر منه المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر ببيروت طبعة مصوّرة ، منذ نحو عشرين عاماً ، وترى في صفحة ١٦٩ من الجزء السابع عشر ، وهو آخر الكتاب ، ترى ضرباً بالسّواد الكثيف على خاتم المطبعة الأميرية ببولاق ، فإذا رجعت إلى الأصل المصوّر عنه ، وجدت عبارة الخاتم هكذا : (دار الطباعة الميرية بولاق) .

بل انتهى الأمر إلى إسقاط اسم المحقق ، وإليك بعض الأمثلة من هذه الجرائم :

(أ) «كتاب» الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ،» ليحيى بن حمزة العلوي اليمني ، طبع بعناية دار الكتب المصرية ، في ثلاثة أجزاء ، بمطبعة المقتطف سنة ١٣٣٢هـ = ١٩١٤م . وقد حظيت هذه الطبعة بتصحيح إمام من أئمة العربية في هذا العصر ، هو العلامة الشيخ سيد بن علي المرصفي ، ثم جاءت دار الكتب العلمية ببيروت ، فأصدرت مصوّرة من هذه الطبعة سنة ١٤٠٠هـ = ١٩٨٠م ، أسقطت منها اسم هذا الشيخ الجليل .

(ب) كتاب «لُباب الآداب» ، للأمير أسامة بن منقذ ، صدر بتحقيق محدّث العصر الشيخ أحمد محمد شاكر ، سنة ١٣٥٤هـ = ١٩٣٥م ، بالمطبعة الرحمانية بمصر ، لحساب مكتبة لويس سركيس بالفجّالة ؛ : رأيت منه مصوّرة بيروتيّة ضالّة ، أُسقط منها اسم الشيخ الجليل ، محقّق الكتاب .

(ج) كتاب «أخبار القضاة» ، لوكيع ، نشرته المكتبة التجارية بمصر ، بمطبعة الاستقامة سنة ١٣٦٩هـ = ١٩٥٠م ، صدرت منه مصوّرة عن عالم الكتب ببيروت ، بدون تاريخ - أسقطت اسم مصحّح الكتاب ومخرّج أحاديثه عبد العزيز مصطفى المراغي[١٤٢] .

وهكذا أحيل بين أبناء هذا الجيل وبين معرفة جهاد أسلافهم الذين مهدوا الطريق ، وسلكوا دُرُوباً مضنية .

ولما كان العاملون بتاريخ الطباعة ، المحبّون للعلم ، العارفون بتاريخ الرجال يتناقصون يوماً إثر يوم فلا بدّ من عمل وجُهد ؛ لاستنقاذ هذا التاريخ من بئر النسيان وقرارة الضّياع ، وذلك يكون بعمل قوائم (ببليوغرافيات) إحصائية بأسماء المطابع ، وأسماء أصحابها ، ثم أسماء الناشرين ، وأسماء المصحّحين ، في هذه المرحلة المبكّرة من الطباعة . كما قلتُ في . . السابق .

ثالثاً : قلت :إن مرحلة طبع الكتب في القرن التاسع عشر قد شهدت ظاهرة طبع الكتب بهامش الكتب ، وهذه الكتب المطبوعة على هوامش الكتب يَغْفُل عنها الناسُ أحياناً ، وبعضها طُبع مستقلاً ، وبعضها لم يطبع غير تلك الطبعة بهامش الكتاب الأصلي ، ومن ذلك كتاب «شرح الشواهد الكبرى» ، لبدر الدين العيني ، طبع بهامش «خزانة الأدب» ، للبغدادي ، بمطبعة بولاق ، كما سبق ، ولم يطبع غير تلك الطبعة .

فيُقترح هنا عمل قوائم بهذه الكتب التي طُبعت بحواشي الكتب ، في القرن التاسع عشر ، والفرصة مواتية هنا - والحمد لله - فإن مركز جمعة الماجد قد وُفّق لعمل عظيم ، هو جمع بعض المكتبات الخاصة ، التي عُرف أصحابها بجمع كل شاذّة وفاذّة ، مثل مكتبة شيخنا الجليل عبد الغني عبد الخالق ، ومكتبة أستاذنا العلامة السيد أحمد صقر رحمهما الله تعالى ، وقد رأيت هاتين المكتبتين ، وعرفت

نفائسها ، إذ قد أسعدني زماني بالقرب من العالمين الكبيرين ، فعن طريق هاتين المكتبتين ، مع ما جمعه المركز من نفائس المكتبات الأخرى ، يمكن تنفيذ هذين المقترحين .

رابعاً : توصية الباحثين والكاتبين بتسجيل المعلومات التامة الدقيقة ، في قائمة مراجعهم ومصادرهم ، من حيث ذكر عنوان الكتاب كاملاً ، واسم مؤلفه ، واسم مصحّحه ، وعدد أجزائه ، وتاريخ الطبع بالهجري والميلادي ، واسم المطبعة ، واسم الناشر ، إذا لم يكن هو صاحب المطبعة ، واسم المنفق على طبع الكتاب .

خامساً : توجيه نظر أصحاب دور النشر - وبخاصة في بيروت ، وهم أول من نَقَب النَّقْب وفتح الباب - حين أخلدوا إلى الراحة ، وطلبوا الغنيمة الباردة ، بتصوير أعمال السابقين ، توجيه نظرهم إلى أن يتقوا الله ويُبقوا على أسماء المطابع القديمة والمحقّقين والمصحّحين ، وسائر أصحاب الحق القديم .

وبذلك نحفظ للتاريخ حقَّه ، وللناس جهودهم .

والله من وراء القصد ، وهو ولي التوفيق .

الحواشي

(١) خطط المقريزي ٢/ ١٢٧-١٢٩ (طبع دار التحرير للطبع والنشر . القاهرة ١٩٦٧م) .

(٢) ويقال : إن محمد علي باشا أنشأ مطبعته إنشاء ؛ لأن الحملة الفرنسية حملت مطبعتها معها عند انسحابها من مصر .

(٣) كما جاء في كتاب الكافية في النحو لابن الحاجب المطبوع بها ١٢٤٧هـ = ١٨٣١م .

(٤) يأتي هذا وصفاً لبعض المطابع الأخرى ، مثل المطبعة العامرة باستانبول ، والمطبعة العامرة العثمانية بمصر .

(٥) حرَدَ يحْرِد : أي قصد يقصد ، ومنه قول تعالى : ﴿وغدوا على حرد قادرين﴾ - سورة القلم ٢٥ .

(٦) اسمه : رفاعة بن بدوي بن علي بن محمد بن علي بن رافع الطهطاوي الحسيني الشافعي . ولد سنة ١٢١٦هـ = ١٨٠١م ، وتوفي سنة ١٢٩٠هـ = ١٨٧٣م . الأعلام ٣/ ٥٥ .

(٧) مطبعة بولاق ١٣٠٩هـ = ١٨٩١م ، بل قد طبع قبل ذلك بمطبعة شرف ١٢٩٨هـ = ١٨٨٠م ، ثم طبع بعد ذلك بالمطبعة الميمنية ١٣١٦هـ = ١٨٩٨م .

(٨) التراث العربي ص ٤٩ .

(٩) راجع كتاب أباطيل وأسمار ، لمحمود محمد شاكر ص ١٥٤ - ١٩٥ .

(١٠) وقد أعيدت هذه الطبعة كما هي بمطبعة السعادة ١٣٤٣هـ = ١٩٢٤م ، ثم كانت طبعة ثالثة بمطبعة عيسى البابي الحلبي ١٣٥٦هـ = ١٩٣٧م .

(١١) الخطط التوفيقية لعلي باشا مبارك ٢/ ٣٢٥ (طبعة دار الكتب المصرية) ١٩٨٢م ، والأعلام ٢/ ٢٥٣ ، هذا وللشيخ إبراهيم عبد الغفار الدسوقي - أحد مصححي المطبعة ، وسيأتي - رسالة سماها : مقالة شكرية للحضرة الإسماعيلية على إنشاء دار الوراقة المصرية ، مطبوعة ببولاق سنة ١٢٨٨هـ = ١٨٧١م .

(١٢) الأعلام ٨/ ٣٥١ ، وترجم له الزركلي ترجمة جيدة ، وذكر في حاشية أنه أول من ظفر بتمام اسمه .

(١٣) الأعلام ٧/ ٧٠ .

(١٤) توفي سنة ١٢٦٤هـ = ١٨٤٨م . معجم المؤلفين ٥/ ١٤٢ .

(١٥) الأعلام ١/ ٤٠ ، ومعجم المطبوعات العربية ص ٨٧٥ ، ومعجم المؤلفين ١/ ٤٨ .

(١٦) الخطط التوفيقية ٢/ ٣٢٦ ، وأورد له مرثيته في حسين باشا حسني ، السابق الحديث عنه قريباً .

(١٧) تفسير الطبري ٣٠/ ٢٣٢ - بولاق ١٣٣٠هـ = ١٩١١م .

(١٨) رأى المرتضى الزبيدي هذه النسخة وأفاد منها ، وكتب اسمه في أولها ، وقال عنها : «وهي النسخة المنقولة من مسودة المصنف في حياته» تاج العروس ١/ ٥ ، والنسخة محفوظة بدار الكتب المصرية برقم (٤٦ لغة) وقد رأيتها أنا مراراً . وانظر مصنف هذه النسخة في كشف الظنون ص ١٥٥٠ .

(١٩) في اللسان ٢٠/ ٣٨٨ «برسباي شعبان» ، وليس في اسمه «شعبان» وقد ولي برسباي السلطنة بمصر سنة ٨٢٥هـ ، وتوفي سنة ٨٤١هـ ، إنباء الغمر ٣/ ٢٧٠ ، والنجوم الزاهرة ١٤/ ٢٤٢ ، ١٥/ ١٠٦ ، والسلوك للمقريزي ج ٤ ق ٢ ص ٦٠٧ ، ١٠٥١ .

(٢٠) أرأيت إلى هذا الكلام الجيد النفيس ، الذي كتبه - في غالب الأمر - أحمدبك الحسني الذي أنفق على طبع الأم - وسيأتي حديثه . والذين صوّروا الأمّ بعد ذلك أسقطوا هذا الكلام ، فانظر وتأمل أي جناية جناها هؤلاء الناس . وإلى الله المشتكى !

(٢١) لعلّ ممّا يقوي هذا قول الدكتور فؤاد سزكين - وهو يتحدث عن روايات صحيح البخاري - : «ولا يُعرف حتى اليوم مصير النص الأصلي لليونيني الذي كان موجوداً في إحدى مكتبات استانبول ، ثم أرسل بأمر السلطان عبد الحميد لينشر في مصر ، ويبدو أن طبعة بولاق سنة ١٣١٣ والتي قامت على أساسه قد احتفظت احتفاظاً لا بأس به بسمات هذا العمل» تاريخ التراث العربي ١/ ٢٢٧ .

(٢٢) انظر التعليق السابق ، ثم انظر ترجمة اليونيني في الوافي بالوفيات ٢١/ ٤٢١ ، وتذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه ١/ ٢٤٢ ، وما في حواشيهما .

(٢٣) هكذا ذكر هو اسمه ، في ترجمته لنفسه من كتابيه : أبجد العلوم ٣/ ٢٧١ ، والتاج المكلل ص ٥٤١ ، لكن الزركلي سمّاه «محمد صديق خان» الأعلام ٧/ ٣٦ ، وكذلك كحالة في معجم المؤلفين ١٠/ ٩٠ ، وكذلك جاء في خاتمة طبع فتح الباري المذكور بعد .

(٢٤) ضبطها ياقوت في معجم البلدان ، بفتح القاف ، وذكر صاحب القاموس أنها بالكسر ، على وزن سِنَّوْر ، وقال الحميري في وصفها : «أفخر بلاد الهند اسماً وشأناً ، وأعظمها صيتاً ، وأقدمها بنياناً» الروض المعطار ص ٤٧٤ .

(٢٥) أبجد العلوم ٣/ ٢٧٣ ، ٢٧٤ .

(٢٦) فهرس الفهارس والأثبات ص ٣٢٣ .

(٢٧) الأعلام ١/ ٩٤ (طبعة دار العلم للملايين) ، ثم انظر ثبتاً بمؤلفاته في معجم المطبوعات ص ٣٨٣ .

(٢٨) ذكر المرتضى الزَّبيدي في التاج أن العزبة بالكسر : اسم لعدة مواضع بثغر دمياط .

(٢٩) وهذا مما لم تذكره كتب التراجم التي ترجمت للرجل ، وهذه ثمرة المسموعات والمرويات .

(٣٠) لم يذكر المصحّح أنهم من أهل مكة ، ولكني عرفتهم من خلال إقامتي بالبلد الحرام ، ورأيت أسماءهم تتردّد في سلسلة أبنائهم وأحفادهم وعائلاتهم .

(٣١) من علماء الأزهر الشريف ، ثم من مدرسي مدرسة القضاء الشرعي ، وقد تولى مشيخة المعهد الأحمدي بطنطا ، وله رسالة موجزة جيدة في مصطلح الحديث ، كانت من مواد دراستنا بالأزهر الشريف ، طبعت بمطبعة شرف سنة ١٣٢٩هـ = ١٩١١م . ثم طبعت ثانية بمطبعة الفتوح الأدبية ١٣٣١هـ = ١٩١٢م ، توفي سنة ١٣٤٦هـ = ١٩٢٨م . الأعلام ٤/ ١٦١ .

(٣٢) الأعلام ٤/ ٦٢ ، والأعلام الشرقية ١/ ٨٨ .

(٣٣) مقدمة تحقيق النجوم الزاهرة ١/ ٦ ، بقلم أحمد زكي العدوي ، رئيس قسم التصحيح بدار الكتب المصرية . ويلاحظ أنه كتب هذا الكلام بعد وفاة عبد الخالق ثروت ، فشُبهة تملق رئيس الوزراء منتفية ، والصدق لائحٌ ظاهرٌ بحمد الله .

(٣٤) معجم المطبوعات العربية ص١٨٤٤ ، وانظر الأعلام ٧/ ٣٢٢ ، ومعجم المؤلفين ١٢/ ٣٤ .

(٣٥) هو علي راتب بن محمد بن أبي بكر باشا راتب ، من أعيان مصر ، ومن أهل القاهرة ، عني بالأدب . توفي سنة ١٣٧٤هـ = ١٩٥٥م . الأعلام ٧/ ١٩٩ ، وذكره الزركلي في أثناء ترجمة «محمد علي راتب» القانوني المحامي ، لتشابه الاسمين واللقبين ووحدة عام الوفاة .

(٣٦) الأغاني ص ٤-٦ من التصدير .

(٣٧) الأمالي ص (خ) من المقدمة .

(٣٨) في هذه السنة ظهر الطاعون بالقاهرة ، وكان لكلوت بك جهود بارزة في علاجه ووصفه ، راجع معجم المطبوعات العربية ص ١٥٦٦ .

(٣٩) يلاحظ أن كتاب «كليلة ودمنة» طبع قبل ذلك التاريخ بسنتين - ١٨٣٣م - بمطبعة بولاق ، فكأن هذه الطبعة عُملت خاصة لرجال المدفعية .

(٤٠) مهندس ، قائد ، عالم بالتاريخ ، ولد في «الشنتور» من قرى بني سويف ١٢٥٥هـ = ١٨٣٩م وتعلم في مدرسة المهندسخانة ببولاق ، وعيّن معلماً في مدرسة الهندسة العسكرية فكبيراً لمهندسي قسم الساحل على البحر الأبيض المتوسط ، فبنى ١٧ قلعة ، ساعد الجيش العثماني في حروب الصّرب ، وكان من أنصار الحركة العرابية ، وحكم الإنكليز بإعدامه وخُفّف الإعدام إلى النفي بجزيرة سيلان فتوفي فيها سنة ١٣١١هـ = ١٨٩٤م . الأعلام ٨/ ٥٧ ، ٥٨ ، ومعجم المطبوعات ص ١٧٣ .

(٤١) من أسرة السكاكيني المشهورة بدمشق ومصر . وأوغسطين هو ابن جبريال الذي سافر من دمشق إلى باريس بصحبة نابليون بونابرت . وذكر سركيس أن أوغسطين ولد سنة ١٨٠٨م وتوفى سنة ١٨٥٤م . معجم المطبوعات ص ١٠٣٥ .

(٤٢) وطبع بعد ذلك طبعتين ، إحداهما سنة ١٨٥٣م في المطبعة نفسها ، بترجمة صالح مجدي وعطا حسن ، ومحمد مصطفى ، والثانية في السنة نفسها ، وبالمطبعة نفسها ، بترجمة محمد مصطفى ، وعامر سعد ، وإبراهيم البياع . راجع : قوائم بأوائل المطبوعات العربية ص ١٣٤ ، ١٤٦ .

وسماه سركين «المنحة الأزهرية في الأعمال الجبرية» . معجم المطبوعات ص ١٢٦١ .

(٤٣) مهندس ، كان مدرس العلوم الرياضية والطبيعية بمدرسة المهندسخانة بالقاهرة . توفى سنة ١٢٨٩هـ = ١٨٧٢م الأعلام ٥/ ١٢٨ ، ومعجم المطبوعات ص ١٣٦٥ ونسبة ترجمة الكتاب إلى «علي عزت» منهما . أما محمد جمال الدين الشوربجي ، فقد نسب الكتاب تأليفاً إلى علي باشا مبارك ، وقال : ترجمة السيد عمارة . قائمة بأوائل المطبوعات العربية ص ١٤٠ .

(٤٤) محمد بن صالح بن أحمد ، المعروف بصالح مجدي ، ولد في أبي رجوان ، بالجيزة بمصر سنة ١٢٤٢هـ = ١٨٢٧م ، تعلم بمدرسة الألسن ، ثم تولى تدريس العربية والفرنسية بمدرسة المهندسخانة ، ثم تحوّل إلى القضاء في المحاكم المختلفة ، حتى توفى سنة ١٢٩٨هـ = ١٨٨١م ، قال عنه علي باشا مبارك : «كان لي المترجم رفيقا ، مع قيامه بوظائفه ، وطالما استعنت بقلمه على تأليف كتب متنوعة في فنون شتى» ترجم عن الفرنسية كتباً كثيرة ، وله ديوان شعر . الأعلام ٧/ ٣٤ ، ومعجم المطبوعات ص ١١٨٧ .

(٤٥) مهندس ، من بلدة الشّيانات ، محافظة الشرقية بمصر ، أرسل في عهد محمد علي إلى فرنسا ، فتعلم الهندسة والرياضيات ، ولما عاد عين مدرّساً بمدرسة المهندسخانة ، ترجم عن الفرنسية كتبا ، وكان أحد مهندسي قناة السويس . توفي سنة ١٢٨٠هـ = ١٨٦٤م . الأعلام ١/ ٣٣ ، ومعجم المطبوعات ص ١٦ .

(٤٦) عطا باشا بن حسن بن حسني . مؤرخ كاتب عارف باللغات العربية والتركية والإنكليزية والفرنسية . ولد بالقاهرة سنة ١٢٩٨هـ = ١٨٨١م ، ولم يعرف له تاريخ وفاة . معجم المطبوعات ص ١٣٣٣ ، ومعجم المؤلفين ٦/ ٢٨٢ .

(٤٧) هكذا ذكر شيخنا عبد السلام هارون رحمه الله في التراث العربي ص ٤٧ ، لكننا نجد في القائمة التي طبعتها دار الكتب المصرية بأوائل المطبوعات العربية ص ٥٧ : مطبعة حجر ، تسمى مطبعة الأفندي ، طبعت حاشية الشيخ حسن العطار ، على الأزهرية للشيخ خالد الأزهري ، سنة ١٨٣٥م = ١٢٥١هـ ، أي بعد ظهور مطبعة بولاق بخمسة عشر عاماً ، ولعل شيخنا يعني بالمطابع الأهلية المشهورة منها .

(٤٨) في معجم المطبوعات العربية ص ٩٢٢ (١٨٩٩م) وهو خطأ .

(٤٩) عبد الله - أبو السعود أفندي - بن عبد الله أبي السعود ، أول صحفي سياسي في تاريخ مصر الحديث ، ولد في دَهْشُور -

بين القاهرة والفيوم - سنة ١٢٣٦هـ = ١٨٢٠م ، تعلم وأتقن مع العربية الفرنسية والإيطالية ، وعين ناظراً لقلم الترجمة ، فأستاذا للتاريخ بدار العلوم ، أنشأ جريدة وادي النيل ، ثم تولى تحرير روضة الأخبار ، وفي عام ١٨٧٦م عيّن قاضياً بمحكمة الاستئناف . له ديوان شعر ، وأرجوزة : عشرة آلاف بيت في سيرة محمد علي باشا . وله مؤلفات في التاريخ والقانون . توفى سنة ١٢٩٥هـ = ١٨٧٨م . الأعلام ٤/ ٢٣٤ ، ومعجم المطبوعات ص ٣١٤ .

(٥٠) حسن حسني باشا بن حسين عارف الطويراني ، تركي الأصل ، ولد بالقاهرة سنة ١٢٦٦هـ = ١٨٥٠م ، ونشأبها ، وجال في بلاد كثيرة ، نظم شعراً كثيراً بالعربية والتركية ، وأنشأ جريدة النيل ومجلة الإنسان ، ومجلات أخرى . توفى بالقسطنطينية (استنبول) ١٣١٥هـ = ١٨٩٧م ، وانظر أنموذجا من إنشائه في مقدمة كتاب الدر المنثور لزينب فواز . الأعلام ٢/ ٢٠١ ، ومعجم المؤلفين ٣/ ٢١٦ ، ومعجم المطبوعات ص ١٢٥٣ .

(٥١) هكذا جاء اسمه بآخر كتاب طراز المجالس ، لشهاب الدين الخفاجي ، المطبوع بالمطبعة المذكورة سنة ١٢٨٤هـ = ١٨٦٧م .

(٥٢) كما جاء بآخر كتاب شهاب الدين الخفاجي أيضاً : شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل ، المطبوع بالمطبعة سنة ١٢٨٢هـ = ١٨٦٥م .

(٥٣) وإن كانت جمعية المعارف قد طبعت بعض مطبوعاتها بمطبعة بولاق . ومن ذلك : شرح التنوير على سقط الزند ، لأبي يعقوب يوسف بن طاهر الخويّي ، سنة ١٢٨٦هـ = ١٨٦٩م ، بتصحيح إبراهيم الدسوقي الملقب عبد الغفار - في جزأين ، وشعر السقط مجموع بالشكل الكامل .

(٥٤) التراث العربي ص ٤٧ .

(٥٥) فرغ من تأليفه سنة ٨٣٩هـ . راجع معجم المطبوعات العربية ص ٥٢٢ .

(٥٦) طبع على نفقة يوسف شيت الديراني البعلبكي . راجع المعجم الشامل للتراث العربي المطبوع ٣/ ١٠٦ .

(٥٧) ذكر صاحب المعجم الشامل ٣/ ٢٧ ، أنه طبع قبل ذلك ، على نفقة جمعية المعارف ، بمطبعة السيد إبراهيم المويلحي ، سنة ١٢٨٧هـ = ١٨٧٠م .

(٥٨) التراث العربي ص ٤٨ .

(٥٩) اسمه محمد بن عبد الجبار العتبى ، نسبة إلى عتبة بن غزوان ، الصحابي الجليل . مؤرخ من الكتاب الشعراء . توفى سنة ٤٢٧ ، الأعلام ٧/ ٥٦ .

(٦٠) ترجمته في الأعلام ١/ ١٧٥ .

(٦١) قال يوسف إليان سركيس : «وهو معجم لما ورد خُصوصاً في فتوح البلدان للبلاذري ، المطبوع بعناية شركة طبع الكتب العربية» معجم المطبوعات ص ١٣٦٠ . وقد طبع هذا القاموس بمطبعة التقدم سنة ١٣٢٤هـ = ١٩٠٦م .

(٦٢) علي بهجت بن محمود بن علي آغا . من العلماء الكبار بالتاريخ والآثار . تركي الأصل مصري المولد والنشأة والوفاة . ولد في قرية «بلها العجوز» التابعة لبني سويف بصعيد مصر . سنة ١٢٧٤هـ = ١٨٥٨م ، تخرج في مدرسة الألسن ١٨٨٢م فعيّن معيداً للغة العربية في المعهد الفرنسي للآثار الشرقية ، وشغف بالآثار ، وأجاد الفرنسية والتركية والإنكليزية ، رأس قلم الترجمة بوزارة المعارف ، ثم كان مديراً لدار الآثار العربية ، وهو أول مصري يتولى عملا كان مقصوراً على الأجانب . يرجع إليه الفضل في استخراج آثار الفسطاط بالقاهرة ، فقد كشف الغطاء عن حيّ كبير من أحيائها ، واستخرج أشياء نفيسة من دفائنها . سافر وحضر مؤتمرات كثيرة وألف وترجم ، ومن أبرز مترجماته «فهرست مقتنيات دار الآثار العربية» لماكس هارتس بك ، وهو أول دليل وضع للمتحف العربي بالقاهرة . توفى بمطرية القاهرة سنة ١٣٤٢هـ = ١٩٢٤م . الأعلام ٥/ ٧٤ ، والموضع السابق من معجم

المطبوعات العربية .

(٦٣) راجع كتابي : مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي ص ٥١ ، ٥٢ .

(٦٤) أخبرني الأستاذ محمد رشاد عبد المطلب رحمه الله أن «عمر الخشاب» هذا هو جدّ الدكتور يحيى الخشاب ، عميد كلية الآداب بجامعة القاهرة رحمه الله . وقد سبق أن «عمر الخشاب» هذا قد أنفق على طبع تفسير الطبري بمطبعة بولاق .

(٦٥) كان ناظراً لمطبعة بولاق في الوقت الذي طبعت خزانة الأدب بها سنة ١٢٩٩هـ ، كما جاء بخاتمتها . راجع ما سبق عن طبع الكتب على نفقة أهل العلم .

(٦٦) ترجمته في الأعلام ١/ ٢٥٥ (طبعة دار العلم للملايين) ، والأعلام الشرقية ١/ ٥٧ ، ومعجم المطبوعات ص ٣٩٩ ، ويبقى أن أقول : إن هذه المعلومات التي ذكرتها حول من أنفق على طبع الكتاب ، ثم من وقف خلفه ، أخذتها من خاتمة طبع الكتاب ، وكان واجباً على من قدّم لطبعة الكويت من تاج العروس : أن يذكر هذه الأمور ، حفاظا على تاريخ الناس وجهادهم .

(٦٧) إبراهيم بن عبد الخالق بن إبراهيم من الكتاب البارزين في القرن الماضي ، تقلبت حياته بين التجارة والصحافة والسياسة . توفي سنة ١٣٢٣هـ = ١٩١٦م ، وهو والد محمد المويلحي ، صاحب «حديث عيسى بن هشام» الأعلام ١/ ٣٨ ، والأعلام الشرقية ٤/ ٨ .

(٦٨) العامة في مصر ينطقونها هكذا «حوش» بالحاء المهملة ، وإنما هي بالخاء المعجمة «خوش» ومعناها بالفارسية : سعد ، فيكون المراد : قدم السعد .

(٦٩) فقيه ، عارف بالتفسير والأدب ، كان مديراً للمعاهد الدينية ، ووكيلاً للأزهر . توفي بالقاهرة سنة ١٣٥٥هـ = ١٩٣٦م . الأعلام ٦/ ٣٢٦ ، وهو غير الشيخ حسنين مخلوف ، مفتي الديار المصرية ، المتوفى منذ نحو عشر سنوات .

(٧٠) أعاد ولدا المؤلف طبعه في تسعة أجزاء بالدار البيضاء سنة ١٩٥٤م وأشارا إلى طبعة القاهرة .

(٧١) وبعض الناس يخلط بينهما ، انظر مثلاً : المعجم الشامل للتراث العربي المطبوع ٥/ ١٤٠ (المقريزي) .

(٧٢) راجع معجم المطبوعات العربية ص ٦٧١ ، ١٩٢٦ .

(٧٣) وفي دمشق مطبعة عظيمة ، أخرجت كتبا كثيرة ، اسمها أيضاً : الترقي ، فلا تخلط بينهما .

(٧٤) أنشأ ابنه محمد محمد عبد اللطيف مطبعة ، سمّاها «المطبعة المصرية بالأزهر» ومن أشهر مطبوعاتها صحيح مسلم بشرح النووي (١٨ جزءاً) طباعة فاخرة ، فرغ من طبعه سنة ١٣٤٩هـ = ١٩٣٠م .

ومحمد عبد اللطيف هذا : هو زوج السيدة مفيدة عبد الرحمن المحامية الشهيرة ، وابنة عبد الرحمن محمد ، صاحب المطبعة الشهيرة المسماة باسمه ، وقد تخصصت في طبع مصاحف القرآن الكريم .

(٧٥) المعجم الشامل ٥/ ٣٢٠ .

(٧٦) معجم المطبوعات العربية ص ١٩٠٨ .

(٧٧) معجم المطبوعات العربية ص ١١٤١ .

(٧٨) طبعة دار المعارف بمصر ص ٤٦ ، بتحقيق الدكتور صلاح الدين الهادي .

(٧٩) محمد بن مصطفى بن رسلان . أبو فراس ، بدر الدين ، كاتب أديب ، يقول الشعر ، ولد بحلب سنة ١٢٩٨هـ = ١٨٨١م ، وتوفي بها سنة ١٣٦٢هـ = ١٩٤٣م .

نزل بمصر ، وأقام في الأزهر ثماني سنين (١٣١٠ - ١٣١٨هـ) ، وقام برحلة إلى الهند سنة ١٣١٩هـ ، وبعد عام ونصف عاد إلى مصر ، فاشتغل بتصحيح الكتب وتأليف الرسائل ، ومن أشهر أعماله شرحه لشواهد المفصل ، وصحح كثيراً من

مطبوعات الخانجي ، كما ساعده في تأليف منجم العمران ، وهو المستدرك على معجم البلدان ، كما صحح شيئاً من أعمال المطبعة المنيرية لصاحبها الشيخ محمد منير الدمشقي . الأعلام ٧/ ٣٢٥ ، وكتابي : مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي ص ٦١ .

(٨٠) كان فقيهاً أديباً ، ولد بفاس سنة ١٢٨٠هـ = ١٨٦٣م . تقلّبت حياته بين العلم والسياسة ، ثم عصفت به السياسة أخيراً ، وطوّحتْه بعيداً عن بلده ، فمات غريباً سنة ١٣٥٦هـ = ١٩٣٧م ، ثم حُمل إلى المغرب ، ودُفن في فاس . له منظومات مطبوعة في مصطلح الحديث وعلم الأصول ، ثم ألّف في الفقه المالكي . الأعلام ٤/ ٥٠ ، وانظر شيئا عن اشتغاله بالعلم في فهرس الفهارس ص ٦٠٢ ، ٧٠٦ . قلت : وقد عُرف السلطان عبد الحفيظ بالإنفاق على طبع الكتب ، فمن ذلك البحر المحيط المذكور ، والروض الأنف شرح السيرة النبوية ، للسُّهيلي ، المطبوع بمطبعة الجمالية بمصر سنة ١٣٣٢هـ = ١٩١٤م .

(٨١) معجم المطبوعات العربية ص ٦٤٢ .

(٨٢) جاء اسمه في معجم المطبوعات ص ١٦٣٧ «أحمد» وهو خطأ ؛ لأنه مخالف لترتيبه ، لأن في هذا الموضع من المعجم تراجم المحمدين ، والصواب أيضاً في معجم المؤلفين ٩/ ٥٧ ، وأنظر أيضا معجم المطبوعات ص ١٢٣٤ .

(٨٣) هكذا طبع الكتاب وعرف بهذا العنوان في تلك المطبعة وفي غيرها من المطابع ، وصواب العنوان : «التبيان في إعراب القرآن» كما حققه الأستاذ علي محمد البجاوي رحمه الله في نشرته التي صدرت عن مطبعة عيسى البابي الحلبي ١٣٩٦هـ = ١٩٧٦ .

(٨٤) بالفاء ، وتأتي في بعض الإحالات «الشرقية» بالقاف ، وهو تصحيف ، فتنبّه .

(٨٥) طبع هذا الشرح في أكثر من مطبعة بهذه النسبة إلى العكبري . وهو خطأ نبّه عليه قديماً الدكتور مصطفى جواد رحمه الله ، واستظهر أنه لابن عدلان الموصلي المتوفى بالقاهرة سنة ٦٦٦هـ . راجع أمالي ابن الشجري - قسم الدراسة ص ١٥٩ .

(٨٦) الأعلام ٧/ ٣١٧ ، وانظر ما يأتي عن مطابع الإسكندرية (مطبعة الحلمية) .

(٨٧) المراد بالمصطلح الشريف هنا مصطلح الكتابة الديوانية ، والقوانين التي تراعى في المكاتبات الصادرة عن ديوان الإنشاء ، أي دبلوماسية المراسلات بين الرؤساء والملوك ، وقد ألفت في ذلك كتب ، أطلق عليها اسم الدساتير . وبعض الناس يظن أن المراد بالمصطلح هنا علم مصطلح الحديث ، الذي يُعرف به حال الراوي والمرْوي ، من حيث القبول والردّ ، وما يتبع ذلك من كيفية التحمّل والأداء والضبط ، وهو علم الحديث دراية .

(٨٨) النهروالي ، باللام : نسبة إلى قرية من الهند ، لا إلى النهروان ، كما يصحّفه بعض الناس . راجع حواشي الأعلام ٦/ ٧ (طبع دار الملايين) .

(٨٩) وهكذا طبعت الريحانية بمطبعة عثمان عبد الرازق ، وليس بالمطبعة العثمانية ، كما ذكر أخي الدكتور عبد الفتاح الحلو رحمه الله في مقدمة تحقيقه لها ص ١٧ ، وانظر معجم المطبوعات العربية ص ٨٣١ ، والمعجم الشامل للتراث العربي المطبوع ٢/ ٢٨٩ .

(٩٠) راجع المعجم الشامل للتراث العربي المطبوع ١/ ٢٢ .

(٩١) معجم المطبوعات العربية ، الصفحة الأولى .

(٩٢) نشره شيخنا عبد السلام هارون ، في رسائل الجاحظ ، باسم مناقب الترك .

(٩٣) فرغ من تأليفه سنة ١١٠٠هـ . معجم المطبوعات العربية ص ٣٦٤ ، ومعجم المؤلفين ٩/ ٣٠٢ .

(٩٤) شرح شواهد شروح الألفية ، وهذا هو المعروف بشرح الشواهد الصغرى ، أما شرح الشواهد الكبرى فهو المسمّى المقاصد النحوية في شرح شواهد شروح الألفية ، وقد طبع بهامش خزانة الأدب ، طبعة بولاق سنة ١٢٩٩هـ ، وقد أشرت إلى ذلك من قبل .

(٩٥) معجم المطبوعات العربية ص ١٥٥٤ .

(٩٦) الأخبار التاريخية في السيرة الزكية ، لزكي محمد مجاهد ١٢٣ .

(٩٧) هكذا كتب على صدر عنوان الكتاب أنه طبع بمطبعة كردستان العلمية ، لكن كتب في الصفحة الأخيرة ص ٢٤٢ «وكان تمام طبعه بالمطبعة الجمالية الكائنة بحارة الروم في مصر المحمية ختام سنة ١٣٢٨هـ» فلعل الملازم الأخيرة من الكتاب هي التي طبعت بمطبعة الجمالية .

ومطبعة الجمالية هذه من المطابع المصرية التي كان لها شأن في مطالع القرن العشرين ، ومقرّها عطفة التتري بحارة الروم ، بحيّ الغورية ، وقد أنشأها الكتبي العظيم محمد أمين الخانجي ، وابن خاله أحمد ناجي الجمالي وأحمد عارف . ومن أشهر مطبوعاتها الروض الأنف ، للسهيلي وسبقت الإشارة إليه - وهي أصحّ طبعاته ، وكتاب الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد ، للأدفوي ، وسبق أيضاً . وكتاب تيسير الوصول إلى جامع الأصول ، لابن الديبع الشيباني ١٣٣٠هـ= ١٩١١م ، بتصحيح الشيخ محمد هارون ، والد شيخنا عبد السلام هارون رحمه الله .

(٩٨) الأمين المأمون هو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم . ويأتي في بعض الكتب «الأمين والمأمون» بإقحام الواو ، ظنا أن المراد الخليفتان العباسيان ، وهو خطأ . والكتاب في السيرة النبوية ، وقد سماه المحبّي في خلاصة الأثر ٣/ ١٢٣ ، تسمية تُخرجه من هذا الإشكال . قال : «وألّف المؤلفات البديعة ، منها السيرة النبوية ، التي سمّاها : إنسان العيون في سيرة النبيّ المأمون .

(٩٩) معكوس هذا الاسم يذكّر برجل كان له باعٌ طويل في نشر الكتب : تأليفاً وتحقيقاً ، وهو محمد مصطفى ، صاحب المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد علي من ناحية العتبة ، أمام سوق الخضار - هكذا كانت - ورأيتها وأنا صبيّ ، ولكن منشورات هذا الرجل النشيط كانت في القرن العشرين وكثير من كتب الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد النحوي الكبير ، كانت على نفقة هذا الرجل ، وباسم مكتبته .

(١٠٠) كتب عنه الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى كلمة بالجزء الأول من موسوعة عصر التنوير الذي أصدرته دار الهلال ١٩٩٢م .

(١٠١) راجع قائمة بأوائل المطبوعات العربية ص ٢٢٠ ، وانظر مقدمة تحقيق ديوان الأبيوردي ص ٣٢ ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق .

(١٠٢) راجع كشف الظنون ص١٥١٥ .

(١٠٣) هكذا بالنون - وهو الصواب - ويقال : طرق نهجة : أي واضحة ، قد طبع هذا الكتاب طبعات كثيرة ، كلها «البهجة» بالباء ، وهو تصحيف ، وكذلك جاء بالباء مصحّفاً في كشف الظنون ، ص ١٥٢ ، ٢٥٩ وفي هذا الموضع الثاني إشارة إلى «النهجة» وكذلك جاء مصحفاً بالباء في ترجمة السيوطي لنفسه في حسن المحاضرة ١/ ٣٤٣ ، وفهرست الكتب النحوية المطبوعة ، للدكتور عبد الهادي الفضلي ص ٥١ ، والمعجم الشامل ٣/ ٢٨٩ ، وجاء في حواشي معجم المطبوعات ص ١٠٧٦ : «كتب أحمد باشا تيمور في فهرست خزانته ما يأتي : الظاهر أن صواب الاسم «النهجة المرضية» بالنون ، لا بالباء ، ولكن في حسن المحاضرة للسيوطي ، وفي عقود الجوهر لجميل بك العظم كتب : «البهجة» بالباء لا بالنون» قلتُ أنا محمود الطناحي : وللسيوطي أيضاً : النهجة السوية في الأسماء النبوية ، مذكور في كشف الظنون ص ١٩٩٣ .

(١٠٤) لازالت موجودة إلى الآن . ومررت عليها في شهر أغسطس من هذا العام ١٩٩٥م ، فقابلني زوج ابنته ، فسألته : هل عندك علم بمطبوعات صهرك القديمة ؟ فأجاب بالنفي ، فقلت له : هل لدى السيدة زوجتك شيء من مطبوعات أبيها القديمة ، فأكّدلي أنها لاتعرف شيئا عن ذلك البتة .

(١٠٥) بشارة بن جبرائيل زلزل ، طبيب باحث ، من أهل لبنان ، تعلّم في الكلية الأميركية ببيروت ، له تآليف طبية مطبوعة ،

وتآليف لا زالت مخطوطة بمكتبة البلدية بالإسكندرية . وكانت وفاته بالإسكندرية سنة ١٣٢٣هـ = ١٩٠٥م . الأعلام ٢/ ١٥٢ (طبعة دار العلم للملايين) ، ومعجم المطبوعات العربية ص ٤٨ ، ٩٧٢ .

(١٠٦) توفي بالمدينة النبوية سنة ١٣٢٨هـ = ١٩١٠م ، وهو من شيوخ عبد الحيّ الكتاني ، وقد ترجمه ترجمة حافلة في فهرس الفهارس ص ٨٩٥ - ٨٩٨ ، وسماه الزركلي في الأعلام ٧/ ٢١٧ : محمد فالح .

(١٠٧) هكذا يذكر سركيس في معجم المطبوعات ص ٧١ مطبعة باسم «معوض فريد» طبع فيها كتاب المدخل . وأظن أن «معوض فريد» هذا ليس صاحب مطبعة وأنه إنما طبع الكتاب على نفقته فقط ، فقد كانت له مشاركات في ذلك ، كما ترى في الكتاب التالي ، وكما سترى في جريدة البرهان الآتية .

(١٠٨) سماه صاحب كشف الظنون ص ١٦٤٣ «مدخل الشرع الشريف على المذاهب الأربعة» ، وكذلك جاء في معجم المطبوعات ص ٧١ ، لكن المؤلف نفسه يقول في مقدمة كتابه : «وسميتُه بمقتضى وضعه كتاب المدخل إلى تنمية الأعمال بتحسين النيات والتنبيه على بعض البدع والعوائد التي انتُحلت ، وبيان شناعتها وقبحها» .

(١٠٩) هكذا نُسب الكتاب إلى الدماميني ، في المعجم الشامل للتراث العربي المطبوع ٢/ ٣٤٣ ، ولم أجد أحداً من الذين ترجموا للدماميني ذكروا له هذا الكتاب ، ولم يذكر صاحب كشف الظنون هذا الكتاب أصلا ، لكن إسماعيل باشا البغدادي ذكره في الذيل على كشف الظنون ٢/ ٦٣٤ ، ولم ينسبه للدماميني ، لكنه قال : «قيل لبدر الدين الصديقي» قلت : ولم أعرف بدر الدين الصديقي الآن .

ويبقى أمران ، الأول : أن يوسف اليان سركيس ذكر هذا الكتاب في آخر معجم المطبوعات ص ٢٠٢٣ ، تحت عنوان الكتب المطبوعة المجهول أسماء مؤلفيها . والثاني : أن الكتاب في تراجم النساء - كما يظهر من عنوانه - ومع ذلك لم تذكره زينب فواز العاملي في مراجعها لكتابها الدر المنثور في طبقات ربّات الخدور ! . والأمر بعد ذلك يحتاج إلى تحقيق .

(١١٠) هو : علي بن أحمد بن يوسف البلصفوري ، نسبة إلى بلصفورة التابعة لمركز سوهاج ، بصعيد مصر ، سنة ١٢٨٠هـ = ١٨٨١م ، وتوفي بالقاهرة سنة ١٣٣١هـ = ١٩١٣م ، تعلم في الأزهر . ويُعدّ مؤسس الصحافة الإسلامية العصرية بمصر ، يقول يوسف سركيس : «أنشأ أولا مجلة الآداب سنة ١٨٨٥م ، بالاشتراك مع الشيخ أحمد ماضي ، واتفق ظهور جريدة المقطم سنة ١٨٨٩م ، وخطتها احتلالية ، فأحسّ أدباء المصريين بحاجتهم إلى جريدة تمهّد السبيل إلى إنقاذ مصر من الاحتلال ، فوقع اختيارهم على محرّري الآداب ، فأصدرا المؤيد ، فنصرها الوطنيون مادياً وأدبياً . . . وبعد قليل توفي الشيخ أحمد ماضي ، واستقل الشيخ علي بالمؤيد ، وثبت في تأييده ، وبذل في ذلك ما لا يقدر عليه رجل واحد ، حتى بلغ ما بلغ إليه من الشهرة والنفوذ وسعة الانتشار في العالم الإسلامي ، وخطته الدفاع عن المسلمين وحقوقهم حيث ما كانوا» معجم المطبوعات العربية ص ١٣٧١ ، وانظر الأعلام ٥/ ٦٧ .

(١١١) الأعلام ٧/ ٣٢٢ .

(١١٢) يتصحّف في بعض الكتب «محمد» .

(١١٣) ذكر ناشرو شروح سقط الزند في المقدمة ص (ز) أن «شرح التنوير» هذا طبع في المطبعة الإعلامية سنة ١٣٠٤هـ ، ثم ذكروا في الهامش أن اسم المطبعة ورد خطأ في معجم المطبوعات برسم «الأعلام» .

قلت : ولم أعرف المطبعة الإعلامية هذه ، ولم أر شيئاً من مطبوعاتها . أما مطبعة الأعلام فهي معروفة ومطبوعاتها كثيرة . وراجع ما سبق عن نشاط جمعية المعارف ، فقد كان من مطبوعاتها «شرح التنوير» هذا .

(١١٤) انظر هذه المجموعة من مطبوعات آل بيرم في معجم المطبوعات ص ٦١٢ ، ٦١٣ .

(١١٥) راجع الحديث عن مطابع الإسكندرية .

(١١٦) راجع ما سبق من الحديث عن المطبعة الخديوية، من مطابع الإسكندرية .

(١١٧) توفى سنة ١٣٨٢هـ = ١٩٦٣م . المجمعيون في خمسين عاماً ص ٦٠ ، والأعلام ١/ ٢٠٠ (طبع دار العلم للملايين) .

(١١٨) توفى سنة ١٣٤٣هـ = ١٩٢٥م . الأعلام ٧/ ٣٢٣ ، و«محمد أبوشادي» هذا هو والد الطبيب الشاعر أحمد زكي أبو شادي ، منشئ مجلة أبوللو الشعرية ، وترجم له الزركلي في الأعلام ١/ ١٢٧ (طبع دار العلم للملايين) ترجمة زكية جداً ، وضعه فيها في مكانه الحقيقي ، ورحم الله الزركلي ، فإن لتراجمه مذاقاً خاصاً .

(١١٩) من كبار الكتاب والخطباء والمترجمين ، مؤلفاته ومقالاته كثيرة ، ومن أشهر ما كتب : الشهاب الراصد ، رد على كتاب الشعر الجاهلي للدكتور طه حسين . توفى سنة ١٣٧٢هـ = ١٩٥٣م . الأعلام ٧/ ٢٣٨ .

(١٢٠) طبع بعد ذلك كاملاً باسم : «شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف» - بتحقيق عبد العزيز أحمد - بمطبعة مصطفى البابي الحلبي ١٣٨٣هـ = ١٩٦٣م ، وقد أشار المحقق إلى طبعة محمد أبو شادي هذه على أنها بمطبعة السعادة بالظاهر ، فأوهم أن «الظاهر» هنا هو اسم الحيّ المعروف بالقاهرة . وهذا خطأ ، فالكتاب لم يطبع بمطبعة السعادة . وأيضاً فإن مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر بباب الخلق ، كما سبق .

(١٢١) معجم المؤلفين ١/ ١٦٤ ، ومعجم المطبوعات ص ٥٤٨ .

(١٢٢) كان مديراً لجريدة المحروسة ورئيس تحريرها . توفي سنة ١٣٢٨هـ = ١٩١٠م ، معجم المؤلفين ٦/ ٢٨١ ، ومعجم المطبوعات ص ٩٧٨ .

(١٢٣) انظر نوادر المخطوطات ١/ ٣٤٢ ، وسماه الزركلي : حياة الأمم والرق عند الرومان . الأعلام٨/ ١٤٠ .

(١٢٤) ولد جرجي زيدان ببيروت - لبنان - سنة ١٢٧٨هـ = ١٨٦١م ، وتعلّم بها ، ثم رحل إلى مصر وأصدر الهلال ، وتوفي بالقاهرة سنة ١٣٣٢هـ = ١٩١٤م .

(١٢٥) انظر تلخيصاً جيداً وتحليلاً طيباً للصحف والمجلات المصرية ، في أواخر القرن التاسع عشر ، وأوائل القرن العشرين ، في سجل الهلال المصور ١/ ٦٠٦ ، مع صور تاريخية لأقطاب الصحافة . صدر هذا السجلّ سنة ١٩٩٢م .

(١٢٦) من النظرات التحليلية والملاحظات حول نشاط المطابع الأهلية .

(١٢٧) مقدمة تحقيق البيان والتبيين ص ١٩ .

(١٢٨) يقول الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم رحمه الله في مقدمة تحقيقه للإتقان ص ١٠ طبعة مكتبة ومطبعة المشهد الحسيني عبد الحميد حنفي ١٣٨٧هـ = ١٩٦٧م ، يقول : «وأصحّ هذه الطبعات طبعة الكاستلية . امتازت بما ألحق بها من تصحيحات وتعليقات من وضع الشيخ نصر الهوريني ، وتقع في ١٢ صفحة» . وانظر المعجم الشامل للتراث العربي المطبوع ٣/ ٢٧٤ .

(١٢٩) على أن هذه المصطلح كان يُراد به قديماً أهل العلم ، من الرّواة العُدول الضابطين ، استعمله بهذا المعنى ابن سلاّم ، قال في طبقات فحول الشعراء ص ٢٦ : «ومما يدلّ على ذهاب الشعر وسقوطه قلّة ما بقي بأيدي الرواة المصحّحين . . .» قلت : والتصحيح والتحقيق كلاهما من واد واحد ، تقول اللغة : الاحقاق : الإثبات ، يقال : أحققتُ الأمر إحقاقاً : إذا أحكمتَه وصحّحته .

(١٣٠) انظر مقدمة تحقيق كتاب الأغاني ص ٥٩ ، الطبعة الثانية ١٣٧١هـ = ١٩٥٢م ، والشيخ محمد الخضر حسين ، عالم من كبار علماء الإسلام ، ومن متقدّمي الباحثين ، ولد بتونس سنة ١٢٩٣هـ = ١٨٧٦م ، تخرّج بجامع الزيتونة ودرّس به ، وتقلّبت حياته بين السياسة والعلم ، وكان له فيها شأن كبير ، زار بلاداً كثيرة حتى استقرّ بمصر ، وألّف بها كتباً كثيرة ، ثم ولي مشيخة الأزهر ، وتوفي بالقاهرة سنة ١٣٧٧هـ = ١٩٥٨م . الأعلام ٦/ ١١٣ (دار العلم للملايين) .

هذا ؛ وإن في تولّي هذا العالم التونسي مشيخة الأزهر دليلاً على أن مصر لا تعرف التعصّب والبلديّة ، فهو العالم الوحيد الذي تولى هذا المنصب الديني الرفيع من غير أبناء مصر .

(١٣١) مقدمة تحقيق ديوان مسلم بن الوليد (صريع الغواني) ص ٥٧ ، طبعة دار المعارف بمصر ١٩٥٧م .

(١٣٢) علم الله ؛ بعد أن كتبت هذا الكلام في المسودّة ، وقبل أن أخرجه إلى المبيضة ، وقفت على كلام يشبهه ليوسف إليان سركيس ، يقول في مقدمة كتابه معجم المطبوعات : «ثم اعتنى أهل الشرق بتحسين الطباعة ، وإتقان أشكال الحروف ، حتى أصبح المستشرقون الغربيون يؤثرون طبع الكتب العربية في المطابع الشرقية على مطابعهم في الغرب» .

(١٣٣) الربعي هذا هو أبو محمد عيسى بن إبراهيم ، من أهل أحاظة باليمن ، توفي سنة ٤٨٠هـ ، وهو غير الربعي النحوي اللغوي ، من تلاميذ أبي علي الفارسي ، واسمه أبو الحسن علي بن عيسى . توفي سنة ٤٢٠هـ ، وبعض الناس يخلط بينهما .

(١٣٤) وأنبه إلى أنه قد كتب على غلاف هذا الكتاب (المصاحف) ، من اليسار :

«مطبعة بريل بليدن» فيظنّ أنه طبع بتلك المطبعة ، مع أنه طبع بالرحمانية ، وهذا مصطلح عند المستشرقين ، يكتبون على الغلاف : مطبعة كذا ، وهم يريدون أنه طبع على نفقتها وبتمويلها ، وليس أنها هي التي طبعته . ومن ذلك «مغازي الواقدي» تحقيق المستشرق الإنكليزي مارسدن جونز ، طبع بدار المعارف بمصر ، سنة ١٩٦٦م ، ولكن كتب على الغلاف «مطبعة جامعة أكسفورد» أي أنه من إصداراتها ، فيجب التنبه لهذا في قائمة المراجع .

(١٣٥) مات قبل إتمامه ، فأتمّه المستشرق برتزل . راجع كتابي «مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي» ص ٢٥٨ .

(١٣٦) مظاهر يقظة المغرب الحديث ١/ ٢٠٥ مطبعة الأمينة بالرباط ١٣٩٢هـ = ١٩٧٣م .

(١٣٧) هذه الكلمة تعني الشك عند كاتبها في الكلمة السابقة . وهذا التعبير لا يزال مستعملاً في العامية المصرية ، ويعني راحة الشخص من جميع الوجوه .

(١٣٨) يعني مطبعة بولاق .

(١٣٩) المرجع نفسه ص ٤٥ ، ٢١٢ ، وقد أفاد الأستاذ المنوني في حاشية ص ٤٤ ، أن هذه الرسالة الخديوية من إنشاء الكاتب المصري الشهير عبد الله باشا فكري ، ناظر المعارف المصرية إذ ذاك ، وأنها قد وردت في الآثار الفكرية ص ٥٤ - ٥٦ ، وانظر كتابي مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي ص ١٩٥ .

(١٤٠) الصفحة الأولى من مقدمة معجم المطبوعات العربية والمعرّبة .

(١٤١) ترى هذه المراحل كلها في كتابي مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي .

(١٤٢) وهناك لون آخر من السرقة والنصب والاحتيال ، يبتعد عن التصوير ، ولكنه يقوم على الطبعة القديمة . ومن ذلك كتاب المعاني الكبير ، لابن قتيبة ، صدر عن دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد - الهند سنة ١٣٦٨هـ = ١٩٤٩م ، بتحقيق المستشرق الإنكليزي كرنكو ، والشيخ عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني . ثم أخرجت منه دار الكتب العلمية ببيروت سنة ١٤٠٥هـ = ١٩٨٤م طبعة صُفّتْ بحروف جديدة ، ولكنها التزمت أرقام طبعة حيدر آباد المذكورة ، وسلخت تعليقاتها ، وأغارت على فهارسها .

مراجع البحث

أباطيل وأسمار . لمحمود محمد شاكر . مطبعة المدني بمصر . الطبعة الثانية ١٣٩١هـ = ١٩٧٢م .

أبجد العلوم – ويُسمّى «الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم»(*) – لصديق بن حسن القنوجي – الجزء الأول : أعدّه للطبع ووضع فهارسه عبد الجبار زكار . منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي . دمشق ١٩٧٨م . والجزءان الثاني والثالث : طبع دار الكتب العلمية بيروت . بدون تحقيق ، وبدون تاريخ .

الإتقان في علوم القرآن للسيوطي . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم مكتبة ومطبعة المشهد الحسيني (عبد الحميد حنفي) . القاهرة ١٣٨٧هـ = ١٩٦٧م .

الأخبار التاريخية في السيرة الزكية . لزكي محمد مجاهد . دار الطباعة المحمدية بالأزهر . القاهرة ١٣٩٦هـ = ١٩٧٦م .

الأعلام . لخير الدين الزركلي . الطبعة الثانية بالقاهرة ١٣٧٣هـ = ١٩٥٤م ، والطبعة الرابعة – دار العلم للملايين . بيروت ١٣٩٩هـ = ١٩٧٩م .

الأعلام الشرقية في المائة الرابعة عشرة الهجرية – من سنة ١٣٠١ – إلى سنة ١٣٦٥هـ (١٨٨٣ – ١٩٤٦م .) لزكي محمد مجاهد . الجزء الأول بمطبعة دار الطباعة المصرية الحديثة بالقاهرة ١٣٦٨هـ = ١٩٤٩م . والجزء الرابع ، وهو الأخير ، بمطبعة الفجالة الجديدة بالقاهرة ١٣٨٢هـ = ١٩٦٣م .

الأغاني . لأبي الفرج الأصبهاني . دار الكتب المصرية ١٣٤٥هـ = ١٩٢٧م .

أمالي ابن الشجري . تحقيق محمود محمد الطناحي . مكتبة الخانجي . القاهرة ١٤١٣هـ = ١٩٩٢م .

أمالي أبي علي القالي . دار الكتب المصرية ١٣٤٤هـ = ١٩٢٦م .

إنباء الغمر بأنباء العمر . لابن حجر العسقلاني . المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية تحقيق الدكتور حسن حبشي . القاهرة ١٣٨٩هـ = ١٩٦٩م .

إيضاح المكنون = الذيل على كشف الظنون .

البيان والتبيين . للجاحظ . تحقيق عبد السلام محمد هارون . مكتبة الخانجي . القاهرة ١٣٨٠هـ = ١٩٦٠م .

تاج العروس من جواهر القاموس . للمرتضى الزّبيدي . وزارة الأعلام بالكويت ١٣٨٥هـ = ١٩٦٠م .

التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول . لصديق حسن القنوجي تصحيح وتعليق الدكتور عبد الحكيم شرف الدين . المطبعة الهندية العربية . بمباي ١٣٨٢هـ = ١٩٦٣م . طبع على نفقة الشيخ علي بن عبد الله آل ثاني ، حاكم قطر .

تاريخ التراث العربي . للدكتور محمد فؤاد سزكين . نقله إلى العربية الدكتور محمود فهمي حجازي ، وراجعه الدكتور عرفة مصطفى . جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض ١٤٠٢هـ = ١٩٨٢م .

تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه . لابن حبيب الحلبي . تحقيق الدكتور محمد محمد أمين ، ومراجعة الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٣٩٦هـ = ١٩٧٦م .

التراث العربي لعبد السلام محمد هارون . دار المعارف بمصر (سلسلة كتابك) العدد ٣٥ – ١٩٧٨م .

تفسير الطبري . بولاق ١٣٣٠هـ = ١٩١١م .

التوفيقات الإلهامية في مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الإفرنجية والقبطية . لمحمد مختار باشا . بولاق ١٣١١هـ = ١٨٩٣م .

حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة . للسيوطي . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم مطبعة عيسى البابي الحلبي . القاهرة ١٣٨٧هـ = ١٩٦٨م .

الخطط التوفيقية لمصر و القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة . لعلي باشا مبارك . طبعة مصوّرة عن الطبعة الثانية بالقاهرة سنة ١٩٦٩م - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٠م .

خطط المقريزي - وهو المسمّى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار - دار التحرير للطبع والنشر بالقاهرة ١٩٦٧م طبعة مجموعة اعتماداً على طبعة بولاق ١٢٧٠هـ = ١٨٥٣م .

خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر . للمحبّي . دار صادر - بيروت . مصوّرة عن طبعة المطبعة الوهبية بمصر ١٢٨٤هـ = ١٨٦٧م .

ديوان الأبيوَرْدي . تحقيق الدكتور عمر الأسعد . مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٣٩٤هـ = ١٩٧٤م .

ديوان صريع الغواني (مسلم بن الوليد) . تحقيق الدكتور سامي الدهان . دار المعارف بمصر ١٩٥٧م .

الذيل على كشف الظنون - وهو إيضاح المكنون - لإسماعيل باشا البغدادي . استانبول ١٩٤٥م .

الروض المعطار في خبر الأقطار ، للحميري . تحقيق الدكتور إحسان عباس . مكتبة لبنان . الطبعة الثانية ١٩٨٤م .

روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس . للمقري . نشر عبد الوهاب بن منصور . المطبعة الملكية بالرباط ، المغرب الأقصى ١٣٨٣هـ = ١٩٦٤م .

السلوك لمعرفة دول الملوك . للمقريزي . تحقيق الدكتور محمد مصطفى زيادة . الطبعة الثانية . لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة ١٣٧٦هـ = ١٩٥٦م .

شروح سَقْط الزَّند . لأبي العلاء المعرّي . لجنة إحياء آثار أبي العلاء . دار الكتب المصرية ١٣٦٤هـ = ١٩٤٥م .

شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل . للشهاب الخفاجي . تصحيح الشيخ نصر الهوريني . المطبعة الوهبية بمصر ١٢٨٢هـ = ١٨٦٥م .

طبقات فحول الشعراء . لابن سلام . قرأه وشرحه أبو فهر محمود محمد شاكر . مطبعة المدني . القاهرة ١٣٩٤هـ = ١٩٧٤م .

طراز المجالس . للشهاب الخفاجي . المطبعة الوهبية بمصر ١٢٨٤هـ = ١٨٦٧م .

فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات . لعبد الحيّ بن عبد الكبير الكتاني . باعتناء الدكتور إحسان عباس . دار الغرب الإسلامي . بيروت - لبنان - الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ = ١٩٨٢م .

فهرست الكتب النحوية المطبوعة . للدكتور عبد الهادي الفضلي . مكتبة المنار - الأردن - الزرقاء ١٤٠٧هـ = ١٩٨٦م .

قائمة بأوائل المطبوعات العربية المحفوظة بدار الكتب المصرية حتى سنة ١٨٦٢م . جمع وتصنيف محمد جمال الدين الشوربجي . مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٨٣هـ = ١٩٦٣م .

القاموس المحيط . للفيروزآبادي . المطبعة المصرية ١٣٥٢هـ = ١٩٣٣م .

كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون . لحاجي خليفة . استانبول ١٩٤١م .

لسان العرب . لابن منظور . بولاق ١٣٠٠هـ = ١٨٨٢م .

المجمعيون في خمسين عاماً . للدكتور محمد مهدي علام . مطبوعات مجمع اللغة العربية . الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية ١٤٠٦هـ = ١٩٨٦م .

مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي . لمحمود محمد الطناحي . مكتبة الخانجي بالقاهرة ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م .

مظاهر يقظة المغرب الحديث . لمحمد المنوني . الرباط - المغرب الأقصى - مطبعة الأمنية ١٣٩٢هـ = ١٩٧٣م .

معجم البلدان . لياقوت الحموي . تحقيق المستشرق الألماني وستنفلد . ليبزغ ١٨٦٦م .

المعجم الشامل للتراث العربي المطبوع . جمع وإعداد وتحرير الدكتور محمد عيسى صالحية . مطبوعات المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم - معهد المخطوطات العربية - القاهرة ١٤١٣هـ = ١٩٩٢م .

معجم المؤلفين . لعمر رضا كحّالة . دمشق ١٣٧٦هـ = ١٩٥٧م .

معجم المطبوعات العربية والمعرَّبة . ليوسف إليان سركيس . نشر مكتبة الثقافة الدينية ، بالعتبة بالقاهرة ، بدون تاريخ . مصوّرة عن طبعة مطبعة سركيس بمصر ١٣٤٦هـ = ١٩٢٨م .

موسوعة عصر التنوير (أهم مائة كتاب في مائة عام) دار الهلال بمصر ١٩٩٢م .

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة . لابن تغري بردي . دار الكتب المصرية ١٩٣٢م .

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب . للمقري . بتحقيق الدكتور إحسان عباس . دار صادر . بيروت ١٣٨٨هـ = ١٩٦٨م .

الوافي بالوفيات . لصلاح الدين الصفدي . الجزء ٢١ تحقيق محمد الحجيري . النشرات الإسلامية لجمعية المستشرقين الألمانية . شتوتغارت ١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م .

(* هذا هو اسم الجزء الأول . والجزء الثاني اسمه السحاب المركوم الممطر بأنواع الفنون وأصناف العلوم . والثالث الرحيق المختوم من تراجم أئمة العلوم . وهذه كلها تسميات المؤلف .

تقـــريـر النـــدوة وتوصياتها

إنه في يوم الأحد الواقع في الثامن والعشرين من جمادى الأولى عام ١٤١٦ ، الموافق للثاني والعشرين من أكتوبر / تشرين الأول عام ١٩٩٥ عقد مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث والمجمع الثقافي في أبو ظبي ندوة «تاريخ الطباعة العربية حتى انتهاء القرن التاسع عشر» في قاعة المدينة بمبنى بلدية دبي دعي إليها عدد من العلماء والباحثين من مختلف الدول العربية والإسلامية والأجنبية .

افتتحت الندوة في الساعة التاسعة صباحاً بتلاوة آيات من القرآن الكريم ، ثم بكلمة عريف الحفل الأستاذ عبد العزيز إسماعيل ، تلاها كلمة السيد جمعة الماجد عن اللجنة المنظمة ، أثنى فيها على اهتمامات رئيس الدولة صاحب السمو الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان بالعلم والعلماء والثقافة . وشكر فيها صاحب السمو الشيخ مكتوم بن راشد آل مكتوم نائب رئيس الدولة رئيس مجلس الوزراء حاكم دبي على تكرمه بالرعاية الحميدة للندوة ومعرض أوائل المطبوعات العربية المصاحب لها . ثم رحب بالسادة الحاضرين ، وشكر للمحاضرين في موضوع الندوة التي بيّن أسباب الدعوة إليها ، وأشاد بجهود المجمع الثقافي . كما شكر بلدية دبي ورؤساء الجلسات .

بعد ذلك ألقت السيدة الدكتورة سعاد الصباح كلمة المشاركين ، فتحدثت عن أثر ظهور المطبعة في الحياة العربية وفي نشر المعرفة وتعجيل حركة التقدّم الفكري والأدبي والعلمي ، وأثنت على دعوة المركز والمجمع لهذه الندوة التي ترصد تاريخ الطباعة ، ودعت إلى ضرورة التعاون في المشاريع الثقافية ، وطالبت بعقد ملتقى ثقافي لدراسة سبل هذا التعاون لتنسيق خطط المؤسسات الثقافية وطموحاتها وأدوارها .

واختتمت الجلسة الافتتاحية بمحاضرة السيد الأستاذ عبد العزيز عبيد الخبير الباحث في المركز الرئيسي بمنظمة اليونسكو ، تناول فيها بالحديث «مشروع ذاكرة العالم» الذي تقوم عليه المنظمة والذي يهدف إلى حفظ الوثائق التراثية المهمة لبلدان العالم (المخطوطات والأفلام والشرائط وما إليها) وخاصة تلك المهددة منها بالطمس والاندثار وإتاحتها لمن يريد الانتفاع بها وجعلها في متناول أكبر عدد ممكن من الناس باستخدام الوسائل التقنية الحديثة . وقد فصّل الأستاذ عبيد في الخطة التي أعدتها اليونسكو لهذا المشروع واللجان المؤلفة له والأعمال التي نفذت منه والمشاريع

المتفرعة عنه .

وإثر انتهاء المحاضرة ألقى الأستاذ الشاعر عارف الشيخ قصيدة ، تتعلق بموضوع الندوة واللغة العربية بعنوان «حسناء يا بنت العرب» .

وعند الساعة الحادية عشرة بدأت الجلسة الأولى برئاسة الأستاذ محمد المر ، حاضر فيها الأستاذ الدكتور قاسم السامرائي عن «تاريخ الطباعة العربية في أوربا» ، فمهّد بالحديث عن المحاولات الطباعية بواسطة القوالب الخشبية في العالم الإسلامي التي سبقت الطباعة المعروفة ، وذكر أن الطباعة الميكانيكية لم تنتشر بين المسلمين بسرعة لدواعٍ جمالية . وعزا قيام الطباعة العربية في أوربا إلى أسباب كان أهمها في رأيه ظهور الورق وحمّى التنصير والهيمنة الاستعمارية ودراسات المستشرقين . ثم فصّل الحديث في هذه الأسباب وبرهن عليها بشواهد وأمثلة ، شفعها بنماذج من صفحات مختارة من أوائل المطبوعات العربية في أوربا . كما تحدث عن عدد من المطابع الأوربية المشهورة كمطبعة الميدتشي في إيطاليا ومطابع هولندا وذكر ، أشهر مطبوعات تلك الحقبة .

وترأس الجلسة الثانية الأستاذ الدكتور محمد عبد الله المطوع ، فقدم لمحاضرة عن «تاريخ الطباعة العربية في تركيا وبلاد الشام» للسيد الدكتور وحيد قدورة الذي حالت ظروفه الخاصة دون المجيء ، فأرسل بحثه بالبريد ، وقرأه بالنيابة عنه السيد الدكتور غازي مختار طليمات الأستاذ في كلية الدراسات الإسلامية والعربية بدبي . وقد تناولت الدراسة أثر المطبعة العربية في التحولات الفكرية والاجتاعية والاقتصادية ، وبينت ظروف نشأتها وأسبابها وتصورات المسلمين حولها . ثم تحدثت عن مطابع استانبول وبلاد الشام وإداراتها وأحوالها المالية ومشاكلها الفنية وأشهر الكتب التي طبعت فيها .

في الفترة المسائية ترأس الجلسة الأولى منها السيد الدكتور جمال سند السويدي . تحدث فيها السيد الأستاذ مختار أحمد الندوي عن «تاريخ الطباعة العربية في شبه القارة الهندية» فقدم بالإشارة إلى أن معرفة المسلمين بالطباعة قديمة منذ مارسوا سك النقود واستخدام القوالب الطباعية ، ورأى أن تأخرهم وتدهورهم حال دون تطويرها إلى الطباعة بالآلات . ثم تحدث عن بداية الطباعة العربية في الهند في أواسط القرن الخامس عشر الميلادي وظهور الطباعة الليتوغرافية التي فضلها الهنود ، لأنهم اعتادوا على خطوط النساخ أكثر من الحروف المتحركة التي اعتمدها المنصّرون في مطابعهم ، فنشروا الأناجيل والكتب المسيحية . وقد ذكر المحاضر أشهر المطابع التي انتشرت في الهند

بكثرة كاثرة ، كما ذكر بها أعلام ناشري التراث الهنود خاتماً حديثه بالكلام عن الورق الهندي ومصانعه .

وترأس الجلسة الثانية السيد الأستاذ عبد الرحمن حسن عبيد فقدم السيد الأستاذ فوزي تادرس ليتحدث عن «تاريخ الطباعة العربية في الأمريكتين» . بادئا بالصعوبات التي تواجه الباحث في موضوع محاضرته بسبب غياب الوراقيات (الببليوغرافيا) اللازمة ، وقال : إن معظم ما نشر من الكتب بالأمريكتين كان في مجال الأدب الذي وصف مضمونه ، وتحدث عن أصحابه وظروفهم . ثم أشار إلى أوائل الصحف في المهجر ذاكراً أسماءها وطبيعتها والمعوقات التي تعرضت لها المطابع الأمريكية بالحرف العربي وأهم الكتب التي ظهرت في الفترة المدروسة .

واختتمت الجلسات المسائية بجلسة ترأسها الأستاذ الدكتور علي قاسم وحاضر فيها الأستاذ الدكتور محمد بنشريفة عن «تاريخ الطباعة في المغرب العربي» فتحدث عن إرهاصات دخول المطبعة إلى المغرب مشيراً إلى أنّ أول مطبعة - وكانت في تطوان - لم تحدث أثراً واضحاً . ثم ذكر ملابسات دخول المطبعة الحجرية التي نقلت بطريقة شخصية من مصر ، أشار إلى ظروف ما تلاها من المطابع الحجرية الأخرى التي أسهمت في إنتاج المجموعة الكبيرة للكتب الحجرية المغربية المعروفة . ثم بيّن طبيعة هذه الكتب وأثر مطابع المغرب في نشر التراث الجيد والنوادر معللاً أسباب رغبة المغاربة بهذا النوع من الطباعة التي قضى الفرنسيون عليه سنة ١٩٤٥ .

بدأت جلسات اليوم الثاني من الندوة صباح الاثنين الواقع في الثامن والعشرين من جمادى الأولى ١٤١٦ ، الموافق للثالث والعشرين من أكتوبر ١٩٩٥ . وكانت الجلسة الأولى برئاسة السيد الأستاذ عبد الحميد أحمد ، تحدث فيها الأستاذ الدكتور مهدي محقق عن «تاريخ الطباعة العربية في إيران» ، فذكر أنّ بداياتها كانت على يد اليسوعيين الذين طبعوا الكتب المسيحية ، جاء بعدها مطبعة تبريز التي قامت على أيدي شبان تعلموا فن الطباعة الحجرية والرصاصية في أوربا . ثم قال : إن المطابع شاعت في إيران مشيراً إلى عيوب المطبوعة الحجرية وميزاتها . واستعرض أخيراً أسماء أشهر الكتب المطبوعة في المرحلة المدروسة ورأى أنها كتب تلبي حاجة الطلاب غالباً ، وفي مختلف العلوم المطلوبة آنذاك .

وفي الجلسة الثانية التي ترأسها السيد الدكتور حسن قايد الصبيحي تحدث الأستاذ الدكتور يحيى محمود الساعاتي عن «تاريخ الطباعة العربية في شبه الجزيرة» فخصص حديثه بالمطبعتين اللتين

كانتا في المرحلة المدروسة وهما مطبعة صنعاء ثم مطبعة مكة المكرمة ، فوصفهما وأشار إلى تاريخ ظهورهما وأسبابه وملابساته ، والظروف التي تعرضتا لها ، والإدارة التي جاءت عليهما ، وتطورهما ، والأشخاص الذين عملوا فيهما ، وأثرهما في الحركة الفكرية والثقافية لشبه الجزيرة . وتبع البحث قائمة تحليلية بما نشرته هاتان المطبعتان .

وفي الجلسة الثالثة التي ترأسها السيد الأستاذ يوسف حسن الصابري تحدث الأستاذ الدكتور أنس خالدوف ، فتناول موضوع «تاريخ الطباعة العربية في بلاد ما وراء النهر وروسيا» وذكر أن الطباعة العربية نشأت فيما يعرف اليوم ببلاد آسيا الوسطى في الربع الأخير من القرن التاسع عشر . لكن الحكومة الروسية كانت تطبع البيانات الموجهة للمسلمين منذ عام ١٧١١ أيام القيصر بطرس الأول ، وأن الملكة كاترينا طبعت مصحفاً شريفاً في بطرسبرغ سنة ١٧٨٧م . وتحدث عن مطابع بطرسبرغ وقازان وموسكو ثم مطابع تفليس وأوفا وأورنبورغ وباغجة سراي وباكو وطشقند وبخاري ، كما تحدث عن أصحابها وعمالها وظروفها الصعبة ، وبيّن ما نشر بها من كتب ضاعت معظمها لأسباب متعددة .

عند الفترة المسائية من هذا اليوم الثاني ترأس الجلسة الأولى السيد الأستاذ أحمد جلال التدمري وحاضر فيها السيد الدكتور علي إبراهيم النملة عن «أثر المستشرقين في خدمة التراث العربي» فذكر جهودهم فيه ، وحفظهم له ، ومجالات خدمتهم ، وموقف الدارسين منهم . وقسمهم الباحث إلى أربع فئات بحسب موقفهم من تراثنا . وبيّن عوامل سبقهم لدراسة تراثنا الذي حفظوه . وأشار إلى أن اهتمامهم بهذا التراث بدأ يخف لأسباب ذكرها ، ورأى أن عملهم بتراثنا عمل انتقائي ؛ إذ اختاروا الدراسات التي تثير الجدل . وختم البحث بالدعوة إلى إجراء دراسات متخصصة بأعلام المستشرقين وأعمالهم ولا سيما الذين عاشوا في القرن التاسع عشر وما قبله .

وفي الجلسة الثانية التي ترأسها الأستاذ الدكتور يحيى محمود الساعاتي تناول الأستاذ الدكتور صلاح الدين المنجد في محاضرته بها «منهج نشر التراث العربي المخطوط في أوائل القرن الرابع عشر الهجري» نماذج من عمل ناشري التراث في نهاية القرن الثالث عشر الهجري وبداية القرن الرابع عشر في القاهرة واستانبول . ورأى أن الكتب التي نشرت في تلك المرحلة لم تكن مما يطمئن إليه البحث الأكاديمي ؛ لأنّ أولئك الناشرين لم يحافظوا على النص ، ولم يسلكوا في إخراجه المنهج العلمي ، وإن كان بعضهم قد اقترب من ذلك المنهج ومبادئه في أوائل القرن الرابع عشر .

ترأس الجلسة الأخيرة السيد الأستاذ خليفة بخيت ، وتحدث بها الأستاذ الدكتور محمود محمد الطناحي عن «تاريخ الطباعة العربية في مصر» فبدأ بمطبعة الحملة الفرنسية ، وذكر ما آلت إليه بعد ذلك مشيراً إلى أن الطباعة العربية المصرية مرت بثلاث مراحل ؛ الأولى مرحلة مطبعة بولاق ، ووصف التطورات التي مرت بها ، كما وصف كتبها . والمرحلة الثانية مرحلة مطابع إدارات الجيش والمدارس الحكومية التي قامت بعد مطبعة بولاق بعشرة أعوام ، فذكر أسماءها ، وأشار إلى مطبوعاتها . والمرحلة الثالثة مرحلة المطابع الأهلية المكملة لمرحلة بولاق ؛ ذكر منها نحو خمسين مطبعة ، تحدث عن أعمالها وأهدافها ، وانتهى بحثه بعدد من المقترحات .

وبعد هذا الاستعراض لمحاور «ندوة تاريخ الطباعة العربية حتى انتهاء القرن التاسع عشر» فإن لجنة التوصيات ترى أنها كانت من الندوات الجادة ، قدمت بحوثاً منهجية رصينة ، عالجت موضوعاً مهماً ، وجلت عنه غشاوة الإبهام ، وبينت حقائق جليلة ، وأعطت صورة متكاملة في موضوعها ، تفيد الباحثين وتخدمهم ، وأثرت ميداناً لم يكن مطروقاً بهذا الشكل من قبل .

وقد كانت هذه الندوة فرصة علمية متميزة للتواصل بين العلماء والمتخصصين من الباحثين ، مما يجعلها إحدى الندوات المفيدة الناجحة .

ونظراً لأهمية هذه الندوة واستمراراً للبحوث المطروقة فيها يوصي المجتمعون بما يأتي :

أولاً : أن تطبع البحوث المقدمة في كتاب مستقل جامع ، يشتمل على فهارس فنية وافية بعناوين الكتب الواردة في البحوث والمؤلفين المذكورين فيها وكذلك الأعلام والأمكنة والمصطلحات المستعملة وغير ذلك من الفهارس المعروفة .

ثانياً : يرى المجتمعون أن يستمر مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث في دبي والمجمع الثقافي في أبو ظبي بإقامة مثل هذه الندوة المتخصصة ، وأن يتبنيا عقد ملتقيات في إطار المحاور التي تتناول صناعة الكتاب العربي الإسلامي المطبوع والمخطوط وما يتعلق بنشره وفهرسته ونحو ذلك .

ثالثاً : يقترح المجتمعون وضع فهارس وراقية (ببليوغرافيّة) دقيقة شاملة بأسماء المطابع العربية في كل بلد من بلدان العالم ، وأخرى بمطبوعاتها حتى نهاية القرن التاسع عشر .

رابعاً : كما يقترح المجتمعون وضع فهارس وراقية (ببليوغرافيّة) تتضمن أسماء الناشرين والمصححين والمنفذين للكتب العربية حتى نهاية القرن التاسع عشر .

خامساً : هناك الكثير من الكتب طبعت على حواشي كتب أخرى وهوامشها لم يتكرر طبعها ،

فيستحسن أن تصنع لها فهارس ببليوغرافيّة لتمييزها من الكتب التي طبعت معها .

سادساً : إقرار توصية للمؤلفين والمحققين بضرورة أن تكون قوائم المراجع والمصادر التي يلحقونها بكتبهم وافية غير ناقصة ، بحيث يتبين فيها عنوان الكتاب واسم مؤلفه ومصححه ومحققه وعدد أجزائه وتاريخ طبعه والمطبعة التي أنجزته .

سابعاً : توصية دور النشر التي تصور الكتب القديمة لغرض إعادة طبعها أن تبقي على أسماء المطابع القديمة وأسماء محققيها ومصححيها وسائر أصحاب الحقوق القدامى .

ثامناً : وأخيراً يقترح المجتمعون عقد ندوة تتناول موضوع «مناهج تحقيق التراث العربي وأصولها : وصف ومقترحات» .

هذا وبالله التوفيق . .

حرر في دبي مساء ٢٩ جمادى الأولى ١٤١٦هـ
٢٣ أكتوبر ١٩٩٥م

لجنة التوصيات المنبثقة عن الندوة
الدكتور/ عباس طاشقندي
الدكتور/ عبد الرحمن فرفور
الدكتور/ قاسم السامرائي
الدكتور/ محمود الطناحي
الدكتور/ نزار أباظة

* * *

الفهرس

المقدمة .... ص ٣

(حفل الافتتاح)

■ كلمة الأستاذ عبد العزيز إسماعيل .... ص ٩
■ كلمة السيد جمعة الماجد .... ص ١٣
■ كلمة الشيخة الدكتورة سعاد الصباح .... ص ١٧
■ ذاكرة العالم : صون التراث الوثائقي .... ص ٢١

الأستاذ عبد العزيز عبيد

(بحوث الندوة)

● الطباعة العربية في أوربا .... ص ٤٥

أ.د. قاسم السامرائي

● أوائل المطبوعات العربية في تركيا وبلاد الشام .... ص ١٠٩

د. وحيد قدورة

● تاريخ الطباعة العربية في شبه القارة الهندية .... ص ١٤١

أ. مختار احمد الندوي

● تاريخ الطباعة العربية في الأمريكتين .... ص ١٥٩

أ. فوزي تادرس

● حول تاريخ الطباعة العربية في المغرب العربي خلال القرن التاسع عشر .... ص ٢٠٥

أ. د. محمد بنشريفة

● تاريخ الطباعة العربية في بلاد إيران .... ص ٢٣١

أ. د. مهدي محقق

● الطباعة في شبه الجزيرة العربية في القرن التاسع عشر الميلادي .... ص ٢٤٣

أ. د. يحيى الساعاتي

● الطباعة العربية في بلاد ما وراء النهر وروسيا .... ص ٢٩٥

أ. د. انس خالدوف

● أثر المستشرقين في خدمة التراث الإسلامي .... ص ٣٠٥

د. علي إبراهيم النملة

● منهج نشر التراث في أوائل القرن الرابع عشر الهجري .... ص ٣٣٧

أ. د. صلاح الدين المنجد

● أوائل المطبوعات العربية في مصر .... ص ٣٥٣

أ. د. محمود الطناحي

تقرير الندوة وتوصياتها .... ص ٤٣٩

التصميم الداخلي: عادل يونس

تصميم الغلاف : علي الجاك

Bibliotheca Alexandrina
0347901

المجمع الثقافي

Cultural Foundation

ص . ب . ٢٣٨٠ ـ ابوظبي ـ الامارات العربية المتحدة ـ هاتف : ٢١٥٣٠٠

P.O. BOX : 2380 - ABU DHABI - U . A . E . - TEL. 215300 - CULTURAL FOUNDATION